بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذى منّ علينا بالإسلام ، وأكرمنا بنبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وجعل آثارَه الكريمة ضالّتنا المنشودة ، والاقتداء بهَدْيِه الأهْدَى ، ونورِه الأوضحِ الأبْدَى ، غايتَنا المقصودةَ وأمنيتَنا المَوْدُودَة ، وأنعم على قلوبنا بالارتياح لذكراه والاهتزاز عند سماع خبرٍ عنه مَصْدَره أو إليه مُنْتَهاه .

وإنه لأثر رجاء فى هذه القلوب البطّالة وأثارة خيرٍ يُرْجَى ، أن يَذُودَها عن مَشارع الجهالة ومنازع الضلالة[1] ، فإن الارتياحَ للذّكر[2] شهادةُ الحُبّ وأمارة المُحِب .

وقد رَوَى عنه صلوات الله عليه نَقَلةُ السُّنة أن من أحَبّه كان معه فى الجنة .

فنسأل الله أن يكتبنا فى محبِّيه حقيقةً ، ويسلك بنا من الوقوف عند مقتَضَى[3] أوامره ونواهيه طريقةً بالسعادة خليقةً .

فما نزال طالبين ذلك من أكرم مطلوب لديه ، راغبين فيه إلى خير مرغوب إليه . وإن لم نكن أهلا للإسعاف بتقصيرنا فى الأعمال ، فإنه جل جلاله أهلُ الجود والإفضال .

---

(١) المطبوعة : أن يوردها من مشارع الجهالة الضالة ، وهو تحريف شنيع .

(٢) المطبوعة : الدنو ، وهو خطأ .

(٣) ط : مقتضيات .

ونصلى قبلُ و بعدُ على هذا النبى المبارك الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين وصحبه المتقين[١] ، خير صحب وخير آل .

وهذا كتاب ذهبت فيه إلى إيقاع الإقناع ، وإمتاع النفوس والأسماع ، باتّساق الخبر عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر نسبه ومولده وصفته ومبعثه ، وكثير من خصائصه ، وأعلام نبوته ومغازيه ، وأيامه من لدن[٢] مولده إلى أن استأثر الله به وقبض روحه الطيبة إليه ، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

مقدِّماً لذلك ما يجب تقديمه ، ومتمِّماً[٣] من ذكر أوّليّته المباركة بدأً وتحتِداً ، بما يَحْسُن عِلمُه وتعليمه ، ملخِّصاً جميعَه من كتب أئمة هذا الشأن الذين صرفوا إليه اعتناءهم ، واستنفذوا فيه آناءهم ، ككتاب محمد بن إسحاق ، الذى تولى عبدُ الملك بن هشام تقريبه[٤] واختصاره ، وكتاب موسى بن عُقْبة ، الذى استحسن الأئمةُ اقتصادَه واقتصارَه ، وغيرها من المجموعات التى لا يزيد الإنصافُ فضل[٥] جامعها ولا يذمُّ الاختبارُ اختيارَه .

ولكن مُعْظمَ المعوَّل بحكم الخاطر الأول على كتاب ابن إسحاق ، إياه أردتُ ، وتجريدَه من اللغات وكثيرٍ من الأنساب والأشعار قصدتُ ، وعلى ترتيبه غالباً جَرَيْت ، ومَنْزَعَه فى أكثر ما يخص المغازى تحرَّيْت .

---

(١) ط : المنتخبين .

(٢) المطبوعة : يوم .

(٣) ا ب ت : ومنتهيا .

(٤) ط : تهذيبه.

(٥) ا ت ط : لايديم الإنصاف قصد جامعها ، والمطبوعة : لايذأم .

فإنه الذى شَرِب ماء هذا الشأن فأنقع ، وحلّ كتابُه من نفوس الخاص والعام أجَلّ موقع .

إلا أنه تخلّله ، كما أشرنا إليه قبلُ ، أشياء من غير المغــازى تَقْدح عند الجمهور فى إمتاعه ، وتقطع بالخواطر المُسْتَجْمِعة لسماعه .

وإن كانت تلك القواطعُ عريقةً فى نَسَب العلم ، وحقيقةً بالتقييد والنَّظْم ، فعسى أن يكون لها مكانٌ هو بإيرادها أخَصّ ، إذ لـكل مقام مقال لا يحسن فى غيره الإيراد له والنّص .

ولذلك نويت فيه أن أحذف ما تخلّله من مُشْبَع الأنساب التى ليس احتياجُ كلّ الناس إليها بالضرورى الحثيث ، ونفيس اللغات المعوِّق اعتراضُها اتصالَ الأحاديث ، حتى لا يبقى إلا الأخبارُ المجرّدة ، وخلاصةُ المغازى التى هى فى هذا المجموع المقصودَةُ المعتمَدة .

ظنًّا منى أنه إن أذِن اللهُ فى تمامه ، وتكفّل تعالى بتيسير محاولته وفق المأمول وتقريب مَرَامه ، استأنفت النفوس له قبولا وعليه إقبالا ، ولم يَزِدْه هذا[1] النقصُ لدى جمهورهم إلا كمالا .

ثم بَدَا لى أن أزيد على هذا المقدار ما يَحْسُن فى هذا المضمار ، وأعوّض ما حذفتُ منه من اللغات والأنساب والأشعار ، بما يكون له إن شاء الله مزيةُ الاختيار[2] ، ويروق عليه رونق الإيثار[3] ، مُنْتقيا ذلك من الدواوين التى

(١) ا ب ت : ولم يزد له .

(٢) المطبوعة : الأخبار .

(٣) المطبوعة : الآثار .

طار لها[١] فى الناس طائرُ الاشتهار ، ومتخيِّراً له من الأماكن التى لا يستقِلُّ بحَصْرِ فوائدها وانتقاء فرائدها كلُّ مختار .

كـكتاب ابن عُقْبة ، وقد سميته ، فإنه وإن اختصره[٢] جداً فإنه أيضاً أحْسَن العبارةَ ، وأتى بمواضع من المغازى حذاها بَسْطُه وحماها اختصاره .

وسأضع على كثير منها مِيسَمه وأرسمها فى هذا المختصر على نحو ما رسمه .

وقد وقفتُ على كتاب محمد بن عمر الواقدى ، ولم يحضرنى الآن ، ولـكنى رأيته كثيراً ما يجرى مع ابن إسحاق ، فاستغنيت عنه به لفضل فصاحة ابن إسحاق فى الإيراد ، وحُسْن بيانه الذى لا يُغفَل معه استحسانُ الحديث المعاد .

وللواقدى أيضاً كتاب المَبْعَث[٣] ، وهو مُشْبِع فى بابه ، مُمتِع باستيفـائه واستيعابه ، قد نقلت هنا منه جُمَلا ، تناسب الغرض المسطور ، وتصدُّ المعترضَ أن يجور .

وكذلك كتاب الزبير بن أبى بكر القاضى[٤] رحمه الله فى أنساب قريش ، وهو كما سمعت شيخنا الخطيب أبا القاسم بن حُبَيش رحمه الله ، يَحْـكى عن شيخه أبى الحسن بن مُغِيث أنه كان يقول فيه : هو كتابُ عَجَبٌ لا كتاب نَسَب .

التقطتُ أيضاً من دُرَرِه نفائسَ مُعْجِبة ، وتخـيرت من فوائده نُخَبـا لِمُتَخَيِّرها مُوجِبة .

---

(١) ط : بها.

(٢) ا ب ت : اقتصره .

(٣) ذكره ابن النديم فى الفهرست ١٥٥

(٤) أبو عبد الله الزبير بن أبى بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبـد الله بن الزبير بن العوام ، من أهل المدينة ، توفى بمكة وهو قاض عليها سنة ١٥٦

ولا أحْسَنَ بعد كتاب الله الذى هو أحْسَنُ القَصص وأصْدَق القِصص ، وأفْضَل الحِصَص ، وأجْلَى الأشياء للغُصَص ، من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم التى بالوقوف عليها تُوجَدُ حلاوةُ الإسلام ، ويُعْرَف كيف تمهدت السُّبل إلى دار السلام .

فإنه لا يخلو الحاضرون لهذا الكتاب(١) من أن يَسْمعوا ما صنع اللهُ لرسوله فى أعداء(٢) تنزيله ، فيَسْتَجْزِلوا ثوابَ الفرح بنصر الله ، أو يستمعوا ما امتحنه الله به من المِحَن التى لا يطيق احتمالَها إلا نفوسُ أنبياء الله بتأييد الله ، فيعتبروا بعظيم ما لقيه من شدائد الخطوب ، ويصطبروا لعوارض الكروب ، تأدباً بآدابه ، وجَرْياً فى الصبر على ما يصيبهم والاحتساب لما ينوبهم على طريقة صبره واحتسابه .

وتلك غايات لن نَبْلغ عَفْوها بجهدنا ، ولن نَصِل أدانيها(٣) بنهاية رَكْضِنا وشَدِّنا ، وإنما علينا بذلُ الجهد فى قصد الاهتداء ، وعلى الله سبحانه وتعالى المعونةُ فى الغاية والابتداء .

وإذا استوفَيْتُ بفضل الله طَاقَ هذا المعنى كما نويت ، وبَلَغْتُ حاجةَ نفسى منه وقَضَيْت ، فلى نيةٌ ، إنْ ساعَدَت المشيئةُ عليها ، فى أن أصِلَ هذا الغرض المتقدم ، من ذكر مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بذكر مغازى الخلفاء الثلاثة الأُوَل ، رضى الله عنهم ، مُنْتَحِلا على رجاء معونة الله أسبابَها ، ومُنْتَخِلاً من كتاب شيخنا الخطيب أبى القاسم رحمه الله تعالى ، ومن غيره مما هو فى نحو معناه ، صَفْوَها ولبابَها ، لتنتظم الفائدتان معا ، ويكون الخبر عن مغازى

(١) المطبوعة : الناظرون فى هذا الكتاب
(٢) المطبوعة : إعداد ، وهو خطأ
(٣) المطبوعة : أدناها

رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى خلفائه ، الذين يهدّيهم الائتمامُ ، فى مكانٍ واحد مجتمعا .

وأرجو بحَوْل الله الذى له الطَّوْلُ وبيده القوةُ والحَوْل ، أن يكون هذا المجموع كافياً فى البابين ، وافياً بالغرضين المُتَنَابَيْن[1] ، ولذلك ترجمته بكتاب : « الاكتفا بمـا تضمنه من مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومغازى الثلاثة الخلفا » .

وفضلُه جل جلاله نِعْم الـكفيلُ أن يَجْزِى به خيرَ الجزاء ، ويجعله من عُدَدِنا النافعة يومَ اللقاء ، فهو عزّ وجهه الملجأُ والمعوّل ، وبه أستعين وعليه أتوكل ، لا إله إلا هو سبحانه ، هو حسبى وإليه أنيب .

---

(١) ا : المتباينين

ذكرُ نسب رسول الله

صلى الله عليه وعلى وآله وسلم تسليما

وكيف طهّره الله نَفْساً وخِيما[1] وشرّفه حديثاً وقديماً ، وألقى إلى آبائه الأقدمين من الدلائل على اصطفائه إياه فى الآخرين ، وابتعائه له رحمـــة للعالمين ، ما صيّره لديهم قبل وجوده بطوائل السنين معلوما

فى الصحيح من حديث واثِلَة بن الأسْقَع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كِنانة ، واصطفى من بنى كِنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

وفى حديث عن عبد الله بن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم يَزَل اللهُ عز وجل ينقلنى من الأصْلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، صَفِيًّا مُهذَّبا ، لا تتشعّبُ شُعْبتان إلا كنت فى خيرهما » .

وخرّج أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، من حديث المطَّلب بن أبى وَدَاعة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال : « من أنا ؟ » فقالوا : « أنت رسول الله عليك السلام » قال : « أنا محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم فِرْقة ، ثم جعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خيرهم

(١) الخيم بالكسر : السجية والطبيعة

فِرْقة ، ثم جعلهم قبائل ، فجعلنى فى خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً ، فجعلنى فى خيرهم بيتا وخيرهم نفسا » .

وفى رواية : « فأنا خيرهم نَفْسا ، وخيرهم بيتا[1] » .

وصدَق صلى الله عليه وسلم ، والصدق شِيمتُه ، وفوقَ العالمين طُرًّا قَدْرُه الرفيعُ وقيمته ، هو أشرفهم حسَبا وأفضلهم نسبا وأكرمهم أمًّا وأبًا .

هو محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطّلب ، بن هاشم ، واسمه عمرو ، بن عبد مناف ، واسمه المغيرة ، بن قصى ، واسمه زيد بن كِلاَب ، بن مُرَّة ، بن كعب ، بن لُؤَىّ ، ابن غالب ، بن فِهر ، بن مالك ، بن النَّضر ، بن كنانة ، بن خُزَيمة ، بن مُدْرِكة ، ابن اليَاس[2] ، بن مُضَر ، بن نِزَار ، بن مَعَدّ ، بن عَدْنان .

هذا الصحيح المُجْمَع عليه فى نسبه ، وما فوق ذلك مختلَف فيه .

ولا خلاف فى أن عدنان مِنْ ولد إسماعيل نبى الله ، بن إبراهيم خليل الله ، عليهما السلام ، وإنما الاختلاف فى عَدَد مَن بَيْن عدنان و إسماعيل من الآباء . فمُقَلِّلٌ ومُكَثِّرٌ .

وكذلك مِن إبراهيم إلى آدم عليهما السلام ، لا يَعلم ذلك على حقيقته إلا اللهُ .

رُوى عن ابن عباس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا انتهى إلى عدنان

---

(١) ط : من خيرهم بيتا

(٢) الألف واللام فيه زائدتان وهما داخلتان على المصدر الذى هو اليأس وقد تسهل همزته الثانية فيقال فيه الياس ، ويجوز أن تكون همزته قطعاً كما ذكر ابن دريد فى الاشتقاق ، من قولهم : رجل أليس من قوم ليس .

أمسك ثم يقول : « كذب النسابون » قال الله تعالى : « وقروناً بين ذلك كثيراً[1] » .

ومن عدنان تفرقت القبائل مِنْ وَلدِ إسماعيل .

[أولاد عدنان]

فولد عدنانُ رجلين : مَعَدّ بن عدنان ، وعَكّ بن عدنان ، رحمة الله عليهما .

فصارت عَكّ في دار اليمن ، لأن عَكاً تزوّج في الأشعريين منهم وأقام فيهم ، فصارت الدار واللغة واحدة .

والأشعريون هم بنو أشعَر بن نابت ، بن أدَد ، بن زيد بن الهَمَيْسع ، بن عمرو ، ابن عَرِيب ، بن يَشْجُب ، بن زيد ، بن كهلان ، بن سبأ ، بن يَشْجُب بن يَعْرب ، ابن قحطان .

وقحطان هو عند جمهور العلماء بالنسب أبو اليمن كلّها ، وإليه يجتمع نسبها ، والعرب كلها عندهم مِن ولد إسماعيل وقحطان .

و بعض اليمن يقول : قحطان من ولد إسماعيل ، و إسماعيل أبو العرب كلها . والله أعلم .

وأما مَعَدّ ، فذكر الزبير بن أبي بكر رحمه الله ، أن بُخْتَنَصّر لمّا أمر بغزو بلاد العرب و إدخال الجنود عليهم فيها ، وقَتْل مقاتلتهم لانتهاكهم معاصي الله ، واستحلالهم محارمه وقتْلهم أنبياءه ، وردّهم رسالاته ، أمَر أرميا بن حلقيا ، وكان فيما ذُكر نبيّ بني إسرائيل في ذلك الزمان : أن ائتِ مَعَدّ بن عدنان الذي مِن ولده محمد خاتَم النبيين ، فأخرِجه عن بلاده واحمله إلى الشام ، وتَوَلّ أمره قِبلك .

---

(١) سورة الفرقان ٣٨

ويقال : بل المحمولُ عدنان ، والأول أكثر .

وفى حديث عن ابن عباس ، أن الله بعث مَلَكين ، فاحتملا معَدًّا ، فلما أدبَرَ الأمرُ ردّاه فرجع إلى موضعه من تِهامة ، بعدما دفع اللهُ بأسه عن العرب ، فكان بمكة ونواحيها مع أخواله من جُرْهم ، وبها منهم بقية هم ولاة البيت يومئذ ، فاختلط بهم وناكحهم[1] .

[أولاد معد بن عدنان]

فولَد مَعَدُّ بن عدنان نفراً ، منهم قُضَاعة ، وكان بِكْرَه الذى به يُكْنَى فيما يزعمون ، وقَنَص ، ونزارٌ ، وإياد .

فأما قُضَاعة فتيامنت إلى حِمْيرَ بن سبأ وانتمت إلى ابنه مالك بن حِمْير ، حتى قال قائل منهم يفخر بذلك :

نحنُ بنو الشَّيخ الهِجَان الأزْهَرِ[2]
قُضَاعةَ بن مالك بن حِمْيَرِ
النَّسَبُ المعروفُ غيرُ المنكَرِ

وأنكر كثير من الناس متهام[3] هذا ، وجرت بينهم وبين من قال به من القضاعيين فى ذلك أقاويل معروفة وأشعار محفوظة .

قال الزُّبير : ولم يُجْمِع رَأْيُ قُضَاعة على الانتساب فى اليمن ، بل أهلُ العلم منهم والدِّينِ مقيمون على نسبهم فى مَعَدّ .

وأما قَنَصُ بن معد ، فهلكت بقيتهم فيما زعموا ، وكان منهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

(١) الطبرى وتاريخ ابن خلدون ٢/٢٩٩
(٢) الهجان : الرجل الحسيب . والأزهر : المشرق الوجه
(٣) ت : منتهاهم

واحتج من قال ذلك بأن عمر رضى الله عنه حين أُتِىَ بسيف النعمان بن المنذر ، دعا جُبَيْرَ بن مُطْعِم بن عَدِى بن نَوْفل بن عبد مناف بن قُصَى ، فسلَّحه إياه ، ثم قال : ممن كان يا جبيرُ النعمانُ بن المنذر ؟

فقال : كان مِن أشْلاَء⁽¹⁾ ، قَنَص بن معد .

وكان جُبَير أنسَبَ قريشٍ لقريشٍ والعربِ قاطبةً ، وكان يقول : إنما أخذنا النَّسب من أبى بكر الصديق .

وكان أبو بكر رضى الله عنه أنسَبَ العرب .

وقد قيل فى نسب النعمان غيرُ ذلك ، مما سيأتى ذكره عند تأدية الحديث إليه . إن شاء الله تعالى .

* * *

وقد ذُكر أيضاً فى بنى معد الضحاكُ بن معد .

ذكر الزبير بإسناد له إلى مكحول قال: أغار الضحاك بن معد على بنى إسرائيل فى أربعين رجلا من بنى معد ، عليهم دَرَاريعُ الصوف خاطِمى خيلهم بحبال الليف ، فقتلوا وسَبَوا وظفروا ، فقالت بنو إسرائيل: يا موسى ، إن بنى معد أغاروا علينا ، وهم قليل ، فكيف لو كانوا كثيرا وأغاروا علينا وأنت بيننا ؟ ! فادْعُ الله عليهم .

فتوضأ موسى وصلَّى ، وكان إذا أراد حاجة من الله صلَّى ، ثم قال : يارب إن بنى معـد أغاروا على بنى إسرائيل فقتـلوا وسَبَوا وظفروا ، وسألونى أن أدعوك عليهم .

---

(١) الأشلاء : البقايا .

فقال الله : يا موسى لا تَدْعُ عليهم ، فإنهم عبادى وإنهم ينتهون عند أمرى ، وإن فيهم نبيًّا أحبه وأحب أمته .

فقال : يارب ، ما بلغ من محبتك له ؟

فقال : أغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال : يارب ما بلغ من محبتك لأمته ؟

قال : يستغفرنى مستغفرهم فأغفر له ، ويدعونى داعيهم فأستجيب له .

قال : يارب فاجعلهم من أمتى

قال : نبيهم منهم .

قال : يارب فاجعلنى منهم .

قال : تقدمْتَ واسْتَأخروا .

قال الزبير : وحدثنى على بن المغيرة قال : لما بلغ بنو مَعَدّ عشرين رجلا أغاروا على عسكر موسى عليه السلام ، فدعا عليهم فلم يُجَبْ فيهم ، ثم أغاروا ، فدعا عليهم فلم يُجَبْ فيهم ، ثلاث مرات .

فقال : يارب ، دعوتك على قومٍ فلم تجبنى فيهم بشىء .

فقال : ياموسى ، دعوتنى على قومٍ منهم خِيرتى فى آخر الزمان[1] .

* * *

وأما نِزَار بن مَعد ، واسمه مشتق من النَّزْر وهو القليل ، فيقال : إن أباه معدًّا

---

(١) خيال خصب وضع هذه الأسطورة ، والله لايحابى قوما على قوم ، وقد كان موسى عليه السلام مبشراً بمحمد صلى الله عليه وسلم وعارفا به ، فكيف يسأل هذا السؤال وكيف يجاب بهذا الجواب !!

لما وُلد له نظر إلى نور بين عينيه ، ففرح لذلك فرحاً شديداً ، ونحر وأطْعَم ، وقال : إن هذا كله لَنَزْرٌ فى حق هذا المولود .

وما كان الذى رآه إلا نورَ النبوة ، الذى لم يَزَلْ ينتقل فى الأصلاب ، حتى انتهى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فطبّق الأرضَ نوراً ، وهدَى اللهُ به من أراد سعادته من عباده ، صراطاً مستقيما .

وكل هذه الأنوار والآثار شاهِدَةٌ له ، عليه السلام ، بعظيم عناية الله ، وكرم المكانة عنده ، فلم تزَلْ بركاتُه ، صلى الله عليه وسلم ، متعرّفةً فى آبائه الماضين ، وظاهرةً على أسلافه الأكرمين ، تشير المخايلُ اللائحة فيهم إليه ، وتدل الدلائل الواضحة فى أوّليتهم عليه ، صلوات الله و بركاته عليه .

[أولاد نزار بن معد]

فولَد نِزارُ بنُ مَعَدّ مُضرَ وربيعة وأنماراً وإياداً ، و إليه دفع أبوحِجابةَ الكعبة فيما ذكر .

وأمهم سَوْدَة بنت عَكّ بن عدنان .

وقيل هى أم مُضَر خاصة ، وأم إخوته الثلاثة أختها شقيقة ابنة عَك بن عدنان .

وقد قيل : إن إياداً شقيق لمضر ، أمهما معاً سَودةُ .

فأنمار هو أبو بَجيلَة وخَثْعم ، وقد تَيامنَتْ بَجيلة إلا من كان منهم بالشام والمغرب فإنهم على نسبهم إلى أَنْمار بن نزار .

وجريرُ بن عبد الله صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سادات بَجيلة وله يقول القائل :

لولا جريرٌ هلكَتْ بَجيلهْ نعم الفتى وبئست القبيلهْ

وكذلك تيامنت الدارُ أيضاً بخثعم ، وهم بنو أَنْمَار بن أَنْمَار ، وإنما خَثْعم جَبَلٌ تحالفوا عنده فسُمُّوا به ، وهم بالسَّراة على نسبهم إلى أنمار .

وإذا كان بين مضر واليمن فيما هنالك حربٌ ، كانت خَثْعم مع اليمن على مُضر .

* * *

ويروى أن نِزاراً لما حضرته الوفاة ، قسَّم ماله بين بنيه الأربع ، مُضَرَ وربيعةَ وإيادٍ وأَنْمارٍ .

فقال : هذه القبةُ ـ لقبةٍ كانت له حمراء من أدم ـ وما أشبَهها من المال لمُضر ، وهذا الخِباء الأسود وما أشبهه لربيعة . وهذه الخادم ـ وكانت شمطاء ـ وما أشبهها لإياد . وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه .

وقال لهم : إنْ أشكَل عليكم الأمرُ فى ذلك واختلفتم فى القسمة ، فعليكم بالأفعى الجُرْهمى . وكان بنجران .

فاختلفوا بعده وأشكل أمرُ القسمة عليهم ، فتوجهوا إلى الأفعى . فبينما هم فى مسيرهم إليه إذ رأى مُضرُ كلأً قد رُعى ، فقال : إن البعير الذى رَعى هذا لأَعْور .

فقال ربيعة : وهو أزْوَر . وقال إيادٌ : وهو أبْتَر . وقال أنمار : وهو شَرُود .

فلم يسيروا إلا قليلا ، حتى لقيهم رجلٌ تُوضع به راحلته ، فسألهم عن البعير ، فقال مضر : أهو أعور ؟ قال نعم . قال ربيعة : أهو أزْوَر ؟ قال : نعم . قال إياد : أهو أبتر ؟ قال نعم . قال أنمار : وهو شرود ؟ قال : نعم ، هذه والله صفة بعيرى ، دلونى عليه .

فحلفوا له ما رأوه . فلزمهم وقال : كيف أصدقكم وأنتم تَصِفون بعيرى بصفته ؟!

فساروا حتى قدموا نَجْران ، فنزلوا بالأفعى الجُرْهمى فنادى صاحبُ البعير يقول: بعيرى ، وصَفوا لى صفته ، ثم قالوا : لم نَرَه !

فقال لهم الأفعى : كيف وصفتموه ، ولم تروه ؟

فقال له مُضر : رأيته يرعى جانبا ويَدَع جانبا فعرفت أنه أعْوَر .

وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثرة ، فعلمت أنه أفسدها لشدة وَطْئه لازوراره .

وقال إياد : عرفتُ بَتَره باجتماع بَعْره ، ولو كان ذيَّالاً لمصع[1] به .

وقال أنمار : عرفت أنه شرود ، أنه كان يرعى فى المكان الملتف نَبْتُه ، ثم يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث .

قال الشيخ : ليسوا بأصحاب بعيرك ، فاطلبه .

ثم سألهم من هم ؟

فأخبروه ، فرحب بهم وقال : تحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى !

فدعا لهم بطعام ، فأكلَ وأكلوا وشربَ وشربوا .

فقال مضر : لم أرَ كاليوم خمراً أجْوَد لولا أنها نبتت على قبر .

وقال ربيعة : لما أرَ كاليوم لحما أطيب لولا أنه رُبى بلبن كلبة .

وقال إياد : لم أرَ كاليوم رجلا سَرِّيًّا[2] لولا أنه ليسَ لأبيه الذى يُدْعى له .

وقال أنمار : لم أرَ كاليوم كلاماً أنفعَ فى حاجتنا .

وسمع صاحبُهم كلامَهم ، فقال : ما هؤلاء ؟ ! إنهم لشياطين .

---

(١) مصعت الدابة بذنبها حركته وضربت به .

(٢) ط : أسرى .

ثم أتى أمّه ، فسألها ، فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا يولَد له ، فكرهت أن يذهب المُلك ، فأمكنت رجلا نزل بهم من نفسها ، فوطئها ، فجاءت به .

وقال للقهرمان : الخمر التى[1] شرِبناها ما أمرها ؟

قال : من حُبْلَةَ[2] غرستها على قبر أبيك .

وسأل الراعى عن اللحم ، فقال : شاة أرضعناها من ابن كلبة ، ولم يكن وُلد فى الغنم غيرها .

فأتاهم ، فقال : قُصّوا علىّ قصتكم .

فقَصّوا عليه ما أوصى به أبوهم ، وما كان من اختلافهم .

فقال : ما أشبه القبة الحمراء مِن مالٍ فهو لمضر .

فصارت إليه الدنانير والإبل ، وهى حُمْر ، فسميت مُضَرُ الحَمْرَاء .

قال : وما أشبه الخباء الأسود من دابةٍ ومالٍ فهو لربيعة .

فصارت له الخيل ، وهى دُهْم ، فسمى ربيعة الفَرَس .

قال : وما أشبه الخادمَ ، وكانت شمطاء ، من مال فيه بَلق ، فهو لإياد .

فصارت له الماشية البُلْق .

وقضى لأنمار بالدراهم والأرض .

فساروا من عنده على ذلك .

وكان يقال : مضر وربيعة هما الصريحان من ولد إسماعيل .

---

(١) الأصول : الذى

(٢) الحبلة : الكرمة

وروى ميمون بن مهران ، عن عبد الله بن العباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تسبُّوا مضرَ وربيعة فإنهما كانا مسلمَيْن .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه : « إذا اختلف الناس فالحقُّ مع مُضر » .

وسمع عليه الصلاة والسلام قائلا يقول :

إنى امرؤٌ حِمْيَرِىٌّ حين تَنْسُبُنى ... لا مِنْ ربيعةَ آبائى ولا مُضَرَا

فقال صلى الله عليه وسلم : ذلك أبْعَدُ لك من الله ومن رسوله .

ومما يؤثر من حِكم مُضر بن نِزار ووصاياه : من يزرع شَرًّا يحصد ندامة ، وخير الخير أعْجَلُه ، فاحملوا أنفسَكم على مكروهها فيما أصلحكم ، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فُوَاقٍ[1] .

[أولاد مضر

فولَد مضرُ بن نزار رجلين : ألياس بن مضر ، وعَيْلان[2] بن مضر .

قال الزبير : وأمهما الحَنْفاء بنت إياد بن معد .

وقال ابن هشام : أمهما جُرْهمية .

ولما أدرك ألياس بن مضر ، أنكر على بنى إسماعيل ما غيروا من سُنَن آبائهم وسيرتهم[3] ، وبان فضلُه عليهم ولان جانبُه لهم ، حتى جمعهم رأيُه ، ورضوا به رِضاً لم يرضوه بأحد من ولد إسماعيل بعد أدد[4] .

---

(١) الفواق : هو الوقت بين الحلبتين .
(٢) هامش ا : قال بعضهم : ليس فى كلام العرب عيلان بالمهملة إلا هذا .
(٣) ط : وسيرهم .
(٤) كذا فى ط . وبقية الأصول : بعده . وأدد من أولاد إسماعيل.

فردَّهم إلى سُنن آبائهم ، حتى رجعت سُنَّتهم قائمة على أولها .

وهو أول من أهدى البُدْن إلى البيت ، أو فى زمانه .

وأولُ من وضع الركنَ للناس بعد هلاكه ، حين غرق البيت وانهدم زمنَ نوحٍ عليه السلام .

فكان أول من سقط عليه ألياس ، أو فى زمانه ، فوضعه فى زاوية البيت للناس .

ومن الناس من يقول : إنما هلك الركنُ بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهو الأشبه ، إن شاء الله .

ولم تبرح العرب تعظِّم ألياس بن مضر تعظيمَ أهل الحكمة ، كلقمان وأشباهه .

[أولاد ألياس بن مضر]

فولد ألياس بن مضر ثلاثة نفر : مُدْرِكة ، وطابخة ، وقَمَعَة .

وأمهم خِنْدِف بنت حُلوان بن عمران بن الحافِ بن قُضَاعة ، واسمها ليلى ، واسم مدركة عامر ، واسم طابخة عمرو ، واسم قمعة عُمَير .

وإنما حالت أسماؤهم إلى الذى ذكرنا أولا عنهم ، فيما ذكروا ، أن أرنبًا أنفَرَت إبلَ ألياس بن مُضَر ، فصاح ببنيه هؤلاء أن يطلبوا الإبل والأرنب .

فأما عمير فاطَّلع من المظلة ثم قَمع . فسمى قَمَعَة .

وخرج عامر وعمرو فى آثار الإبل ، وخرجت أمهم ليلى تسعى خلفهم .

فقال لها زوجها ألياس : أين تخندِفين ؟ أى أين تسْعين . فسميت خِنْدِف .

ومرّ عامر وعمرو بظبي ، فرماه عمرو فقتله ، ويقال : بل رمى الأرنب التى

أنفرت الإبل ، فقال له عامر : اطبخ صيدَك ، وأنا أكفيك الإبل . فطبخ عمرو ، فسمى طابخة .

وأدرك الإبلَ عامر ، فسمى مُدْرِكة .

واشتهر بنو خِنْدِف هؤلاء بأمهم خندف للذى سار مِن فِعلها فى الناس .

وذلك أنه لما مرض زوجها ألياس وجدت لذلك وَجْداً شديداً ، ونذرت إنْ هلك ألاَّ تقيم فى بلد مات فيه ، ولا يُظلّها بيتٌ بَعْدَه ، وأن تسيح فى الأرض . وحرَّمت الرجالَ والطيب .

فلما هلك ألياس خرجت سائحةً فى الأرض حتى هلكت حزناً .

وكانت وفاته يوم الخميس ، فكانت كلما طلعت الشمس من ذلك اليوم تبكيه حتى تغيب ، فصارت خندف وماصنعت عجَباً فى الناس ، يتحدثون به و يذكرونه فى أشعارهم .

فقيل لرجل من إياد ، أو هَمْدان ، وقد هلكت امرأته : ألا تبكى عليها ؟

فقال : لو كان ذلك يردُّها لفعلتُ كما فعلت خندف على ألياس .

ثم اندفع يقول :

فلو أنه يُغنِى بكيتُ كخِندفٍ على ألياس حتى مَلَّها الشرُّ تندُبُ
إذا مؤنسٌ لاحت خراطِيمُ شمسه بكتْ غدوةً حتى ترى الشمس تغربُ
ولم تر عيناها سوى الدفْنِ قبره فساحَتْ وما تدرى إلى أين تذهبُ
فلم يُغْنِ شيئاً طولُ ما بلغَتْ به وماطَلَها دهرٌ وعيشٌ معذَّبٌ

وفقدت امرأةٌ من غَسّان أخاها ثم أباها ، فمكثت دهراً تبكى عليهما ، فنهاها قومُها ، فقالت :

تَنْحُون سَلْمَى أن بَكَتْ أباهــــا
وقبلُ ما قد ثَــكِلَتْ أخاهــــا
فحَوِّلوا العَذْل إلى سواهــــا
عصتــكمُ سَلْمَى إلى هواهــــا
كما عصت خِندفُ مَنْ نهاهــــا
خلّت بَنِيها أسفًا وراهــــا
تبــكى على ألياسَ فما أتاهــــا

[أولاد مُدْرِكة]

فولد مُدْرِكة بن ألياس نفرا[1] ، منهم خُزَيمة بن مُدْرِكة ، وهُذَيل بن مُدْرِكة .

وأمهما امرأة من قُضَاعة ، قيل هى سلمى بنت سُوَيد[2] بن أسْلَمَ بن الحاف بن قُضَاعة . وقيل غير ذلك .

[أولاد خُزَيمة]

فولد خُزَيمة بن مُدْرِكة كِنانة وأسَدا وأسَدَة والهون .

وأم كنانة اسمها[3] عَوانة بنت سعد بن قيس بن عَيْلان بن مُضر . وقيل هند بنت عمرو بن قيس بن عَيْلان . قرأتُه بخط أحمد بن يحيى بن جابر .

---

(١) ابن هشام : رجلين خزيمة ...
(٢) ط : بنت سود .
(٣) ط : وأم كنانة منهم عوانة .

وأم سائر بنيه بَرّة بنت مُرّ أخت تميم بن مُرّ بن طابخة .

[أولاد كِنانة]

فولد كِنانة بن خُزَيمة جماعة منهم : النَّضْر ، وبه كان يُكنَى ، ونُضَير ، ومالكٌ ، وملكان ، وعمرو ، وعامر . وأمهم بَرّة بنت مُرّ ، خلَف عليها كِنانةُ بعد أبيه خُزَيمة ، على ما كانت الجاهلية تفعله ، إذا مات الرجل خلَف على زوجته بعده أكبرُ بنيه من غيرها . فنهى اللهُ عن ذلك بقوله : « ولا تنكِحُوا ما نكحَ آباؤُكم مِنَ النساء إلا ما قد سلَف[1] » .

ويقال إن برة هذه ، لما أهديت أولا إلى خزيمة بن مدركة ، قالت له : إنى رأيت فى المنام كأنى ولدت غلامين من خلافٍ بينهما سابِياء[2] ، فبينا أنا أتأملهما إذا أحدهما أسد يَزْأر وإذا الآخر قمر يدير .

فأتى خزيمةُ كاهنةً بتهامة ، فقص عليها الرؤيا ، فقالت لئن صدقت رؤياها لتلِدَنّ منك غلاما يكون لِوَلده قلوبٌ باسلةٌ ، ثم لتموتَنّ عنها فيخلف عليها ابنٌ لك ، فتلد منه غلاما يكون لولده عزٌّ وعدد وقروم تَمجد وعز إلى آخر الأبَدْ .

ثم توفى خزيمة ، فخلف عليها كنانة بعد أبيه ، فولدت له النضر وإخوته .

وإنما سمى النَّضْر ، لنضارة وجهه وجماله .

وأُتِى أبوه كنانةُ بن خزيمة وهو نائم فى الحِجْر ، فقيل له : تخيَّر يا أبا النضر بين الصهيل والهَدْر وعِمارة الجُدُر وعزّ الدهر .

فقال : كلٌّ يارب .

---

(١) سورة النساء ٢٢ .

(٢) السابياء : المشيمة التى تخرج مع الولد .

فصار هذا كله فى قريش .

والنَّضْر هو جماع قريش فى قول طائفة من أهل العلم بالنسب ، والأكثر على أن فِهْر بن مالك بن النَّضْر هو قريش .

من كان من ولده فهو قُرَشى ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى .

وذكر الزُّبير أن هذا هو رأى كل من أدرك من نُسَّاب قريش .

[أولاد النَّضْر بن كِنانة]

فولَد النَّضْر بن كنانة مالكا ، ويَخْلد ، والصَّلْت(١) .

فولد مالكٌ فِهْر بن مالك . وأمه جَنْدلة بنت الحارث بن جندل بن عامر بن سعيد بن الحارث بن مُضَاض الجُرْهى . وهو جِماع قريش عند الأكثر .

قال الزبير : قد اجتمع النُّسَّابُ من قريش وغيرهم أن قريشا إنما تفرقت عن فِهْر . ويقال : إن قريشاً هو اسمه الذى سمّته به أمه ، ولقّبته فِهراً .

[أولاد فهر بن مالك]

فولَد فِهْرُ بن مالك غالباً ومحارِباً والحارث وأسداً ، وأختهم جَنْدَلة . وأم جميعهم ليلى بنت سعد بن هُذَيل بن مُدْركة .

ولما حضرت الوفاةُ فِهرَ بن مالك ، قال لابنه غالب : يابنى ، إن فى الحُزْن(٢) إقلاق النفوس قَبْل المصائب ، فإذا وقعت المصيبة بَرُدَ حرُّها ، وإنما القلق فى غَلَيانها ، فإذا أنا مِتُّ فبَرِّدْ حرَّ مصيبتك بما ترى من وَقْع المنية أمامَك وخلفك ،

---

(١) لم يذكره ابن هشام واقتصر على الأولين .

(٢) ط : الحذر .

وعن يمينك وعن شمالك ، وبما ترى من آثارها فى مُحِيِّ الحياة ، ثم اقتصر على قليلك ، وإن قلّت منفعته ، فقليلُ ما فى يدك أغْنَى لك مِنْ كثيرٍ ما أخْلَقَ وَجْهَك وإن صار إليك .

[أولاد غالب بن فهر]

فولَد غالب بن فهر لُؤَيًّا وتَيْمًا[1] ، وهو الأدْرَم ، كان منقوصَ الذقن .

ويقال لقومه بنو الأدْرَم .

وأمهما فى قول ابن اسحق ، سَلْمى بنت عمرو الخُزَاعى .

وفى قول الزبير عاتِكةُ بنت يَخْلد بن النَّضْر .

وروى أن لُؤَىَّ بن غالب قال لأبيه ، وهو غلام حديث : يا أبت ، مَن رَبَّ معروفَه قلّ إخلاقه ، ونَضُر ماؤه . ومن أخْلَقَه أخْمَله ، وإذا أخْمِل[2] الشىء لم يُذكر ، وعلى المولَى تـكبيرُ صغيرِه ونشرُه ، وعلى المولِى تصغيرُ كبيره وسَتْرُه .

فقال له أبوه غالب : إنى لأستدلُّ بما أسمع من قولك على فضلك ، وأستَدْعى لك به الطَّوْلَ على قومك ، فإن ظفرتَ بطَوْلٍ فمُدَّ على قومك بفضلك ، وكُفَّ غَرْبَ جهلهم بحلمك ، والُمَّ شَعَثهم برفقك ، فإنما تَفْضُل الرجالُ الرجالَ بأفعالها ، ومن قايسها على أوزانها أسقط الفضلَ ولم تَعْلُ به درجة على أحد ، ولِلعُلْيا فضلٌ أبداً على السُّفلى .

[أولاد لُؤَى بن غالب]

فولَد لُؤَىُّ بنُ غالب كعبًا ، وعامرا ، وسامة ، وعوفا ، وسعدا ، وخزيمة[3] .

---

(١) زاد ابن هشام : وقيس بن غالب وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعى .

(٢) ط : وإذا أخلق .

(٣) قال ابن هشام :ويقال : والحارث بن لؤى .

فدخل بنو خزيمة فى شيبان ، ويسمون فيهم بعائذة ، وهى امرأة من اليمن ، كانت أم بنى عُبيد بن خزيمة فنُسبوا إليها .

وكذلك دخل بنو سعد أيضاً فى شَيْبان ، ويسمّون فيهم ببُنانة حاضنة كانت لهم من قُضاعة ، وقيل من النَّمِر بن قاسط ، فنُسبوا إليها .

وأما سامة بنُ لُؤَى ، فخرج إلى عُمَان ، ويزعمون أن عامرَ بن لؤى أخرجه .

وذلك أنه كان بينهما شىء ، ففقأ سامةُ عينَ عامر ، فأخافه عامر ، فخرج إلى عُمَان .

فيزعمون أن سامة بن لؤى بينا هو يسير على ناقته ، إذ وضعت رأسها تَرْتع ، فأخذت حية بِمشفَرها ، فهصرتْها حتى وقعت الناقة لشِقّها ، ثم نهشت ساقَه[1] فقتلته . فقال سامةُ حين أحس بالموت ، فيما يزعمون :

عينُ فابكى لسامةَ بنِ لُؤىّ ... عَلِقَتْ ما بسامةَ[2] العَلاَّقَهْ

لا أرى مثلَ سامةَ بن لؤىّ ... يومَ حَلُّوا به قتيلاً لناقَهْ

بلِّغا عامراً وكعباً رسولاً ... أن نفسى إليهما مشتاقَهْ

إن تكن فى عُمَان دارى فإنى ... غالبىٌّ خرجتُ من غير فاقه[3]

رُبَّ كأسٍ هرقتَ يابن لُؤىّ ... حذَر الموت لم تكن مُهْرَاقَه

رُمْتَ دَفْعَ الحتوف يابنَ لُؤىّ ... ما لمن رامَ ذاك بالحَتْفَ طاقه

وخَرُوسِ السُّرى[4] تركتَ رَدِيًّا ... بعد جِدٍّ وحِدَّةٍ ورشاقَهْ

---

(١) ابن هشام : سامة .
(٢) الأغانى : علقت ساق سامة .
(٣) ابن هشام : من غير ناقة ، وما هنا أصح .
(٤) خروس السرى : ناقة صموت صابرة .

قال ابن هشام : وبلغنى أن بعض ولده أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فانتسب إلى سامةَ بن لؤى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَلشاعر ؟ فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قولَه :

رُبَّ كأسٍ هرقتَ يا بنَ لؤىٍّ حـــذر الموت لم تـكن مهراقه

قال : أجل .

* * *

قال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤى ، فإنه خرج فيما يزعمون فى ركب من قريش ، حتى إذا كان بأرض غَطفان بن سعد بن قيس بن عَيْلان أبطىء به ، فانطلق من كان معه من قومه ، فأتاه ثعلبة بن سعد[1] بن ذُبْيان بن بغيض ابن رَيْث بن غطفان ، فحبسه والتاطه وآخاه وزوّجه ، فانتسب بتلك المؤاخاة إلى سعد بن ذُبْيان أبى ثعلبة .

وثعلبة ، يزعمون ، هو القائل له :

احبسْ علىَّ ابنَ لؤىٍّ جَملكْ
تَرَكَكَ القـــومُ ولا مَتْرَكَ لكْ[2]

ويروى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال : لو كنتُ مُدَّعِياً حَيًّا من العرب أو مُلْحِقَهم بنا لا دَّعيتُ بنى مُرّة بن عوف ، إنا لَنعرف منهم الأشباه مع ما نعرف من مَوْقِـع ذلك الرجل حيث وقع . يعنى عوف بن لؤى .

---

(١) ابن هشام ، وهو أخوه فى نسب بنى ديان .
(٢) ابن هشام ولا منزل .

وهو فى نسب غطفان مرةُ بن عوف بن سعد بن ذُبْيان ، وهم يقولون إذا ذكر لهم هذا النسب : ما ننكره ولا نجحده ، وإنه لأحبُّ النَّسب إلينا .

وقيل : إن عمر بن الخطاب قال لرجال من بنى مرة : إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه . وكان القوم أشرافا فى غَطفان هم سادتهم وقادتُهم ، منهم هَرِم بن سِنان بن أبى حارثة ، وأخوه خارِجةُ بن سِنان ، والحارث بن عوف ، والحُصَين بن الحُمام ، وهشام بن حرملة ، قومٌ لهم صِيت وذِكْرٌ فى غطفانَ وقيسٍ كلها ، فأقاموا على نسبهم .

على أن الحُصَيْنَ بن الحُمام قد تحيَّر فى هذا واختلف رأيه ، فلما سمع قولَ الحارث بن ظالم ، أحد بنى مُرَّة بن عوف ، حين هرب من النعمان بن المنذر ولحق بقريش :

وما[1] قَوْمِى بثعلبةَ بنِ سَعْدٍ ولا بِفَزارةَ الشُّعرِ[2] الرقابَا
فقَوْمى[3] إنْ سألتَ بنو لُؤَىٍّ بمكةَ علَّموا مُضَرَ الضِّرابَا
سَفِهْنَا باتِّباعِ بنى بَغيضٍ وتَرْكِ الأقربِين لنا انتسابَا
سفاهةَ مُخْلِفٍ لما تروَّى هراقَ الماءَ واتَّبَع السَّرابَا
فلو طُوِّعتُ عَمْرَكَ كنتُ منهم وما أُلفيتُ أنتجِعُ السَّحابَا

قال الحصين بن الحُمَام يردُّ عليه وينتمى إلى غَطَفان :

ألا لستمُ منَّا ولسنا إليكمُ برئنا إليكم مِنْ لؤىِّ بن غالبِ

---

(١) ابن هشام : فما .
(٢) الشعر : جمع أشعر ، وهو الكثير الشعر .
(٣) ابن هشام : وقومى.

أَقَمْنَا على عِزِّ الحجاز(١) وأنتمُ بِمُعْتَلَج البطحاء بين الأخاشبِ

يعنى قريشاً

ثم ندِم الحُصين على ما قال ، وعرف صدق الحارث(٢) ، فأكذب نفسه وقال :

ندمتُ على قولٍ مضى كنتُ قلتهُ تبيَّنتُ فيه أنه قولُ كاذبِ(٣)

فليت لسانى كان نصفين منهما بَكِيمٌ ونِصْفٌ عند مَجْرَى الكواكب

أبونا كِنانِىٌّ بمكة قبرُه بِمُعْتَلَج البطحاء بين الأخاشبِ

لنا الرُّبْع من بيتِ الحَرام وِرَاثةً ورُبْع البِطَاح عند دارِ ابنِ حاطبِ

يعنى أن بنى لؤى كانوا أربعة ، كعباً ، وعامرا ، وسامة ، وعوفاً.

[البَسْل]

وفى بنى مُرة بن عوف كان البَسْل(٤) ، وذلك ثمانية أشهر حُرُم لهم من كل سنة من بَيْن العرب ، يسيرون به إلى أى بلاد العرب شاءوا ، ولا يخافون منهم شيئاً ، قد عرفوا ذلك لهم لا يدفعونه ولا يُنكرونه .

وكان سائر العرب إنما يأمنون فى الأشهر الحُرُم الأربعة فقط .

---

(١) ط : غر الحجاز .

(٢) ابن هشام : وعرف ما قال الحارث بن ظالم فانتمى الى قريش وأكذب نفسه .

(٣) ط : أنه جد كاذب.

(٤) البسل : الحرام والحلال ، ضد للواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

وذكر الزُّبير عن أبى عُبَيد ، أنه كانت لقريش فى هذا مزية على سائر العرب قاطبة ، وذلك أن العربى لم يكن ليَخْرج من داره فى غير الأشهر الحرم إلا فى جماعة ، وكان القرشى يخرج حيث شاء أنَّى شاء ، فيقال : رَجلٌ من أهل الله فلا يَعْرض له عارض ، ولا يرميه أحد بمكروه ، ويعظِّمه من لقيه أو ورد عليه ، ولذلك قال من قال منهم : القُرَشى بكل بلد حرام .

* * *

وأما كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى ، فهما أهل الحرم وصريحُ ولدِ لؤىّ .

وكان كعبٌ منهما عظيمَ القَدْر فى العرب ، وأرّخوا بموته إعظاما له ، إلى أن كان عامُ الفيل فأرّخوا به .

وكان بين موته والفيل ، فيما ذكروا ، خمسمائة وعشرون سنة . وكان يومُ الجمعة يسمّى العَرُوبة ، فسماه كعبٌ الجمعة لاجتماع قومه فيه يخطبهم ويذكّرهم .

فيقول فيما يقول :

أيها الناس اسمعوا وَعُوا ، وافهموا وتعلّموا ، ليل ساجٍ ونهارٌ ضاحٍ ، والسماء بناء ، والأرض مهاد ، والنجوم أعلام ، لم تُخلق عبثا فتُضْرِبوا عن أمرها صَفْحا ، الآخرون كالأوّلين ، والدار أمامكم ، واليقين غيرُ ظنكم ، صِلُوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وأوفوا بعهدكم ، وثمِّروا أموالكم ، فإنها قوامُ مروءاتكم ، ولا تصونوها عما يجب عليكم ، وعظِّموا هذا الحَرَم وتمسكوا به فسيكون له نبأٌ عظيم ، وسيخرج نبىٌّ كريم .

ثم ينشد أبياتا منها :

صُروفٌ وأنباء تقلّبُ أهلَها لها عُقْدةٌ ما يستحيل مريرُها

على غفلةٍ يأتى النبىُّ محمــدٌ فيُخْبِرُ أخباراً صدوقٌ خبيرُها

ثم يقول :

يا ليتنى شاهــدٌ فَحْواء دعوته حينَ العشيرةُ تبغى الحقَّ خُذْلانا

أما والله لو كنتُ ذا سمع و بصر و يد ورِجل لتنصَّبتُ فيها تنصُّبَ الفَحْل ، ولأرْقلتُ فيها إرقالَ الجَمَل ، فرِحا بدعوته جَذِلاً بصرخته .

[أولاد كعب بن لؤى]

فولَد كعبُ بن لؤى مُرَّةَ ، وهُصَيصاً ، وعَدِيًّا .

وأمهم وحشية بنت شيبان بن محارب بن فِهر بن مالك .

وقيل إن أم عَدِى وحده امرأة من فهر ، وهى حبيبة بنت بجالة بن سعد بن قيس بن عَيْلان بن مُضر بن نِزار .

فولَد مرةُ بن كعب كِلاَبًا ، وتَيْماً ، ويَقَظة .

فولَد كلابٌ رجلين : قُصَيًّا وزُهْرة . وأمهما فاطمة بنت سعد بن سَيَل ، أحدُ الجَدَرَة من جُعْثُمة[1] الأزد من اليمن ، حلفاء فى بنى الدِّيل بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة ، و يقال جُعْثُمة[1] الأسد .

واسم سَيَل خير ، و إنما سُمى سَيَلا لطوله . وسيلٌ اسم جبل .

وهو خير بن حَمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر ، بن عمرو بن جُعْثُمة[1] ابن يَشْكر ، بن مُبَشِّر ، بن صعب بن دَهْمان ، بن نصر ، بن الأزْد .

---

(١) الأصول : من خثعمة الأسد والتصويب من ابن هشام والسهيلى .

وسُمى عامرٌ الجادرَ لأنه بنى جداراً للكعبة ، كان وَهَى مِن سَيْل أتى أيامَ وِلاية جُرْهم البيتَ .

وكان عامر تزوج منهم بنتَ الحارث بن مُضاض ، وقيل لولده الجَدَرَة لذلك .

وذكر الشرق بن القَطامى ، أن الحاجّ كانوا يتمسحون بالكعبة ويأخذون من طينها وحجارتها تبركا بذلك ، وأن عامراً هذا كان مُوكلا بإصلاح ماشعث من جُدُرها ، فسمّى الجادِر . والله أعلم .

وسعدُ بن سَيَل جَدُّ قُصَىٍّ بن كِلاب ، هو أولُ من حلّى السيوفَ بالفضة والذهب ، وأهْدَى إلى كِلاب بن مُرة مع ابنته فاطمة سيفين مُحَلَّيَيْن ، فجعلا فى خزانة الكعبة .

وقصى هو الذى جمع الله به قريشاً ، وكان اسمه زيداً ، فسمّى مجمّعا لِما جمع من أمرها . وسمى قُصيا لتقصّيه عن بلاد قومه مع أمه فاطمة بعد وفاة أبيه كلاب بن مرة .

وحديثه فى ذلك طويل ، وسنذكره إن شاء الله عند ذكر ولايته البيت ، وهنالك نذكر مآثره وعِظم غَنَائه فى إقامة أمْر قومه ، إن شاء الله ، فإن القصدَ هنا الإيجاز ما أمكن فى إيراد هذا النسب المبارك ، لتحصل لسامعه الفائدة بانتظامه واتصاله ، ولا يضل ذلك عليه بما تخلل أثناءه من القواطع التى تُبَاعِد بين أطرافه .

***

فولَد قصىُّ بن كِلاب أربعة نفر وامرأتين .

عبدَ مناف ، وعبد الدار ، وعبد العُزّى ، وعَبْداً ، وتَخْمُرَ ، وبَرّة .

وأمهم جميعاً حُبَّى بنت حُلَيْل بن حَبَشِية(١) بن سَلُول بن كعب بن عمرو الخُزَاعى .

وساد عبدُ مناف فى حياة أبيه ، وكان مطاعاً فى قريش ، وهو الذى يُدْعى القمرَ لجماله ، واسمه المغيرة .

ذكر الزبير عن موسى بن عُقبة ، أنه وُجد كتابٌ فى حَجر ، فيه : أنا المغيرة ابن قصى ، آمُرُ بتقوى الله وصلة الرحم .

وإياه عنَى القائلُ بقوله :

كانت قريشٌ بَيْضةً فتفلَّقَتْ فالمحُّ خالصُه لعبد منافِ

[أولاد عبد مناف]

فولد عبدُ مناف أربعة نفر : هاشما ، وعبدَ شمس ، والمطّلب ، ونوفلاً .

وكلهم لعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج ، بن ذَكْوَان ، بن ثعلبة ، ابن بُهْثة ، بن سُلَيم ، بن منصور ، بن عِكْرِمة ، بن خَصفة بن قيس بن عَيْلان ، بن مُضَر .

إلا نَوْفلا منهم ، فإنه لِوَاقدة بنت عمرو المازنية . مازن بن منصور ابن عِكرمة .

***

فولَد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة .

---

(١) وتضبط أيضاً — كما قال ابن هشام — بضم الحاء وتسكين الباء .

عبدَ المطلب ، وأسداً ، وأبا صَيفى ، ونَضْلة ، والشَّفَّاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورُقَية ، وحَيَّة .

وأمُّ عبد المطلب منهم سَلْمى بنت عمرو بن زيد بن لَبيد بن خِدَاش ، بن عامر بن غَنْم بن عدى ، بن النجار .

[أولاد عبد المطلب]

فولد عبدُ المطلب عشرة نفر وست نسوة .

العباس ، وحمزة ، وعبد الله ، وأبا طالب ، واسمه عبد مناف ، والزبير ، والحارث وهو أكبرهم ، والحجْل ، والمقَوِّم ، وضرارا ، وعبد العزى أبا لهب ، وصفية ، وأمَّ حكيم البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة ، وأرْوَى ، وبَرَّة .

فأمُّ عبد الله وأبى طالب وجميع النساء غير صفية ، فاطمةُ بنت عمرو ، بن عائذ ، ابن عمران ، بن مخزوم ، بن يَقَظَة ، بن مُرة ، بن كعب ، بن لؤى .

[محمد بن عبد الله]

فولد عبد الله بن عبد المطلب ، محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين ، ونخبة الخلق أجمعين ، فنسبه صلى الله عليه وسلم أشرفُ الأنساب ، وسببُه إلى الله سبحانه باصطفائه إياه واختياره له أفضلُ الأسباب ، وبيتُه فى قريش أوسط بيوتها الحَرَمية ، وأعرقُ مَعَادنها الكَرَمية ، لم تَخْلُ قط مكة مِن سيدٍ منهم أو سادات ، يكونون خيرَ جِيلهم ورؤساء قَبِيلهم ، حتى إذا درجوا نَمَا قُسَمَاؤهم فى المجد الصميم ، وشركاؤهم فى النسب الكريم إلى ذلك المقام ، فمرَجوا فصحبوا على ذلك الزمانَ .

لواؤهم على من ناوأهم منصور ، وسُؤْدَدُ البَطْحاء عليهم مقصور ، والعيون إليهم أيةَ سلكوا صُور[1] .

ثم أتى الوادى فطمَّ على القُرَى ، وشد الله أركانَ مجدهم العريق العتيق بهذا النبى الأمى ، فاحتازوا المجدَ عن آخره ، وفازوا من شرف الدين والدنيا بما تعجز ألسنة البُلَغاء عن أدنَى مفاخره .

وأمه صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زُهْرة ، ابن كلاب ، قسيمةُ أبيه من هذا الأب ، وكريمة قومها أولى المكان النبيه والحَسَب .

وحَسْبُها من الشرف المتين والكرم المبين والفخر الممكَّن غاية التمكين ، أنْ كانت أمًّا لخاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين .

فكيف ولها من نصاعةِ الحَسَبِ المحسَّب ، وعَتاقةِ المَنْسب والمَنْصِب ، ما يقف عند النُّطاح ، وتعترف له قريشُ البطاح .

* * *

فرسول الله صلوات الله وبركاته عليه ، خيرة الخير من كِلاَ طرفيه .

وقد احتفى الناسُ بنسبه الكريم نثراً ونظماً ، ونقَّبوا عن آبائه الأمجاد ، وأمهاته الطاهرات الميلادِ أبا فأبا وأمًّا فأمًّا .

فرادوا من ذلك الفخار حدائقَ غُلْبا ، وسادوا من شرف تلك الآثار مرَاقِيَ شُمًّا .

---

(١) أى مائلة عنقه صور كصعر مال ، وهو أصور .

وقد تقدمت من ذلك نُبَذٌ منثورة أثناء الكلام ، وستأتى إن شاء الله منظومةً مع أشكالها ، تفوق العِقْد فى النظام ، فى قصيدة فريدة مفيدة ، لأبى عبد الله بن أبى الخصال ، خاتمة رؤساء الآداب ، والعلماء المبرزين فى هذا الباب ، تمّاها معراج المناقب ، ومنهاج الحَسَب الثاقب ، فى ذكر نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ومناقب أصحابه ، قرأتُها على شيخنا الخطيب أبى القاسم بن حُبَيْش ، وقد رأيت أن أوردَ منها هنا ما يختص بهذا النسب الكريم على اختصار ، يفى إن شاء الله بالغرض المَرُوم ، إذ الكلام المنظوم أعْذَبُ جَرْيًا على الألسن وأهْذَبُ رأيًا فى الإفادة بالمستحسَن .

وأولها :

إليكَ فهمّى والفؤادُ بيَثْرِبِ ... وإن عاقنى عن مَطْلَع الوحى مَغْرِبى
أُعَلِّل بالآمال نفسًا أغُرُّها ... بتقديم غاياتى وتأخير مَذْهبى
ودَيْنى على الأيام زَوْرَةُ أحمدٍ ... فهل ينقضى دَيْنى ويَقْرُبُ مَطْلبى
وهَلْ أرِدَنْ فَضْلَ الرسول بِطيبةٍ ... فيا بَرْدَ أحشائى ويا طيبَ مَشْرَبى
وهَلْ فَضَلَتْ من مَرْكبِ العمر فضلةٌ ... تُبَلِّغنى أمْ لا بلاغَ لِمَرْكَبِ ؟
ألا ليت زادِى شَرْبةٌ مِن مياهها ... وهل مثلها رِيًّا لِغُلَّةِ مُذْنبِ
ويا ليتنى فيها إلى الله صائرٌ ... وقلبى عن(1) الإيمان غيرُ مقلَّب
وإن امرأً وارى البقيعُ عِظامَه ... لفى زُمْرَةٍ تُلْقَى بسَهْلٍ ومَرْحبِ
وفى ذِمةٍ مِن خَيْرِ مَن وَطِىء الثّرَى ... ومَنْ يَعْتلِقْه حَبْلُه لا يُعذَّبِ

---

(1) ب : على .

ومالىَ لا أُسْرِى الجِنانَ بِعَزْمَةٍ يهونُ عليها كلُّ طامٍ وسَبْسَبِ [1]
وماذا الذى يَثْنِى عِنانى وإننى لَجَوَّابُ آفاقٍ كثيرُ التقلبِ
أفقرٌ ؟ ففى كَفِّى لله نعمــــةٌ وَبَيْنٌ ؟ فقد فارقتُ قبلُ بنى أبى
وقد مَرَّنَتْ نفسى على البُعْدِ وانطوت على مثل حَدِّ السَّمْهَرِىِّ المدرَّبِ
وكم غُربةٍ فى غـــير حقٍّ قطعتُها فهلاَّ لِذَاتِ الله كان تغرُّبِى !
وكم فازَ دونى بالذى رُمْتُ فائزٌ وأخطأنى ما ناله من تغرُّبِ
أراه وأهْوَى فِعــلَهُ البرِّ قاعداً فيا قَعَــدِىَّ البِرِّ قُمْ وتلبَّبِ [2]
أمانىُّ قد أفنى الشبابَ انتظارُها وكيف بما أعْيَى الشبابَ لأشيَبِ
وقد كنتُ أسْرِى فى الظلامِ بأدهمٍ فهأنا أغْدُو فى الصباح بأشهبِ
فمن لى وأنَّى لى بريحٍ تحطُّنى إلى ذِروة البيتِ الرفيع المطنَّبِ
إلى الهاشمىِّ الأبطحىِّ محمـــدٍ إلى خاتم الرُّسْلِ المـكينِ المقرَّبِ
إلى صَفْوَةِ الله الأمــينِ لوَحْيِه أبى القاسم الهادى إلى خير مَشْعَبِ
إلى ابن الذَّبِيحَينِ الذى صِبغَ مَجْدُه ولمَّا تُصَغْ شمسٌ ولا بَدْرُ غَيْهَبِ
إلى المنتقَى مِن عَهْد آدم فى الذُّرَى يرَدَّدُ فى سِرٍّ الصريحِ المهذَّبِ
إلى من تولَّى اللهُ تطهيرَ بيتِــهِ وعِصْمَتَه من كلِّ عِيصٍ مُؤَشَّبِ [3]
فجاء برِىءَ العِرضِ مِن كل وَصْـــمَةٍ
فما شئْتَ من أمٍّ حَصَــــانٍ ومن أبِ
كرَوْضِ الرُّبا كالشمسِ فى رَوْنق الضُّحى
كناشِىءِ ماءِ المُزْنِ [4] قبـــلَ التصوُّبِ

---

(١) السبسب : المفازة أو الأرض المستوية البعيدة .

(٢) تلبب : اشمر .

(٣) العيص — بكسر العين : الأصل ، والمؤشب : المختلط .

(٤) ب : السحب .

عليه من الرحمن عينُ كلاءةٍ … تُجنِّبُه المسامَ كلَّ مُجنَّبِ
إذا أعرضَتْ أعراقُه عن قبيلةٍ … فما أعرضَتْ إلا لأمرٍ مغيَّبِ
وما عبرتْ إلا على مَسْلكِ الهُدى … ولا عَثَرتْ إلا على كلِّ طيِّبِ
فمَنْ مثلُ عبدِ الله خيرُ لذاتِه … وآمنةٍ فى خيرِ ضَنْءٍ(١) ومَنصِبِ
إذا اتصلتْ جاءتك أولادُ زُهرةٍ … كأُسْدِ الشَّرى من كلِّ أشوسَ أغلَبِ
ولا خالَ إلا دون سعدِ بن مالكٍ … ولو كان فى عُلْيا معدٍّ ويَعْرُبِ
ومَن ذا له جَدٌّ كشَيْبةَ ذى الندى … وساقى الحجيج بين شرقٍ ومَغْربِ
له سُؤدَدُ البطحاءِ غيرُ مُدافَعٍ … وحَوْمة ما بين(٢) الصفا والمحصَّبِ
أبو الحارث السامى إلى كل ذِروةٍ … يقصِّر عن إدراكها كلُّ كوكبِ
به وبما فى بُرْدِه من أمانةٍ … حمَى اللهُ ذاك البيتَ مِن كلِّ مُرْهِبِ
وأهلكَ بالطيرِ الأبابيلِ جَمْعهم … فيا لهمُ مِن عارضٍ غيرِ خُلَّبِ(٣)
وفيما رآه شيبةُ الحَمْد آيةٌ … تلوح لعين الناظر المتعجِّبِ
وفى ضَرْبه عند القِداحِ مروَّعاً … ومن يُرْمَ بين العينِ والأنفِ يَرْهَبِ
وما زال يَرْمِى والسهامُ تصيبه … إلى أن وَقَتْه الكُومُ(٤) مِن نَسْلِ أَرْحَبِ
وكانوا أناساً كلما أمَّهمْ أذًى … تكشَّف عن صُنْعٍ من الله مُعْجِبِ
وعاش بنو الحاجات منهم وأخْصبوا … وإن أصبحوا فى منزلٍ غير مُخْصِبِ
وعمرو المعالى هاشمٌ وثريدُها … بمكة يدعو كلَّ أغبرَ مُجدِبِ
بمَثْنَى جِفانٍ كالجوابِ مُدِيخةٍ … مُلِئْنَ عبيطاتِ السَّنامِ المرَعَّبِ
هو السيِّدُ المتبوعُ والقمرُ الذى … على صفحتيه فى الرضا ماءُ مُذْهَبِ
بَنَى اللهُ للإسلامِ عزًّا بصهره … إلى مُنْتَهى الأحياء من آل يثربِ

---

(١) الضنء : الأصل.
(٢) ت : حرمة .
(٣) الخلب . المطمع المخلف . (٤) الكوم: جمع كوماء وهى الناقة العظيمة السنام

وعبدُ منافٍ دوحةُ الشَّرف التى ... تفرَّع منها كلُّ أرْوَعَ مِحْرَبِ (١)

مُطاعُ قريشٍ والكفيلُ بعَزْمِها (٢) ... ومانعُها من كل ضَيْمٍ ومَنْهَبِ

وزَيْدٌ ومَن زَيْدٌ ؟ قُصَىُّ بن مُجْمِعٍ ... سمعتَ وبُلِّغْنا وحَسْبُكَ فاذهبِ

به اجتمعت أحياءُ فِهرٍ وأحرزَتْ ... تراثَ أبيها دون كلِّ مُذَبْذَبِ

وأصبح حكمُ اللهِ فى آل بيتـــه ... فهم حَوْله مِن سادِنِين وحُجَّبِ

وما أسلمَتْه عن تراخٍ (٣) خُزَاعةٌ ... ولـكن كما عَضَّ الهناءُ بأجْرَبِ

ولا ذَتْ قريشٌ من كلاب بن مُرَّةٍ ... بجَذْلٍ حِكَاكٍ أو بعَذْقٍ مُرَجَّبِ (٤)

ومُرةُ ذو نَفس لدى الحرب مُرةٍ ... وفى السِّلْم نفسُ الصَّرْخَدِىِّ المذوَّبِ (٥)

وكعبٌ عقيدُ الجود والحِلم والنُّهى ... وذو الحِـكَمِ الغُرِّ المبشِّر بالنَّبى

خطيبُ لُؤىٍّ واللواء بكفِّه ... لخُطبةِ نادٍ أو لخطـــة مِقْنَبِ (٦)

وأول مَن سمَّى العَرُوبَةَ جُمْعــةً ... وصدَّر أمَّا بعـــدُ، يَلْحَى و يطَّبِى (٧)

وأرَّخ آلُ الله دهراً بموته ... سنِينَ سُدًى يُنْعِبْن كفَّ المحسِّبِ

وأضحَى لُؤىٌّ غالِبا كلَّ ماجدٍ ... وَمَنْ غالبٌ يَنْمِيه المجد يَغْلِبِ

وفِهرٌ أبو الأحيـــاء جامعُ شَمْلِها ... وكاسبُها مِن فخرِه خيرَ مَكْسَبِ

---

(١) المحرب : المنغمس فى الحروب .

(٢) ط ب : بعزها .

(٣) ط : تراض .

(٤) الجذل المحـكك ، كمعظم ، الذى ينصب فى المعطن لتحتك به الجربى . والمقصود أنه يشتفى برأيه ، والعذق بفتح العين النخلة بحملها ، والترجيب : ضم أعذاقها الى سعفاتها وشدها بالخوص لئلا تنقضها الريح أو وضع الشوك حولها لئلا يصل اليها آكل ، وفى المثل : أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب .

(٥) الصرخدى : الشراب .

(٦) ا : معقب . والمقنب : الجماعة من الجيش .

(٧) يلحى : يلوم . ويطبى : يستميل .

تقرّش فامتازت قريشٌ بفضله ... وسَـــدّ فسدّوا خَلّة المتأوّبِ (١)
وغادره اسماً فى الـكتاب منزّلاً ... يمرّ به فى آيهِ كلُّ مُعرِبِ
ومالكٌ المُرْبِى(٢) على كلِّ مالكٍ ... فتى النّضر حابته السيادةُ بل حُبِى
هو الليث فى الهيجاء والغيثُ فى النّدى ... وبدر الدّياجى حين يَسْرى ويختبى
تردّى بفضفاض على الجد(٣) نَسْجُه ... وليس عليه، فليَجُرّ ويَسْحبِ
وللنّضر يا للنضر(٤) من كل مَشهدٍ ... هو الشمس صَعّد فى سناها وصوّبِ
وأعرِض(٥) ببحرٍ من كفاة زاخرٍ ... يســـاق إلى أمواجه كلُّ مُذنِب
وخيِّر حُكما فى السُّهول أو الرُّبا ... أو البيت أو عزٍّ على الدهر مُصْحَبِ
فلم يقتصر واختـــار كلاً لحازه ... إلى غاية العزِّ المـــديدِ المعقّبِ
له البيتُ محجوجاً وعزٌّ مخلّدٌ ... وأجردُ يَعْبُوبٌ إلى جنب أصْهَبِ (٦)
وخازمُ آنافِ العُتـــاة خُزَيمةٌ ... فلاذوا بأخلاق الذّلولِ المجرّبِ
عظيمٌ اسَلْمَى بنت سَوْدٍ بن أسْلَمٍ ... لــكل قضاعىٍّ كريمٍ معصّبِ
ومُدْرِكةٌ ذو اليُمْنِ والنُّجْح عامرٌ ... وخـــيرُ مُسَمّى فى العُلا وملقّبِ
تراءى مُطِـــلاً إذ تقمّع صِنْوُه ... ففـــاز بقِدحٍ ظافرٍ لم يخيّبِ
لأم الجبال الشمّ والقطر والحصى ... لخِندف إن تستركب الأرض تركبِ
وإلياسُ مأوى الناس فى كل أزمة ... ومَهْرَبهم فى كل خوفٍ ومَرْهَبِ
وزاجرهم إذ بدّلوا الدينَ ضلّةً ... وأضحَوا بلا هادٍ ولا متحوّبِ (٧)

---

(١) تأوبه : أتاه ليلا .
(٢) ت : المدلى .
(٣) ا : الحمد .
(٤) غير ط : ما للنضر وقد سقط هذا البيت من ا .
(٥) ا : وأغوص .
(٦) اليعبوب : الفرس السريع الطويل . والأصهب : بعير ليس بشديد البياض .
(٧) المتحوب : المتأثم الذى يترك الحوب ، وهو الإثم .

وجاءهمُ بالرُّكن بعــــد هلاكه
وقد كان فى صَدْعٍ من الأرض أنكَبِ

وما هو إلا معجزٌ لنبوةٍ ... وَبُشْرى وعقــبى للبشير المعقَّبِ
وحجٌ وَأهْدَى البُدْنَ أولَ مُشْعِرٍ ... لهـــا وفروض الحج لم تترتبِ
وكم حكمةٍ لم تَسْمع الأُذْنُ مثلَها ... له إن تَلُحْ فى ناظر العين تُكتبِ
إلى قَنَصٍ تنميه سوداء ، نَبْتُهُ(١) ... كلا طرفيـــه من مَعَدٍّ لمنسب
وفى مُضَرٍ تاه الـكلامُ وَأقبلت ... مآثرُ سَدَّتْ كلَّ وَجهٍ وَمَذْهَبِ
وَحَيْنا(٢) وَكاثَرْنا النجومَ بجمعها ... بأكبر منها فى العــديد وَأثقَبِ
هنالك آتى اللهُ من شاء فضـــله ... وقيل لهذا سِرْ وللآخر اركبِ
وكانا شقيـــقى نَبْعَةٍ فتفاوَتا ... لعِلْمٍ وَحُكْمٍ ماله من معقِّبِ
وما منهما إلا حَنيفٌ وَمُسْــلِمٌ ... على نهج إسماعيل غيرُ منكَّبِ
وقد سلّم الأفعَى بنجرانَ حُكْمَه ... إليهم وَلم ينظر إلى متعقِّب
رأى فِطَنًا أبدَت له عن نجاره ... وكان لنَبْعٍ فاستحال لأثأَبِ(٣)
وتلك علاماتُ النبوة كلهُّـــا ... تشــــير إلى مَنْظُورها المترقِّبِ
وقال رسولُ الله مهما اختلفتمُ ... ولم تعرفوا قَصْدَ السبيل الملحَّبِ
ففى مُضَرٍ جُرثومةُ الحق فاعمِدُوا ... إلى مضرٍ تلقوه لم يتنقَّبِ
وما ســـيدٌ إلا نِزارٌ يفوته ... وَمَنْ فاته بدرُ الدُّجى لم يُؤنَّبِ
قَرِيعُ مَعَدٍّ والذى ســـدَّ نقدَه ... متى يأتهم شَعْبٌ من الدهرِ يَرْأَبِ
أبو أبْحُرِ الدنيــــا وأطوادِها التى ... بهـــا ثبتت طُرًّا فلم تتقلب

---

(١) ت : أمه .
(٢) وحينا : أسرعنا
(٣) الأثأب : شجر ، واحدته بهاء .

ولم يكفِه حـــتى أعانت معانةٌ   بكل عتيقٍ جُرْهُمىٍّ مهذَّبِ
وجاء مَعَــدٌّ والسماء شموسها   وأقمارها فى ذيله المتسحِّبِ
وبين يديه الأنجمُ الزُّهْرُ بثَّها   على الأرض حتى لا مساغ لأجنبى
وَقِدْماً تحــفَّى الله من بختنصَّرٍ   به والورى مِن هالكٍ وَمُعَذَّبِ
وجنَّبه أرضَ البَوارِ وَحازَه   إلى مَعْقِلٍ من حِرْزه متأشِّبِ (١)
وَحــلَّ بأرمينيةٍ تحت حفظه   لدى ملكٍ عن جانبيه مُذَبِّبِ (٢)
فلما تجلّى الرَّوعُ أسْرَى بعبده   إلى حرَمٍ أمْنٍ لأبنائه اجْتُبِى
وقد كان ردَّ اللهُ عنهم كَليمَه   ليالىَ يدعو دعوةَ المتغضِّبِ
وجاء بنو يعقوب يشكون منهمُ   ينادونه هذا قتيلٌ وذا سُبِى
فقال له : لا تَدْعُ موسى عليهمُ   فمنهم نبىٌّ أصطفيه وأجتَبِى
أحبُّهمُ فيــــــه رِضاً وَأحِبُّه   كذلك من أحْبَبْتُه يُكرمْ وَيُحْبَبِ
وأغفر إن يستغفرونى ذنوبَهم   ومهما دعا داعٍ أجبْه وَأقْرِبِ
فقال إذَنْ فاجعلهمُ ربٌّ أمتى   فمن ترضَه يا رب يُرضَ وَيُرْغَبِ
فقال همُ فى آخر الدهر صَفْوتى   يمضُّون أعدائى ويستنصرون بى
دعائم إيمانٍ وأركانُ سؤددٍ   مضت بعلاها مَهْدَدٌ بنت جُلْحَب
وَمَصْعَدُ عدنانٍ إلى جذم آدمٍ   بأبْيَنَ مِن قصْد الصباح وَألْحَبِ (٣)
وَنَهْىُ رسولِ الله صــدٌّ وجوهها   وكان انا فى نَظْمها شدُّ مُلْهِبِ
وإلا فأُدٌّ بن المَمَيْسَع ماثلٌ   ونَبْتُ بن قيدارٍ سلالة أشجَبِ (٤)
وواجَه أعراقُ الثرى كلٌّ من ترى   وأسْمَع إسماعيل دعوة مُكْثِب

---

(١) أشب الشجر وتأشب : التف .   (٢) مذبب : مدافع .
(٣) ألحب : أوضح .
(٤) الأسماء من هنا إلى آخر القصيدة تذكر لدى المؤرخين مختلفة مضطربة ، قال ابن خلدون : ولعل الخلاف جاء من قبل اللغة لأن الأسماء ترجمت من العبرانية .

وقام خليلُ الله يتـــلوه آزَرٌ أغَـــرُّ صباحِيٌّ لِأدْهمَ غَيْهبِ
إلى الناحر بن الشارع الفَهْرِ يرتقى وللداع ثم القاسم الشامخ الأبِ
ويَعْبر ينميه إلى المجـــد شالخٌ إلى الرافد الوهاب برك وطيبِ
لسامِ أبى السامين طرًّا سما بهم لنوحِ لِلَمَكان العُلى لِمُثَوَّبِ
لإدريس ثم الرائد بن مهلهل لِقَيْنَنَ ثم الطاهر المتطيب
إلى هبةِ الرحمن شيثٍ بن آدم أبى البشر الأعلى لطين لِأَثْلَبِ(١)
فمنه خُلقنا ثم فيه مَعَادُنا ومنه إلى عَدْنٍ فسدِّدْ وقارِبِ(٢)

* * *

وهنا انتهى ما يخص المُقَفّى العَلى من هذه الـكلمة ، التى فرّى ناظمها فى الإحسان الفَرْىَ المحمود ، فاقتصرتُ منها على ما وفّى بالغرض المقصود ، واستوفى رجالَ النسب المجيد والحسب التليد، تعجيلا لقِرى المستفيد ، واكتفاء من القِلادة بالقَدْر المحيط بالجيد ، وإنها إن شاء الله لـكافية فى الباب ، ومقدِّمةٌ فى الـكلام اللبابَ ، وتحفة إنما يَعرف قدرها أولو الألباب .

والله يجزى قائلها الحسنى ، وينفعه بمقصده الأسْنَى .

* * *

وإذ قد انتهينا إلى ما حَسُنَ لدينا إيراده فى هذا المعنى وصْفاً وذكراً ، وخدمنا النسب الأشرف نَظْماً ونثراً ، فلندرج على ذكر البقعة التى اختارها الله لرسوله الـكريم منشأ ، وجعلها لقومه قراراً ومتبوأً ، وأولية البيت العتيق الذى جعله الله مثابةً وأمناً للناس ، ورفعه على أفضل القواعد وأكرم الأساس ، ثم دحا الأرض من تحته رفعاً للشبهة فى شرفه والالتباس .

(١) الأثلب : التراب . (٢) الأصل : قرب .

ثم نذكر مَنْ وَلِيَهُ من آبائه الكرام ، إذ هم أهلُه الأعْلَوْن وأولياؤه الأحِقّاء به الأَوْلَوْن ، وهو مأثرتهم التى لم يزالوا إياها يُرَاعُون ، ومن جرّائها يُرَاعَوْن ، وتراث المجـــد الذى إليهم يُعْزَى وإليه يُعْزون ، وبسيما شرفه يُعرفون وباسمه يُدْعون .

ونشير إلى حرمته العظيمة فى الحرمات ، وما أنزل الله تعالى بمن بَغاه بسوء أو أتى فيه بأمر مذموم مشئوم مِن أليم العقوبات وعظيم النقمات .

لنخدم البلدَ كما خدمنا المحْتِد ، ونقضى حق المكان الشريف كما قضينا حق الحسب التليد والطريف .

حتى نَتخلَّص إلى ذكر المولد المبارك الذى منه نتدرج إلى المقصود ، الذى نحن عليه عاملون ، ولإتمامه آمِلون ، رجاء أن نجد ذلك مذخوراً عند المولى الذى يضاعِف لعبيده الحسنات ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

ذكر أولية بيت الله المحرّم

وركنه المستلَم ، ومن تولّى بناءه من ملائكته وأنبيائه
صلى الله على جميعهم وسلم

قال الله العظيم : « إنَّ أولَ بيتٍ وُضع للناس للذى بِبَكَّة مباركًا وهُدًى للعالمَين ، فيه آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبراهيم[1] » .

وفى الصحيح من حديث أبى ذَرٍّ الغِفَارى ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىُّ مسجد وُضِع فى الأرض أولَ ؟ فقال له : « المسجدُ الحرام » قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم المسجد الأقصى » قلت : كم بَيْنهما ؟ قال : « أربعون عاما » .

وذكر الزبير بن أبى بكر بإسناده إلى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه قال : كنت مع أبى محمد بن على بمكة فى ليالى العَشر قبل التَّرْوية بيوم أو يومين ، وأبى قائم يصلى فى الحِجْر ، وأنا جالس وراءه ، فجاء رجل أبيض الرأس واللحية ، جليل العظام بعيدُ مابين المنكِبيْن عريض الصدر ، عليه ثوبان غليظان فى هيئة مُحْرِم ، فجلس إلى جنبه ، فخففَ أبى الصلاة ، فسلم ثم أقبل عليه ، فقال له الرجل : يا أبا جعفر ، أخبِرْنى عن بَدْء خلق هذا البيت كيف كان ؟

فقال له أبو جعفر محمد بن على : ممن أنت يرحمك الله ؟ قال : رجل من أهل الشام . فقال له محمد بنْ على : إن أحاديثنا إذا سقطَتْ إلى الشام جاءتنا صِحاحا ، وإذا سقطت إلى العراق جاءتنا وقد زِيدَ فيها ونقص .

---

(١) سورة آل عمران ٩٦ ، ٩٧ .

ثم قال : بَدْء خلق هذا البيت أن الله تبارك وتعالى قال للملائكة : إنى جاعِلٌ فى الأرض خليفة ، فردُّوا عليه : « أتجعل فيها من يُفسِد فيها ويَسفِك الدماء ، ونحن نُسَبِّح بِحَمْدِك ونُقَدِّسُ لك » .

فغضب عليهم ، فعاذوا بالعرش ، فطافوا حوله سبعة أطواف يسترضون ربهم ، فرضى عنهم وقال لهم : ابنوا لى فى الأرض بيتا فيعوذ به من سخطتُ عليه من بنى آدم ويطوفون حوله ، كما فعلتم بعرشى ، فأرضَى عنهم .

فبنوا له هذا البيت .

فهذا يا عبد الله بدء خلق هذا البيت .

فقال الرجل : يا أبا جعفر ، فما بدء خلق هذا الركن ؟

فقال : إن الله تبارك وتعالى لمّا خلق الخَلْقَ ، قال لبنى آدم : ألستُ بربكم ؟ قالوا : بلى . وأقرّوا . وأجرى نهراً أحلى من العسل وألذ من الزبد ، ثم أمر القلم فاستمد من ذلك النهر فكتب إقرارهم وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم أُلقِم ذلك الكتابَ هذا الحَجرُ ، فهذا الاستلام الذى ترى إنما هو بَيْعةٌ على إقرارهم بالذى كانوا أقرُّوا به .

وقال جعفر بن محمد : كان أبى إذا استلم الركنَ قال : اللهم أمانتى أدَّيتُها ، وميثاق وفَيْتُ به ، ليشهد لى عندك بالوفاء .

قال : وقام الرجل فذهب .

قال جعفر بن محمد : فأمرنى أبى أن أردَّه عليه ، فخرجت فى أثره وأنا أراه ، يحُول بينى وبينه الزحام ، حتى دخل نحوَ الصفا ، فتبصَّرْته على الصفا فلم أرَه ، ثم ذهبت إلى المروة فلم أرَه عليها ، فجئت إلى أبى فأخبرته فقال لى أبى : لم تكن لتجده ، وذلك الخَضِر عليه السلام .

وخرّج التّرمذى من حديث عبد الله بن عباس وصححه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزل الحجرُ الأسود من الجنة وهو أشدُّ بياضاً من اللّبَن فسوّدَتْه خطايا بنى آدم » .

ومن حديث عبد الله بن عمرو ، مرفوعا وموقوفا ، قال : إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة ، طمس اللهُ نورَهما ، ولو لم يطمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب » .

وفى حديث ابن عباس أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحجَر : «والله ليبعثنّه الله يومَ القيامة ، له عينان يُبْصر بهما ولسان ينطق به ، يشهد على من استلمه بحق » .

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطّبرى من حديث عبد الصمد بن مَعْقِل ، أنه سمع وهبَ بن مُنبه[1] يقول : إن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض فرأى سِعتها ولم ير فيها أحداً غيره ، قال : يارب أمَا لِأرضك هذه عامرٌ يسبّح بحمدك ويقدسك غيرى ؟

قال الله تعالى : إنى سأجعل فيها مِنْ وَلَدِكَ مَنْ يسبّح بحمدى ويقدسنى ، وسأجعل فيها بيوتا تُرفع لذِكرى ويسبّح فيها خَلْقى ويذكرون فيها اسمى ، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أخصه بكرامتى وأوثره باسمى ، فأسميه بيتى ، وعليه وضعتُ جلالى ، ثم أنا مع ذلك فى كل شىء ومع كل شىء ، أجعل ذلك البيتَ حَرَماً آمنا ، يتحرّم بحُرْمَته مَنْ حَوْله ومن تحته ومن فوقه ، فمن

---

(١) أخبار وهب بن منبه وأمثاله عن هذه القرون المطاولة والآماد البعيدة لايدعى لها أحد صحة أو ثبوتا ، وربما تبرعوا بها أو رويت لهم وصلا لحلقات التاريخ وإرضاء للخيال الحسب والاستطلاع البعيد ، فلتفهم على هذا النحو. وشأنها يسير .

حرّمه بحرمتي استوجب بذلك كرامتي ومن أخاف أهله فقد أخفر ذمتي وأباح حُرْمتي .

أجعله أولَ بيت وُضع للناس ببطن مكة مباركا ، يأتونه شُعْثا غبراً على كل ضامرٍ يأتين من كل فَجٍّ عميق ، يرجُّون بالتلبية رجيجاً ويثجُّون ثجيجاً ، ويعجُّون بالتكبير عجيجاً .

فمن اعتمده لا يريد غيرَه فقد وفد إلىَّ وزارني وضافني ، وحقٌّ على الكريم أن يُكْرِم وَفْدَه وأضيافه ، وأن يُسْعف كلاًّ بحاجته .

تَعْمُرُه يا آدم ما كنتَ حيًّا ، ثم تعمره الأممُ والقرون والأنبياء مِنْ وَلَدِك ، أمةً بعد أمة وقَرْناً بعد قرن .

وفى حديث غير هذا عن عَطاء وقَتَادَة ، أن آدم عليه السلام ، لما أهبطه الله من الجنة وفقد ما كان يسمعه ويأنس إليه من أصوات الملائكة وتسبيحهم ، استوحش حتى شكا ذلك إلى الله تعالى فى دعائه وصلواته ، فوجَّهه إلى مكة ، وأنزل الله ياقوتةً من ياقوت الجنة على موضع البيت الآن .

وقال الله : يا آدم ، قد أهبطتُ لك بيتاً تطوف به ، كما يُطاف حَوْلَ عرشي وتصلى عنده كما يصلَّى عند عرشي .

فانطلق إليه آدم ، فطاف به هو ومَن بعده من الأنبياء ، إلى أن كان الطوفان ، فرفعت تلك الياقوتة ، حتى أمر الله إبراهيمَ عليه السلام ببناء البيت ، فبناه ، فذلك قوله تعالى : « وإذْ بَوَّأْنا لإبراهيم مكانَ البيتِ ألاَّ تُشْرِكْ بى شيئاً وطَهِّرْ بيتىَ للطائفين والقائمين والرُّكَّعِ السجودِ[1] » .

---

(١) سورة الحج ٢٦ .

وعن ابن عباس ، أن الله أوحى إلى آدم : أن لى حَرَما بحيال عرشى ، فانطلقْ فابْنِ لى بيتا فيه ، ثم حُفَّ به كما رأيت ملائكتى يَحُفُّون بعرشى ، فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم فى طاعتى .

فقال آدم : أى رَبِّ ، وكيف لى بذلك ؟ لستُ أقْوَى عليه ولا أهتدى لمكانه .

فقيّض الله له ملَكا فانطلق به نحو مكة ، فكان آدم عليه السلام إذا مرَّ بروضة ومكانٍ يعجبه قال للملَك : انزل بنا هاهنا . فيقول له الملك : أمامَك .

حتى قدِم مكة ، فبنى البيت من خمسة أجْبُل ، من طور سيناء ، وطور زيتا ، ومن لبنان ، والجودِيّ ، و بنى قواعده من حِرَاء .

فلما فرغ مِنْ بنائه خرج به الملك إلى عرفات ، فأراه المناسكَ كلَّها ، التى يفعلها الناس اليوم ، ثم قدِم به مكة ، فطاف بالبيت أسبوعا ثم رجع إلى أرض الهند فمات بها .

وفى رواية أنه حجّ من الهند أربعين حجة على رجليه .

وذكر الواقدىُّ عن أبى بكر بن سليمان بن أبى خيثمة العدَوى قال : قلت لأبى جَهْم بن حذيفة : يا عم ، حدثنى عن بناء البيت ونزول اسماعيل عليه السلام الحرَم .

قال : يابن أخى سَلْنى عنه على نشاط منِّى فإنى أعلم فى ذلك ما لا يعلمه غيرى .

قال : فمكثت شهراً أذكِّره المرة بعد المرة ، فيقول مثلَ قوله الأول ، وكان قد كَبِر ورَقّ وضَعُف ، فدخلت عليه يوما وهو مسرور ، فقال لى : اسمع حديثك الذى سألتنى عنه .

إن البيت بناؤه حَرَمٌ فى السماء السابعة وفى الأرض السابعة . يعنى أن ما يقابله حَرَمٌ .

وإن آدم عليه السلام أمر بأساسه فبناه هو وحواء ، أسَّساه بصخر أمثالَ الخَلِفات ، يعنى النوق التى فى بطونها أجنةٌ ، واحدتها خَلِفة . أذِن الله عز وجل للصخر أن يطيعهما .

ثم نزل البيتُ من السماء مِن ذهبٍ أحمر ، ووُكِّل به من الملائكة سبعون ألف ملك ، فوضعوه على أسِّ آدم عليه السلام ، ونزل الركن ، وهو يومئذ دُرَّة بيضاء ، فوضع موضعه اليوم من البيت ، وطاف به آدم وصلى فيه .

فلما مات آدم عليه السلام وَلِيه بعده ابنه شيث ، فكان كذلك حتى حجه نوح عليه السلام .

فلما كان الغَرَقُ ، يعنى الطوفان ، بعث الله جل ثناؤه سبعين ألف ملك فرفعوه إلى السماء ، كى لا يصيبه الماء النجس ، وبقيت قواعده ، وجاءت السفينة فدارت به سبعا ثم دَثَر البيت ، فلم يحجه من بَيْن نوح وبَيْن إبراهيم أحدٌ من الأنبياء على جميعهم السلام .

وعن غير الواقدى فى غير حديث أبى الجَهْم ، أن شيث بن آدم عليهما السلام ، هو أول مَنْ بَنَى الكعبة ، وأنها كانت قبل أن يبنيها خيمة من ياقوتة حمراء يطوف بها آدم ويأنس بها لأنها أنزلت إليه من الجنة ، وكان قد حَجَّ إلى موضعها من الهند .

وفى الخبر أن موضعها كان غثاء على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض ، فلما بدأ الله خلقَ الأشياء ، خلق التربة قبل السماء ، فلما خلق السماء وقضاهن سَبْع سموات ، دحا الأرضَ ، أى بَسَطها ، وإنما دحاها مِن تحت الكعبة ، فلذلك سُمِّيت مكةُ أمَّ القرى .

وذكر ابن هشام أن الماء لم يصل الكعبة حينَ الطوفان ، ولكنه قام حولها ، وبقيت هي فى هواء إلى السماء ، وأن نوحاً قال لأهل السفينة ، وهى تطوف بالبيت : إنكم فى حَرَم الله عز وجل وحول بيته ، فأحْرِموا اللهَ ولا يمسّ أحدٌ امرأة . وجعل بينهم وبين النساء حاجزاً ، فتعدى حام ، فدعا عليه نوح بأن يسودّ لونُ بنيه ، فأجابه الله على وفق ما دعاه ، واسودّ كوشُ بن حام وولدُه إلى يوم القيامة .

وقد قيل فى سبب دعوته غير هذا ، فالله أعلم .

ويُروى أنه لما نَضَب ماء الطوفان ، بقى مكانَ البيت ربوةٌ من مَدَرَة ، فحجّ إليه بعد ذلك هودٌ وصالح ومن آمن معهما ، وأنّ يَعْرُب قال لهود عليه السلام : ألا تبنيه ؟ قال : إنما يبنيه نبى كريم يأتى من بعدى ، يتخذه الرحمن خليلا .

[إبراهيم وإسماعيل فى موضع البيت]

قال أبو الجَهْم ، من حديث الواقدى : حتى أراد الله بإبراهيم ما أراد ، فولد له إسماعيل وهو ابن تسعين سنة ، فكان بِكْرَ أبيه ، فلما أراد الله عز وجل أن يُبَوِّئ لإبراهيم مكانَ البيت وأعلامه ، أوحى الله إليه يأمره بالمسير إلى بلده الحرام ، فركب إبراهيم البراقَ ، وحمل إسماعيلَ أمامه وهو ابن سنتين ، وهاجَرُ خَلْفَه ، ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومَعالم الحرم ، فكان لا يمرّ بقرية إلا قال له إبراهيم : بهذه أمرتُ يا جبريل ؟ فيقول جبريل : لا . حتى قدِم به مكة ، وهى إذ ذاك عِضَاهٌ وسَلَمٌ ، وسَمُرٌ [1] ، والعماليقُ يومئذ حول الحرم ، وهم أول من نزل مكة ويكونون بعرفة ، وكانت المياه يومئذ

(١) العضاه : شجر الخمط أو كل ذى شوك ، والسلم والسمر : شجر أيضاً .

قليلة ، وكان موضعُ البيت قد دَثَر وهو رَبْوَة حمراء مَدَرة ، وهو يُشْرف على ما حوله ، فقال جبريل حين دخل من كَداء ، وهو الجبل الذى يطلعك على الحَجُون والمقبرة : بهذا أمرتَ . قال إبراهيم : بهذا أمرتُ ؟ قال : نعم .

فانتهى إلى موضع البيت ، فعَمَد إبراهيمُ إلى موضع الحِجْر فآوى فيه هاجرَ وإسماعيلَ ، وأمر هاجرَ أن تتخذ فيه عَريشاً ، فلما أراد إبراهيم أن يخرج ، ورأت أم إسماعيل أنه ليس بحضرتها أحد من الناس ولا ماء ظاهر ، تركت ابنَها فى مكانه وتبعت إبراهيم ، فقالت : يا إبراهيم إلى مَن تَدَعُنا ؟ فسكت عنها ، حتى إذا دنا من كداء قال : إلى الله عز وجل أَدَعكم . فقالت : فاللهُ عز وجل أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : فحسبى تركتَنا إلى كافٍ .

وانصرفت هاجر إلى ابنها ، وخرج إبراهيم حتى وقف على كداء ، ولا بناء ولا ظِلّ ولا شىء يحُول دون ابنه ، فنظر إليه ، فأدركه ما يدرك الوالدَ من الرحمة لولده ، فقال : « رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ »[1] .

ثم انصرف إبراهيم راجعاً إلى الشام ، وعَمِدت هاجر فجعلت عريشاً فى موضع الحِجْر من سَمُرٍ وثُمام ألقته عليه ومعها شَنٌّ فيه شىء من الماء ، فلما نفد الماء عطش إسماعيل وعطشت أمه ، فانقطع لبنها ، فأخذ إسماعيلَ كهيئة الموت ، فظنت أنه ميت ، فجزعت وخرجت جزَعاً أن تراه على تلك الحال ، وقالت : يموت وأنا غائبة عنه أهونُ علىّ ، وعسى الله أن يجعل لى فى مَمْشَاىَ خيراً .

---

(١) سورة إبراهيم ٣٧ ، ٣٨ .

فانطلقت فنظرت إلى جبل الصفا ، فأشرفَتْ عليه تستغيث ربَّها عز وجل وتدعوه ، ثم انحدرت إلى المروة ، فلما كانت فى الوادى خَبَّت[1] حتى انتهت إلى المروة ، فعلت ذلك سبعَ مِرار ، كلما أشرفت على الصفا نظرت إلى ابنها ، فتراه على حاله ، وإذا أشرفت على المروة فمثل ذلك .

فكان ذلك أولَ ما سُعى بين الصفا والمروة . وكان من قبلها يطوفون بالبيت ولا يسعون بين الصفا والمروة ، ولا يقفون المواقف ، حتى كان إبراهيم .

فلما كان الشوط السابع ويئست سمعت صوتاً ، فاستمعت فلم تسمع إلا الأول ، فظنت أنه شىء عرَض لسَمْعها من الظمأ والجَهْد .

فنظرت إلى ابنها فإذا هو يتحرك ، فأقامت على المروة مليًّا ، ثم سمعت الصوت الأول ، فقالت : إنى سمعت صوتك فأعجبنى ، فإن كان عندك خير فأغِثْنى ، فإنى قد هلكت وهلك ما عندى .

فخرج الصوتُ يصوِّت بين يديها ، وخرجت تتلوه قد قويت له نفسها ، حتى انتهى الصوت عند رأس إسماعيل ، ثم بدا لها جبريلُ ، فانطلق بها حتى وقف على موضع زمزم ، فضرب بعَقِبه مكان البئر ، فظهر الماء فوقَ الأرض حين فحص بعقبه ، وفارت بالرَّواء ، وجعلت أمُّ إسماعيل تُحَظِّر الماء بالتراب خشية أن يفوتها قبل أن تأتى بشَنَّتها[2] ، فاستقت وبادرت إلى ابنها فسقته وشربت ، فجعل ثدياها يتقطَّران لبناً ، فكان ذلك اللبنُ طعاماً وشراباً لإسماعيل ، وكانت تجتزئُ بماء زمزم ، فقال لها الملك : لا تخافى أن يَنْفَدَ هذا الماء ، وأبشرى ، فإن ابنك سيشبُّ ويأتى أبوه من الشام ، فتبنون هاهنا بيتاً يأتيه عبادُ الله من أقطار الأرضين ملبِّين لله جل ثناؤه شُعْثاً غُبْراً ، فيطوفون به ويكون هذا الماء شراباً لضيفان الله عز وجل الذين يزورون بيته .

---

(١) خبت : جرت .

(٢) الشنة : القربة الخلق .

فقالت : بشّرك الله بخير. وطابت نفسها وحمدت الله عز وجل .

ويقبل غلامان من العماليق يريدان بعيراً لهما أخطأهما ، فقد عطشا وأهلُهما بعرفة ، فنظرا إلى طير تهوى قِبَلَ الكعبة فاستنكرا ذلك ، وقالا : أنّى يكون الطير على غير ماء ؟ فقال أحدهما لصاحبه : أمهل حتى نَبْرُد ، ثم نسلك في مَهْوَى الطير .

فأبردَا ثم تروّحا ، فإذا الطير تَرِدُ وتَصْدُر ، فاتبعا الواردةَ منها حتى وقفا على أبي قُبَيْس ، فنظرا إلى الماء وإلى العريش ، فنزلا وكلّما هاجَرَ وسألاها متى نزلت ؟ فأخبرتهما ، وقالا : لمن هذا الماء ؟ فقالت : لي ولابني . فقالا : من حفره ؟ فقالت : سُقْيا الله جل ثناؤه .

فعرفا أن أحداً لا يقدر على أن[1] يحفر هناك ماء ، وعَهْدهما بما هناك قريب وليس به ماء .

فرجعا إلى أهلهما من ليلتهما ، فأخبراهم ، فتحوّلوا حتى نزلوا معها على الماء فأنست بهم ، ومعهم الذرية ، فنشأ إسماعيل مع ولدانهم .

وكان إبراهيم يزور هاجر في كل شهر على البُرَاق يغدو غدوة فيأتي مكة ، ثم يرجع فيَقِيل في منزله بالشام .

فزارها بعدُ ، ونظر إلى مَنْ هناك من العماليق وإلى كثرتهم وعَمارة الماء ، فسُرّ بذلك .

ولما بلغ إسماعيلُ عليه السلام تزوج امرأة من العماليق ، فجاء إبراهيمُ زائراً لإسماعيل ، وإسماعيل في ماشية يرعاها ويخرج متنكبا قوسه ، فيرمى الصيدَ

---

(١) ت : أن لا يقدر أحد أن يحفر .

مع رِعْيَته ، فجاء إبراهيم عليه السلام إلى منزله ، فقال : السلام عليكم يا أهل البيت .

قال : فسكتت فلم تردّ ، إلا أن تكون ردّت فى نفسها ، فقال : هل من منزل ؟ فقالت لا هَيْمُ الله إذن ، قال : فكيف طعامكم وشرابكم وشاؤكم ؟ فذكرت جَهْدا ، فقالت : أمّا الطعام فلا طعام ، وأما الشاء فإنما نحلبُ الشاة بَعْدَ الشاة المَصْرَ[1] ، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ ، قال : فأين رب البيت ؟ قالت فى حاجته .

قال : فإذا جاء فأقرئيه السلام ، وقولى له غيِّرْ عتبةَ بيتك .

ورجع إبراهيم إلى منزله ، وأقبل إسماعيل راجعاً إلى منزله بعد ذلك بما شاء الله عز وجل ، فلما انتهى إلى منزله سأل امرأته هل جاءك أحد ؟ فأخبرته بإبراهيم وقوله وما قالت له ، ففارقها وأقام ما شاء الله أن يقيم .

وكانت العماليق هم ولاة الحُكم بمكة فضيّعوا حرمة الحَرَم واستحلُّوا منه أموراً عظاماً ونالوا ما لم يكونوا ينالون ، فقام فيهم رجل منهم يقال له عَمُوق[2] ، فقال يا قوم أبقُوا على أنفسكم ، فقد رأيتم وسمعتم مَنْ أهلِكَ من هذه الأمم ، فلا تفعلوا ، تَوَاصَلُوا ولا تستخفُّوا بحَرَم الله عز وجل وموضع بيته .

فلم يقبلوا ذلك منه ، وتمادوا فى هَلَكَة أنفسهم .

ثم إن جُرْهماً وقَطُورَاء ، وهما أبناء عم خرجوا سيّارةً من اليمن ، أجدبت البلاد عليهم ، فساروا بذراريهم وأموالهم ، فلما قدموا مكّة رأوا فيها ماء مَعِينا وشجراً ملتفًّا ، ونباتاً كثيراً ، وسعة من البلاد ، ودِفْئاً فى الشِّتاء .

---

(١) المصر : الحلب بأطراف الأصابع ، وناقة مصور بطيئة خروج الدر لا تحلب إلا مصراً

(٢) ت : عملوق .

فقالوا إن هذا الموضوع يجمع لنا ما نريد .

فأعجبهم ونزلوا به ، وكان لا يخرج من اليمن قوم إلاّ ولهم مَلِك يقيم أمرهم ، سُنّةٌ فيهم جرَوْا عليها واعتادوها ولو كانوا نفراً يسيراً .

فكان مُضاضُ بن عمرو على قومه من جُرْهم ، وكان على قطوراء السَّمَيْدَعُ ، رجلٌ منهم .

فنزل مُضاض بمن معه من جُرْهم أعلى مكة بقُعَيْقِعان[1] فما حاز .

ونزل السَّمَيْدَع بقَطُوراء أسفلَ مكة بأجيادَ[2] ، فما حاز .

وذهبت العماليق إلى أن ينازعوهم أمرهم فملَتْ أيديهم على العماليق وأخرجوهم من الحرم كله ، فصاروا فى أطرافه لا يدخلونه .

وجعل مُضاض والسَّمَيْدَع يُقْطِعان المنازل لمن ورد عليهما من قومهما فكَثُروا وأثْرَوا ، فكان مضاض يَعْشُر[3] ، كلَّ من دخل مكة مِن أعلاها ، وكان السميدع يَعْشُر كلَّ من دخل من أسفلها ، وكلٌّ على[4] قومه لا يدخل أحدهما على صاحبه ، وكانوا قوماً عَرَباً وكان اللسانُ عربيا .

وكان إبراهيم يزور إسماعيل ، فلما نظر إلى جُرْهم نظر إلى لسان عجيب وسمع كلاماً حسناً ، ونظر إسماعيل إلى رَعْلة بنت مُضاض بن عمرو ، فأعجبته فخطبها إلى أبيها فتزوجها .

فجاء إبراهيم زائرا لإسماعيل ، فجاء إلى بيت إسماعيل ، فقال : السلام عليكم

---

(١) قعيقعان جبل بمكة .

(٢) جبل بمكة .

(٣) عشرهم يعشرهم عشرا وعشورا أخذ عشر أموالهم .

(٤) ابن هشام : فى قومه .

ورحمة الله وبركاته ، فقامت إليه المرأة فردّت عليه ورحّبت به ، فقال كيف عيشكم ولبنكم وماشيتكم ؟ فقالت خيرُ عيشٍ بحمد الله عز وجل ، نحن فى لبنٍ كثير ولحم كثير وماؤنا طيّب ، قال هل من حَبّ ؟ قالت : يكون إن شاء الله ونحن فى نِعَم . قال : بارك الله لكم .

قال أبو جَهْم : فكان أبى يقول : ليس أحد يَخْلى عن اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه ، ولَعَمْرى لو وجد عندنا حَبًّا لدعا فيه بالبركة فكانت أرضَ زَرْع .

ويقال إن إبراهيم قال لها : ما طعامكم ؟ فقالت : اللحم واللبن . قال فما شرابكم ؟ قالت اللبن والماء . قال : بارك الله لكم فى طعامكم وشرابكم ، فاللبن طعام وشراب .

قالت : فانزل رحمك الله فاطْعَم واشرب . قال : إنى لا أستطيع النزول . قالت فإنى أراك شَعِثًا أفلا أغسل رأسك وأدْهنُه ؟ قال بلى إن شئتِ . فجاءته بالمقام وهو يومئذٍ حَجَر رَطْبٌ أبيض مثل المهاة[1] ، مُلْقًى فى بيت إسماعيل ، فوضع عليه قدمه اليمنى وقدّم إليها رأسه وهو على دابته فغسلت شِقّ رأسه الأيمن ، فلما فرغت حوّلت له المقام حتى وضع قدمه اليسرى ، وقدّم إليها رأسه فغسلتَ شِقّ رأسه الأيسر ، فالأثر الذى فى المقام من ذلك . قال أبو الجَهْم : فقد رأيت موضعَ العقِب والإصبع .

وعن الواقدى من غير حديث أبى الجهم أن أبا سعيد الخِدْرىّ سأل عبد الله ابن سلام عن الأثر الذى فى المقام ، فقال : كانت الحجارة على ما هى عليه اليوم إلاّ أن الله جل ثناؤه أراد أن يجعل المقام آيةً من آياته .

---

(١) المهاة : الشمس

قال أبو الجهم : فلما فرغت يعنى المرأة، من غسل رأس إبراهيم عليه السلام قال لها : إذا جاء إسماعيل فقولى له : أثبت عتبة بابك فإن صلاح المنزل العتبة .

فلمّا جاء إسماعيل قال : هل جاءك أحد بعدى ؟ فأخبرته بإبراهيم وما صنعت به ، ثم قال لها : هل قال لك أن تقولى شيئاً ؟ قالت : قال لى أثبت عتبة بابك فإن صلاح المنزل العتبة .

ففرح إسماعيل وقال لها : أتدرين من هو ؟ قالت : لا . قال : هذا خليل الله إبراهيم أبى ، وأما قوله «أثبت عتبة بابك» فقد أمرنى أن أقرّك وقد كنت علىّ كريمةً وقد ازددتِ علىّ كرامة . فصاحت و بكت ، فقال : مالك ؟ قالت : ألاّ أكون علمت بمن هو فأكرمه وأصنع به غير الذى صنعت ! فقال لها إسماعيل : لا تبكى ولا تجزعى فقد أحسنت ولم تسكونى تقدرين أن تفعلى فوق الذى فعلتِ ، ولم يكن يزيدك على الذى صَنَع بك .

فولدت لإسماعيل عشرة ذكور أحدهم نابت .

[بناء إبراهيم للبيت]

فلما بلغ إسماعيل ثلاثين سنة و إبراهيم يومئذٍ ابن مائة سنة ، أوحى الله جل ثناؤه إلى إبراهيم أن ابْن لى بيتا . قال إبراهيم : أى ربّ أين أبنيه ؟

فأوحى الله إليه : أن اتبع السكينة ، وهى ريح لها وجه وجناحان ومع إبراهيم الملك والصُّرَد (١) .

فانتهوا بإبراهيم إلى مكة ، فنزل إسماعيل إلى الموضع الذى بوّأه الله جل وعز لإبراهيم ، وموضعُ البيت ربوةٌ حمراء مَدَرَةٌ مُشْرفة على ما حولها .

---

(١) الصرد : طائر ضخم الرأس .

فحفر إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام ، وليس معهما غيرهما ، أساسَ البيت ، يريدان أساسَ آدم الأول .

فحفرا عن رَبَض البيت ، يعنى حوله ، فوجدا صخرةً لا يطيقها إلا ثلاثون رجلا ، وحفرا حتى بلغا أساس آدم ثم بنى عليه ، وحلّقت السكينة كأنها سحابة ، على موضع البيت ، فقالت : ابْنِ علىّ .

فلذلك لا يطوف بالبيت أحد أبدا ، كافر ولا جبار ، إلا رأيتَ عليه السكينة .

فبنى إبراهيمُ وإسماعيل البيت ، فجعل طولَه فى السماء تسعَ أذرع ، وعرضَه ثلاثين ذراعا ، وطولَه فى الأرض اثنين وعشرين ذراعا ، وأدخل الحِجْر وهو سبعة أذرع فى البيت ، وكان قبل ذلك زرْباً لغنم إسماعيل .

وإنما بناه بحجارة بعضها على بعض ، ولم يجعل له سقفا ، وجعل له بابا وحفر له بئرا عند بابه خزانةً للبيت ، يلقى فيها ما أُهدِى للبيت وجعل الركنَ علَماً للناس .

فذهب إسماعيل إلى الوادى يطلب حَجَرا ، ونزل جبريل بالحجر الأسود ، وكان قد رفع إلى السماء حين غرقت الأرض ، كما رُفع البيت ، فنزل به جبريل فوضعه إبراهيم موضع الركن ، وجاء إسماعيل بالحجر من الوادى فوجد إبراهيمَ قد وضع الحجَر ، فقال : من أين هذا ؟ من جاءك به ؟ قال إبراهيم : من لم يكلنى إليك ولا إلى حَجرك .

وعن الواقدى أيضاً ، من غير حديث أبى الجَهم ، أن يزيد بن رُومان ، قال : سمعت ابنَ الزبير يقول : إن إبراهيم عليه السلام ابتغى الحَجر ، فناداه من فوق أبى قُبيس : ألا أنا هذا . فرَقى إليه إبراهيمُ فأخذه ، فوضعه موضعه الذى هو فيه اليوم .

وكان الله جل ثناؤه لما غرقت الأرض استودع أبا قُبيس الركنَ ، وقال : إذا رأيت خليلي يبني لي بيتا فأعطه الركنَ. فأعطاه الركن .

وعن غير ابن الزبير أن أبا قُبيس لذلك كان يسمى في الجاهلية الأمين ، لوفائه بما استودعه الله إياه .

قال أبو جَهْم : ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت وأدخل الحِجْر في البيت ، جعل المقام لاصقاً بالبيت عن يمين الداخل ، فلما كانت قريش قَصُر الخشب عليهم ، فأخرجوا الحِجْر ، وكان ما أخرجوا منه سبعةَ أذرع .

[إبراهيم يؤذن بالحج]

وأمر إبراهيمُ بعد فراغه من البناء أن يؤذِّن في الناس بالحج ، فقال : يا رب ، وما يَبْلغ صوتي ؟!

فقال الله جل ثناؤه : أذِّن وعليَّ البَلاَغ .

فارتفع على المقام وهو يومئذ ملصَقٌ بالبيت ، فارتفع به المقام حتى كان أطولَ الجبال ، فنادى وأدخل إصبعيه في أذنيه ، وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً ، يقول : أيها الناس ، كُتب عليكم الحَجُّ إلى البيت العتيق ، فأجيبوا ربكم عز وجل .

فأجابه مَنْ تحت البحورِ السبعة ، ومَنْ بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلِّها : لَبَّيْك اللهم لبيك .

أفلا تراهم يأتون يُلبّون ؟!

فمن حَجَّ مِن يومئذ إلى يوم القيامة فهو ممن استجاب لله عز وجل .

وذلك قولُ الله جل ثناؤه : « فيه آياتٌ بينات ، مقامُ إبراهيمَ[1] » يعني نداء إبراهيم على المقام بالحج فهي الآية .

قال الواقدي : وقد رُوى أن الآية هي أثرُ إبراهيم على المقام .

[إبراهيم يتعلم مناسك الحج]

قال أبو الجَهمُ : فلما فرغ إبراهيمُ من الأذان ذهب به جبريل فأراه الصفا والمروة ، وأقامه على حدود الحرَم ، وأمره أن يَنْصِب عليها الحجارة ، ففعل إبراهيمُ ذلك ، وكان أول من أقام أنصابَ الحَرَم ، ويريه إياها جبريلُ .

فلما كان اليوم السابعُ من ذي الحجة ، خطب إبراهيمُ عليه السلام بمكة ، حين زاغت[2] الشمس قائما ، وإسماعيل جالس ، ثم خرجا من الغد يمشيان على أقدامهما يُلبِّيان مُحْرِمَيْن ، مع كل واحد منهما إداوة يحملها وعصاً يتوكأ عليها ، فسمّى ذلك اليومُ يومَ التَّرْوِيَة .

فأتيا مِنًى فصلَّيا بها الظهر والعصر والمغربَ والعشاء والصبح ، وكانا نزلا في الجانب الأيمن ، ثم أقام حتى طلعت الشمس على ثَبِير ، ثم خرج يمشي هو وإسماعيل حتى أتيا عرفة ، وجبريلُ معهما يريهما الأعلام ، حتى نزلا بِنَمِرة ، وجعل يريه أعلامَ عرفات ، وكان إبراهيم قد عرفها قبل ذلك ، فقال إبراهيم : قد عرفتُ . فسمّيت عَرَفات .

فلما زاغت الشمس خرج بهما جبريل عليه السلام ، حتى انتهى بهما إلى موضع المسجد اليوم ، فقام إبراهيم فتكلم بكلمات ، وإسماعيل جالس ، ثم جمع بين

---

(١) سورة آل عمران ٩٧

(٢) زاغت الشمس : مالت ، وذلك إذا ماء الرء .

الظهر والعصر ، ثم ارتفع بهما إلى الهِضاب ، فقاما على أرجلهما يدعوان ، إلى أن غابت الشمس وذهب الشُّعاع ، ثم دَفَعا من عرفة على أقدامها ، حتى انتهيا إلى جَمْع فنزلا ، فصلى إبراهيمُ المغربَ والعشاء فى ذلك الموضع الذى يصلّى فيه اليوم ، ثم باتا حتى إذا طلع الفجر وقفا على قُزَحَ(١) ، فلما أسفرا قبل طلوع الشمس دفعا على أرجلها حتى انتهيا إلى مُحَسِّر(٢) ، فأسرعا حتى قطعاه ثم عادا إلى مشيهما الأول ، ثم رميا جمرة العقبة بسبع حصيات حملاها مِن جَمْع ، ثم نزلا من مِنى فى الجانب الأيمن ، ثم ذَبحا فى المَنْحَر اليوم ، وحلَقا رؤوسهما ، ثم أقاما أيامَ مِنىً يرميان الجمار حين تزيغ الشمس ماشيَيْن ذاهبَيْن وراجعين ، وصَدَرَا يومَ الصَّدَر فصلّيا الظهر بالأبْطح ، وكل هذا يريه جبريلُ عليه السلام .

قال أبو الجهم : فلما فرغ إبراهيمُ من الحج انطلق إلى منزله بالشام ، فكان يحج البيتَ كلَّ عام ، وحَجّته سارّةُ ، وحَجّه إسحقُ ويعقوب والأسباط ، والأنبياء ، هلم جرا .

وحَجّه موسى بن عِمران عليه السلام .

روى الواقدى بإسناد له عن ابن عباس قال : مَرّ موسى عليه السلام بِصِفَاح الرَّوْحاء يلبى ، تجاوبه الجبالُ ، عليه عَبَاءتان قطوَانِيّتان من عَبَاء الشام .

وعن جابر بن عبد الله قال : حج هارون نبيُّ الله البيتَ ، فمرّ بالمدينة يريد الشام ، فمرض بالمدينة فأوصى أن يُدْفن بأصل أُحُد ، ولا تُعْلم به يهودُ ، مخافة أن يَنْبشوه ، فدفنوه فقَبْره هناك .

---

(١) قزح : جبل بالمزدلفة .
(٢) موضع بمنى .

وعن ابن عباس ، أن الحواريين كانوا إذا بلَغوا الحَرم نزلوا يمشون حتى يأتوا البيت .

وعن ابن الزبير : أن الحواريين خلعوا نعالهم حين دخلوا الحَرَم ، إعظاما أن ينتعلوا فيه .

[وفاة إبراهيم]

ثم توفى الله خليله إبراهيمَ صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وجه إليه ملَكَ الموت ، فاستنظره إبراهيمَ ، ثم أعاده إليه لمَّا أراد الله قبضه ، فأخبره بما أُمر به ، فسلَّمَ إبراهيمُ لأمر ربه عزوجل ، فقال له ملك الموت : يا خليل الله ، على أى حال تحب أن أقْبضك ؟

قال : تقبضنى وأنا ساجد . فقبضه وهو ساجد ، وصعد بروحه إلى الله عزوجل . ودفن إبراهيم عليه السلام بالشام .

وعاش إسماعيل عليه السلام بعد أبيه ما عاش ، وتوفى بمكة ، فدفن داخل الحِجْر ، مما يلى باب الكعبة ، وهنالك قبرُ أمه هاجر ، دفن معها وكانت توفيت قبله .

[ولاة البيت بعد إسماعيل]

ولما توفى إسماعيل عليه السلام وَلِى البيتَ بعده ابنه نابت ، ولم يَلِه أحد من ولده غيره .

ثم مات فدفن فى الحِجْر مع أمه رَعْلَة بنت مُضَاض .

فولِىَ البيت بعده جَدُّه مُضَاض بن عمرو ، ثم أخواله من جُرْهم ، وقاموا عليه، فكانوا هم ولاته وحُجَّابه وولاة الأحكام بمكة .

وكان البيت قد دخله السيلُ من أعلى مكة فانهدم ، فأعادته جُرْهم على بناء إبراهيم ، وجعلت له مصراعين وقُفْلا .

[بين جُرْهم وقطوراء]

قال ابن إسحق : ثم إن جُرْهما وقطوراء بغى بعضهم على بعض وتنافسوا الملْك بها ، ومع مُضاض يومئذ بنو إسماعيل وبنو نابت وإليه ولاية البيت دون السَّمَيْدَع .

فسار بعضُهم إلى بعض ، فخرج مُضاض من قُعَيْقِعان فى كتيبته سائرا إلى السَّمَيْدع ، ومع كتيبة عُدَّتها من الرماح والدَّرَق والسيوف والجِعاب يُقَعْقِع بذلك معه .

فيقال : ما سُمِّى قُعَيْقِعانُ قعيقعانَ إلا لذلك .

وخرج السَّميدَعُ من أجْياد ومعه الخيل والرجال .

فيقال : ما سُمِّى أجيادٌ أجياداً إلا لخروج الجياد من الخيل مع السميدع منه .

وغيرُ ابن اسحق يقول : إنما سُمِّى أجيادًا لأن مُضاضا ضرب فى ذلك الموضع أجيادَ مائة رجل من العمالقة . وقيل : بل أمر بعض الملوك ، غيرُ مسمَّى ، بضرب رقابٍ فيه ، فكان يقول لسيَّافه : توسَّط الأجيادَ . وهذا ونحوه أصح فى تسمية الموضع بأجياد ، مما قال ابن إسحق .

قال : فالتقَوْا بفاضِح ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، فقُتل السَّمَيْدعُ وفُضحت قَطُوراء . فيقال ما سُمِّى فاضحٌ فاضحاً إلا لذلك .

ثم إن القوم تداعوا إلى الصلح ، فساروا حتى نزلوا المطابخَ شِعْبا بأعلى مكة ، فاصطلحوا به وأسلموا الأمر إلى مُضاض .

فلما رجع إليه أمرُ مكة فصار مُلكها له ، نحر للناس وأطعمهم ، فاطَّبخَ الناسُ وأكلوا . فيقال : ما سميت المطابخَ المطابخُ إلا لذلك . وبعض أهل العلم يزعم أنها إنما سميت بذلك[1] لمـا كان تُبَّعٌ نَحَرَ بها وأطْعَم ، وكانت منزلَه .

فكان الذى كان بين مُضاض والسَّمَيْدع أولَ بَغْيٍ كان بمكة ، فيما يزعمون .

ثم نشر الله ولدَ إسماعيل بمكة ، وأخوالُهم من جُرْهم ولاة البيت والحكام بمكة ، لا ينازعهم ولدُ إسماعيل فى ذلك ، لخئولتهم وقرابتهم ، وإعظاما للحُرْمة أن يكون بها بغى أو قتال .

فلما ضاقت مكةُ على ولد إسماعيل ، انتشروا فى البلاد ، فلا يناوئون قوما إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم فوطِئوهم .

[ولاية كنانة وخزاعة]

ثم إن جُرْهم بغوا بمكة ، واستحلوا خلالا من الحُرمة ، فظلموا من دخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال الكعبة الذى يُهْدَى لها ، فرَقَّ أمرُهم .

فلما رأت ذلك بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وغُبْشان من خُزَاعة ، أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة ، فآذَنوهم بالحرب .

فاقتتلوا فغلبتهم بنو بكر وغُبْشان ، فنفوهم من مكة .

وكانت مكة فى الجاهلية لا تُقِرُّ فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته ، فكانت تسمّى الناسَّة ، ولا يريدها ملِك يستحل حرمتها إلا هلك

---

(١) ابن هشام : سميت المطابخ .

مكانه . فيقال : ما سميت بَبَكّة ، إلا أنها كانت تَبُكّ(١) أعناقَ الجبابرة إذا أحْدَثوا فيها شيئاً .

[تعظيم العرب للحرم]

فلم يزل أهلها على وجه الدهر يصونون جَنَابَها ويحافظون على حُرْمتها .

يقال : إنه اجتمع رأى بنى إسماعيل وخيارهم على أن لا يَدَعوا أحداً أحْدَث فى حَرَم الله حدثاً إلا غرّبوه منه ، ثم لم يرجع فيه . ويقال : بل كان ذلك مما سَنّ لهم أوّلوهم ، فصارت سنّةً فيهم يَدِينون بها ، ثم خاف مَن خَلَف بعدهم على ذلك ، يرون فيه رأيهم ، وتَكْبُر مُوَاقعةُ الظلم فى حَرَم الله والتعدى به فى نفوسهم ، ويعتقدون أن الباغى فيه معاقَبٌ فى دنياه فى نفسه وماله ، وأن الحالف عند البيت حانثاً مَخُوفٌ عليه مما أصاب قبله مَن فعل فعله ، وأن دعاء المظلوم عنده وخصوصاً فى الشهر الحرام مُجابٌ فى ظالمه ، ويُؤْثِرون فى ذلك أشياء أراها الله إياهم ، صَوْناً لحرَمه الكريم ، وتنزيهاً لبيت خليله إبراهيم .

ذكر الواقدى من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث ، قال : عدا رجل من بنى كنانة بن هُذَيل على ابن عم له وظلمه واضطهده فناشده بالرّحم وعظّم عليه ، فأبى إلا ظُلْمه ، فقال : والله لأُلحقن بحرم الله فى هذا الشهر ، ولأدعون الله عليك . فقال له ابن عمه مستهزئاً به : هذه ناقتى فلانة ، فأنا أُفْقِرُك ظَهْرَها فاذهب فاجتهد .

فأعطاه ناقة ، وخرج حتى جاء الحرمَ فى الشهر الحرام ، فقال : اللهم إنى أدعوك جاهداً مضطراً على ابن عمى فلان ، ترميه بداء لا دواء له .

---

(١) ت ط: سقطت منها كلمة كانت . ومعنى تبك: تكسر .

ثم انصرف ، فيجدُ ابنَ عمه قد رُمى فى بطنه فصار مثل الزّق ، فما زال ينتفخ حتى انشق .

قال عبد المطلب : فحدّثت بهذا الحديث ابنَ عباس ، فقال : أنا رأيتُ رجلا دعا على ابن عم له بالعمى ، يمنى فى الحرم ، فرأيته يقادُ أكْمَهَ العميان .

وعن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب يسأل رجلا من بنى سُلَيم عن ذهاب بصره . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، كنا فى بنى ضبعاء عشرة ، وكان لنا ابن عم ، فكنا نظلمه ونضطهده ، فكان يذكّرنا بالله والرحم ، وكنا أهلَ بيت نرتكب كل الأمور ، فلما رأى ابنُ عمنا أنا لا نكُف عنه ولا نَرُدُّ إليه ظُلاَمته ، أمْهَل حتى دخلت الأشهرُ الحُرُم ، انتهى إلى الحرم فجعل يرفع يديه إلى الله جل ثناؤه ويقول :

لا هُمّ أدعوك دعاء جاهداً   اقتل بنى الضَّبْعاء إلا واحداً
ثم اضرب الرِّجلَ ودَعْه قاعدا   أعْمَى إذا قِيدَ يُعَنِّى القائدَا

قال : فمات إخوتى تسعةٌ فى تسعة أشهر ، فى كل شهر واحد ، وبقيت أنا ، فعَمِيت ورمانى الله عز وجل فى رِجْلى ، وكَمِهْتُ فليس يلائمنى قائد .

قال ابن عباس : فسمعت عمر يقول : سبحان الله إن هذا لهو العَجَب !

وسمعت عمر يسأل ابنَ عمهم الذى دعا عليهم ، فقال : دعوتُ عليهم كلَّ ليلة فى ليالى رجب الشهرَ كله بهذا الدعاء ، فأهلِكوا فى تسعة أشهر وأصاب الباقىَ ما أصابه .

قال ابن عباس : وعدَا رجل على ابن عم له فاستاق ذَوْدًا له ، فخرج يطلبه حتى أصابه فى الحَرَم ، فقال : ذَوْدِى فقال اللص : كذَبْتَ ليس لك . قال :

فاحلف . قال : إن ذا أحلف . فحلف عند المقام بالله الخالق ربِّ هذا البيت ما هُنَّ لك .

فقيل له : لا سبيل لك عليه .

فقام ربُّ الذَّود بين الركن والمقام باسطا يديه يدعو على صاحبه ، فما برح مقامه يدعو عليه حتى دَلِه فذهب عقلُه ، فجعل يصيح بمكة : مالى وللذَّوْدِ ، مالى ولفلان رَبِّ الذَّوْدِ .

فبلغ ذلك عبدَ المطلب ، فجمع الذَّوْدَ فدفعها إلى المظلوم فخرج بها ، وبقى الآخر مُدَلَّها حتى تردَّى من جبل فمات فأكلته السباع .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لو وجدتُ قاتلَ الخطاب فى الحرم ما هِجْتُه .

وكان يقول : لأن أذنب برُكْبَةَ سبعين ذنبا أحبُّ إلى من أن أذنب ذنبا واحداً فى الحرم .

ورُكْبة خارجَ الحرم ، محاذيةٌ لذات عِرْق .

وذكر رضى الله عنه يوماً وهو خليفة ما كان يعاقَب به مَنْ حَلَف ظُلْما ، يعنى فى الحرم ، زمن الجاهلية ، فقال : إن الناس ليرتكبون ما هو أعظم منها ثم لا يعجَّل لهم من العقوبة مثلَ ما كان يعجَّل لأولئك ، فما ترون ذلك ؟

فقالوا : أنت أعلَمُ يا أمير المؤمنين .

قال : إن الله جَلَّ ثناؤه جعل فى الجاهلية ، إذ لادِينَ ، حُرْمةً حرَّمها وعظَّمها وشرَّفها ، وجعل العقوبة لمن استحل شيئاً مما حَرَّم ، ليتنكب عن انتهاك ما حرَّم مخافة تعجيل العقوبة ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أوْعَدهم فيها

انتهكوا مما حرّم الساعةَ ، فقال : « والساعةُ أدْهَى وأمَرّ »[1] .

فأخّر العقابَ إلى يوم القيامة ، وأراهم الله الاستجابة بعضهم لبعض ليتناهوا عن الظلم ، وأخّر أهلَ الإسلام ليوم الجَمْع ، ويستجيب الله لمن يشاء ، فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين .

ومن المشهور فى هذا الباب أمرُ إسافَ ونائلة ، وهما صَنَما قريش اللذان أقاموهما على زمزم يَنْحَرون عندهما . ذكروا أنهما كانا رجلا وامرأةً من جُرهم ، إساف بن بَغِيّ ، ونائلة بنت ديك ، فوقع إساف على نائلة فى الكعبة ، فمسخهما الله حجرين . ويقال : أحدَثا فيها فمسخهما الله . فالله أعلم .

وأمرُهما معدودٌ فيما بلغت إليه جُرهم من الاستخفاف بحرمة الحرم[2] وقلة مبالاتهم بالبَغْى فيه ، مع ما أراهم الله من عظيم الآية بمَسْخهما حَجَرين ، فما نهاهم ذلك عن قبيح ما كانوا عليه ، حتى أخرجهم الله عن جِوار بيته بأيدى آخرين من عباده ، فكان مِن أمرهم مع خُزَاعة ما كان .

[خروج جرهم من مكة] .

فخرج عمرو بن الحارث بن مُضاض الجُرْهمى بغَزَالَى الكعبة وبحَجَر الركن فدفنها فى زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جُرْهم إلى اليمن ، وحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة ومُلكها حزناً شديداً .

فقال عمرو بن الحارث بن مُضاض فى ذلك ، وليس بمضاض الأكبر :

كأنْ لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفا[3] أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامرُ

(١) سورة القمر ٤٦ .
(٢) غيرط : حرمة الله .
(٣) الحجون : جبل بمعلاة مكة .

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا[1] صروفُ الليالى والجدودُ العواثرُ
وكنا ولاةَ البيتِ مِنْ بَعْد نابتٍ نطوف بذاك البيت والخيرُ ظاهرُ
ونحن وَلِينا البيتَ من بعد نابتٍ بعزٍّ فما يَحْظى لدينا المكاثرُ
مَلَكْنا فعزَّزْنا فأعظِمْ بمُلْكنا فليس لحىٍّ غيرِنا ثَمَّ فاخِرُ
ألم تُنْكحوا[2] من خير شخصٍ عَلِمْته فأبناؤه منا ونحن الأصاهرُ
فإن تنْثَنِ الدنيا علينا بحالها فإنَّ لها حالا وفيها التشاجرُ
فأخرجَنا منها المليكُ بقدرةٍ كذلك يا للناس تجرى المقادرُ
أقول إذا نام الخلىُّ ولم أنَمْ أذَا العَرْشِ لا يَبْعُد سُهَيْلٌ وعامرُ
وبُدِّلتُ منها أوجهًا لا أحبها قبائلَ منها حِمْيَرٌ ويحابِرُ[3]
وصِرْنا أحاديثًا وكنا بغِبْطةٍ كذلك عَضَّتْنا السِّنونُ الغوابرُ
فسَحَّتْ دموعُ العينِ تبكى لبلْدة بها حَرَمٌ أمْنٌ وفيها المشاعرُ
وتبكى لبيتٍ ليس يُؤْذَى حمامه يظَلُّ به أمْنًا وفيه العصافرُ
وفيه وحوشٌ لا تُرَامُ أنيسَةٌ إذا خرجت منه فليست تُغَادَرُ

وقال عمرو بن الحارث أيضا يُذكِّر بَكْرًا وغُبْشانَ وساكنى مكة الذين خلَفوا فيها بعدهم :

يا أيها الناس سِيروا إنَّ قَصْرَكُم[4] أنْ تُصْبحوا ذاتَ يومٍ لا تَسِيرونا
حُثُّوا المَطِىَّ وأرْخُوا مِنْ أزِمَّتها قبلَ المماتِ وقَضُّوا ما تُقَضُّونا
كُنَّا أناسًا كما كنتم فغَيَّرنا دهرٌ ، فأنتم كما كُنَّا تكونونا

---

(١) ت ط : فأبادنا ؛ وهى رواية ابن هشام .
(٢) ط : ينكحوا .
(٣) ت : ويخامر وهو خطأ . وحمير ويحابر من قبائل اليمن .
(٤) قصركم : نهايتكم وغايتكم .

قال ابن هشام [هذا ما صح له منها][1] وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب ، وأنها وجدت مكتوبة في حَجر باليمن ولم يُسمَّ لنا[2] قائلها .

[ولاية خزاعة البيت]

ثم إن غُبْشان من خُزَاعة وليت البيتَ دون بنى بكر بن عبد مَنَاة .

وغُبْشان لقب ، واسمه الحارث ، وخزاعة يقال إنهم من ولد قَمَعة بن اَلياس ابن مُضر ، وأن أباهم عمرو بن لُحَىّ هو عمرو بن لُحَىّ بن قمعة [بن خِندف[3]] وخزاعة يأبَوْن هذا النَّسبَ ، ويقولون إنهم مِنْ ولدِ كعب بن عمرو بن ربيعة ابن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن غَسَّان .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُريتُ عمرَو بنَ لُحَىّ بن قَمَعة بن خِنْدف يَجُرُّ قُصْبَه[4] فى النار ، فسألته عمن بَيْنى و بينه من الأمم ، فقال : هلكوا » .

فقيل له : ومن عمرو بن لُحَىّ ؟ قال : أبو هؤلاء الحىّ من خُزَاعة ، وهو أول مَن غيَّر الحنيفيةَ دينَ إبراهيم ، وأول من نَصَب الأوثان حول الكعبة[5] .

فإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا ، فرسول الله أعلم وما قال فهو الحق .

---

(١) من ابن هشام .
(٢) ابن هشام : لى .
(٣) من ت ط .
(٤) القصب : الأمعاء .
(٥) الذى رواه البخارى إلى قوله : « هلكوا » .

وعمرو بن ربيعة الذى تنتسب إليه خزاعة يقال : هو عمرو بن لُحَىّ ، وإن حارثة بنَ ثعلبة بن عمرو خَلَفَ على أم لُحَىّ ، ولُحَىٌّ هو ربيعة بعد أن تأيَّمت[1] من قَمَعة ، ولُحَىٌّ صغير ، فتبناه حارثة وانتسب إليه .

فيكون النسب على هذا صحيحاً بالوجهين ، إلى قَمعة بالولادة وفق ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله ، وإلى حارثة بن ثعلبة بالتبنى ، والانتسابُ به موجود كثيراً فى العرب .

* * *

فلما وليت خُزَاعة البيتَ حفظوه مما كانت جرهم استباحته ، وتوافروا على تعظيمه والذَّبّ عنه ، وكان الذى يَليه منهم عمرو بن الحارث الغُبْشانى ، ثم قومُه من بعده ، وقريش إذ ذاك حُلُولٌ وصِرَمٌ[2] متقطعون وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة .

فأقامت خزاعةُ على ولاية البيت ، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر ، حتى كان آخرَهم حُلَيْلُ بن حَبَشية بن سَلُول بن كعب بن عمرو الخزاعى .

وبعده انتقلت ولاية البيت إلى قُصَىّ بن كِلاَب .

[حديث قصى]

وكان من حديث قصى أنه لمَّا هلك أبوه كِلاب بن مُرة ، خلَّف ولديه زُهرةَ وقُصيًّا ، وأمها فاطمة بنت سعد بن سَيَل من عُذْرة ، وزُهْرة يومئذ رجل ،

---

(١) ت ط : آمت . والمعنى واحد وهو موت الزوج عن المرأة .

(٢) الحلول جمع الحال بتشديد اللام والصرم بكسر الصاد وسكون الراء هو الطائفة من القوم ينزلون بإبلهم ناحية من الماء والجمع أصرام .

وقُصَىٌّ فطيم ، فقدم مكةَ بعدَ مَهلك كلاب حاجٌّ من قُضاعة فيهم ربيعة بن حَرَام بن ضَنَّة بن عبد كبير بن عُذْرة ، فتزوج فاطمةَ بنت سعد فاحتملها إلى بلاده، فاحتملت ابنَها قصيًا لصِغره ، وأقام زُهرةُ فى قومه .

فولدت فاطمةُ لربيعة رِزاحًا ، فكان أخا قصى لأمه ، وكان لربيعة بنون ثلاثة من امرأة أخرى ، وهم حُنٌّ ومحمود وجُلْهُمَة ، بنو ربيعة .

وأقام قصىٌّ بأرض قُضَاعة لا يُنسب إلا إلى ربيعة بن حَرَام .

فناضَل يوما رجلا من قُضَاعة يُدْعى رفيعا ، فنضَلَه قصىٌّ ، وهو يومئذ شاب ، فغضب المنضُول ، فوقع بينهما حتى تقاولا وتنازعا ، فقال رفيع : ألاَ تلحقُ ببلدك وبقومك ، فإنك لست منا !

فرجع قصىٌّ إلى أمه ، وقد وجد فى نفسه مما قال ، فسألها عن ذلك فقالت : أو قد قال هذا ؟ أنت والله يا بُنَىَّ أكرم منه نفسا ووالداً ونَسَبًا وأشرفُ منزلا ، أنت ابنُ كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة القُرشى ، وقومُك بمكة عند البيت الحرام وفيما حوله ، تَفِدُ العرب إلى ذلك البيت ، وقد قالت لى كاهنة رأتك : هذا يَلِى أمرا جليلا ، فطِبْ نفساً .

فأجمع قصىٌّ الخروجَ إلى قومه واللحوق بهم ، وكره الغربة بأرض قضاعة ، وضاق ذَرْعًا بالمقام فيهم ، فقالت له أمه : لا تَعْجَل حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج فى حاجِّ العرب ، فإنى أخشى عليك أن يصيبك بعضُ الناس .

فأقام قصى حتى إذا دخل الشهرُ الحرام وخرج حاجُّ قُضَاعة خرج معهم ،

وهم يظنون أنه إنما يريد الحج ثم يرجع إلى بلاده ، حتى قدم مكة ، فلما فرغ من الحج أقام بها ، وعالجه القُضَاعيون على الخروج معهم فأبى .

وكان رجلا جَلْداً نَهْداً نسيباً ، فلم ينشب أنْ خطب إلى حُلَيل بن حُبْشية ابنته حُبّى ، فعرف حُلَيل النَّسبَ ورغب فى الرَّجل فزوَّجه ، وحُلَيل يومئذ يلى أمرَ مكة والحُكْمَ فيها وحِجابةَ البيت .

فأقام قصى معه بمكة ، وولدت له حُبّى بنيه عبدَ الدار وعبدَ مناف وعبدَ العُزّى وعَبْداً .

فلما انتشر ولدُ قصى وكثر ماله وعَظُم شرفه هلك حُلَيل ، فرأى قصى أنه أنه أولى بالكعبة و بأمر مكة من خزاعة و بنى بكر ، وأن قريشا قُرْعة[1] إسماعيل ابن إبراهيم عليها السلام وصريحُ ولده .

فكلَّم رجالاً من قريش و بنى كنانة ، ودعاهم إلى إخراج خزاعة و بنى بكر من مكة ، فأجابوه إلى ذلك ، فكتب عند ذلك قصى إلى أخيه من أمه رِزاح بن ربيعة ، يدعوه إلى نُصْرته والقيام معه ، فخرج رزاح ومعه إخوته لأبيه ، حُنٌ ومحمود وجُلْهُمة ، فيمن تبعهم من قضاعة فى حاجّ العرب ، وهم مُجمِعون لنصر قصى والقيام معه .

فلما اجتمع الناس بمكة وفرغوا من الحج ولم يبق إلا أن يَصْدُرَ الناسُ ، كان أولَ ما تعرض له قصىٌّ من المناسك أمرُ الإجازة للناس بالحج .

---

(١) القرعة : النخبة والخيار

[صوفة تجيز للناس بالحج]

وكان صُوفَة هى التى تلى ذلك مع الدفع بهم من عرفة ورَمْى الجِمَار ، وهم ولد الغَوْث بن مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن ألياس بن مُضَر .

والغوث هو أول من وَلِى ذلك منهم .

وذلك أن أمه كانت امرأة من جُرْهم ، وكانت لا تلد ، فنذرت لله إن هى ولدت ولداً أن تَصَدَّق به على الكعبة عَبْداً لها يخدمها و يقوم عليها ، فولدت الغوثَ فكان يقوم على الكعبة فى الدهر الأول مع أخواله من جُرْهم ، فوَلِى الإجازة بالناس من عرفة لمكانه الذى كان به من الكعبة ، وولدُه من بعده حتى انقرضوا .

فقال مُرُّ بن أُدّ أبو الغوث[1] لوفاء نَذْر أمه :

إنى جعلتُ رَبِّ مِنْ بَنِيَّه　　رَبِيطةً بمكة العَلِيَّه
فبارِكَنّ لى بهـا أَلِيَّه[2]　　واجعله لى مِنْ صالحِ البَرِيَّه

وكان الغوث بن مُرّ ، زعموا ، إذا دَفَع بالناس قال :

لاهُمّ إنى تابعٌ تِباعَه　　إنْ كان إثمٌ فعَلَى قُضاعه

وذلك أن قضاعة كان منهم أحياء يستحلُّون الحُرْمة فى الجاهلية ، فكانت صُوفَة تدفع بالناس من عرفة، وتجيز[3] بهم إذا نفروا من مِنًى، فإذا[4] كان يوم النَّفْر أتوا لِرَمْى الجِمَار ، ورجل مِن صوفة يرمى للناس ، لا يرمون حتى يرمى ، فكان

---

(١) غيرط : ابن الغوث .
(٢) الألية : القسم . ويريد بها هنا النذر .
(٣) الأصول : وتحين . وما أثبته عن ابن هشام .　(٤) ط : إذا

ذوو الحاجات المتعجِّلون يأتونه فيقولون له : قم فارمِ حتى نرمى معك . فيقول : لا والله حتى تميل الشمس . فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ، ويقولون له : ويلك قم فارمِ بنا[1] . فيأبى عليهم ، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه .

فإذا فرغوا من رمى الجمار وأرادوا النَّفْرَ من منى أخذت صُوفة بجانب العَقَبة فحبسوا الناس وقالوا : أجيزى صُوفةُ . فلم يَجُزْ أحد من الناس حتى يمرّوا ، فإذا نفذت صُوفة ومضت خُلِّى سبيل الناس فانطلقوا بعدهم ، فكانوا كذلك حتى انقرضوا .

فورثهم ذلك مِنْ بعدهم بالقُعْدُد[2] بنو سعد بن زيد مناة بن تميم ، وكانت من بنى سعد فى آل صفوان بن الحارث بن شِجْنة بن عُطَارد بن عوف بن كعب ابن سعد .

فكان صفوان هو الذى يجيز للناس بالحج من عرفة ، ثم بنوه من بعده ، حتى كان آخرَهم الذى قام عليه الإسلام كَرِبُ بن صفوان .

وفى ذلك يقول ابن مَغْراء السَّعْدِى :

لا يَبْرَحُ الناسُ ما حَجُّوا مُعَرَّفَهم ... حتى يُقَال أجيزوا آل صَفْوانا

فأما قول ذى الإصبع العَدْوانى ، واسمه حُرثان بن عمرو ، وقيل له ذو الإصبع لحيَّةٍ لدغته فى إصبعه فقطعها :

عَذِيرَ الحىّ من عَـــدْوا ... نَ كانوا حَيَّـــة الأرض

---

(١) ليست فى ابن هشام .

(٢) أى بقرب النسب . قال الزمخشرى : ورثته بالقعدد : صفة للنسب.

بَغَى بعضهم ظلماً فلم يُرْعِ على بَعْضِ[1]
ومنهم كانت السادا تُ والمُوفُون بالقَرْضِ
ومنهم مَنْ يُجِيز النا سَ بالسُّنَّةِ والفَرْضِ
ومنهم حَكَمٌ يَقْضِى فلا يُنْقَضَ ما يَقْضِى

فإنما قال ذلك لأن الإفاضة من المزدلفة كانت فى عَدْوان ، وهو عَدْوان بن عمرو بن قيس بن عَيْلان ، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر ، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام أبو سَيَّارة عُمَيلة بن الأعزل .

قال حُويطب بن عبد العُزّى : رأيت أبا سَيَّارة يَدْفع بالناس مِن جَمْع على أتان له عَقُوق[2] . وذكروا أنه أجاز عليها أربعين سنة .

قالوا : وكان إذا وقف للناس قال : اتقوا الله ربكم ، وأصلحوا أموالكم ، واحفظوا جيرانكم ، وقاتلوا أعداءكم ، اللهم حبِّب بين نسائنا ، وبَغِّض بين رِعائنا ، واجعل أمر الناس بأيدى صلحائنا . ثم يقول : أفيضوا على بركة الله .

وفيه يقول شاعر من العرب :

نحن دَفَعْنا عن أبى سَيَّاره وعن مواليه بنى فَزَارَهْ
حتى أجازَ سالماً حِمَارَه مستقبلَ القِبلة يدعو جارَه

قوله : «حَكَمٌ يَقْضِى» يعنى عامرَ بن ظَرِب العَدْوانى ، وكانت العرب لا يكون بينها نائرةٌ[3] ولا عُضْلةٌ فى قضاء إلا أسندوا ذلك إليه ثم رضوا بما قضى فيه .

---

(١) أرعيت عليه : أبقيت ورحمته .
(٢) العقوق كصبور : الحامل أو الحائل ، ضد ، أو هو على التفاؤل .
(٣) النائرة : العداوة والشحناء .

فاختُصم إليه ، فى بعض ما كانوا يختلفون فيه ، فى رجل خُنثى له ما للرجل وله ما للمرأة ، أيجعله رجلا أو امرأة ؟ ولم يأتوه بأمرٍ كان أعضلَ .

فقال : حتى أنظرَ فى أمركم ، فوالله مانزل بى مثلُ هذه منكم يا معشر العرب .

فاستأخروا عنه ، فبات ليلته ساهراً يقلب أمره وينظر فى شأنه فلا يتوجه له منه وجه ، وكانت له جارية يقال لها سُخَيلة تَرْعَى عليه غنمه ، فكان يعاتبها إذا سَرَحت فيقول : صَبَّحتِ والله يا سُخيل . وإذا راحت عليه يقول[1] مَسَّيتِ والله يا سُخَيل . وذلك أنها كانت تؤخر السَّرح حتى يسبقها بعض الناس ، وتؤخر الإراحة حتى يسبقها بعض الناس .

فلما رأت سهرَه وقِلة قَراره على فراشه قالت : مالك لا أبا لكَ ! ما عراك فى ليلتك هذه ؟ ! قال : ويلك دَعِينى ، أمرٌ ليس من شأنك . ثم عادت له بمثل قولها ، فقال فى نفسه : عسى أن تأتى مما أنا فيه بفَرَج . فقال : ويحك ، اختُصم إلىّ فى ميراث خنثى ، أأجعله رجلا أو امرأة ؟ فوالله ما أدرى ما أصنع وما يتوجّه لى فيه وجه .

فقالت : سبحان الله ! لا أبالك ! أتْبِع[2] القضاء المَبَال ، أقْعِدْه ، فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل ، وإن بال من حيث تبول المرأة فهو امرأة .

فقال : مَسِّى سُخيل بعدها أوصَبِّحى ، فرَّجْتِها والله .

ثم خرج على الناس حين أصبح ، فقضى بالذى أشارت عليه .

---

(١) ا ب : قال

(٢) ت : وجه .

[عَوْد إلى قصى]

وهذا كله من الخبر معترِض قطع اتصالَ حديث صُوفةَ وقُصَى ، فنرجع الآن إليه ونصله بموضع انقطاعه .

حيث ذكر أن صوفة هى التى كانت تلى الإجازةَ للناس من مِنًى والدَّفع بهم من عرفة ، وأن قُصَيًّا عزم على انتزاع ذلك من أيديهم والقيام به دونهم ، واستدعى لمظاهرته على ذلك أخاه رِزَاحًا فوصله مع مَنْ ذكِر وصولهم معه .

فلما كان ذلك العام فعلت صُوفة مثلَ ما كانت تفعل ، قد عرفت ذلك لها العرب ، وهو دين فى أنفسهم من[1] عهد جُرْهم وخزاعة .

فأتاهم قُصى بمن معه من قومه من قريش وكِنانة وقضاعة عند العَقبة ، فقال : لَنَحن أولى بهذا الأمر منكم .

فقاتلوه ، فاقتتل الناسُ قتالا شديداً ، ثم انهزمت صُوفة وغلبهم قصىٌّ على ما كان بأيديهم من ذلك .

وانحازت عند ذلك خُزَاعة وبنو بكر عن قصى ، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفة ، وأنه سيَحُول بينهم وبين الكعبة وأمر مكة ، فلما انحازوا عنه بادَأَهم وأَجْمَع لحربهم ، وخرجت له خزاعة وبنو بكر فالتقوا ، فاقتتلوا قتالا شديداً بالأَبْطَح ، حتى كثرت القتلى فى الفريقين جميعاً ، وفَشَتْ الجراح فيهم وأَكثَرُ ذلك فى خزاعة .

ثم إنهم تداعوا إلى الصلح وإلى أن يحكِّموا بينهم رجلا من العرب ، فحكَّموا يَعْمَرُ بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كِنانة بن قصى.

---

(١) ابن هشام : و

فقضى بينهم أن قُصَيًّا أوْلَى بالكعبة وأمْرِ مكة من خُزَاعة ، وأنّ كلّ دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع يَشْدَخه تحت قدميه ، وأن ما أصابت خزاعةُ وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداةً ، وأن يخلّى بين قصىّ وبين الكعبة ومكة .

فسُمِّى يَعْمَرُ بن عوف يومئذ الشَّدَّاخَ ، لِما شَدَخ من الدماء ووضع منها ، ويقال الشُّدَّاخ[1] أيضا .

* * *

فولِى قصىٌّ البيتَ وأمْرَ مكة ، وجَمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملّك على قومه وأهل مكة فملّكوه ، إلا أنه قد أقرّ للعرب ما كانوا عليه ، وذلك أنه كان يراه دِيناً فى نفسه لا ينبغى تغييره .

فأقرّ آلَ صفوان وعَدْوان والنَّسَأة ومُرّة بن عوف على ما كانوا عليه .

حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله .

[النَّسَأة]

وبنو مُرة بن عوف هم أهل البَسْل وقد تقدم ذكرهم[2] .

وأما النَّسَأةُ فهم بنو فُقَيم بن عَدِىّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْرِكة بن الياس بن مُضَر .

---

(١) ضبطه فى القاموس بالضم . قال السهيلى : والشداخ بضمها — أى الشين — إنما هو جمع ، وجائز أن يسمى هو وبنوه بالشداخ ، كما يقال : المناذرة فى المنذر وبنيه ، والأشعرون فى بنى الأشعر .

(٢) تقدم ذلك ص ٢٩

وهم الذين كانوا يَنْسأون الشهورَ على العرب فى الجاهلية ، فيُحِلُّون الشهرَ من أشهر الحُرُم ويحرِّمون مكانه الشهرَ من أشهر الحِل ويؤخرون ذلك الشهر ، ففيه أنزل الله سبحانه : « إنما النَّسىء زيادةٌ فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا ، يُحِلُّونه عاماً ويُحَرِّمونه عاماً ، ليُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّم اللهُ فيُحِلُّوا ما حرَّم اللهُ ، زُيِّن لهم سُوء أعمالهم واللهُ لا يَهْدى القَوْمَ الكافرين »(١) .

وكان أول مَنْ نَسَأ الشهورَ منهم على العرب، فأحلَّت منها ما أَحلَّ وحرَّمت منها ما حَرَّم : القَلَمَّسُ ، وهو حُذَيفة بن عبد بن فُقَيْم بن عَدِىّ ، وتوارث ذلك بنوه مِنْ بَعْده ، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام أبو ثُمامة جُنادة بن عوف ابن أمية بن قَلع بن عَبَّاد بن حذيفة ، وهو القَلَمَّسُ .

قال الزبير : وكان أبعدَهم ذِكراً وأطولَهم أمرا ، يقال إنه نَسَأ أربعين سنة .

وكانت العرب إذا فرغت مِن حَجِّها اجتمعت إليه ، فحرَّم الأشهر الأربعة : رجبَ ، وذا القَعْدة ، وذا الحِجَّة ، والمحرَّم . فإذا أراد أن يُحِلَّ منها شيئاً أحَلَّ المحرَّم فأحَلُّوه ، وحرَّم مكانه صَفَراً فحرَّموه ، ليواطئوا عِدَّة الأربعة الأشهر الحُرم .

فإذا أرادوا الصَّدَرَ(٢) قام فيهم فقال : اللهم إنى قد أَحْلَلْتُ أحدَ الصَّفَرين ، الصَّفر الأول ، ونَسَأْتُ الآخَرَ للعام المقبل .

وفى ذلك يقول عُمَير بن قيس ، جَذْلُ الطِّعان ، أحد بنى فِرَاس بن غَنْم بن مالك بن كنانة ، يفخر بالنَّسْأة على العرب :

---

(١) سورة التوبة ٣٧ .
(٢) أى الرجوع من مكة .

لقد علمتْ مَعَدٌّ أنّ قومى
كرامُ الناس إنّ لهمْ كِراما
فأىُّ الناس فاتونا بوِتْرٍ
وأىُّ الناس لم نُعلِك لِجاما
ألسْنا النّاسئين على مَعَدٍّ
شهورَ الحِلّ نجعلها حَرَاما

فهذا كان شأن النسأة فى الجاهلية ، فأقرّه قُصَىٌّ على ما كان عليه ، مع سائر ما ذُكر إقرارُه العرب عليه .

حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله .

***

فكان قصى أولَ بنى كَعْب بن لؤى أصاب مُلْكا أطاع له به قومُه ، فكانت إليه الحجابة والسِّقاية ، والرِّفادة ، والنَّدْوة ، واللواء . فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رِبَاعا بين قومه ، فأنزل كلَّ قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها .

ويزعم الناس أن قريشاً هابوا قَطْعَ الشجر من الحرم فى منازلهم ، فقطعها قصىٌّ بيده وأعوانُه .

فسمّته قريشٌ مُجَمِّعاً ، لِمَا جمع من أمرها ، وتيمّنت بأمره ، فما تُنكَح امرأة ولا يتزوّج رجل من قريش ، ولا يتشاورون فى أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرْب قوم غيرهم إلا فى داره ، يعقده لهم بعضُ ولده ، ولا يُعْذَر(١) غلامٌ إلا فى داره ، ولا تَدَّرِع جاريةٌ من قريش إلا فى داره ، يُشَق عليها فيها درعُها إذا بلغت ذلك ، ثم تَدَّرِعه ثم يُنطلَق بها إلى أهلها .

---

(١) يعذر : يختن .

ولا تخرج عير من قريش فيرحلون إلا من داره ، ولا يقدُمون إلا نزلوا في داره .

فكان أمره في قريش في حياته ومن بعد موته كالدِّين المتّبع ، لا يُعمل بغيره .

واتخذ لنفسه دارَ الندوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضي أمورها .

ولما فرغ قصيٌّ من حربه انصرف أخوه رِزاح إلى بلاده بمن معه من قومه ، فلما استقر في بلاده نشره الله ونشر حُنًّا ، فهما قَبيلا عُذرة اليوم .

* * *

فهذا حديث قصيٍّ في ولاية البيت بعد حُلَيل بن حُبْشية وإخراج خزاعة عنه .

وخزاعة تزعم أن حُليلا أوصى بذلك قصيًا وأمره به حين انتشر له من ابنته من الولد ما انتشر ، وقال : أنت أولى بالكعبة وبالقيام عليها وبأمر مكة من خزاعة فعند ذلك طلب قصي ما طلب

قال ابن اسحاق : ولم يُسْمع ذلك من غيرهم . فالله أعلم .

وقد ذكر الواقدي الأمرين على نحو ما ذكر ابن إسحاق .

قال : وقد سمعنا في ذلك وجها آخر ، ذكر أن أبا غُبْشان رجلا من خزاعة ، كان وَلِيَ الكعبة فباع حجابتها مِنْ قصيٍّ بن كلاب بيَنْمَا . وذكر غيره أنه باع منه مفتاحَ الكعبة بزِقٍّ خمر . فلذلك قيل : أخْسَرُ صَفْقةً من أبي غُبْشان .

وذكر الواقدي أيضًا بإسناد له ، أن رجلا من قضاعة يقال له أبو الشموس

حدَّث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو خليفة حديث قصىّ بن كِلاب ، وكيف استعان بإخوته على خزاعة ، فاستمع له عمر وتعجَّب لأول الحديث وقال : ذكَّرتنا أمرا كان دَثَر مدا ، فالحمد لله رب العالمين ، إن الله عز وجل لَيَصنع لهذا الحى من قريش ، وهم أولى الناس أن يتقوا اللهَ وتحْسُنَ سيرةُ من وُلِّى منهم ، بصنع الله لهم ، جعل فيهم الإمامةَ وقَبْل ذلك النبوة .

[عبد الدار]

قالوا : فلما كَبِر قصىٌّ ورَقَّ ، وكان عبدُ الدار بِكْرَه ، وكان عبدُ مناف قد شَرُف فى زمان أبيه وذهب كلَّ مَذْهب ، وعبدُ العُزّى وعبدٌ ، قال قصىٌّ لعبد الدار : أما والله يا بُنَى لَا لْحقنك بالقوم وإن كانوا قد شَرُفوا عليك .

لايدخلُ رجل منهم الكعبةَ حتى تكونَ أنت تفتحها له ، ولا يَعْقِد لقريشٍ لواء إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الحرم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا فى دارك .

فأعطاه دارَ النَّدْوة التى لا تقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحِجابةَ واللواء والسِّقايةَ والرِّفادة .

وكانت الرِّفادةُ خَرْجاً تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصىٌّ بن كِلاب ، فيصنع به طعاما للحاجّ فيأكله من لم يكن له سعة ولازاد .

وذلك أن قصيًّا فَرَضها على قريش ، فقال لهم [حين أمرهم به](١) يا معشر

---

(١) من ابن هشام .

قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحَرَم ، وإن الحُجاج ضَيْفُ الله وزُوّار بيته ، وهم أحقّ الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يَصْدروا عنكم » .

ففعلوا ، فكانوا يُخْرجون لذلك كلّ عام من أموالهم خَرْجا فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاما للناس أيامَ مِنًى ، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام ، ثم جرى فى الإسلام إلى يومنا[1] هذا ، فهو الطعام الذى يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضى الحج .

فمضى أمر قصىّ فى عبد الدار ابنه ، وجعل إليه كلّ ما كان بيده من أمر قومه ، وكان قصىّ لا يُخالَف ولا يُرَدّ عليه شىء صنعه .

[وفاة قصىّ]

ثم إن قصيا هلك ، فأقام أمره فى قومه [وفى غيرهم][2] بنوه من بعده . فاختطّوا مكة رِباعا بعد الذى كان قصىّ قَطَع لقومه بها ، فكانوا يقطعونها فى قومهم وفى غيرهم من حلفائهم و يبيعونها .

فأقامت قريش على ذلك معهم ليس بينهم اختلاف ولا تَنَازُع .

[بنو عبد مناف ، و بنو عبد الدار]

ثم إن بنى عبد مناف بن قصى : عبدَ شمس وهاشما والمطّلبَ ونوفل أجمعوا أن يأخذوا ما فى يد بنى عبد الدار [بن قصى][3] مما كان قصى جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسّقاية والرفادة ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفَضْلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة منهم مع بنى

---

(١) ابن هشام : يومك .

(٢ ، ٣) ابن هشام .

عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار لمكانهم في[1] قومهم ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار يرون أن لا يُنزع منهم ما كان قصى جعل إليهم .

فكان صاحبَ أمر بنى عبد مناف عبدُ شمس بن عبد مناف . وذلك أنه كان أسنّهم .

وكان صاحبَ أمر بنى عبد الدار عامرُ بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار .

وكانت[2] بنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، و بنو زُهرة بن كِلاب ، و بنو تَيْم بن مُرّة بن كعب ، و بنو الحارث بن فِهر . مع بنى عبد مناف .

وكان بنو مخزوم بن يَقَظَة بن مُرّة ، و بنو سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب و بنو جُمَح بن عمرو بن هُصَيص ، و بنو عَدِى بن كعب ، مع بنى عبد الدار .

وخرجت عامر بن لؤى ومحارب بن فِهر ، فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .

فعقد كل قوم على أمرهم حِلفا مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يُسْلِم بعضهم بعضا ما بَلّ بحرٌ صُوفة[3] .

فأخرج بنو عبد مناف جَفْنةً مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا [وتعاهدوا][4] هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ، فسُمّوا المطيَّبين .

---

(١) فيرط : من .
(٢) ابن هشام : فكان .
(٣) أى الى الأبد .
(٤) من ابن هشام .

وتعاقد بنو عبد الدار [وتعاهدوا هم][1] وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يُسْلِم بعضُهم بعضاً ، فسُمُّوا الأحلافَ .

ثم سُوند بين القبائل ولُزَّ بعضُها ببعض ، فعُبِّئَتْ[2] عبدُ مناف لبنى سهم ، وعُبِّئَتْ بنو أسد لبنى عبد الدار ، وعُبِّئَتْ زُهرة لبنى جُمح ، وعُبِّئَتْ تَيْم لبنى مخزوم ، وعُبِّئَتْ بنو الحارث بن فِهر لبنى عدى ، ثم قالوا : لتَفْنَ[3] كلُّ قبيلة مَنْ أُسند إليها .

فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا الحرب إذ تَدَاعَوْا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السِّقَايةَ والرِّفادةَ ، وأن تكون الحجابةُ واللواء والنَّدْوَة لبنى عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ، ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كلُّ قوم مع مَنْ حالفوا ، حتى جاء الله بالإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان مِن حلفٍ فى الجاهلية فإن الإسلام لم يَزِدْه إلا شدة »[4] .

فهذا حلف المطَيَّبين

---

(١) من ابن هشام .
(٢) سوند : أى قوبل . ولز : شد بعضها ببعض . وعبئت : أعدت وجهزت
(٣) ابن هشام : لتفن .
(٤) أى : أحلاف البر والخير ، مثل حلف الفضول الذى قال عنه الرسول : « ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت » وبداهة لا يدخل فيه أحلاف العصبية والبغى ، ولعل الرسول أراد هذا النوع فى قوله : « لا حلف فى الإسلام »

قال ابن الأثير : « أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق ، فما كان منه فى الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات فذلك الذى ورد النهى عنه فى الإسلام بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا حلف فى الإسلام » ، وما كان منه فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام ، كحلف المطيبين وما جرى مجراه ، فذلك الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق . وبذلك يجتمع الحديثان » انظر لسان العرب ١٠/٣٩٩

[حلف الفضول]

وقد كان فى قريش حِلْفٌ آخر بعده ، وهو حِلف الفضول ، تداعت إليه قبائلُ من قريش ، فاجتمعوا إليه فى دار عبد الله بن جُدْعان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تَيْم بن مُرَّة ، لشرفه وسنه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على مَنْ ظَلَمه حتى تُرَدَّ عليه مَظْلمته ، فسمَّت قريشٌ ذلك الحِلْفَ حلف الفُضُول .

واختُلف فى السبب الذى دعا قريشا إلى هذا الحلف ، ولِمَ سُمِّى[1] بهذا الاسم .

فأما ما دعاهم إليه ، فذكر الزبير وغيره أن رجلا من أهل اليمن من بنى زُبَيْد قدِم مكة مُعْتمراً ومعه بضاعة له ، فاشتراها رجل من بنى سَهْم ، ويقال : إنه العاص بن وائل ، فلوى[2] الرجلَ بحقه ، فسأله مالَه فأبى عليه ، وسأله متاعه فأبى عليه ، فجاء إلى بنى سَهْم يَسْتعديهم عليه ، فأغلظوا له ، فعرف أن لا سبيل إلى ماله ، فطوّف فى قبائل قريش يستعين بهم ، فتخاذلت القبائل عنه ، فلما رأى ذلك قام على الحِجْر ، ويقال : بل أشْرَف على أبى قُبَيس حين أخذت قريش مجالسَها ثم نادى بأعلى صوته ثم قال :

يا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بضاعتَه ... ببَطْنِ مكةَ نائى الدارِ والنَّفَرِ
وأشعثٍ مُحْرِمٍ لم يَقْضِ حُرْمَتَه ... بين الإله وبين الحِجْرِ والحَجَرِ
أقائمٌ مِنْ بنى سَهْمٍ بذمَّتِهم ... أم ذاهبٌ فى ضلالٍ مالُ مُعْتَمِرِ

---

(١) ت : يسمى .
(٢) لواه دينه : مطله .

فلما سمعت ذلك قريش أعظموه وتكلموا فيه ، فقال المطيّبون : والله لئن قدنا فى هذا لتَغضبن الأحلاف ، وقال الأحلاف : والله لئن تكلّمنا فى هذا ليغضبَنّ المطيّبون . فقال ناس من قريش : تعالوا فلنكن حُلفاء فُضُولاً دون المطيّبين ودون الأحلاف .

فلذلك قيل له حلفُ الفُضُول .

فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جُدْعان ، وصنع لهم طعاماً كثيراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم قبل أن يُوحَى إليه ، فاجتمعت بنو هاشم وبنو المطّلب وزُهرة وأسَد وتَيْم ، فتحالفوا على أن لا يُظلَم بمكة قريب ولا غريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه ، حتى يأخذوا له بحقه ويردُّوا إليه مَظْلمته من أنفسهم ومن غيرهم ، ثم عمدوا إلى ماء من ماء زمزم فجعلوه فى جَفْنة ، ثم بعثوا به إلى البيت فغسلت فيه أركانه ، ثم أتوا به فشربوه ، ثم انطلقوا إلى الرجل الذى تعدّى على الرجل المستصرِخ ، العاص ابن وائل أو غيره ، فقالوا : والله لا نفارقك حتى تؤدّى إليه حقه .

فأعطَى الرجلَ حقه ، فمكثوا كذلك لا يُظلَم أحد حقَّه بمكة إلا أخذوه له .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدتُ فى دار عبد الله بن جُدْعان حِلفاً ما أحبُّ أنَّ لى به حُمُرَ النَّعَمِ ، ولو أُدْعَى به فى الإسلام لأجبت » .

وحكى الزبير أيضاً أنه إنما سُمِّى حلفَ الفُضُول لأنهم تحالفوا على أن لا يتركوا لأحد عند أحد فَضْلاً إلا أخذوه .

وقيل : إنما سُمِّى بذلك لأنه لمَّا تَدَاعَى له مَنْ ذُكر مِن قبائل قريش كره ذلك سائرُ المَطيبين والأحلاف بأسْرِهم ، وسَمَّوه حلفَ الفُضُول ، عَيْباً له ، وقالوا : هذا من فُضُول القوم .

وقيل : بل كان هذا الحلفُ على مِثْلِ حلفٍ تقدَّم إليه نفرٌ من جُرْهم يقال لهم : الفَضْل وفَضَّال والفُضَيل[٢] ، فسمّى لذلك هذا الآخَرُ حلفَ الفُضُول .

وأيًّا ما كان من ذلك ، فهى مَأثرةٌ لقريش من مآثرها الكرام ، وآثارها العظام ، نالتهم فيه بركةُ حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو وإن كان فعلاً جاهليًّا دعتهم السياسة إليه ، فقد صار لحضور رسول الله صلى الله عليه وسلم له وما قاله بعد النبوة فيه وأكّده من أمره ، حُكمًا شرعيًّا وفعلا نبويًّا .

وقد نشأ بين حسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وبين الوليد بن عُتْبة بن أبى سفيان زمنَ معاوية ، والوليدُ يومئذ أميرُ المدينة مِن قِبَله ، منازعةٌ فى مال كان بينهما بذى المروة[١] ، فكأن الوليد تحامَل على حسين فى حقه لسلطانه ، فقال له حسين : أحلفُ بالله لَتُنْصِفَنِّى من حقى أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأَدْعُوَنَّ بحلف الفُضُول .

فقال عبد الله بن الزبير وهو عند الوليد : وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفى ثم لأقومن معه حتى يُنْصَف من حقه أو نموتَ جميعًا .

وبلغت المِسْوَرَ بن مَخْرَمة الزُّهْرى فقال مثلَ ذلك .

وبلغت عبدَ الرحمن بن عثمان بن عُبَيد الله التَّيمى فقال مثلَ ذلك .

فلما بلغ ذلك الوليدَ أنصف الحسينَ فى حقه حتى رضى .

ولم تكن بنو عبد شمس دخلت فى هذا الحلف .

---

(١) ذو المروة : قرية بوادى القرى .

(٢) فى الروض الأنف : الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، وفضيل بن الحارث .

وقد سأل عبدُ الملك بن مروان عن ذلك محمدَ بن جُبَير بن مُطْعِم إذ قدِم عليه حين قُتل ابنُ الزبير ، واجتمع الناس على عبد الملك بن مروان ، وكان محمد بن جبير أعلمَ قريش ، فلما دخل عليه قال : يا أبا سعيد ، ألم نكن نحن وأنتم ، يعنى بنى عبد شمس و بنى نَوْفل ابنَىْ عبد مناف ، فى حلف الفضول ؟ قال : أنت أعلم . قال عبد الملك : لتخبرنى يا أبا سعيد بالحق من ذلك . فقال : لا والله ، لقد خرجنا منه نحن وأنتم . قال : صدقت .

فكان عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس يقول : لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس ، حتى أدخلَ فى حلف الفُضُول .

[العرب فى جاهليتهم]

وكانت لقريش أحلام عِظام ، كانوا منها فى جاهليتهم على مثل السلطان الضابط ، عنايةً من الله بهم ومَنًّا منه سبحانه عليهم ، هم سكان الحرم ، وأهل الله وحُجّاب بيتـــه ، وأهل السِّقاية والرِّفادة والرياسة واللواء والندوة ومكارم مكة ، وكانوا على إرثٍ من دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما ، مِن قِرَى الضيف ورِفْد الحاجّ وتعظيم الحَرَم ومَنْعِه من البَغْى فيه والإلحاد ، وقَمْع الظالم ومنع المظلوم .

إلا أنه دخلت على أوَّليتهم أحداثٌ غيّرت أصولَ الحنيفية عندهم وطال الزمان حتى أفضى ذلك بهم إلى جهالات بشرائع الدين وضلالات عن سَنَن التوحيد ، فتدارك الله ذلك كله بنبيه صلى الله عليه وسلم ، فهدَى من الضلالة وعلَّم من الجهالة .

[عمرو بن لحى]

فيقال : إنه كان أول مَن غيّر الحنيفية دينَ إبراهيم ونَصَبَ الأوثان حول الكعبة ودعا إلى عبادتها : عمرو بن لَحُىّ بن قَمعة بن الياس بن مضر .

روى أبو هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثمَ بن الجَوْن الخُزَاعى : « يا أكثم ، رأيتَ عمرَو بن لَحُىّ بن قمعة بن خِنْدِف يجرُّ قُصْبَه فى النار ، فما رأيت رجلا أشبهَ برجل منك به ولا بك منه » .

فقال أكثم : عسى أن يضرنى بَشَبهه يا نبى الله[1] ، قال : « لا ، لأنك[2] مؤمن وهو كافر ، إنه كان أولَ من غيّر دينَ إسماعيل ، فنَصَب الأوثانَ وبحر البَحِيرةَ وسيَّبَ السائبة ووصَل الوصيلة وَحَمَى الحَامِىَ » .

فالبَحِيرة عند العرب الناقة تُشَق أذنها ولا يُركب ظهرها ولا يُجَزُّ وَبَرها ولا يَشْرب لبنَها إلا ضيف ، أو يُتصدق به ، وتُهْمل لآلهتهم .

والسائبة : التى يَنْذر الرجلُ إنْ برِىءَ من مرضه أو أصاب أمرا يطلبه أن يُسَيِّبها تَرْعى لا ينتفع بها .

والوصيلة : التى تلد أمُّها اثنين فى كل بطن ، فيجعل صاحبُها لآلهته الإناث منها ولنفسه الذكور ، فتلدها أمها ومعها ذكر فى بطن فيقولون : وصلَتْ أخاها ، فيُسَيَّب أخوها معها فلا ينتفع به .

والحامى : الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حَمَى

---

(١) ابن هشام : شبهه يا رسول الله

(٢) ابن هشام : إنك .

ظهره ، فلم يُركب ولم يجزّ وَبَره وخُلِّى فى إبله يضرب فيها ، لا ينتفع منه بغير ذلك .

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه : « ما جَعَل الله مِن بَحِيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وَصِيلةٍ ولا حامٍ ، ولكنَّ الذين كفروا يَفْتَرون على الله الكذبَ وأكثرهُم لا يَعْقِلُون »[1].

وذكر بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدِم مَآبَ من أرض البَلْقاء وبها يومئذ العماليق وهم مِن ولد عِمْلاَق ، ويقال عِمْليق بن لاَوَذ بن سام بن نوح ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها وَنَسْتَمْطِرها فتُمطرنا ونستنصرها فتَنْصُرنا .

فقال لهم : أفلا تعطونَنى منها صنما فأسيرَ به إلى أرض العرب فيعبدوه[2] ؟

فأعطوه صنما يقال له « هُبَل » فقدِم به مكة ، فنَصَبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

[بداية الوثنية]

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل ، أنه كان لا يَظْعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفَسِيحَ[3] فى البلاد ، إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة .

(١) سورة المائدة ١٠٣ .
(٢) الأصل : فيعبدونه .
(٣) ابن هشام : الفسح .

حتى سلخ ذلك بهم[1] إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوه من الحجارة ، [وأعجبهم][2] حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات .

وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهَدْى البُدْن والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

فكانت كنانة وقريش إذا أهلُّوا قالوا : « لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك ، إلا شريك هو لك تَمْلِكه وما ملك » .

فيوحِّدونه بالتلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده !

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وما يُؤْمِنُ أكثرهم بالله إلا وهم مُشْرِكون »[3] ، أى ما يوحِّدوننى بمعرفة[4] حقى إلا جعلوا معى شريكا مِن خَلْقى .

وقد كانت لقوم نوح أصنام عكفوا عليها ، قصَّ الله تبارك وتعالى خبرها على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وقالوا : لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعا ، ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ونَسْراً ، وقد أضلّوا كثيراً »[5] .

---

(١) أى أدى بهم .
(٢) من ابن هشام .
(٣) سورة يوسف .
(٤) ابن هشام : لمعرفة ، وما هنا أوضح .
(٥) سورة نوح ٢٣ ، ٢٤ .

وذكر الواقدى بإسناد له عن أبي هريرة أن أول ما عُبدت الأصنام فى زمن نوح عليه السلام ، وأن وَدًّا وسُوَاعا ويَغُوث ويعوق ونَسْرا كانوا رجالا صالحين من قوم نوح ، أهلَ عبادة وفضل ، فماتوا فوجَدَ عليهم أهلوهم وتوحَّش[1] الناس لفَقْدهم ، فقال لهم رجل : ألا أصوِّرهم لكم صورا من خشب فتنظرون إليهم وتَسْكُنون إلى رؤيتهم ؟ قالوا : بلى إن قدرت ، قال : أنا أقدر على تصويرهم ، ولا أقدر أن أنفخ الروح فيهم .

فجاء بالصُّوَر كهيئتهم أحياء ، فأخذ أهلُ كل بيت صورةَ صاحبهم فوضعوها فى منزلهم ينظرون إليها ، فأذهب ذلك بعضَ حزنهم .

فكانوا على ذلك ما شاء الله ، حتى هلك ذلك القَرْن ، ثم خَلَف قرن آخر ثم ثالث بعده ، فكانوا على ما كان عليه القرن الأول حتى هلكوا .

ثم خلف القرن الرابع ، فقالوا : لو أنَّا عَبَدْنا هؤلاء لقرَّبونا إلى الله وشفعوا لنا عنده ، ولا يزيدوننا إلا خيراً إنما نريد ما يقرِّبنا منه ، فعبدوها حتى هلكوا ، وعبدها مَن بعدهم .

فلما غرقت الأرض زمن نوح عليه السلام غرقت تلك الأصنام ، فمكثت ما شاء الله أن تمكث ، ثم استخرجها عمرو بن لُحَيّ ففرّقها فى القبائل . فالله تعالى أعلم .

وقد خرّج البخارى فى صحيحه من حديث عبد الله بن عباس موقوفا عليه فى التفسير نحو ما ذكره الواقدى مختصرا ، أنّ وَدًّا وَسُوَاعا ويَغُوث ويَعُوق ونَسْرا أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشياطينُ

---

(١) ت : وفقد .

إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون إليها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا ، فلم تُعْبَدْ ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبِدت .

* * *

قال ابن إسحاق : واتخذ أهلُ كل دار فى دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجلُ منهم سَفَرا تمسَّح به حين يركب ، فكان ذلك آخرَ ما يصنع حين يتوجه إلى سفر ، وإذا قدِم من سفره تمسَّح به ، فكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله .

فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوحيد قالت قريش : « أجَعَل الآلهة إلها واحداً إن هذا لَشَىءٌ عُجاب » .(١)

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيتَ ، وهى بيوت تعظِّمها كتعظيم الكعبة ، لها سَدَنَةٌ وحُجَّاب ، وَتُهْدَى إليها(٢) كما تُهْدِى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها ، وتنحر عندها ، وهى تعرف فضلَ الكعبة عليها ، لأنها قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده .

وسيمرُّ فى تضاعيف هذا الكتاب بعضُ أخبار هذه الطواغيت وكيف جعل الله عاقبة أمرها خُسْراً ، فأزهق الحقُّ باطلَها وعفَّى الإسلام آثارها ، وأكمل الله تعالى دينه ، وتمَّمَ نوره ونعمته ، ونصر دين الهدى والحق ، فأظهره على الدين كله .

---

(١) سورة ص ٥ .
(٢) ابن هشام : لها .

[اليهودية فى بلاد العرب]

ومع إصفاق[١] العرب مُضَرها ويَمَنها على هذا الضلال ، فقد كان وقع إلى بعضهم[٢] باليمن دينُ اليهودية فدانوا به ، ووقع أيضاً دينُ النصرانية بنَجْران من أرض العرب على ما نذكره .

فأما موقع اليهودية باليمن فمن جهة تُبَّع الآخر ، وهو تِبَّان أسعد أبو كَرِبْ ابن كَلْـكِى[٣] كرب بن زيد ، وهو تُبَّع الأول بن الأول بن عمرو ذى الأذْعار ابن أبرهة ذى المنار[٤] .

وتِبَّان أسعد هو الذى قدِم المدينة وساق الحَبْرَيْن من يهود إلى اليمن ، وعمَّر البيتَ الحرام وكساه .

وكان قد جعل طريقه حين أقبل من المشرق على المدينة ، وكان قد مرَّ بها فى بَدْأته فلم يَهِجْ أهلَها وخلَّف بين أظهرهم ابناً له فقُتل غِيلةً ، فقَدِمها وهو مُجْمع لإخرابها واستئصال أهلها وقَطْع نخلها .

فجمع له هذا الحىُّ من الأنصار ، ورئيسُهم عمرو بن طَلَّة[٥] أخو بنى النجار .

وقد كان رجل من بنى عَدِى بن النجار يقال له أحمر[٦] ، عَدَا على رجل من أصحاب تُبَّع ، حين نزل بهم ، فقتله . وذلك أنه وجده فى عَذْق له يجُدُّه[٧] ، فضربه بمِنْجَله فقتله ، وقال : إنما التمر لمن أبَّرَه[٨] . فزاد ذلك تُبَّعاً حَنَقاً عليهم .

(١) أصفقوا على أمر واحد اتفقوا عليه .
(٢) ت : لبعضهم .
(٣) ابن هشام : كلى كرب .
(٤) تذكر المراجع عللا لبعض هذه الأسماء والألقاب لم أر فائدة فى إثباتها لما فيها من تمحل وبعد . انظر الاشتقاق لابن دريد وشرح السيرة لأبى ذر .
(٥) كذا فى ابن هشام . وفى الأصل : طلة بالطاء المعجمة المضمومة .
(٦) فى ط : أحمد .
(٧) العذقة : النخلة . ويجده : يقطعه .
(٨) أبره : لقحه .

فاقتتلوا ، فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويَقْرونه بالليل ! فيعجبه ذلك منهم ، ويقول : والله إن قومنا لـكرام .

فبينا تُبّع على ذلك من حربهم(١) إذ جاءه حَبْرَان من أحبار يهود من بنى قريظة عالمـان راسخان ، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها ، فقالا له : أيها الملك : لا تفعل ، فإنك إن أبَيْت إلاّ ما تريد حِيل بينك و بينها ، ولم نأمن عليك عاجلَ العقوبة . فقال لهما : ولِمَ ذلك ؟ قالا : هى مُهاجَرُ نبيّ يَخْرج من هذا الحَرَم من قريش فى آخر الزمان ، تـكون دارَه وقراره .

فتناهَى ورأى أن لهما عِلما ، وأعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة واتّبعهما على دينهما .

وهذا الحىُّ من الأنصار يزعمون أنه إنما كان حَنَقُ تُبّع على هذا الحى من يهود ، الذين كانوا بين أظهرهم ، وإنما أراد هَلاَكهم فمنعوهم منه ، ثم انصرف(٢) عنهم ، ولذلك قال فى شعره :

حَنَقاً على سِبْطَيْن حَـــلاَّ يَثْرِباً
أَوْلى لهم بعقابِ يومٍ مُفْسِـــدِ

وذكر ابن هشام أن الشعر الذى فيه هذا البيت مصنوع .

* * *

وكان تُبّع وقومه أصحابَ أوثانَ يعبدونها ، فوجّه إلى مكة وهى طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عُسْفان(٣) وأَمَجٍ أتاه نفر من هُذَيل بن مُدْرِكة فقالوا

---

(١) ابن هشام : من قتالهم .

(٢) ابن هشام : حتى انصرف .

(٣) عسفان : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة . وأمج : بلد من أعراض المدينة .

له : أيها الملك : ألا ندلك على بيت مالٍ داثرٍ أغفلَتْه الملوك قبْلك ، فيه اللؤلؤ والزَّبَرْجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا بيتٌ بمكة يعبده أهله ويصلُّون عنده .

وإنما أراد الهُذَليون هلاكه بذلك ، لِمَا عرفوا مِنْ هلاكِ من أراده من الملوك وبَغَى عنده .

فلما أجمع لِمَا قالوا أرْسَل إلى الحَبْرَين، فسألهما عن ذلك ، فقالا له : ما أراد القومُ إلا هلاكَك وهلاكَ جندك ، ما نعلم بيتاً لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيرَه ، ولئن فعلت ما دَعَوْك إليه لتهلكن ولَيَهْلكن من معك[1] جميعاً .

قال : فماذا تأمرانني أن أصنع إذا قدمتُ عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهلُه ، تطوف به وتعظِّمه وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتَذَلَّل[2] له حتى تخرج من عنده .

قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أمَا والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لَكَما أخبرناك ، ولكن أهلَه حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله ، وبالدماء التى يُهْريقون عنده ، وهم نَجَسٌ أهلُ شرك . أوكما قالا له .

فعرف نصحهما وصدقَ حديثهما ، فقرّب النَّفَر من هُذَيل فقطع أيديهم وأرجلهم .

ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ، فيما يذكرون ، ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل .

---

(١) كذا فى ابن هشام ورواية الأصل : لتهلكن ولنهلكن جميعاً .
(٢) ابن هشام : وتذلل .

وأرِىَ فى المنام أن يكسو البيتَ فكساه الخَصَف[١] ، ثم أرِى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه المعافر[٢] ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه المُلاء والوصائل[٣] .

فكان تُبَّع فيما يزعمون أولَ من كسا البيت .

وأوصى به ولاتَه من جُرْهم ، وأمرهم بتطهيره ، وأن لا يُقربوه دماً ولا ميتةً ولا مئلاة ، وهى الحائض ، وجعل له باباً ومفتاحاً .

ثم خرج موجها إلى اليمن بمن معه من جنوده وبالحَبْرَيْن ، حتى إذا دخل اليمنَ دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ، فأبوا عليه ، حتى يحاكموه إلى النار التى كانت باليمن .

ويقال : إنه لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حِمْيرَ بينه و بين ذلك ، وقالوا لا تدخلُها علينا وقد فارقتَ دِيننا .

فدعاهم إلى دِينه وقال : إنه خير من دينكم .

قالوا : فحاكِمْنا إلى النار . قال : نعم .

وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن ، نارٌ تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم .

فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ، وخرج الحَبْران بمصاحفهما فى أعناقهما متقلدَيْها ، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه، فخرجت النار عليهم،

---

(١) الخصف : جمع خصفة وهى شىء ينسج من الخوص والليف ، وهو أيضاً ثياب غلاظ .
(٢) المعافر : ثياب تنسب إلى قبيلة من اليمن .
(٣) الملاء : جمع ملاءة وهى الملحفة ، والوسائل ثياب موصلة من ثياب اليمن واحدتها وصيلة.

فلما أقبلت نحوهم حادُوا عنها وهابوها ، فذمَرَهم(١) مَن حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها . فصبروا حتى غشيتهم فأ كلت الأوثان وما قرّبوا معها ، ومن حمل ذلك من رجال حِمْير .

وخرج الحَبْران بمصاحفهما تَعْرق جباههما لم تضرهما .

فأصفقت عند ذلك حمير على دينه .

فمِنْ هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن اسحق : وقد حدثنى محدِّث أن الحَبْرين ومَن خرج مِن حِمْيَرَ إنما اتبعوا النار ليردُّوها وقالوا من ردّها فهو أولى بالحق. فدنا منها رجال حِمْير بأوثانهم ليردُّوها ، فدنت منهم لتأ كلهم ، وحادوا عنها ولم يستطيعوا ردّها ، ودنا منها الحَبْران بعد ذلك ، وجعلا يَتْلوان التوارة فتنكصُ [عنهما](٢) حتى ردّاها إلى مَخرجها الذى خرجت منه .

فأصفقَتْ عند ذلك حِمْيرُ على دينهما . فالله أعلم أى ذلك كان .

وكان رِئَامُ بيتاً لهم يعظّمونه وينحرون عنده ويتكلمون(٣) منه إذ كانوا على شركهم ، فقال الحَبْران لِتُبّع : إنما هو شيطان يفتنهم تَخَلُّ بيننا و بينه . قال: فشأنــكما به . فاستخرَجا منه ، فيما يزعم أهل اليمن ، كلباً أسودَ ، فذبحاه ، ثم هدما ذلك البيت .

قال ابن إسحاق : فبقاياه اليوم ، كما ذكر لى ، بها آثار الدماء التى كانت تهراق عليه .

---

(١) ذمرهم : حضهم .
(٢) من ابن هشام .
(٣) ابن هشام : ويكلمون .

[من أخبار تُبَّع]

وتُبَّع هذا هو أحد الملوك الذين وطئوا البلاد ودوّخوا الأرضَ ودانت لهم الممالك .

ويقال : إنه المسمّى فى قوله تعالى : « أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قومُ تُبَّعٍ والذينَ مِنْ قَبْلِهِم ، أهلكناهم »[1] .

وذلك لأنه لمّا آمن فى آخر عمره ووحّد ، خالفَتْه حِمْير فتفرقوا عنه ، فانتقم الله منهم .

وحكى الحسن بن أحمد الهَمْدانى أنه أول ملك بشّر برســول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به ، وهو رتَّبَ الملوكَ وأبناء الملوك من قومه فى قبائل العرب والعجم ومدائنها وأمصارها ، وكان لـكل قبيلة من العرب ولـكل حى من العجم مَلِك من قومه ، إمّا حِمْيرىٌّ وإما كَهْلانى يُسمع له ويطاع .

ويذكر أنه جمع الملوك وأبناء الملوك والأقاولَ وأبناء الأقاولِ من قومه ، وقال لهم :

أيها الناس : إن الدهر نَفَد أكثره ولم يَبْقَ إلا أقلُّه ، وإن الـكثير إذا قلّ إلى النقصان أجْرَى منه إلى الزيادة سارعوا[2] إلى المـكارم ، فإنها تقربكم إلى الفَلَاح ، واعملوا[3] ، على أنه مَنْ سَلِمَ مِنْ يومه لم يَسْلَم من غده ، ومن سلم من الغد لا يسلم مما بعده ، وإنـكم لتؤوبون مآبَ الآباء والأجداد وتصيرون إلى

---

(١) سورة الدخان ٣٧ .
(٢) ت : فسارعوا .
(٣) ت : واعلموا .

ما صاروا إليه ، والموتُ كلَّ يوم أقرب إلى المرء من حياته فيه ، ولكلّ زمان أهلٌ ، ولكلّ دائرة سَبَب ،وسبب عُطْلان(١) هذه الفترة التى مَنْ عزَّ فيها بَزَّ مَنْ هو دونه ، ظهورُ نبيّ يُعِزُّ اللهُ به دينَه ويخصه بالكتاب المبين ، على يأس من المرسَلين ، رحمةٌ للمؤمنين وحُجةٌ على الكافرين ، فليكن ذلك عندكم وعند أبنائكم بعدكم وأبناء أبنائكم قَرْنا فقرنا وجيلاً فجيلا ، ليتوقعوا ظهوره وليؤمنوا به وليجتهدوا فى نصره على كافة الأحياء ، حتى يفيء الناس له إلى أمر الله .

وأنشد له :

شهِدتُ على أحمدٍ أنه
رسولٌ من اللهِ بارى النَّسَمْ

فلو مُدَّ دهرى إلى دهره
لكنتُ وزيراً له وابنَ عَمْ

وألزمتُ طاعتَه كلَّ مَنْ
على الأرض من عَرَبٍ أو عَجَمْ

ولكنَّ قولى له دائما(٢)
سلامٌ على أحمدٍ فى الأُمَمْ

فى أبيات ذكرها ، وأشعار غير هذا أثبت فى « إكليله » كثيراً منها .

قال : وذكروا أن الملوك وأبناء الملوك من حِمْير وكَهْلان لم تزل تتوقع ظهور النبى صلى الله عليه وسلم وتبشِّر به ، وتوصى بالطاعة له والإيمان به والجهاد معه

(١) ت : الآن وهو خطأ .
(٢) ط : دائباً .

والقيام بنصره ، منذ ذلك العصر إلى أن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا بذلك حين بُعث من أحرص الناس على نصره وطاعته .

فمنهم من سمع له وأطاع وآمن به قبل أن يراه ، ومنهم من وصل إليه كتابه فسمع وأطاع وآمن وصدّق ، ومنهم من آواه ونصره وأيدّه وجاهد في سبيل الله دونه .

نطق بذلك الكتاب المنير في قوله : « والذين تبوّأوا الدارَ والإيمان مِنْ قَبلهم يحبّون مَنْ هاجَر إليه ولا يَجِدُون في صدورهم حاجةً مما أُوتوا ويُؤْثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصةٌ »[1] .

وقوله تبارك وتعالى : « يأيها الذين آمنوا مَنْ يرتَدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يحبّهم ويحبّونه ، أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومةَ لائمٍ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم »[2] .

قال الهَمْداني : عن أبي الحسن الخزاعي يقال : إنهم هَمْدَان .

ثم أشار إلى ذكر سيف بن ذي يَزَن للنبي صلى الله عليه وسلم وما ألقاه من أمره إلى جده عبد المطلب عند وفادته عليه .

قال : وذكروا أنه لم يكن لسيف بن ذي يزن ذلك العِلمُ في قصة النبي صلى الله عليه وسلم إلا من جهة تُبّع ، وما تناهى إليه مما كان ألقاه إليهم وعرّفهم به من خبر النبي صلى الله عليه وسلم .

وسنذكر خبر سيف هذا في موضعه إن شاء الله .

---

(١) سورة الحشر الآية ٩ .
(٢) سورة المائدة الآية ٥٤ .

[النصرانية فى بلاد العرب

وأما موقع النصرانية فى أرض[1] العرب ، فقد كان بنَجْران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم على الإنجيل ، أهلُ فضلٍ واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله بن الثَّامِر ، وكان موقعُ أصل ذلك الدين بنَجْران ، وهى بأوسط أرض العرب فى ذلك الزمان ، وأهلُها وسائر العرب كلها أهلُ أوثان يَعْبدونها ؛ أن رجلا من بقايا أهل ذلك الدين يقال له « فَيْمِيُون » وقع بين أظْهُرهم فحملهم عليه فدانوا به .

فحدَّث وهبُ بن مُنَبِّه : أنَّ فيميون كان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً فى الدنيا مجابَ الدعوة ، وكان سائحاً ينزل [بين][2] القُرَى ، لا يُعرف فى قرية إلا خرج منها إلى قرية لا يُعرف بها ، وكان لا يأكل إلا مِنْ كَسْب يده ، وكان بَنَّاء يعمل الطين ، وكان يعظِّم الأحَدَ ، فإذا كان يومُ الأحد لم يعمل فيه شيئاً ، وخرج إلى فلاة من الأرض ، فصلَّى فيها حتى يُمْسِى .

قال : وكان فى قرية من [قرى][2] الشام يعمل عمله ذلك مستخفياً ، ففطن لشأنه رجل من أهلها يقال له صالح ، فأحبه صالح حبًّا لم يحبَّ شيئاً كان قبْله مثلَه ؛ فكان يَتْبعه حيث ذهب ولا يفطن له فَيْمِيُون ، حتى خرج مرة فى يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع ، وقد اتبعه صالح ، وفيميون لا يدرى ، فجلس صالح منه منظرَ العين مستخفياً منه لا يحب أن يعلم بمكانه ، وقام فيميون يصلى ، فبينا هو يصلى إذ أقبل نحوه التنين ، الحية ذات الرءوس السبعة ، فلما

(١) ط : بأرض .
(٢) من ابن هشام .

رآها فيميون دعا عليها فماتت ، ورآها صالح ولم يدرِ ما أصابهـا نخافها[1] عليه [فَعِيلَ عَوْلُه][2] فصرخ : يافيميون التنين قد أقبل نحوك .

فلم يلتفت إليه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها .

وأمسى فانصرف وعرف أنه قد عُرف ، وعَرَف صالح أنه قد رأى مكانه ، فقال له : يا فَيميون تعلم والله أنى ما أحببت شيئا قط حبّك ، وقد أردتُ صحبتك والكينونة معك حيثما كنت .

قال : ماشئتَ ، أمرى كما ترى ، فإنْ علمتَ أنك تَقْوَى عليه فنعِمْ .

فلزمه صالح ، وقد كاد أهل القرية يفطنون لشأنه ، وكان إذا ما جاءه[3] العبدُ به الضُّرُّ دعا له فشُفِي ، وإذا دُعى إلى أحد به ضرٌّ لم يأته .

وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير ، فسأل عن شأن فَيميون ، فقيل له إنه لا يأتى أحداً دعاه ، ولكنه رجل يعمل للناس البنيانَ بالأجر ، فعمد الرجل إلى ابنه ذلك فوضعه فى حجرته وألقى عليه ثوبا ، ثم جاءه فقال : يا فيميون ، إنى قد أردت أن أعمل فى بيتى عملا ، فانطلق معى حتى تنظر إليه فأشارطك عليه .

فانطلق معه حتى دخل حجرته ، ثم قال له : ما تريد أن تعمل فى بيتك هذا ؟ قال : كذا وكذا . ثم انتشط الثوب[4] عن الصبى وقال : يا فَيميون : عَبْدٌ من عباد الله أصابه ما ترى فادْعُ اللهَ له .

---

(١) ط : نخاف .
(٢) من ابن هشام ومعناها : غلب على صبره .
(٣) ابن هشام : « فاجاءه » وما هنا أصح .
(٤) انتشط : نزعه بسرعه وفى ت : انتشط الرجل .

فدعا له فيميون فقام الصبي ليس به بأس .

وعرف فيميون أنه قد عُرف ، فخرج من القرية ، واتبعه صالح ، فبينا هو يمشى فى بعض الشام إذ مرّ بشجرة عظيمة فناداه منها رجل فقال : يا فيميون مازلت أنتظرك وأقول : متى هو جاء ، حتى سمعتُ صوتك فعرفت أنك هو ، لا تَبرح حتى تَقُوم علىّ ، فإنى ميت الآن .

قال : فمات . وقام عليه حتى واراه .

ثم انصرف ومعه صالح ، حتى وَطئا بعضَ أرض العرب ، فاختطفتهما سيارةٌ من بعض العرب ، فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران ، وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد فى كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كلّ ثوب حسن وجدوه وحلىّ النساء ، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوما .

فابتاع فيميونَ رجلٌ من أشرافهم ، وابتاع صالحاً آخرُ ، فكان فيميون إذا قام من الليل يصلّى فى بيتٍ أسكنه إياه سيدُه ، استَسْرَج له البيتُ نوراً حتى يصبح ، من غير مصباح ، فرأى ذلك سيدُه فأعجبه ما يرى منه ، فسأله عن دينه فأخبره به ، وقال له فيميون : إنما أنتم فى باطل ، إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ، ولو دعوتُ عليها إلهى الذى أَعْبُدُ أهْلَكها ، وهو الله وحده لا شريك له ، فقال له سيده : فافعل ، فإنك إن فعلتَ دخلنا فى دينك وتركنا ما نحن عليه .

فقام فيميون فتطهر وصلى ركعتين ، ثم دعا الله عليها ، فأرسل الله ريحا فجَعَفَتْها(١) من أصلها فألقتها .

فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه ، فحملهم على الشريعة من دين عيسى

---

* (١) اقتلعتها.

ابن مريم عليه السلام ، ثم دخلت عليهم الأحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرضٍ ، فمن هنالك كانت النصرانية بنجران ، فيما ذكر وهب بن منبه فى حديثه هذا .

[عبد الله بن الثامر وأصحاب الأخدود]

وأما محمد بن كعب القُرَظى ، و بعض أهل نجران ، فذكروا أن أهلَ نجران كانوا أهلَ شرك ، يعبدون الأوثان ، وكان فى قرية من قراها ساحر يعلِّم غِلمانَ أهل نجران السحر ، فلما نزلها فَيْميون ـ ولم يسمِّه محمد بن كعب ولا شركاؤه فى الحديث ، قالوا : رجل نزلها ـ ابْتَنَى خيمةً بين نجران و بين تلك القرية التى بها الساحر ، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر ، فبعث الثامرُ ابنَه عبد الله مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مرّ بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من صلاته وعبادته ، فجعل يجلس إليه و يسمع منه ، حتى أسلم فوحَّدَ الله وعَبَده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فَقُه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يَعلمه ، فكتمه إياه ، فقال : يابن أخى لن إنك تحْمِله أخشى [عليك](١) ضعفَك عنه .

والثامرُ أبو عبد الله بن الثامر ، لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان .

فلما رأى عبدُ الله أن صاحبه قد ضنّ به عنه وتخوّف ضعفه فيه ، عَمِد إلى قِدَاح فجمعها ، ثم لم يُبْقِ لله اسما يَعلمه إلا كتبه فى قِدْح(٢) ، لكل اسم

(١) من ابن هشام .
(٢) القدح : السهم .

قِدْح ، حتى إذا أحصاها أوقد لها ناراً ، ثم جعل يقذفها فيها قِدْحاً قدحاً ، حتى إذا مرّ بذلك الاسم الأعظم قذف فيها بقِدْحه فوثب القدح حتى خرج منها لم تضرّه شيئاً ، فأخذه ثم أتى صاحبَه فأخبره أنه قد علم الاسم الذى كتمه ، فقال : وما هو ؟ قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع ، قال : أى ابنَ أخى ، قد أصَبْته فأمسِكْ على نفسك وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يَلْق أحداً به ضرّ إلا قال له : يا عبد الله ، أتوحِّد اللهَ وتدخل فى دينى فأدعو(١) الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحِّد الله ويُسْلم ، ويدعو له فيُشْفى .

حتى لم يَبْق بنجران أحد به ضُرّ إلا أتاه فاتبعه على أمره ودعا له فعوفى .

حتى رُفع شأنُه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال : أفسدتَ علىّ أهلَ قريتى وخالفتَ دينى ودين آبائى ، لأمثّلنّ بك .

قال : لا تقدر على ذلك .

فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيُطْرَح على رأسه فيقع إلى الأرض ليس به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياهٍ بنجران بحورٍ لا يقع أحد فيها إلا هلك ، فيلقَى فيها فيخرج ليس به بأس .

فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : إنك والله لا تقدر على قَتْلِى حتى توحِّد الله فتؤمن بما آمنتُ به ، فإنك إن فعلت سلّطك الله علىّ(٢) ، فقتلتنى(٣) .

(١) ابن هشام : وأدعو .
(٢) ابن هشام : سلطت على .
(٣) ت : فتقتلنى .

فوحّد اللهَ ذلك الملك وشهد شهادةَ عبد الله بن الثامر، ثم ضربه بعصا فى يده فشجّه شجة غير كبيرة فقتله، وهلك[1] الملك مكانه .

واستجْمَع أهلُ نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وعلى ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحُكْمه ، ثم أصابهم ما أصاب أهلَ دينهم من الأحداث .

فمن هنالك كان أصل النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القُرَظى و بعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر ، فالله أعلم أى ذلك كان .

* * *

وحديث عبد الله بن الثامر هذا قد ورد فى الصحيح مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم من طرق ثابتة ، خرّجه مُسْلم بن الحجاج من حديث صُهَيب ، و بينه و بين حديث ابن إسحاق اختلاف ، وفيه مع ذلك زوائد تحسُن لأجلها إعادة الحديث .

فروى عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صُهَيب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان ملِكٌ فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كَبِر قال للملك : إنى قد كبرتُ ، فابعث إلىّ غلاما أعلمه السحرَ .

فبعث إليه غلاما يعلّمه ، فكان فى طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحرَ مرّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى

---

(١) ابن هشام : ثم هلك .

الساحرَ ضربه فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحرَ فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيتَ أهلكَ فقل : حبسنى الساحر .

فبينما هو كذلك ، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناسَ ، فقال : اليوم أعلَمُ الساحرُ أفضلُ أمِ الراهبُ أفضل .

فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس .

فرماها فقتلها ، ومضى الناس .

فأتى الراهبَ فأخبره ، فقال له الراهب : أى بنى ، أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستُبْتَلى ، فإن ابتليت فلا تدلَّ علىَّ .

وكان الغلام يبرئُ الأكمه والأبرص ويداوى الناسَ سائر الأدواء ، فسمع [به] جليسٌ للملك ، وكان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال: ما هاهنا لك أجمَعُ إن أنت شفيتنى .

قال : إنى لا أشفى أحداً ، إنما يَشْفى الله ، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك .
فآمنَ بالله ، فشفاه الله .

فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من ردَّ عليك بصرك ؟ قال : ربى ، قال : ولك رب غيرى ؟ ! قال : ربى وربك الله .

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دَلَّ على الغلام ، فقال له الملك : أى بنى ، قد بلغ مِن سحرك ما يبرئُ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل . فقال : إنى لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله .

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب .

فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شِقَّاه .

ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك. فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع في مَفْرِق رأسه ، فشقَّه به حتى وقع شقاه .

ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك. فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبلَ ، فإذا بلغتم ذِرْوته ، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به ، وصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا .

وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله .

فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه في قُرْقُور[1] فتوسَّطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك .

فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم اللهُ .

إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به .

قال : وما هو ؟

قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتَصْلبني على جذع ، ثم خُذْ سهماً من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : باسم اللهِ ربِّ الغلام ، ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني .

---

(١) القرقور السفينة : الطويلة

فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم فى صُدغه ، فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات .

فقال الناس : آمَنَّا بِرَبِّ الغلام ، آمَنَّا بِرَبِّ الغلام .

فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نَزَلَ بك حَذَرُك ، قد آمن الناس .

فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخُدَّت وأُضْرِمَ النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه ، يعنى فأقحموه فيها . أو قيل له : اقتحم .

ففعلوا ، حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أُمَّه ، اصبرى فإنك على الحق ! ! .

فهذا حديث مسلم عن عبد الله بن الثامر وأهل نجران ، وإن وقعت الأسماء فيه مُبْهَمَة ، فقد فسرها العلماء بما ورد من ذلك مبيَّناً فى حديث ابن إسحاق وغيره ، وجعلوا ذلك كله حديثاً واحداً .

* * *

وذكر ابن إسحاق أنه لما كان من اجتماع أهل نجران على دين عبد الله ابن الثامر ما تقدم الحديث به ، سار إليهم ذو نُوَاس بجنوده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيَّرَهم بينها و بين القتل ، فاختاروا القتل ، فخدَّ لهم الأخدود ، فحَرَّقَ بالنار ، وقَتَلَ بالسيف ، ومَثَّلَ بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً .

فنى ذى نُوَاس وجنده ذلك أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

« قُتِلَ أصحابُ الأخدود ، النارِ ذاتِ الوَقُودِ ، إذ هُمْ عليها قُعُود ، وهم على ما يَفْعَلون بالمؤمنين شُهُود ، وما نَقَموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيزِ الحميدِ »[١] إلى آخر الآيات .

والأخدود هنا هو الحَفْر المستطيل فى الأرض ، كالخندق والجدول ، ويقال أيضاً لأثر السيف والسوط والسكين ونحوه فى الجِلْد : أخدود .

قال ابن إسحاق : ويقال : كان فيمن قَتَلَ ذو نُوَاس عبدُ الله بن الثامر رأسُهم وإمامهم .

وحدَّث عن عبد الله بن أبى بكر أنه حدَّث أن رجلا من أهل نجران حفر خِرْبةً من خِرَب نجران فى زمن عمر بن الخطاب ، فوجدوا عبدَ الله بن الثامر تحت دَفْنٍ منها قاعداً واضعاً يده على ضَرْبة فى رأسه ممسكا عليها بيده ، فإذا أُخِّرت يده عنها تَثَعَّبَت[٢] دماً ، وإذا أرسلت يده ردَّها عليها فأمسك دمها ، فى يده خاتم مكتوب فيه : ربِّى الله . فكتب فيه إلى عمر ، فكتب إليه : أن أقِرُّوه على حاله وردُّوا عليه الدفن الذى كان عليه . ففعلوا[٣] .

[ربيعة بن نصر والكهان]

وذو نُوَاس هذا هو زُرْعة بن تِبَّان أسعد أبى كرب ، وهو تُبَّع الآخر ، وقد تقدم خبره ، وابنه زُرعة ذو نُوَاس هذا كان من صغار بنيه ، وصار إليه مُلك اليمن ، وأمر حِمْير بعد أبيه بزمان .

---

(١) سورة البروج .
(٢) تثعبت : تفجرت .
(٣) القصة خرافية لا تصح .

وذلك أنه مَلَكَ اليمنَ بين أضعاف ملوك التبابعة ، ربيعةُ بن نصر بن أبى حارثة ابن عمرو بن عامر ، وكان من سادات اليمن وأهل الشرف منهم .

وهو صاحب الرؤيا التى يعرف من تأويلها استيلاء الحبشة على اليمن ، والبشارةُ بظهور النبى صلى الله عليه وسلم .

وذلك أنه رأى رؤيا هالَتْه وفَظِع بها[١] ، فلم يَدَعْ كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا منجِّماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفَظِعْتُ بها ، فأخبرونى بها و بتأويلها . قالوا : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها . قال : إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، إنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها .

فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيح وشِقّ ، فإنه ليس أحد أعلمَ منهما ، فهما يخبرانه بما سأل عنه .

فبعث إليهما ، فقدم عليه سَطِيح قبل شِقّ ، فقال : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفَظِعت بها ، فأخبرنى بها ، فإنك إن أصبتها أصبتَ تأويلها .

فقال : أفعل . رأيتَ حُمَمَة[٢] خرجت من ظُلمة فوقعت بأرضٍ تَهَمة[٣] فأكلت منها كلّ ذات جُمْجمة .

فقال له الملك : ما أخطأتَ منها شيئاً يا سَطِيح ، فما عندك فى تأويلها ؟

فقال: أحلف بما بين الحرّتين من حَنَش، ليهبطنّ أرضكم الحبَش، فليملكنّ ما بين أبْيَنَ إلى جُرَش[٤] .

---

(١) فظع بها، كعلم، أفزعته واشتدت عليه .
(٢) أى فحمة مشتعلة .
(٣) التهمة: الأرض المتصوبة فى البحر كالتهم ، كأنهما مصدران من تهامة .
(٤) أبين وجرش : مخلافان من مخاليف اليمن

فقال الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ مُوجِـع ، فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى أم بعده ؟

قال : لا بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين .

قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقاتلون[1] ويخرجون منها هاربين .

قال : ومن يلى ذلك من قَتْلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرَم[2] بن ذى يَزَن ، يخرج عليهم من عَدَن فلا يترك منهم أحداً باليمن .

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع .

قال : ومن يقطعه ؟

قال : نبىٌّ زكىٌّ ، يأتيه الوحى من قِبَل العَلِىّ .

قال : وممن هذا النبى ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضْر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخِر ؟

قال : نعم ، يومٌ يُجمع فيه الأوّلون والآخرون ، يَسْعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون .

قال : أحقٌّ ما تخبرنى ؟

قال : نعم ، والشَّفق والغسق ، والقمر[3] إذا اتَّسق ، إنَّ ما أنبأتك لحَقّ .

---

(١) ت : يقتتلون و ا : يقتلون وهى رواية ابن هشام .

(٢) (ب) : والفلق . (٣) المعروف فيه : سيف بن ذى يزن ، ولكنه عدل إلى ارم ، لتشبيهه بعاد إرم فى القوم.

ثم قدِم عليه شِق ، فقال له كقوله لسَطِيح ، وكتمه ما قال سَطِيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان .

قال : نعم رأيتَ حُمَمَة خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كلّ ذات نسَمة .

فلما قال له ذلك عرف أن(١) قد اتفقا وأن قولهما واحد ، إلا أن سَطِيحا قال : « بأرض تهَمَة ، فأكلت منها كلّ ذات جمجمة » ، وقال شق : « وقعت بين روضةٍ وأكمة فأكلت منها كلّ ذات نسمة » .

فقال له الملك : ما أخطأت يا شِقُّ منها شيئا ، فما عندك فى تأويلها ؟

قال : أحلف بما بين الحَرّتين من إنسان ، ليهبطنّ أرضكم السودان ، فليَغلِبُنّ على كل طَفلَةِ(٢) البنان ، وليملكن ما بين أَبْيَن إلى نجْران .

فقال له الملك : وأبيك يا شِق إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى أم بعده ؟

فقال : لا ، بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيمٌ ذو شان ، ويذيقهم أشدّ الهوان .

قال : من هذا العظيم الشأن ؟

قال : غلامٌ ليس بدنىّ ولا مُدَنّ(٣) يخرج من بيت ذى يَزَن .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

---

(١) ابن هشام : أنهما .

(٢) الطفلة : الناعمة الرخصة .

(٣) المدن : المقصر فى الأمور . ورواية النهاية : مزن . أى متهم.

قال : بل ينقطع برسولٍ مرسَل يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفَصْل .

قال : وما يوم الفَصْل ؟

قال : يومٌ يجزَى فيه الولاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوزُ والخيرات .

قال : أحق ما تقول ؟

قال : إى ورب السماء والأرض وما بينهما من رَفْع وخَفْض ، إن ما أنبأتك لحقٌ ما فيه أَمْضٌ(١) .

فوقع فى نفس ربيعة بن نصر ما قال ، فجهز بنيه وأهلَ بيته إلى العراق بما يُصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور [بن خُرَّزاد(٢)] فأسكنهم الحِيرة .

فمِنْ بقية ولد ربيعة بن نصر فيما يزعمون ، النعمانُ بن المنذر ، فهو فى نسب اليمن وعِلمهم : النعمانُ بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدِى بن ربيعة بن نصر ، ذلك الملِك .

وقد تقدم قول من قال من العلماء أن النعمان من ولد قَنَص بن مَعَد . وقد قيل أيضاً إن النعمانَ مِن ولد الساطرون صاحب الحَضْرِ ، وهو حصن عظيم كالمدينة كان على شاطىء الفرات ، وهو الذى ذكره عدى بن زيد فى قوله :

---

(١) قال ابن هشام : أمض يعنى شكا ، هذا بلغة حمير ، وقال أبو عمرو : أمض : أى باطل .
(٢) من ابن هشام .

وأخو الحَضْر إذ بَناه وإذ دجلةُ تُجْبَى إليه والخابورُ
شادَه مَرْمَرًا وجَلَّلَه كِلْساً فلِلطَّيْرِ في ذُرَاه وُكورُ
لم يَهَبْهُ رَيْبُ المَنُون فبادَ المُلْكُ عنه فبابهُ مهجورُ

[شِقٌّ وسَطِيح]

وأما شِقٌّ وسَطِيح ، فإن شِقًّا هو ابن صعب بن يَشْكُر من بني أنمار بن نِزار أبي بَجِيلة وخَثْعم .

وكان شِقٌّ إنسانٍ فيما زعموا ، إنما له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، ولذلك سُمِّي بشِقٍّ .

وسَطِيح هو ربيع بن ربيعة بن ذئب بن عدى[1] بن مازن بن غسان ، وكانت العرب تسميه الذِّيبي ، وإياه عَنَى ميمونُ بن قيس الأعشى بقوله :

ما نظرتْ ذاتُ أشفارٍ كنَظْرتِها
حقًّا كما نَطَق الذِّيبيُّ إذْ سَجَعا

وإنما قيل له سَطِيح ، لأنه كان جسداً ملقًى له رأس وليس له جوارح ، فيما ذكروا . وكان لا يقدر على الجلوس ، فإذا غضب انتفخ .

وذكر أنه قيل له : أنَّى لك هذا العلم ؟

فقال لي صاحب من الجن استمع أخبارَ السماء من طور سيناء ، حين كلَّم الله منه موسى عليه السلام فهو يؤدِّي إليَّ من ذلك ما يؤديه .

(١) ت ط : من بني ذبيان .

وعاش سَطِيح بعد هذا الحديث زمناً طويلا ، حتى أدرك مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فذكر الخطّابى وغيره من حديث هانئ بن هانئ المخزومى ، وأتت عليه مائة وخمسون سنة ، أنه لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى فسقط منه أربع عشر شُرْفة ، وغاضت بحيرةُ ساوة ، وفاض وادى السَّماَوة ، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك ألفَ عام . ورأى الموبِذَان إبلاً صِعاباً تقود خيلا عِرَاباً[1] ، قد قطعت دِجْلة وانتشرت فى بلادها .

فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فصبر عليه تشجعا ، حتى إذا عِيلَ صبرُه رأى ألا يَدَّخر ذلك عن قومه ومرازبته ، فلبس تاجه وقعد على سريره ، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده قال :

أتدرون فيم بَعَثت فيكم ؟ قالوا : لا ، إلا أن يخبرنا الملك .

فبينا هم كذلك ، إذ ورد عليه كتابٌ بخمود النار ، فازداد غمًّا إلى غمه ، ثم أخبر بما رأى وما هاله من ذلك . فقال الموبِذَان : وأنا أصلح الله الملك قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا . ثم قصّ عليه رؤياه فى الإبل . فقال : أى شىء يكون هذا يا مو بِذَان ؟ قال : حَدَثٌ يكون من ناحية العرب . وكان أعلَمهم فى أنفسهم .

فكتب عند ذلك كسرى إلى النعمان بن المنذر أن يوجِّه إليه برجلٍ عالم بما يريد أن يسأله عنه . فوجَّه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن بُقَيلة الغسّانى .

فلما قدِم عليه قال له الملك : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال ليخبرنى الملك عما أحبّ ، فإن كان عندى منه علم وإلا أخبرته بمن يعلمه .

---

(١) الخيل العراب : خلاف البراذين .

فأخبره الذى وجّه إليه فيه. فقال له : علمُ ذلك عند خالٍ لى يسكن مشارفَ الشام ، يقال له سَطِيح . قال : فائته فسَلْه عما سألتك عنه ، ثم ائتنى بتفسيره .

فخرج عبد المسيح حتى أتى إلى سَطِيح وقد أشْفَى على الموت ، فسلّم عليه وكلّمه ، فلم يرد عليه سَطِيح جوابا ، فأنشأ عبد المسيح يقول :

أصَمّ أم يَسْمعُ غِطْريفُ اليَمَنْ
أمْ فَادَ فازْلَمّ به شَأْوُ العَنَنْ[1]
يا فاصلَ الخُطّةِ أعْيَتْ مَنْ ومَنْ
أتاك شيخُ الحىِّ مِنْ آل سَنَنْ
وأمّه من آل ذِئْبِ بن حَجَنْ
أبيضَ فَضْفَاضَ الرِّداء والبَدَنْ
رسولُ قَيْل العُجمْ يُنْمَى للوسن
لا يَرْهَبُ الوَعْدَ ولا رَيْبَ الزمن
تجُوب بى الأرضَ عَلَنْدَاةٌ شَزَنْ
تَرْفعنى وَجْنًا وتهوى بى وَجَنْ[2]

---

(١) فاد : مات . قال :

رعى خرزات الملك عشرين حجة وعشرين حتى فاد والشيب شامل

وازلم : ذهب مسرعا . والأصل فيه ازلأم فحذفت الهمزة تخفيفاً ، وقيل : أصلها ازلام ، كاشهاب ، فحذفت الألف تخفيفاً أيضاً . وشأو العنن : اعتراض الموت على الخلق وقيل : ارلم:قبض والعنن: الموت ، أى عرض له الموت فقبضه وقد تصحفت الرواية فى النهاية. أن فار. انظر النهاية ٢/١٣٩ .

(٢) العلنداة : القوية من النوق . والشزن : التى تمشى من نشاطها على جانب ، شزن فلان إذا نشط ، وقيل : الشزن المعى من الحفاء .

والوجن بفتح فسكون ، وبفتحتين : الأرض الغليظة الصلبة ويروى بالضم ، جمع وجين .

حتى أتى عارِى الجآجي والقَطَنْ
تلفُّه في الرّيح بَوْغاء الدِّمَنْ⁽¹⁾ .

فلما سمع سَطِيحٌ شعره رفع رأسه يقول : عبدُ المسيح ، أتى إلى سَطِيحٍ ، على جمل مُشِيح ، وقد أوفَى على الضَّريح ، بعثك ملِك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان وخمودِ النيران ، ورؤيا الموبِذَان ، رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عِراباً قد قطعت دِجلةَ وانتشرت فى بلادها .

عبدَ المسيح ، إذا كثرت التِّلاوةُ ، وظهر صاحب الهِراوة ، وفاض وادى السَّماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست الشام لسَطِيح شاما ، يملك منهم ملوكٌ وملِكاتٌ على عدد الشرفات ، وكل ماهو آتٍ آت .

ثم قضى سَطِيحٌ مكانَه .

فلمّا قدم عبدُ المسيح على كسرى أخبره بمقالة سَطِيح . فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملِكا قد كانت أمور .

فملك منهم عشرةٌ إلى أربع سنين وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضى الله عنه.

[عمرو يقتل حسّان]

فلما هلك ربيعةُ بن نصر رجع مُلك اليمن كلُّه إلى حسّان بن تِبّان أسعد أبى كَرِبٍ ، فسار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرضَ العربِ وأرضَ الأعاجمِ

---

(١) الجآجى : جمع جوجؤ ، وهو عظام الصدر والقطن بفتح الطاء أسفل الظهر . وقيل: الصواب : القطن بكسر الطاء جمع قطنة ، وهى ما بين الفخذين .

والبوغاء . التراب الناعم . والدمن ما تدمن منه أى تجمع وتلبد . ويشهد له الرواية الأخرى: تلفه الريح ببوغاء الدمن . النهاية .

وقد وردت هذه القصة فى البداية والنهاية ٢/٢١٩ ، ولسان العرب ٣/٣١٢ باختلاف وزيادة ونقص. قال الأزهرى: وهو حديث حسن غريب .

حتى إذا كان بأرضِ العراق كرهت حِمْير وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرَّجعة إلى بلادهم وأهلهم ، فكلَّموا أخاً له يقال له عمرو وكان معه فى جيشه فقالوا له : اقتل أخاك حسَّانَ ونملِّكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا . فأجابهم .

فاجتمعوا على ذلك إلا ذارُعَيْنٍ الحِمْيرَى ، فإنه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه .

فقال ذو رُعَيْنٍ الحِمْيرَى:

ألا مَنْ يشترى سهرًا بنومٍ ؟
سعيدٌ مَنْ يَبِيت قريرَ عَيْنِ

فإمّا حِمْيرٌ غدرَتْ وخانتْ[1]
فمَعْذِرةَ الإلهَ لذى رُعَيْنِ

ثم كتبهما فى رقعةٍ وختم عليها ثم أتى بها عمراً فقال له : ضَعْ لى هذا الكتابَ عندك . ففعل .

ثم قتل عمرو أخاه حسَّانَ ورجع بمن معه إلى اليمن .

فلما نزل اليمنَ مُنع منه النوم وسُلِّط عليه السَّهرُ ، فلما جَهَدَه ذلك سأل الأطباء والحُزَاة[2] من الكهان والعرافين عما به ؟ فقال له قائل منهم : إنه واللّه ما قَتَل رجلٌ أخاه أو ذَا رحِمِه بَغْياً على مثل ما قتلت أخاك عليه إلا ذهب نومُه وسلِّط عليه السَّهر .

فلما قيل له ذلك جعل يقتل كلَّ من أمره بقتل أخيه حسَّان من أشراف اليمن حتى خَلَص إلى ذى رُعَيْن .

---

(١) رواية البيت فى الاشتقاق ٥٢٠ : فإن تك حمير غدرت وخانت .

(٢) الحزاة : جمع حاز ، وهو الذى ينظر فى النجوم ويعمل بها .

فقال له ذو رُعَيْن : إن لى عندك براءة . قال : وما هى ؟ قال : الكتابُ الذى دفعتُ إليك .

فأخرجَه فإذا فيه البيتان ، فتركَهُ ورأى أنّه قد نَصَحه

[لَخْنيعة ذو شناتر]

وهلك عمرو فمَرَج(١) أمرُ حمير عند ذلك وتفرقوا ، فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المَمْلَكة ، يقال له لَخْنيعة ينوف ذو شَناتر(٢) ، فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم ، فقال قائل من حِمْير :

تُقَتِّل أبناها وتَنْفِى سَرَاتَها وتَبْنى بأيديها لها الذلَّ حِمْيَرُ
تدمِّر دنياها بطَيْشِ حُلومها وما ضيَّعت من دِينها فهو أكثرُ
كذاك القرون قبل ذاك بظلمها وإسرافها تأتى الشرورَ فتخسَرُ

وكان لَخْنيعةُ امرءا فاسقاً يعمل عمل قوم لوط ، فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه فى مَشْرُبة(٣) له قد صنعها لذلك لئلا يَمْلِكَ بعد ذلك ، ثم يطلع من مشربته تلك إلى حرسه وجنده قد أخذ مِسْوا كا فجعله فى فيه علامةً للفراغ من خبيث فعله .

حتى بعث إلى زُرْعة ذى نُوَاس ، بن تِبَّان أسعد ، أخى حسان ، وكان صبيا صغيراً حين قُتل حسان ، ثم شبَّ غلاماً جميلا وسيما ذا هيئة وعقل ، فلما أتاه رسوله عرف ما يريد به ، فأخذ سكيناً حَديداً لطيفاً فخبأه بين قدمه ونعله ،

---

(١) مرج : اضطرب واختلط .
(٢) المعروف فيه : لخيعة بغير نون ، كما قال ابن دريد ، وهو مأخوذ من اللخع ، وهو استرخاء اللحم . والشناتر : الأصابع بلغة حمير .
(٣) المشربة : الغرفة المرتفعة .

ثم أتاه فلما خلا معه وثب إليه ، فواثبه ذو نُوَاس فوجأه حتى قتله ، ثم حزّ رأسه فوضعه فى الكوة التى كان يشرف منها ، ووضع مسواكه فى فيه ثم خرج على الناس ، فسألوه فأشار لهم إلى الرأس فنظروا فإذا رأس لخنيعة مقطوعٌ ، فخرجوا فى إثر ذى نُوَاس حتى أدركوه ، فقالوا : ما ينبغى أن يَمْلِكنا غيرك إذ أرحتنا من هذا الخبيث .

فملّكوه ، واجتمعت عليه حِمْيَر وقبائل اليمن ، فكان آخرَ ملوك حمير ، ويسمى يوسف ، فأقام فى مُلكه سنين .

قال ابن قُتَيبة : ثمانيا وستين سنة .

إلى أن كان منه فى أهل نجران ما تقدم ذكره ، فكان ذلك سببا لاستئصال ملكه واستيلاء الحبشة على اليمن .

ذكر دخول الحبشة أرض اليمن

واستيلائهم على مُلكها ، وذكر السبب فى ذلك

مع ما يتصل به من أمر الفيل

ولما انتهى زُرْعة ذو نُوَاس إلى ما انتهى إليه بأهل نجران من التحريق والقتل ، أفلت منهم رجل من سبأ يقال له دَوْسٌ ذو ثَعْلبان على فرس له ، فسلك الرملَ فأعجزهم ، فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصرَ صاحبَ الروم ، فاستنصره على ذى نُوَاس وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم ، فقال له : بَعُدت بلادك منا ، ولكنى سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب إلى بلادك .

فكتب إليه يأمره بنصره والطلبِ بثأره .

فقدِم دَوْسٌ على النجاشى بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين ألفًا من الحبشة ، وأمّر عليهم رجلا منهم يقال له أَرْياط ، ومعه فى جنده أبْرَهة الأشرم ، فركب أرياطُ البحرَ حتى نزل بساحل اليمن ومعه دَوْس ، فسار إليه ذو نُوَاس فى حِمْيَر ، ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فلما التقوا انهزم ذو نُوَاس وأصحابه ، فلما رأى ذو نُوَاس ما نزل به و بقومه وجّه فرسه إلى[1] البحر ، ثم ضرب به فدخل به ، فخاض به ضَحْضَاحَ[2] البحر حتى أفضى به إلى غَمْرِه فأدخله فيه ، فكان آخِرَ العهد به .

---

(١) ابن هشام : فى .

(٢) الضحضاح من الماء : الذى يظهر منه القعر ، وكان أصله من الضح وهو حر الشمس كأن الشمس تداخله لقلته فقلبت فيه إحدى الحاءين ضادا كما قالوا فى ثرة : ثرثارة وفى تملل: تململ.

ودخل أرياطُ اليمنَ ، فملكها .

[بين أرياط وأبرهة]

فأقام بها سنين فى سلطانه ذلك ، ثم نازعه فى أمر الحبشة باليمن أبرهةُ الحبشى ، حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس أرسل أبْرهة إلى أرْياط أنك لا تصنع بأن تَلْقى الحبشةُ بعضَها ببعض حتى تفنيها شيئاً ، فابْرُز لى وأبْرُز لك ، فأينا أصاب صاحبَه انصرف إليه جندُه . فأرسل إليه أرياط : أنصفت .

فخرج إليه أبرهة ، وكان رجلا قصيراً لَحِيما[1] ، وكان ذا دِين فى النصرانية ، وخرج إليه أرياط ، وكان رجلا عظيما جميلا طويلا ، وفى يده حَرْبَةٌ له ، وخلْفَ أبرهة غلام له يقال له عَتْوَدَة[2] يمنع ظهره ، فرفع أرياطُ الحربةَ فضرب أبرهةَ ، يريد يافوخَه ، فوقعت الحَرْبة على جبهة أبرهة ، فشرمت حاجبَه وأنفه وعينه وشفته ، فبذلك سمى أبرهةَ الأشرم .

وحمل عَتْوَدَة على أرياط مِن خلف أبرهة فقتله .

فانصرف جند أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ، ووَدَى[3] أبرهةُ أرياطَ .

فلما بلغ ذلك النجاشىّ غضب غضباً شديداً وقال : عَدَا على أميرى فقتله بغير أمرى ! ثم حلف لا يَدَعُ أبرهة حتى يطأ بلادَه ويجُزّ ناصيته .

فحلق أبرهة رأسه وملأ جراباً من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشى ،

---

(١) أى سمينا .
(٢) قال السهيلى : العتودة : الشدة فى الحرب .
(٣) وداه : أدى ديته .

وكتب إليه : أيها الملك إنما كان أرياط عَبْدَك ، وأنا عَبْدُك ، اختلَفْنا فى أمرك ، وكلٌّ طاعته لك ، إلا أنى كنتُ أقوَى على أمر الحبشة وأضبطَ لها وأسْوَسَ منه وقد حلقتُ رأسى كلَّه حين بلغنى قَسَم الملك ، و بعثتُ إليه بجراب من تراب أرضى ليضعه تحت قدميه ، فيَبَرَّ قَسَمه فىَّ .

فلما انتهى ذلك إلى النجاشى رضى عنه ، وكتب إليه : أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى .

فأقام بها .

* * *

ثم إن أبرهة بنى القُلَّيْس بصنعاء ، فبنى كنيسةً لم يُرَ مثلها فى زمانها بشىء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشى : إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْنَ مثلها لملك كان قبلك ، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرف إليها حَجَّ العرب .

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشى غضب رجـــل من النَّسَأة[1] أحد بنى فُقَيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، فخرج حتى أتى القُلَّيْسَ فأحْدَث فيها ، ثم لحق بأرضه ، فأخبر بذلك أبرهة ، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : رجل [من العرب][2] من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة ، لمـَّا سمع قولك « أصرف إليها حجَّ العرب » [غضب فجاء فقعد فيها][2] أى أنها ليست لذلك بأهل .

فغضب عند ذلك أبرهة ، وحلف ليسيرنَّ إلى البيت حتى يهدمه .

---

(١) سبق الحديث عن النسأة ص ٨٠

(٢) من ابن هشام .

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم ساروا[1] وخرج معه بالفيل .

وسمعت بذلك العرب فأعْظَموه وفَظِعوا به ، ورأوا جهادَه حقًّا عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدمَ الكعبة بيت الله الحرام .

فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نَفْر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهادِه عن بيت الله ، وما يريد من هَدْمه وإخرابِه .

فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عرض له فقاتله ، فهُزم ذو نَفْر وأصحابُه ، وأُخذ له ذو نَفْر فأُتِى به أسيراً ، فلما أراد قَتْلَه قال له ذو نفر : أيها الملكَ لا تقتلنى ، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى .

وكان أبرهة رجلا حليما ، فتركه من القتل وحبَسه عنده فى وَثاق .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خَثْعم عرَض له نُفَيل بن حَبيب الخَثْعمى فى قَبيلَىْ خَثْعم : شَهْران وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة ، وأُخذ له نُفَيلٌ أسيراً فأُتى به ، فلما هَمّ بقتله قال نُفَيل : أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لكَ على قبيلَىْ خثعم ، شَهْران وناهِس ، بالسمع والطاعة .

فخلّى سبيله وخرج به معه يدله .

حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب بن مالك الثَّقَفى فى رجال ثَقِيف ، فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس

---

(١) ابن هشام : سار .

عندنا لك خلاف ، وليس بيتُنا هـذا البيتَ الذى تريد . يعنون اللات ، إنما تريد البيتَ الذى بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه .

فتجاوز عنهم . واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظِّمونه نحوَ تعظيم الكعبة ، فبعثوا معه أبا رِغال يدله على الطريق إلى مكة .

فخرج أبرهة ومعه أبو رِغال ، حتى أنزله المغمَّس[1] ، فلما أنزله به مات أبو رِغال هنالك ، فرجمت قبرَه العرب ، فهو القبر الذى يرجمُ الناسُ بالمغمِّس .

فلما نزل أبرهة بالمغمّس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموالَ أهل تِهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها .

فهمّت قريش وكنانة وهُذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

وبعث أبرهةُ حُناطةَ الحِميرى إلى مكة وقال له : سَلْ عن سيِّد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إنى لم آتِ لحربكم ، إنما جئت لهَدْم هذا البيت ، فإن لم تعرِضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم . فإن هو لم يُرِدْ حربى فائتنى به .

فلما دخل حُناطة مكةَ سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبدُ المطلب بن هاشم .

(١) موضع بطريق الطائف على ثلثى فرسخ من مكة . ويضبط بفتح الميم الثانية وكسرها . انظر الروض الأنف ١ / ٤٣ .

فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربَه وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم . أو كما قال : فإنْ يمنعه مِنْه فهو بيته وحرُمته ، وإن يُخَلِّ بينه وبينه ، فوالله ما عندنا دَفْعٌ عنه .

فقال حُنَاطة : فانطلِقْ إليه ، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى المعسكرَ فسأل عن ذى نَفْر ، وكان له صديقاً ، حتى دخل عليه فى مَحْبسه فقال له : يا ذا نفر هل عندك من غَناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير فى يد ملك[1] يَنْتظر أن يقتله غُدوًّا أو عَشِيًّا ! ما عندى[2] غناء فى نفسى مما نزل بك ، إلا أن أُنَيسا سائس الفيل صديق لى فسأرسل إليه فأوصيه بك وأُعْظم عليه حقّك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلِّمه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . قال : حَسْبى .

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عِير مكة يطعم الناس بالسَّهْل والوحوشَ فى رءوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاستأذِن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . قال : أفعل .

فكلم أنيس أبرهة قال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، فَأْذن له فليكلمك فى حاجته .

ووصفه له بما وصفه ذوَ نفْر لأنيس .

---

(١) ابن هشام : بيدى ملك .

(٢) ابن هشام : ما عندنا ، وما هنا أولى .

فأذن له أبرهة ، وكان عبد المطلب أوْسمَ النـاس وأجمله وأعظمه[1] ، فلما رآه أبرهة أجَلَّه وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملـكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال له ذالك الترجمان . فقال : حاجتى أن يردَّ علىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنتَ أعْجَبْتَنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلَّمتنى ! أتكلمنى فى مائتى بعير أصَبْتُها لك ، وتترك بيتاً هو دِينُك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلمنى فيه ! ! .

قال عبد المطلب : [إنى][2] أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربًّا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع منى . قال : أنت وذاك .

ويزعم بعض أهل العلم أنه كان ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة يَعْمَرُ بن نُفَاثة بن عدى بن الدِّئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيد بنى بكر ، وخويلد بن واثلة الهُذَلى ، وهو يومئذ سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلثَ أموال تِهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم . فالله أعلم ، أكان ذلك أم لا .

فردَّ أبرهةُ على عبد المطلب الإبلَ التى أصاب له ، فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّزَ فى شَعَف الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من مَعَرَّة الجيش .

---

(١) ذكر سيبويه هذا الكلام محكياً عن العرب ، ووجهه عندهم أنه محمول على المعنى ، فكأنك قلت : أحسن رجل وأجمله فأفرد الاسم المضمر التفاتاً إلى هذا المعنى ، ويصح حمله على الجنس ، كأنه حين ذكر الناس قال : هو أجمل هذا الجنس من الخلق .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحَلْقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله و يستنصرونه على أبرهة [وجنده][(١)] .

فقال عبد المطلب وهو آخذٌ بحَلْقة باب الكعبة :

لا هُمَّ إنَّ العبدَ يَمْـنـع رَحْلَه فامنع حِلاَلكْ[(٢)]
لا يَغْـلِبَنَّ صليبُهم ومِحَالهم غَدْواً مِحَالكْ[(٣)]

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال فتحرَّزوا فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهةُ تهيأ لدخول مكة وهيَّأ فيله وعبَّى جيشَه . وكان اسم الفيل محمودا ، وأبرهة مُجْمِعٌ لهَدْم البيت والانصراف[(٤)] إلى اليمن ، فلما وجَّهوا الفيل إلى مكة قام نُفَيل بن حبيب إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال له : ابركْ وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل يشتد حتى أصْعَد فى الجبل .

وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوه فى رأسه بالطَّبَرْزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا مَحاجن لهم فى مَرَاقِّه فبزغوه[(٥)] بها ليقوم فأبى ، فوجَّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى مكة فبرك .

---

(١) من ابن هشام .
(٢) الحلال جمع حلة بكسر الحاء ، وهى جماعة البيوت وتطلق على القوم المجتمعين .
(٣) المحال : القوة ، وغدوا : غدا ، استعمل تاما ولا يستعمل كذلك إلا فى الشعر .
(٤) ابن هشام : ثم الانصراف .
(٥) الطبرزين : آلة من حديد كالفأس ، والمحاجن جمع محجن : وهى عصا معوجة ، والمراق : مارق من البطن ولان ، وبزغوه : أدموه .

فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخَطَاطيف والبَلَسَان[1] مع كل طائر منها ثلاثة أحجار ، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه ، أمثال الحمّص والعدس لا تصيب أحداً منهم إلا هلك ، وليس كلّهم أصابت .

وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أين المفَرُّ والإله الطالبُ
والأشرَم المغلوبُ ليس الغالبُ !

وقال نفيل أيضاً :

ألا حُيِّيتِ عنا يا رُدَيْنا
نَعِمْنَاكم مع الإصباح عَيْنَا
رُدَيْنَةُ لو رأيتِ ولا تَرَيْه
لدى جَنْبِ المحصَّبِ ما رأينا
إذا لعذَرْتِنى وحمدتِ أمرى
ولم تأسَىْ على ما فات بَيْنا[2]
حمدتُ الله إذ أبصرتُ طيراً
وخفتُ حجارةً تُلْقَى علينا
وكلُّ القوم يسأل عن نُفيلٍ
كأنَّ علىَّ للحُبْشان دَيْنا

---

(١) الخطاطيف جمع خطاف وهى طيور سوداء ، والبلسان كما نقل ابن الأثير : يظن أنها الزرازير .
(٢) بينا : نصب نصب المصدر المؤكد لما قبله إذ كان فى معناه ولم يكن على لفظه .

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون [بكل مَهْلِك[1]] على كل مَنْهل ، وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به معهم يسقط أَنْمُلة أنمُلة ، كلما سقطت أنملة منها أتبعتها مِدَّة تمثُّ[2] قيحا ودما ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

ويقال إنه أول ما رُئيت الحَصْبة والجُدَرى بأرض العرب ذلك العام ، وإنه أول ما رُئى بها مرائرُ الشجر الحَرْمَل والحنظل والعُشَر ذلك العام .

* * *

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كان مما يعدُّ اللهُ على قريش من نعمته عليهم وفضله ، ما ردَّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال تبارك وتعالى : « ألم تَرَ كيفَ فَعَلَ ربُّك بأصحاب الفيل ، ألم يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سِجِّيلٍ فجعلهم كَعَصْفٍ مأكول » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيتُ قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مُقْعَدين يستطعمان .

* * *

قال ابن إسحاق : فلما ردَّ الله الحبشة عن مكة وأصابهم ما أصابهم به من النقمة ، أعظمت العربُ قريشا ، وقالوا : هم أهل البيت ، قاتل اللهُ عنهم وكفاهم مؤنة عدُوهم ، فقالوا فى ذلك أشعاراً يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما ردَّ عن قريش من كيدهم ، فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمى :

---

(١) من ابن هشام (٢) تمث : ترشح .

تنكَّلُوا عن بطن مكة إنها
كانت قديمًا لا يُرَام حريمُها

لم تُخْلَق الشِّعْرى ليالىَ حُرِّمت
إذ لا عزيزَ من الأنام يرومُها

سائلِ أميرَ الحُبْش[(١)] عنها ما رأى
ولسوف يُنْبى الجاهلين عَلِيمُها

ستون ألفًا لم يؤوبوا أرضَهم
بل لم يَعِشْ بعد الإياب سقيمُها

كانت[(٢)] بها عادٌ وجُرْهم قَبْلَهم
واللهُ من فوق العباد يقيمها

وقال أبو قيس بن الأسْلَت الأنصارى ثم الخَطْمى ، من قصيدة سيأتى ذكرها بجملتها :

فقوموا فصلُّوا ربَّكم وتمسَّحوا
بأركان هذا البيت بَيْن الأخاشِبِ

فعندكُمُ منه بلاء مصدَّقٌ
غداةَ أبى يَكْسُوم هادى الكتائبِ

كتيبتُه بالسَّهْل تَمْشى ورَجْلُه
على القاذفات فى رءوس المناقبِ

(١) ابن هشام : أمير الجيش .
(٢) ابن هشام : دانت .

فلمـــا أتاكم نصرُ ذى العرش ردَّهم
جنودُ المليك بين سافٍ وحاصبِ (١)
فولَّوا سراعا هاربين ولم يَؤُبْ
إلى قومه مِلْحُبْش غـــيرُ عصائبِ

وقالت سُبَيْعَة بنت الأَحَبّ بن زبينة من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هَوازِن ابن منصور ، لابنها خارجة بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرّة ، تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغى فيها وتذكر تُبَّعا وتذلّلَه لها ، والفيلَ وهلاكَ جيشه عندها :

أَبُنَىَّ لا تَظْـــلم بمكـــة لا الصغيرَ ولا الـكبيرْ
واحفظ محارمها بُـــنَىَّ ولا يغرَّنْك الغَرُور
أَبُنَى من يَظْـــلم بمكـــة يَلْقَ أطرافَ الشرورْ
أبـــنى يُضربْ وجهُه ويَلُحْ بخدَّيْه السعيرْ
أبـــنىَّ قد جرَّبتُها فوجدتُ ظالمها يَبُورْ
اللهُ آمَنَهـــــــا وما بنيتْ بعَرْصتها قصورْ
واللهُ آمنَ طيرها والعُصْمِ (٢) تأْمن فى ثَبِيرْ
ولقـــد غزاها تُبَّعٌ فكسا بَنِيَّتَها الحَبِيرْ
وأذلَّ ربى مُلْـكَه فيها فأَوْفَى بالنـــذور
يمشى إليهـــا حافيا بفنائها ألفا بعـــير
ويظلُّ يُطْعِم أهلَهـــا لَحْمَ المَهارَى (٣) والجَزُور

---

(١) السافى الذى يرمى بالتراب ، والحاصب : الذى يرمى بالحصباء .
(٢) العصم : الوعول ، وثبير جبل بمكة .
(٣) المهارى : جمع مهرية ، إبل منسوبة إلى مهرة بن حيدان .

يسقيهمُ العسلَ المصفّى والرحيضَ من الشعير
والفيلَ أهْلكَ جيشَه يُرْمَوْن فيها بالصخور
والمُلْكُ فى أقصى البلا د وفى الأعاجم والجَزِير(١)
فاسمع إذا حُدِّثْتَ وافهم كيف عاقبةُ الأمور

ولم يزل شعراء أهل الجاهلية يذكرون ذلك فى أشعارهم معتدّين بصنع الله فيه ، وقد جرى على ذلك شعراء الإسلام ، فقال الفرزدق بن غالب التميمى ، يمدح سليمانَ بن عبد الملك بن مروان ويَعْرِض(٢) للحجاج بن يوسف ، ويذكر الفيلَ وجيشه :

فلما طغَى الحجاجُ حين طَغَى به
غِنًى قال إنى مُرْتَقٍ فى السلالمِ
فكان كما قال ابنُ نوحٍ سأرتقى
إلى جبلٍ مِنْ خَشْية الماء عاصمِ
رمَى الله فى جُثْمانه مثلَ ما رمى
عن القِبْلة البيضاء ذاتِ المحارم
جنوداً تَسُوق الفيلَ حتى أعادَهم
هَباء وكانوا مُطْرَخِمِّى الطَّرَاخِمِ(٣)
نُصِرْتَ كنصر البيت إذ ساق فيلَه
إليه عظيمُ المشركين الأعاجمِ

* * *

(١) الجزير: يحتمل أن تكون جمع جزيرة بلاد العرب. وتروى: والخزير. أمة من العجم.
(٢) ابن هشام : ويهجو الحجاج .
(٣) المطرخم : الممتلىء كبرا وغضبا وجمعه الطراخم.

قال ابن إسحاق : فلما هلك أبرهة مَلَكَ الحبشةَ ابنُه يَكْسوم بن أبرهة ، وبه كان يُكْنى ، فلما هلك يكسوم ملكَ اليمنَ فى الحبشة أخوه مسروق ابن أبرهة .

[سيف بن ذى يَزَن]

فلما طال البلاء على أهل اليمن ، خرج سيفُ بن ذى يَزَن الحِمْيرى حتى قدِم على قيصر ملك الروم ، فشكا إليه ما هُمْ فيه ، وسأله أن يخرجهم عنه ، ويليهم هو ، ويبعث إليهم مَن شاء من الروم . فلم يُشْكِه .

فخرج حتى أتى النعمانَ بن المنذر ، وهو عامل كسرى على الحِيرة وما يليها من أرض العراق ، فشكا إليه أمرَ الحبشة ، فقال له النعمان : إن لى على كسرى وفادةً فى كل عام ، فأقِمْ حتى يكون ذلك . ففعل .

ثم خرج معه فأدْخَله على كسرى ، وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذى فيه تاجه ، وكان تاجه مثل القَنْقَل[1] العظيم ، فيما يزعمون ، يُضرب فيه الياقوت والزَّبَرْجد واللؤلؤ بالذهب والفضة ، معلقًا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك ، وكانت عُنقه لا تحمل تاجه ، إنما يُستر بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك ، ثم يدخِل رأسَه فى تاجه ، فإذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا بَرَكَ هيبةً له .

فلما دخل عليه سيفُ بن ذى يزَن بَرَكَ . وقيل إنه لما دخل عليه طأطأ رأسه ، فقال الملك : إن هذا لأحمق ! يدخل علىّ من هذا الباب الطويل ثم يطأطىء رأسه !

---

(١) القنقل : المكيال .

فقيل ذلك لسيف ، فقال : إنما فعلت هذا لهمِّى،لأنه يضيق عنه كلُّ شىء .

ثم قال : أيها الملك ، غلَبنا على بلادنا الأغْربةُ .

فقال كسرى : أىُّ الأغربة ؟ الحبشةُ أم السِّنْد ؟

قال : بل الحبشة ، فجئتك لتنصرنى ويكون مُلك بلادى لك .

قال : بَعُدت بلادك مع قلة خيرها ، فلم أكن لأورِّط جيشا من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لى بذلك .

ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وافٍ ، وكساه كسوة حسنة .

فلما قبض ذلك سيفٌ خرج فجعل يَنثر تلك الوَرِقَ للناس .

فبلغ ذلك الملك فقال : إن لهذا لشأنا .

ثم بعث إليه فقال : عمدتَ إلى حِباء الملِك تنثره للناس !

فقال : وما أصنع بهذا ؟ ! ما جبالُ أرضى التى جئتُ منها إلا ذهب وفضة . يرغِّبه فيها .

فجمع كسرى مرازبته(١) فقال : ماذا ترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له ؟

فقال قائل : أيها الملك إن فى سجونك رجالا حَبَستَهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه ، فإن يَهْلِكوا كان ذلك الذى أردتَ ، وإن ظفروا كان مُلكا ازدَدْتَه .

فبعث معه كسرى من كان فى سجونه ، وكانوا ثمانمائة رجل ، واستعمل عليهم [رجلا منهم يقال له(٢)] وَهْرِزُ وكانَ ذاسِنٍّ فيهم وأفضلَهم حسبًا وبيتًا ، فخرجوا فى ثمان سفائن فغرقت سفينتان ووصلت إلى ساحل عَدَنٍ ستُّ سفائن .

---

(١) مرازبته : وزراءه .

(٢) من ابن هشام .

فجمع سيفُ إلى وَهْرِز من استطاع من قومه وقال له : رِجلى مع رجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً . قال له وَهْرز : أنصفت .

وخرج إليه مسروقُ بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جنودَه ، فأرسل إليهم وهرز ابناً له ليقاتلهم فيختبر قتالهم ، فقتِل ابن وهرز ، فزاده ذلك حَنَقاً عليهم .

فلما تواقف الناس على مصافِّهم قال وَهْرز : أرونى مَلِكهم . قالوا له : أترى رجلا على الفيل عاقداً تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء ؟

قال : نعم . قالوا : ذلك مَلِكهم . قال : اتركوه .

فوقفوا طويلا ثم قال : عَلاَمَ هو ؟ قالوا : قد تحوَّل على الفرس . قال : اتركوه .

فوقفوا طويلا . ثم قال : علامَ هو ؟ قالوا : على البغلة . قال وهرز : بنت الحمار ! ذلّ وذلّ مُلكه ، إنى سأرميه ، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أوذنكم ، فإنى قد أخطأت الرجلَ ، وإن رأيتم القوم قد استداروا ولاثوا به[1] فقد أصبت الرجلَ ، فاحملوا عليهم .

ثم أوْتر قوسَه ، وكانت فيما يزعمون لا يُوتِرها غيرُه من شدتها ، وأمر بحاجبيه فعُصِّبا له ، ثم رمى فصكَّ الياقوتة التى بين عينيه فتغلغلت النشابةُ فى رأسه حتى خرجت من قفاه ؟ ونُكِس عن دابته ، واستدارت الحبشة ولاثت به ، وحملت عليهم الفُرْس وانهزموا فقتلوا وهربوا فى كل وجه .

وأقبل وَهْرِزُ ليدخل صنعاء ، حتى إذا أتى بابها قال : لاتدخل رايتى منكَّسةَ أبدا ، اهدموا الباب . فهدم ، ثم دخلها ناصبا رايته .

---

(١) أى التفوا حوله .

وقال فى ذلك أبو الصَّلْت بن أبى ربيعة الثقفى ، وتروى لابنه أُمية بن أبى الصلت :

لِيَطلب الوِتْرَ أمثالُ ابن ذى يَزَنٍ
ريَّمَ فى البحر[1] للأعـداء أحوالاَ
يَمَّمَ قيصرَ لما حـانَ[2] رحلتَه
فلم يجد عنـده بعضَ الذى سالاَ
حتّى أتى ببنى الأحرارِ يحملهـم
إنك عَمْرى لقـد أسرعتَ قَلْقَالاَ[3]
لله دَرُّهمُ من عُصْبة خَرَجـوا
ما إنْ أرى لهمُ فى الناس أمثالاَ
بِيضًا مرازبةً غُلْبًا أسـاورةً
أُسْدًا تُرَبِّبُ فى الغيضَات أشبالا
أرسلتَ أُسْدًا على سُود الكلاب فقد
أضحَى شريدهمُ فى الأرض فُلّالاَ[4]

---

(١) كذا فى ابن هشام وأكثر النسخ : ريم فى البحر . وقد شرحها السهيلى بقوله : ريم فى البحر أى أقام فيه وذكر اشتقاقه فقال : « وريم ليس من رام وإنما هو من الريم وهو الدرج ، أو من الريم الذى هو الزيادة والفضل ، أو من رام يريم إذا برح ، كأنه يريد : غاب زمانا وأحوالا ثم رجع للأعداء أو ارتقى فى درجات المجد أحوالا ، إن كان من الريم الذى هو الدرج . ووجدته فى غير هذا الكتاب : خيم » .

وفى ط : مذ أم فى البحر . ولعل مما يساعد عليها قوله بعد: يمم قيصر .

(٢) ابن هشام : لما حان .

(٣) القلقال : شدة الحركة .

(٤) فلالا : منهزمين .

فاشرب هنيئاً عليك التاجُ مرتفعاً(١)
في رأس غُمْدَان(٢) دارا منك مِحْلالا

واشرب هنيئاً فقــد شالتْ نَعامتهم
وأسْبِــلِ اليومَ في بُرَدَيْك إسبالاَ

تلك المكارمُ لا قَعْبان من لبنٍ
شِيبا بماء فعادا بعدُ أبوالاَ(٣)

وأقام وهرزُ والفرسُ باليمن ، فمِنْ بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء(٤) الذين باليمن اليوم .

وكان مُلْك الحبشة باليمن منذ دخلها أرياط إلى أن أخرجتهم الفُرْس عنها اثنين وسبعين سنة ، وِفْقَ ما ذكره سَطِيح وشِقٌّ في تأويل رؤيا ربيعة ابن نصر .

ثم مات وهرز ، فأمَّر كسرى ابنه المَرْزُبان بن وهرز على اليمن، ثم مات المرزبان فأمَّر كسرى ابنه التَّيْنُجان(٥) بن المرزبان ، ثم مات فأمَّر كسرى ابن التَّيْنُجان، ثم عزله وولّى باذان ، فلم يَزَلْ عليها حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغ مَبْعثُه(٦) كسرى كتب إلى باذان : إنه بلغنى(٧) أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فسر إليه فاسْتَتِبْه ، فإن تاب وإلا فابعث إلىَّ برأسه.

---

(١) ابن هشام : مرتفقا .
(٢) غمدان : قصر كان باليمن بناه يشرح بن يحصب .
(٣) نسب ابن هشام هذا البيت للنابغة الجعدى ونفاه عن أبى الصلت .
(٤) قال في النهاية : ويقال لأولاد فارس الأبناء ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن .
(٥) في الطبرى طبع أوربا : البينجان .
(٦) في السير أن الرسول صلوات الله عليه أرسل الى كسرى كتابا ، وخبره مشهور .
(٧) ط : بلغه .

فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد وعدني أن يُقْتل كسرى في يوم كذا من شهر كذا .

فلما أتى بَاذانَ الكتابُ توقَّف ينظر وقال : إن كان نبيا فسيكون ما قال.

فقتل اللهُ كسرى على يد ابنه شِيرَوَيْه في اليوم الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالت الرسل من الفُرْس : إلى مَنْ نحن يا رسول الله . قال : أنتم منَّا وإلينا أهلَ البيت .

قال الزهرى : فمِن ثَمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سَلْمانُ منا أهل البيت .

* * *

وكل هذه الأخبار وإن قطعت بعضَ ما كنا بسبيله من أمر بنى قُصَىّ فلها أيضا من الإفادة بنحو ما قصدناه وحسن الإمتاع[1] بالشأن المناسب لما اعتمدناه ما يُحَسِّن اعتراضَها ويَنْظم في سلك واحدٍ مع ما مرّ من ذلك أو يأتى ، أغراضها .

وعلينا بمعونة الله في تجويد الترتيب لذلك كله تطبيقُ المنفصل وردُّ هذه

(١) ت : الإنباع .

الأحاديث المتفرقة فى حكم الحديثِ المتصل ، فنطيل ولا نُمِلُّ ، ونُقصِر فلا نخِلّ كل ذلك ببركة المختار الذى يَمَّمْنا تخليدَ أوّليته ، وتيمَّمنا بخدمة آثاره وسيرته ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأكرمين وصحابته

[عَوْدٌ إلى أبناء قصى]

وكنا انتهينا من شأن بنى قُصىّ بعدَه ، إلى ما تراضوا به بينهم من الصلح على أن تكون السِّقاية والرفادة لبنى عبد مناف ، وتكون حِجَابةُ البيت واللواء والنَّدوة لبنى عبد الدار ، على نحو ما جعله قصى إلى أبيهم .

فولى السِّقايةَ والرفادة هاشمُ بن عبد مناف .

وذلك أن عبد شمس كان رجلا سَفَّاراً قلّما يقيم بمكة ، وكان مُقلاًّ ذا ولد كثير ، وكان هاشم موسراً ، وكان فيما يزعمون ، إذا حضر الحجُّ قام صبيحة هلال ذى الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيحض قومه على رفادة الحاجّ التى سنَّها لهم قصىّ ، ويقول لهم فى خطبته :

يا معشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنُها وجوهاً ، وأعظمها أحلاماً ، وأوسط العرب أنساباً ، وأقرب العرب للعرب أرحاماً .

يا معشر(١) قريش ، إنكم جيران بيت الله ، أكرمكم الله بولايته وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل ، حَفِظ منكم أحسنَ ما حفظ جارٌ من جاره ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زُوّارُ الله ، يعظّمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفُه ، فأكرموا ضيفَه وزواره ، فإنهم يأتون شُعْثاً

(١) لم يذكر ابن هشام ما سبق من أول الخطبة إلى هنا . وهنا زيادة عما ذكره ابن هشام .

غُبْراً من كل بلد على ضَوَامر كالقِدَاحِ[1] ، وقد أزحفوا وأرْمَلوا[2] فاقْرُوهم وأعِينوهم ، فوربِّ هذه البَنِيَّة لو كان لى مال يحمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مُخْرِجٌ من طيِّب مالى وحَلاَله ، ما لم تُقْطَع فيه رَحِم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل مثلَ ذلك فعله . وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يُخْرِج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طَيِّباً لم تُقْطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصباً .

فكانت بنو كعب بن لؤى وسائر قريش يجتهدون فى ذلك و يترافدون عليه ، ويُخْرجون ذلك من أموالهم حتى يأتوا به هاشمَ بن عبد مناف فيضعوه فى داره ، حتى إنْ كان أهل البيت ليرسلون بالشىء اليسير على قدرهم . وكان هاشم يُخْرِج فى كل سنة مالاً كثيراً . وكان قومٌ من قريش أهلَ يَسَارٍ ، رُبما أرسل كل إنسان منهم بمائة مثقالٍ هِرَقْلِيَّةٍ .

وكان هاشمُ يأمُرُ بحياضٍ من أَدَمٍ ، فتُجْعَل فى موضع زمزم من قبل أن تُحفَر ، ثم يُسْتَقَى فيها من البِيارِ التى بمكة ، فيشرب الحاجُّ .

وكان يطعمهم أولَ ما يطعمهم بمكة قبل التَّرْوية بيوم ، ثم بمِنًى ، وبجَمْع وعرفة ، يُثْرِدُ لهم الخبزَ واللَّحْم ، والخبز والسَّمن ، والسَّويقَ والتَّمْر ، ويحملُ لهم الماء ، فيُطْعِمهم ويسقيهم حتى يَصْدُرُوا .

وكان اسمُ هاشمٍ عمراً ، ويقال له عمرو العُلاَ . وإنما سمى هاشماً لِهَشْمِه الخبزَ بمكة لقومه ، وهو فيما يذكرون أوَّل من سَنَّ الرِّحلتين لقريشٍ ، رحلةَ الشِّتاء والصَّيف . وفى ذلك يقولُ بعضُ شعرائهم :

---

(١) القداح : جمع قدح ، وهو السهم .
(٢) أزحفوا : أعيوا . وأرملوا : نفد زادهم .

عَمْرُو العُلاَ[1] هَشَمَ الثَّرِيدَ لقومِه
قومٍ بمكَّةَ[2] مُسْنِتِين عِجافِ
سُنَّتْ إليه الرِّحلتانِ كِلاَهُمَا
سَفَرُ الشِّتاء ورحلةُ الإصيافِ

وذلك أن قُرَيشاً كانوا قوماً تُجّاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكَّة ، إنما يَقْدم الأعاجمُ بالسِّلَع فيشترون منهم ويتبايعُون فيما بينهم ، ويبيعون ممن حولهم من العرب .

فلم يزالوا كذلك حتى ذهب هاشمٌ إلى الشام ، فكان يذبح كلَّ يوم شاةً ، فيصنع جفنةَ ثريد ، ويدعو مَنْ حولهُ فيأكلون .

وكان هاشمٌ مِنْ أحسن الناس وأجملهم ، إلى شرف نفسِه وكَرَمِ فعالِه . فَذُكِرَ لقيصر فدعا به فلمّا رآه وكلّمه أعجبَ به وأدناه منه .

فلمّا رأى هاشمٌ مكانه منه ، طلب منه أماناً لقومه ليَقْدُموا بلاده بتجاراتهم . فأجابه إلى ذلك . وكتب لهم قيصر كتابَ أمانٍ لمن أتى منهم .

فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فكلّما مرَّ بحيٍّ من أحياء العرب أخذ من أشرافهم إيلافاً لقومه يأمنون به عندهم وفي أرضهم من غير حِلْفٍ ، إنما هو أمانُ الطَّريق .

واستوفَى أخْذَ ذلك ممن بَيْنَ مكَّة والشام ، فأتى قومَه بأعظم شيء أتَوا به قط بركةً ، فخرجوا بتجارةٍ عظيمة ، وخرج هاشم معهم ليوفيهم إيلاَفهم

---

(١) ابن هشام : عمرو الذى .
(٢) ويروى :ورجال مكة مسنتون عجاف . والمسنتون : المجدبون .

الذى أخذ لهم من العرب ، فلم يزل يوفيهم إياه ، ويجمع بينهم و بين العرب حتى قدم بهم الشام .

فهلك هاشم فى سفره ذلك بغزّة من أرض الشام .

وكان أولَ بنى عبد مناف هُلْكاً .

وخرج المطلبُ بن عبد مناف ، وهو يسمّى الفيضَ لسماحته وفضلِه ، إلى اليمن ، فأخذ من ملوكهم أماناً لمن تجرَ من قومه إلى بلادهم ، ثم أقبل يأخذ لهم الإيلاف ممن كان على طريقه من العرب ، كما فعل أخوه هاشم ، حتى أتى مكة ، ثم رجع إلى اليمن . فمات بِرَدْمان .

وخرج عبدُ شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة ، فأخذ منه أماناً كذلك لمن تجرَ من قريش إلى بلاده ، ثم أخذ الإيلاف من العرب الذين على الطّريق إليها حتى بلغ مكة . وتوفى بها فقبره بالحَجُون .

وخرج نوفلُ بن عبد مناف ، وكان أصغرَ ولدِ أبيه إلى العراق ، فأخذ عهداً من كسرى لتجّار قريش ، ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن مرّ به من العرب حتى قدم مكة . ثم رجع إلى العراق فمات بسَلْمان من ناحية العراق .

فجبرَ الله قريشاً بهؤلاء النّفر الأربعة من بنى عبد مناف ، فنمَتْ أموالهم ، واتّسعت تجارتهم ، فكان بنو عبد مناف يسمّون لأجل ذلك المُجْبِرين[1] ، والعرب تسميهم أقداح النُّضَار ، لطيب أحسابهم وكرم فعالهم .

وقال مطرودُ بن كعب الخزاعى يُبَكّيهم جميعاً حين أتاه نَعْىُ نوفل منهم ، وكان آخرهم هُلْكا :

---

(١) ط ت : المجيزين .

يا ليلةً هيَّجتِ ليلاتي إحدى ليالِيَّ القسيّاتِ
وما أقاسي من همومٍ وما عالجتُ من رُزْءِ المنيّاتِ
إذا تذكرتُ أخي نوفلاً ذكَّرني بالأوَّليّاتِ
ذكَّرني بالأزرِ الحُمْرِ والأردية الصُّفرِ القشيباتِ
أربعةٌ كلهمُ سيّدٌ أبناء ساداتٍ لساداتِ
ميْتٌ بردْمان وميْتٌ بسلمان وميت بغزّاتِ[1]
وميِّتٌ أسكن لحداً لدى المحجُون[2] شرقيَّ البنيّاتِ
أخلصَهم عبدُ مناف فهُمْ مِنْ لوْم مَنْ لام بمنجاةِ
إن المغيراتِ وأبناءها من خير أحياء وأمواتِ

وإنما سماهم المغيرات لأن عبد مناف أباهم كان اسمه المغيرة .

فقيل لمطرود — فيما يزعمون — : لقد قلت فأحسنت ، ولو كان أفحَلَ مما هو كان أحسنَ .

فقال : أنظروني ليالِيَ . فمكث أياماً ثم قال :

يا عينُ جودي وأذري الدمعَ وانهمري
وابكي على السرِّ من كعب المغيراتِ
يا عين واستحنفري[3] بالدمع واحتفلي
وابكي خبيئةَ نفسي في المُلمّاتِ
وابكي على كل فياضٍ أخي ثقةٍ
ضخْم الدسيعةِ[4] وهّاب الجزيلاتِ

---

(١) ابن هشام : عند غزات .
(٢) ابن هشام : لدى المحجوب .
(٣) استحنفري : استكثري.
(٤) ضخم الدسيعة : جزيل العطاء .

مَحْضِ الضَّرِيبةِ عالى الهَمِّ مختلقٍ
جَلْدِ النَّحيزةِ[١] ناءٍ بالعظيماتِ

صعبِ البديهةِ لا نِكْسٍ[٢] ولا وَكِلٍ
ماضى العزيمةِ مِتْلافِ الكريماتِ

صقرٍ توسَّطَ من كعبٍ إذا نُسِبوا
بحبوحةَ المجدِ والشُّمِّ الرفيعاتِ

ثم انْدُبى الفَيْضَ والفيَّاضَ مُطَّلِباً
واستخرِطِى بعدَ فيَّاضٍ بجمَّاتِ[٣]

أمْسَى بِرَدْمان عنا اليومَ مغترباً
يا لَهْفَ نفسى عليه بين أمواتِ

وابكى، لكِ الويلُ، إمَّا كنتِ باكيةً
لعبد شمسٍ بشرقىِّ البنيَّاتِ

وهاشمٍ فى ضريحٍ وَسْطَ بَلْقَعَةٍ
تَسْفِى الرياحُ عليه بين غزَّاتِ

ونوفلٍ كانَ دُونَ القوم خالصتى
أمْسَى بسلْمان فى رَمْسٍ بموماةِ[٤]

لم ألقَ مثلَهُمُ عُجْماً ولا عَرَباً
إذا استقلَّت بهم أُدْمُ المطيَّاتِ[٥]

---

(١) الضريبة والنحيزة : الطبيعة . وناء متحمل .
(٢) النكس : الجبان الدنىء .
(٣) استخرط فى البكاء : لج واشتد . والجمات : الماء المجتمع ويريد به الدمع، وفى ابن هشام : بعد فيضات بجمات .
(٤) موماة : قفر .
(٥) الأدم : الإبل المشربة سودا أو بياضا ، أو هى البيضاء الواضحة البياض .

أمست ديارهمُ منهــــمْ معطّلةً
وقد يكونون زَيْناً في السَّريّاتِ

أفِدامُ الدهرُ أمْ كلّتْ سيوفهمُ
أم كلُّ مَنْ عاش أزوادُ المنيّاتِ !

أصبحتُ أرْضَى من الأقوام بعــدهمُ
بَسْطَ الوجـــوهِ وإلقــــاء التحيّاتِ

يا عــين وابكي أبا الشُّعْثِ الشّجيّاتِ
يبكينه حُسَّرًا مثــلَ البليّاتِ(١)

يبكين أكرمَ من يمشِي على قَدَمٍ
يُعْوِلْنَه بدموعٍ بعدَ عَـــبْرَاتِ

يبكين شخصاً طويلَ الباع ذا فَجَرٍ(٢)
آبِي المَضِيمةِ فرّاجِ الجليـــلاتِ

يبكين عَمْرَو العُلاَ إذ حان مصرعُه
سَمْحَ السَّجِيـــةِ بسّام العشيّاتِ

يبــكينه مستــكينات على حَزَنٍ
يا طولَ ذلك من حُزْنٍ وعَوْلاتِ

يبكين لمّا جَلاَهن الزمانُ له
خُضْرَ الخدود كأمثال الحَمِيّاتِ(٣)

---

(١) البليات : جمع بلية وهي الناقة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها إذا مات حتى تموت جوعا وعطشا . وكانوا يظنون أنه يحشد عليها .
(٢) الفجر : العطاء .
(٣) الحميات : الإبل التي تمنع من الماء .

مُخْتَزِمَاتٍ على أوساطهن لِمـاً
جَرَّ الزمان مِنَ أحداث المصيبات

أبيتُ ليلي أراعي النجمَ من ألمٍ
أبكي وتبكي معي شَجْوَى بُنَيَّاتي

ما في القُروم لهم عِدْلٌ ولا خَطَرٌ
ولا لمن تركوا شَرْوَى بقيات [1]

أبناؤهم خـــيرُ أبناء وأنفسُهم
خيرُ النفوسِ لَدَى جَهْد الأليَّاتِ

كم وهبوا من طِمِرٍّ سابحٍ أرِنٍ
ومن طِمِرَّةٍ نَهْبٍ في طِمِرَّاتٍ [2]

ومن سيوفٍ من الهندىّ مُخْلَصةٍ
ومن رِماحٍ كأشطان الرَّكيَّاتِ [3]

ومن توابع مما يُفْضِلون بهـا
عند المسائل من بَذْل العطيات

فلو حَسَبْتُ وأحصى الحاسبون معى
لم أحصِ [4] أفعالهمْ تلك الهَنِيَّات

همُ المُدِلُّون إما معشرٌ فخروا
عنـد الفخار بأنساب نقيات

---

(١) القروم : السادات . والعدل : المثل . والشروى أيضا : المثل .
(٢) الطمر: الفرس الخفيف ، والأرن :النشيط .
(٣) الأشطان : الحبال ، والركيان : الآبار .
(٤) ابن هشام : لم أقض .

زَيْنُ البيوت التى خَــلَّوا مساكنها
فأصبحت منهمُ وَحْشا خليّاتِ
أقول والعينُ لا تَرْقَا مدامعُها
لا يُبْعِـــدِ اللهُ أصحابَ الرّزياتِ

* * *

وكان هاشم بن عبد مناف قد قدِم المدينة فتزوج بها سلمى بنت عمرو أحد بنى عدىّ بن النجار ، وكانت قبله عند أُحَيْحة بن الجُلاَح فيما ذكر ابن اسحق .

قال : وكانت لا تنكح الرجال لشرفها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إن كرهت رجلا فارقته .

فولدت لهاشمٍ عبدَ المطلب فسمّته شَيْبَةَ ، فتركه هاشم عندها حتى كان وصيفا(١) أو فوق ذلك .

ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه ، فقالت له سلمى : استُ بمرسلته معك .

فقال لها المطّلب : إنى غير منصرف حتى أخرج به معى ، إن ابن أخى قد بَلَغ وهو غريب فى غير قومه ، ونحن أهلُ بيت شرفٍ فى قومنا نَلِي كثيراً من أمرهم ، ورهطُه وعشيرته و بلده خيرٌ له من الإقامة فى غيرهم . أو كما قال .

وقال شيبة لعمه المطلب ، فيما يزعمون ، لستُ بمفارقها إلا أن تأذن لى .

فأذنت له ودفعته إليه ، فاحتمله فدخل به مكةَ مُرْدِفَهَ على بعيره ، فقالت قريش : عبدُ المُطّلبُ ابتاعه .

---

(١) الوصيف : الذى بلغ حد الخدمة .

فبها سُمِّى شيبةُ عبدَ المطلب .

فقال المُطَّلب : ويحكم إنما هو ابن أخى هاشم قَدِمتُ به من المدينة .

وذكر الزبير أن شيبةَ إنما سمى عبدَ المطلب ، لأن عمه المطلب لمّا قدم به من يثرب ودخل به مكة ضَحْوةً مُرْدِفه خَلْفَه والناسُ فى أسواقهم ومجالسهم ، قاموا يرحبون به ويقولون : من هذا معك ؟ فيقول : عبدٌ لى ابتعته بيثرب ، فلما كان العشية ألبسه حُلّةً ابتاعها له ، ثم أجلسه فى مجلس بنى عبد مناف وأخبرهم خبره ، فجعل بعد ذلك يخرج فى تلك الحلة فيطوف فى سكك مكة ، وكان أحسن الناس ، فيقولون : هذا عبد المطلب . لقول المطلب فيه ذلك ، فلجّ اسمُه عبدَ المطلب ، وتُرِك شيبة .

وكان يقال لعبد المطلب شيبة الحمد ، وإنما سمى شيبة لأنه كان فى ذؤابته شعرة بيضاء .

ثم ولى عبدُ المطلب بن هاشم السقايةَ والرِّفادة بعد عمه المُطَّلب ، فأقامها للناس وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم من أمرهم قبله ، وشَرُف فى قومه شرفا لم يبلغه أحدٌ من آبائه ، وأحبه قومه وعَظُم خطره فيهم .

ويقال : كان يعرف فى عبد المطلب نور النبوة وهيبة الملك .

قال الزبير : ومكارم عبد المطلب أكثر من أن أحيط بها ، كان سيدَ قريش غيرَ مدافَع نَفْساً وأبا وبيتاً وجمالا وبهاء وفعالا وكمالا .

فصلِّى الله على المنتخب من ذريته ، المخصوص بأوّلية الفخر وآخريته ، وعلى آله الأكرمين وعترته وسلِّم تسليما .

ذكر حفر عبد المطلب زمزم

وما يتصل بذلك من حديث

مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قد تقدم الخبر عن زمزم أنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام التى سقاه الله حين ظَمِأ وهو صغير .

وكانت جُرْهم دفنتها حين ظعنوا من مكة بين صنَمى قريش إساف ونائلة عند مَنْحَر قريش ، فبقى أمرها كذلك إلى أن أمر عبدُ المطلب بن هاشم بحفرها .

فذكر ابن إسحق وغيره من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال عبد المطلب : إنى لنائمٌ فى الحِجْر إذ أتانى آتٍ فقال : احفر طِيبَة . قلت : وما طيبةُ ؟ ثم ذهب عنى .

[فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمتُ فيه ، فجاءنى فقال احفر بَرَّة . فقلت : وما بَرَّة ؟ ثم ذهب عنى][1] .

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمتُ فيه ، فجاءنى فقال : احفر المَضْنُونة . قلت : وما المضنونة ؟ ثم ذهب عنى .

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمتُ فيه فجاءنى فقال : احفر زمزم . قلت : وما زمزم ؟

---

(١) من ابن هشام .

قال : لا تُنزف أبداً ولا تُذَمّ [١] ، تَسْقِى الحجيجَ الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نَقْرَة الغراب الأعصم عند قرية النمل [٢] .

فلما بيّن له شأنها ودُلّ على موضعها وعرف أنه قد صُدِق ، غَدَا بمِعْوله ومعه ابنه الحارث ، ليس له يومئذٍ ولدٌ غيره .

فلما بَدَا لعبد المطلب الطَّىُّ كَبَّر .

فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجتَه ، فقاموا إليه ، فقالوا يا عبد المطلب ، إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقا فأشْرِكنا معك فيها .

قال : ما أنا بفاعل ، إن هـذا الأمر خُصِصْتُ به دونكم وأعطيته من بينكم .

قالوا له : فأنصِفْنا ، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها .

قال : اجعلوا بينى و بينكم مَنْ شئتم نحاكمكم إليه .

قالوا : كاهنةُ بنى سعد بن هُذَيم [٣] ، قال : نعم . وكانت بأشراف الشـام .

فركب عبد المطلب ومن نفرٌ من بنى أبيه من بنى عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نَفَرٌ . قال : والأرضُ إذ ذاك مَفاوزُ .

قال : فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فَنِى ماء عبد المطلب وأصحابه ، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستَسْقَوا مَنْ معهم من قبائل قريش فأبَوْا عليهم ، وقالوا : إنَّا بمفازة ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .

---

(١) لا تنزف : لا يفرغ ماؤها ، ولا تذم لا يقل ماؤها .

(٢) ذكر السهيلى فى الروض الأنف تعليلا لهذه الأوصاف ومناسبتها لزمزم وأوصافها .

(٣) فى الطبرى : سعد هذيم .

فلما رأى عبدُ المطلب ما صنع القومُ وما يتخوّف على نفسه وأصحابه قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأْينا إلا تَبَعٌ لرأيك ، فمُرْنا بما شئت .

قال : فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حُفْرته لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلا واحداً ، فضيعةُ رجل واحد أيسرُ من ضيعة ركبٍ جميعاً .

قالوا : نِعْم ما أمرتَ به ، فقام كل رجل منهم لحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً .

ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إنّ إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا لَعَجْزٌ ، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ، ارتحلوا .

فارتحلوا ، حتى إذا فرغوا ، ومَنْ معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خُفِّها عَيْنٌ من ماء عَذْب ، فكبّر عبد المطلب وكبّر أصحابُه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقَوْا حتى ملأوا أسقيتهم .

ثم دعا القبائل من قريش ، فقال : هَلُمَّ إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا .

فجاءوا فشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قُضى لك علينا يا عبد المطلب ، والله لا نُخاصِمُك فى زمزم أبداً ، إن الذى سقاك الماء بهذه الفلاة لَهُوَ الذى سقاك زمزمَ ، فارجع إلى سقايتك راشداً .

فرجع ورجعوا معه ولم يَصِلوا إلى الكاهنة وخلّوا بينه وبينها .

وفى غير حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أن عبد المطلب قيل له حين أمر بحفر زمزم :

ثم ادْعُ بالمـاء الرّوِى غير الكَدِرْ
يَسْــقى حجيجَ الله فى كل مَبَرّْ
ليس يُخاف منــه شىء ما عَمَرْ

فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش ، فقال : تعلّموا أنى قد أمرت أن أحفر لكم زمزم ، فقالوا : فهل بُيِّن لك أين هى ؟ قال لا . قالوا : فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت فإن يَكُ حقًّا من الله يبيّن لك ، و إن يك من الشيطان فلن يعود إليك .

فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأُتِى فقيل له :

احفر زمزم ، إنك إن حفرتها لم تندم ، وهى تراثٌ من أبيك الأعظم لا تنزف أبداً ولا تُذَم ، تسقى الحجيجَ الأعظم ، مثلَ نعام حافلٍ[1] لم يُقسم ، ينذِر فيها ناذرٌ لمنعِم ، تكون ميراثا وعَقْدا مُحْكَم ، ليست كبعض ما قد تَعْلم ، وهى بين الفرث والدم .

فزعموا أنه حين قيل له ذلك قال : وأين هى ؟ قيل : عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غداً .

فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها ، بين الوثنين إساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحهم .

---

(١) حافل كثير . :

فجاء بالمِعْوَل وقام ليحفر حيث أُمر ، فقامت إليه قريش حين رأوا جِدَّه ، فقالوا : والله لا نتركك تحفر بَيْن وَثَنَيْنا هذين اللذين نَنحر عندهما .
فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذُبَّ عنى فوالله لأمضينّ لِمَا أمرت به .

فلما عرفوا أنه غير نازع خلّوا بينه و بين الحَفْر وكفُّوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطّىّ ، فكبّر وعرف أنّه قد صُدق ، فلما تمادَى به الحَفْرُ وجد فيها غزالين من ذهب ، وهما الغزالان اللذان دفنت جُرهم فيها حين خرجت من مكة ، ووجد فيها أسيافًا قَلْعِيّة[1] وأدراعًا .

فقالت له قريش : يا عبد المطلب لنا معك فى هذا شِرْكٌ وحقٌ ، قال : لا ، ولكن هلموا إلى أمرٍ نَصَفٍ بينى و بينكم ، نضرب عليها بالقِدَاح . قالوا : وكيف نصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قِدْحين ولى قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه على شىء فهو له[2] ومن تخلّف قِدْحاه فلا شىء له ، قالوا : أنصفت .

فجعل قِدْحين أخضرين للكعبة ، وقدحين أسودين لعبد المطلب ، وقدحين أبيضين لقريش .

ثم أعطوا القداح [صاحب القداح الذى][3] يضرب بها عند هُبَل ، وهُبَل صنم فى جوف الكعبة ، وهو أعظم أصنامهم ، وهو الذى عَنَى[4] أبو سفيان بن حرب لمّا نادى[4] يومَ أحد : اعْلُ هُبَل ، أى ظهر دينك[4] .

---

(١) نسبة إلى القلعة ، بلد بالهند .
(٢) ابن هشام : كان له . (٣) من ابن هشام
(٤) ابن هشام : يعنى ، قال ، أظهر .

وقام عبد المطلب يدعو الله ، وضرب صاحبُ القِدَاح ، فخرج الأصفران على الغزالين ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب ، وتخلّف قِدْحا قريش .

فضرب عبد المطلب الأسيافَ بابا للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب ، فكان أولَ ذهب حُلِّيته الكعبةُ ، فيما يزعمون .

وذكر الزبير أن عبد المطلب لمّا أنبَط الماء فى زمزم حفرها فى القرار ثم بَحرَها حتى لا تَنْزِف ، ثم بنى عليها حوضا فطفق هو وابنه يَنزِعان عليها فيملآن ذلك الحوضَ ، فيشرب منه الحاج .

وكان قومٌ حَسَدة من قريش لا يزالون يكسرون حوضه ذلك بالليل ويغتسلون فيه ، فيُصْلحه عبد المطلب حين يصبح .

فلما أكثروا فساده دعا عبدُ المطلب ربَّه ، فقيل له فى المنام : قل :

اللهم إنى لا أحِلّها لمغتسل ، وهى لشاربٍ حِلٌّ وَبَلٌّ .

فقام عبد المطلب فى المسجد فنادى بالذى أُرِى ، ثم انصرف فلم يكن يفسد حوضه ذلك عليه أحد من قريش أو يغتسل فيه إلا رُمِى فى جسده بداء ، حتى تركوا حوضه ذلك وسقايته فَرَقًا .

وذكر الزبير أيضًا أن عبد المطلب لمّا حفر زمزم وأدرك منها ما أدرك وجدت قريش فى أنفسها مما أعطِى ، فلقيه خويلد بن أسد بن عبد العزى ، فقال : يا بن سلمى لقد سُقِيت ماء رَغَداً ونَثَلْتَ عاديّة حُتُداً(١) ، قال : يابن أسد ، أما إنك

(١) نثلت : حفرت . والعادية : القديمة كأنها منسوبة إلى عاد ، والحتد : التى لايجف ماؤها

تشرك فى فضلها ، والله لا يساعفنى أحدٌ عليها ببر ولا يقوم معى بأزر إلا بذلت له خيراً لصِهْر .

فقال خويلد بن أسد :

أقول وما قولى عليهم بسُنَّةٍ
إليكَ ابنَ سَلْمى أنت حافرُ زَمْزمِ

حَفيرة إبراهيم يومَ ابن آجَرٍ
وركضةُ جبريل على عهد آدمِ

فقال عبد المطلب : ما وجدتُ أحداً ورث العلمَ الأقدم غير خويلد بن أسد .

ثم إن عبد المطلب أقام سقايةَ زمزم للحجاج ، وكانت قريش قَبْل حفر زمزم قد احتفرت بِئارا بمكة ، وكانت خارجا من مكة آبارُ حفائرُ قديمة من عهد مُرّة بن كعب وكلاب بن مُرّة وكبراء قريش الاوّل ، منها يشربون ، فعَفّت زمزمُ على تلك البئار التى كانت قبلَها يُسقى عليها الحاج .

وانصرف الناس إليها لمكانها من المسجد الحرام ، ولفضلها على ماسواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب.

[نذر عبد المطلب]

وكان عبد المطلب فيما يزعمون ، والله أعلم ، قد نَذَر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم : لئن وُلِد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرنّ أحدَهم لله عز وجل عند الكعبة .

. فلما توافى بنوه عشرةً وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء به ، فأطاعوه وقالوا : وكيف نصنع ؟

قال : ليأخذ كل رجل منكم قِدْحا ثم يكتب اسمه فيه ثم ائتونى ففعلوا ، ثم أتوه فدخل بهم على هيكل فى جوف الكعبة ، وكان على بئر فى جوف الكعبة ، فيها يُجْمع ما يهدى للكعبة ، وكان عند هُبَل قِدَاحٌ سبعةٌ بها يضربون على ما يريدون ، إلى ما تَخْرج به القداحُ ينتهون فى أمورهم .

فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بَنِىَّ هؤلاء بقداحهم هذه . وأخبره بنذره الذى نذر ، وأعطاه كلُّ رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه . وكان عبد الله بن عبد المطلب أحبَّ بنى أبيه إليه ، فيما يزعمون ، فكان عبد المطلب يرى أن السهمَ إذا أخطأه فقد أشْوَى[1] .

فلما أخذ صاحبُ القِداحِ القداحَ ليَضْرب بها ، قام عبد المطلب عند هُبَل يدعو الله ، ثم ضرب صاحبُ القداح ، فخرج القِدْحُ على عبد الله ، فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشَّفْرة ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديتها وقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه . فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبدا حتى تُعْذِر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه فما بقاء الناس على هذا ؟!

وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وكان عبد الله ابنَ أخت القوم أمُّه وأم أخويه الزبير وأبى طالب فاطمةُ بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران ابن مخزوم : والله لا تذبحه أبدا حتى تُعْذرَ فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

---

(١) أشوى بشين معجمة : يقال : رمى فأشوى إذا لم يصب المقتل . وقال الخشنى: يقال أشويت فى الطعام إذا أبقيت منه .

وقالت له قريش و بنوه : لا تفعل وانطلق إلى الحجاز فإن بها عرّافة لها تابع، فتسألها ثم أنت على رأس أمرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته و إن أمرتك بأمرٍ لك وله فيه فرَج قبلته .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة ، فوجدوها فيما يزعمون ، بخيبر ، فركبوا حتى جاءوها فسألوها ، وقصّ عليها عبدُ المطلب خبرَه وخبر ابنه وما أراد به ونَذْره فيه فقالت له : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله .

فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبدالمطلب يدعو الله ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

قد جاءنى الخبر ، كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل ، وكانت كذلك قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قرّبوا صاحبكم وقرّبوا عشرةً من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعليها بالقِدَاح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا ذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قرّبوا عبدَ الله وعَشْرا من الإبل ، وعبدُ المطلب عند هُبَل يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القِدْحُ على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القِدْحُ على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، وما زالوا كذلك يزيدون عشراً فعشراً من الإبل و يضربون عليها ، كل ذلك يخرج القِدْح على عبد الله ، حتى بلغت الإبل مائة من الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القِدْحُ على الإبل ، فقالت قريش : قد انتهى ، رضى ربك يا عبد المطلب .

فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، فخرج القِدْحُ على الإبل ، ثم عادوا الثانية والثالثة وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فخرج القِدْحُ في كلتيهما على الإبل .

فنُحرت ، ثم تركت لا يُصد عنها إنسان ولا يُمنع .

ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله ، فمرّ به ، فيما يزعمون ، على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى ، وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد ، وهى عند الكعبة .

قال الزبير : وكان عبد الله أحسنَ رجل رُئى فى قريش قط ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبدَ الله . قال : مع أبى . قالت : لك مثل الإبل التى نُحرت عنك وقَعْ علىّ الآن ، قال : أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه .

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهبَ بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب ابن مرة ، وهو يومئذ سيد بنى زهرة سِنًّا وشرفاً ، فزوّجه ابنته آمنة بنت وهب وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً .

فزعموا أنه دخل عليها حين أُمْلِكها مكانَه فوقع عليها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عَرَضت عليه ما عرضت ، فقال لها : مالك لا تعرضين علىّ اليوم ما عرضت بالأمس ، قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ، وقد كانت

تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ، وكان تنصّر وتبع الكتب ، أنه كائن في هذه الأمة نبي[1] .

ويقال إن عبد الله إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة ابنة وهب ، وقد عمل في طين له وبه آثار من الطين ، فدعاها إلى نفسها ، فأبطأت عليه لما رأت به من آثار الطين ، فخرج من عندها ، فتوضأ وغسل ما كان به من ذلك ، ثم خرج عامداً إلى آمنة ، فمرّ بتلك المرأة فدعته إلى نفسها فأبى عليها ، وعمد إلى آمنة فدخل عليها فأصابها ، فحملت بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مرّ بامرأته تلك فقال لها : هل لك ؟ قالت : لا ، مررتَ بي وبين عينيك غرة فدعوتك فأبيتَ ، ودخلت على آمنة فذهبَتْ بها .

فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدّث : أنه مرّ بها وبين عينيه مثل غُرّة الفرَس ، فدعوته رجاء أن تكون تلك بي ، فأبى عليّ ودخل على آمنة فأصابها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوْسَط قومه نَسَبا ، وأعظمهم شرفا ، من قِبل أبيه وأمه صلى الله عليه وسلم .

ويزعمون فيما يتحدث الناس ، والله أعلم ، أن أمه كانت تحدّث أنها أتيت حين حملت به ، فقيل لها : إنك قد حملت بسيّد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولي :

---

(١) هذه الرواية لا تؤدي الهدف الذي قصده واضعوها ، والمعروف أن آباء النبي لم يكن فيهم من يرضى بالزنا أو يتوق اليه كما دلت عليه أحاديث صحيحة ، والمعروف أن النبوة لم تكن إرثا من عبد الله لمحمد صلى الله عليه وسلم .

أعيــذه بالواحـــد   مِنْ شَرِّ كلِّ حاسدِ

ثم سَمَّيه محمداً .

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأُمُّه حامل به .

هذا قول ابن إسحق . وخالفه كثير من العلماء ، فقالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان فى المهد حين توفى أبوه . ذكره الدولابى وغيره . وذكر ابن أبى خيثمة أنه كان ابنَ شهرين ، وقيل أكثر من ذلك . والله أعلم .

[ولادة النبى]

وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول عامَ الفيل قيل : بعد الفيل بخمسين يوما[١] .

وحكى الواقدى عن سليمان بن سُحَيم قال : كان بمكة يهودى يقال له يوسف ، فلما كان اليوم الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يعلم به أحد من قريش قال : يا معشر قريش قد ولِد نبىٌ هذه الأمة فى بحرتكم هذه اليوم . وجعل يطوف فى أنديتهم فلا يجد خبرا ، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل فقيل له : ولِد لابن عبد المطلب غلام . فقال : هو نبىٌ والتوراة .

وقال : حسان بن ثابت : والله إنى لَغلام يفعةٌ ابن سبع سنين أو ثمان أعقِل كلَّ ما أسمع إذ سمعت يهوديا يصرخ على أطمة بيثرب : يا معشر يهود . حتى إذا اجتمعوا قالوا له : ويلك ! مالك ! قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به .

وذكر ابن السَّكَن من حديث عثمان بن أبى العاص عن أمه فاطمة بنت عبد الله ، أنها شهدت ولادةَ آمنة بنت وهب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليلا .

قالت : فما شىء أنظر إليه من البيت إلا نورٌ ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول لتقعَنَّ علىَّ .

وذكر ابنُ مَخلد فى تفسيره أن إبليس رَنَّ أربعَ رَنَّات ، رنة حين لعِن ،

---

(١) وذلك سنة ٥٧٠ م قال الطبرى : وكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد كسرى أنو شروان عام قدم أبرهة الأشرم .. وذلك لمضى اثنتين وأربعين سنة من ملك كسرى أنو شروان ، وفى هذا العام كان يوم جبلة وهو يوم من أيام العرب مذكور. الطبرى ٩٩٩ طبع أوربا .

ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورنة حين أنزلت فاتحة الكتاب !

قال ابن إسحق : فلما وضعته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام ، فائته فانظر إليه . فأتاه ونظر إليه ، وحدّثته بما رأت حين حملت به ، وما قيل لها فيه ، وما أمرت أن تسميه .

فيزعمون أن عبد المطلب أخذه فدخل به الكعبة فقام يدعو الله و يشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها .

و يروى أن عبد المطلب إنما سماه محمدا لرؤيا رآها .

زعموا أنه أرِى فى منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض وطرف فى المشرق وطرف فى المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها .

فقصّها فعُبِرت له بمولود يكون مِن صلبه يَتْبَعَه أهل المشرق والمغرب ويَحْمَده أهلَ السماء والأرض . فلذلك سماه محمداً ، مع ما حَدثته أمه .

[من سُمّى محمداً قبله]

ولا يعرف فى العرب أحد تسمّى بهذا الاسم قبلَه ، سوى نفر سُموا به من أجله منهم محمد بن سُفيان بن مُجَاشع التميمى ، ومحمد بن أحَيحة بن الجُلاَح ، وآخر من ربيعة .

وكان آباؤهم قد وفدوا على بعض الملوك ممن كان عنده علم بالكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وتقارُب زمانه ، وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلّف امرأته حاملاً ، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً.

ففعلوا ذلك رجاء أن يكونه .

والله أعلم حيث يجعل رسالاته .

وقد وقع فى مواضع أخرى أن هؤلاء النفر كانوا أربعة ، ولم يذكر فيهم محمد بن أحَيْحَة ، وحديثهم مخالف لما ذكرناه خلافا يسيرا .

روينا من حديث عبد الملك بن أبى سَوِيّة عن أبيه عن جده قال : سألت محمدَ ابن عدى بن ربيعة : كيف سماك أبوك محمدا ؟ فقال : سألتُ أبى عما سألتنى عنه ، فقال: خرجت رابعَ أربعة من بنى تميم أنا فيهم، وسفيان بن مجاشع بن دارِم وأسامة ابن مالك بن خِندف ويزيد بن ربيعة، نُريد ابنَ جَفْنة ملِك غسان فلما شارَفْنا الشام نزلنا إلى غدِير عليه شجرات وقربه شخصٌ ناه ، فتحدثنا فاستمع كلامنا وأشْرف علينا فقال: إن هذه لغة ما هى لغةُ أهل هذه البلاد. فقلنا: نحن قومٌ من مضر قال : من أى المُضَرين ؟ قلنا : من خِنْدف . قال : أمَا إنه يُبعث فيكم وشيكا نبىٌّ خاتم النبيين فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه تَرْشُدوا .

فقلت له : ما اسمه ؟ قال : محمد فرجعنا من ابن جفنة فولِد لكل رجل منا ابن سماه محمداً .

[الرضاعة]

والتُمِس لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرُّضَعاء ، فاستُرضع له من امرأة من بنى سعد بن بكر يقال لها حليمة بنت أبى ذؤيب .

وكانت تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها ترضعه ، فى نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرُّضَعاء . قالت : وفى سنَة شهباء لم تُبْقِ لنا شيئاً .

قالت : فخرجتُ على أتان لى قَمْراء معنا شارف[١] لنا ، والله ما تبض[٢] بقطرة ولا ننام[٣] ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، ما فى ثَدْيِي ما يغنيه وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجتُ على أتانى تلك ، فلقد أذمّتْ بالرَّكْب[٤] حتى شقّ ذلك عليهم ، ضعفاً وعَجَفاً .

حتى قدِمنا مكة نلتمس الرُّضَعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنَّا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ما عسى أن تصنع أمه وجَدُّه ! ! فكنا نكرهه لذلك .

فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من بَيْن صواحبى ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبتُ إليه فأخذته ، وما حملنى على أَخْذِه إلا أنى لم أجد غيره .

فلما أخذتُه رجعت به إلى رَحْلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى . ثم ناما وما كنا ننام معه[٥] قبل ذلك . وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا إنها لَحافل ، فحلب منها ما شرب وشربتُ حتى انتهينا رِيًّا وشبعا .

---

(١) القمراء : التى يميل لونها الى الخضرة . والشارف : الناقة المسنة .
(٢) ما تبض: ماترشح .
(٣) ابن هشام : وما .
(٤) أى تأخرت بهم .
(٥) تريد ابنها الرضيع الذى تحدثت عنه قبل .

فبتنا بخير ليلة ، يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليمة لقد أخذتِ نَسَمة مباركة ! قلت : والله إنى لأرجو ذلك .

ثم خرجنا ، وركبت أتانى وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ، مايقدر علىّ شىء من حميرهم ، حتى إن صواحبى ليقلن : يا بنت أبى ذؤيب ويحكِ ! اربَعى علينا ! أليست هذه أتانُك التى كنتِ خرجت عليها ؟ ! فأقول لهن : بلى والله إنها لهى . فيقلن : والله إن لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بنى سعد ، ولا أعلم أرضا من أرض الله أجْدَبَ منها ، فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا به معها شباعا لُبّنا ، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضر[1] من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعا ما تَبِضُّ بقطرة لبن وتروح غنمى شباعا لُبنًا .

فلم نزل نتعرّف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتان وفصلْته .

وكان يشِبُّ شبابا لا يشِبُّه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جَفْرا[2] .

فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شىء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته .

فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بنىّ عندى حتى يَغْلُظ ، فإنى أخشى عليه وباء مكة .

---

(١) ابن هشام : الحاضرون.

(٢) الجفر الغليظ الشديد .

فلم نزل بها حتى ردّته معنا ، فرجعنا به .

[شَقُّ الصدر]

فوالله إنه بعد مَقْدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بَهْم[١] لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتدُّ ، فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القُرَشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضْجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه[٢] .

قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعا وجهه .

قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا : مالكَ يا بني ؟

قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقّا بطني فالتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو .

قالت : فرجعنا به إلى خبائنا وقال لي أبوه : ياحليمة لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به .

قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمكِ به ياظِئر[٣] ولقد كنتِ حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟

قلت : قد بلغ الله بابني ، وقضيتُ الذي عليّ ، وتخوّفت الأحداث عليه ، فأدّيته عليك كما تحبين .

قالت : ما هذا شأنك ، فاصْدُقيني خبرك .

---

(١) البهم : الصغار من الغنم
(٢) يسوطانه : يخلطانه .
(٣) الظئر : الحاضنه المرضعة

قالت : فلم تدَعْنى حتى أخبرتها .

قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم .

قالت : كلاَّ والله ما للشيطان عليه سبيل ، وإن لِبُنَىَّ لشأنا ، أفلا أخبرك خبره قلت : بلى .

قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى قصور بُصْرَى من أرض الشام .

ثم حملتُ به ، فوالله ما رأيت من حَمْلٍ قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدتُه وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء .

دعيه عنك وانطلقى راشدة .

ويروى أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له :

يا رسول الله : أخْبِرْنا عن نفسك .

قال : « نعم : أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بن مريم ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسْتُرضعت فى بنى سعد بن بكر .

بينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بَهْمًا لنا ، أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطَسْت من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذانى[١] فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبى و بطنى بذلك الثلج حتى أنزياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زِنْه بعشرة من أمته[٢] فوزَنْتهمُ. ثم قال زِنْه بمائة من

(١) ابن هشام ثم أخذانى .
(٢) ابن هشام : فوزنى بهم

أمته . فوزنني بهم فوزنتهم . ثم قيل : زنه بألف من أمته . فوزنتهم . فقال : دَعْه عنك ، فلو[1] وزنته بأمته لوزنها » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من نبي إلا وقد رَعَى الغنم . قيل : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا .

وكان يقول لأصحابه : أنا أَعْرَبُكم ، أنا قُرَشي واسترضعت في بني سعد ابن بكر .

وزعم الناس فيما يتحدثون ، والله أعلم ، أن أمه السَّعْدية لما قدمت به مكة أضلّها في الناس وهى مقبلة به نحو أهله ، فالتمسته فلم تجده ، فأتت عبد المطلب فقالت له : إنى قدمت بمحمد هذه الليلة فلما كنت بأعلى مكة أضلنى ، فوالله ما أدرى أين هو .

فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يردّه ، فيزعمون أنه وجده ورقةُ بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به عبد المطلب فقالا : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة . فأخذه عبد المطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعوّذه ويدعو له . ثم أرسل به إلى آمنة .

وذكر بعض أهل العلم أن مما هاج أمّه السعدية على ردّه ، ما ذكرت لأمه ما أخبرتها عنه ، أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه ، وقلّبوه ، ثم قالوا لها :

لنأخذن هذا الغلامَ فلنذهبن به إلى مَلِكنا وبلدنا ، فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره . فلم تكد تنفلت به منهم .

وذكر الواقدى أن أمه حليمة السعدية بعد أن رجعت به من عند أمه حضرت

---

(١) ابن هشام : فوالله لو .

به سوقَ ذى المجاز ، وبها يومئذ عرّافٌ من هَوَازن يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم ، فلما نَظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الحمرة فى عينيه وإلى خاتم النبوة ، صاح : يامعشر العرب فاجتمعَ إليه أهل الموسم ، فقال : اقتلوا هذا الصبى . وانسلّت به حليمة . فجعل الناس يقولون : أى صبى هو ؟ فيقول : هذا الصبى . فلا يرون شيئاً ، قد انطلقت به أمه ، فيقال له : ما هو ؟ فيقول : رأيت غلاماً ، وآلهته ، ليغلبن أهلَ دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمرُه عليكم . فطُلِب بعكاظ فلم يوجد .

ورجعت به حليمة إلى منزلها ، فكانت بعد هذا لا تعرضه لأحد من الناس .

ولقد نزل بهم عراف ، فأخرج إليه صبيان أهل الحاضر ، وأبَتْ حليمة أن تخرجه إليه ، إلى أن غَفلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج من المظلة فرآه العراف فدعاه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل الخيمة ، فجهد بهم العراف أن يخرج إليه فأبَتْ . فقال : هذا نبى .

وقد عرضه عمه أبو طالب على عائف مِن لِهْب ، كان إذا قدم من مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم ، فأتاه به أبو طالب وهو غلام مع من يأتيه ، قال : فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شىء فقال : الغلامَ علىّ به . فلما رأى أبوطالب حرصَهَ عليه غيّبَه ، فجعل يقول : ويلكم ردّوا علىّ الغلام الذى رأيت آنفاً ، فوالله ليكونن له شأن .

وانطلق به أبو طالب .

وكانت حليمة بعد رجوعها به من مكة لا تدعه أن يذهب مكاناً بعيداً . فغفلت عنه يوماً فى الظهيرة ، فخرجت تطلبه حتى تجده مع أخته . فقالت : فى هذا

الحر ؟ ! فقالت أخته : يا أمه ، ما وجد أخى حرًّا ، رأيت غمامة تظل عليه . إذا وقف وقفت وإذا سار سارت ، حتى انتهى إلى هذا الموضع .

تقول أمها : أحقًا يا بنية ؟ قالت : إى والله . قال : تقول حليمة : أعوذ بالله من شر ما يُحْذَر على ابنى .

فكان ابن عباس يقول : رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين .

وكان غيره يقول : رجع إليها وهو ابن أربع سنين .

هذا كله عن الواقدى .

[وفاة أمه وكفالة جده]

قال ابن إسحق : فكان النبى صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة وجده عبدالمطلب فى كلاءة الله وحفظه ، يُنْبِته الله نباتًا حسنًا لما يريد به من كرامته .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ستَّ سنين توفيت أمه بالأَبْوَاء بين مكة والمدينة .

وكانت قد قدمت به إلى أخواله من بنى عدى بنَ النجار تُزِيره إياهم ، فماتت وهى راجعة به إلى مكة .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب .

وكان يوضَع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غُلام جَفْرٌ حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دَعُوا ابنى فوالله إن له لشأنا .

ثم يُجْلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسرُّه ما يراه يصنع .

قالوا : وكانت أمُّ أيمن تحدِّث تقول : كنت أحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفلت عنه يوما فلم أدرِ إلا بعبد المطلب قائما على رأسى يقول : يا بَرَكة ، قلت : لبيك ، قال : أتدرين أين وجدت ابنى ؟ قلت : لا أدرى . قال : وجدته مع غلمان قريبا من السِّدرة ، لا تغفلى عن ابنى ، فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبىُّ هذه الأمة ، وأنا لا آمَن عليه منهم .

وكان لا يأكل طعاما إلا قال : علىَّ بابنى . فيؤتى به إليه .

وحدَّث كعب بن مالك عن شيوخ من قومه أنهم خرجوا عُمَّارا ، وعبدُ المطلب يومئذ حىٌّ بمكة ، ومعهم رجل من يهود تيماء ، صحبهم للتجارة يريد مكة أو اليمن ، فنظر إلى عبد المطلب ، فقال : إنا نجد فى كتابنا الذى لم يبدَّل أنه يخرج من ضِئْضِىء[1] هذا نبىٌّ يقتلنا وقومُه قتلَ عاد .

وجلس عبدُ المطلب يوماً فى الحِجْر وعنده أسقف نجران ، وكان صديقا له ، وهو يحادثه وهو يقول : إنا نجد صفة نبى بَقِى من ولد إسماعيل ، هذه مولده ، من صفته كذا وكذا .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الحديث ، فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدميه ، فقال : هو هذا . فقال : الأسقف : ما هذا منك ؟ قال : ابنى . قال الأسقف : لا ، ما نجد أباه حيًّا . قال عبد المطلب : هو ابن ابنى مات أبوه وأمه حبلى به . قال : صدقتَ . قال عبد المطلب : تحفَّظوا بابن أخيكم ، ألا تسمعون ما يقال فيه ؟ !

---

(١) الضئضىء : الأصل .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يلعب مع الغلمان حتى بلغ الرَّدم ، فرآه قوم من بنى مُدْلج فدَعَوْه ، فنظروا إلى قدميه وإلى أثره ، ثم خرجوا فى طلبه حتى صادفوا عبدَ المطلب قد لقيه فاعتنقه ، فقالوا لعبد المطلب : ما هذا منك ؟ قال : ابنى . قالوا : فاحتفظ به ، فإنا لم نرَ قدما قط أشبهَ بالقدم الذى فى المقام من قدمه .

فقال عبد المطلب لأبى طالب : اسمع ما يقول هؤلاء . فكان أبو طالب يحتفظ به .

وقد روى أبو داود السِّجِسْتانى من حديث ابن عباس ، قال : أتى نفر من قريش امرأةً كاهنة ، فقالوا : أخبرينا بأقربنا شَبهًا بصاحب هذا المقام .

قالت : إن جررتم على السَّهلة عباءة ومشيتم عليها أنبأتكم بأقربكم شبها به .

فجرّوا عليها عباءة ، ثم مشوا عليها ، فرأت أثرَ قدم محمد صلى الله عليه وسلم ، فقالت : هذا والله أقربكم شبها به .

قال ابن عباس : فمكثوا بعدُ عشرين سنة ، ثم بعث محمد صلى الله عليه وسلم .

[بشارة سيف بن ذى يَزَن بالنبى]

ولما ظهر سيفُ بن ذى يزن على الحبشة ، وذلك بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم أتته وفودُ العرب وأشرافها وشعراؤها يهنئونه و يمدحونه و يذكرون من حسن بلائه وطلبه بثأر قومه .

فأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم فى أناس من وجوه قريش ، فقدموا عليه صنعاء فأذن لهم ، فلما دخلوا عليه دنا عبدُ المطلب منه فاستأذنه فى الكلام ، فقال : إنْ كنتَ ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذِنّا لك .

فقال عبد المطلب : إن الله قد أحلك أيها الملك محلاً رفيعا صَعْبا مَنيعا ، شامخا باذخا ، وأنبتك مَنبتا طابت أُرومته وعزّت جُرْثومته ، وثبَت أصلُه ، وبَسَق فَرْعه ، فى أكرم مَوْطن ، وأطيب مَعْدِن .

وأنت أيها الملك رأسُ العرب الذى به تنقاد ، وعمودها الذى عليه العِماد ، ومَعْقِلها الذى يلجأ إليه العِباد ، سَلَفُك لك خير سلف ، وأنت لنا فيه خير خَلَف ، فلم يَخْمل من أنت سلفُه ، ولن يهلك من أنت خلَفه ، نحن أيها الملك أهلُ حرم الله وسدَنة بيته ، أشْخَصَنا إليك الذى أبْهَجنا بكشف الكرب الذى فَدَحنا ، فنحن وَفْد التهنئة لا وفد المرزئة .

فقال له سيف : وأيُّهم أنت أيها المتكلم ؟ فقال : أنا عبد المطلب بن هاشم . قال : ابن أختنا ؟ قال : نعم . قال : أدْنِه ، فأدناه .

ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال لهم : مرحبا وأهلا ، قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبِل وسيلتكم ، وأنتم أهل الليل والنهار ، فلكم الكرامة ما أقمتم والحِباء إذا ظعنتم .

ثم أُنهضوا إلى دار الضيافة والوفود ، فأقاموا شهرا لا يَصِلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف .

ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب ، فقال له : إنى مفوِّض إليك

من سَنِيٍّ على أمراً لو يكون غيرك لم أبُحْ له به ، ولكنى رأيتك مَعْدِنه فأطلعتك عليه ، فليكن عندك مكنونا حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغُ أمره .

إنى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اختزنّاه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبرا عظيما وخطرا جسيما ، فيه شرفُ الحياة وفضيلة الوفاة ، للناس عامة ولرهطك كافة ، ولك خاصة .

فقال له عبد المطلب : مثلُك أيها الملك سَرَّ وبَرَّ ، فما هو ؟ فداك أهلُ الوبر زُمَراً بعد زُمَر .

فقال : إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة .

فقال له عبد المطلب : لقد أبْتُ بخير ما آبَ بمثله وافد ، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من سارّه إياى ما أزداد به سرورا .

فقال له ابن ذى يَزَن : هذا حينُه الذى يولد فيه ، أوقد ولد ، اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه ، قد ولدناه مراراً[1] والله باعثه جهارا وجاعل له منا أنصارا يعزُّ بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه ، يضرب بهم الناس عن عُرض ، ويستبيح بهم كرائمَ الأرض ، ويكسر الصلبان ويخمد النيران ويعبد الرحمن ويَدْحر الشيطان ، قوله فَصْلٌ وحكمه عَدْل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

---

(١) يريد أن العرب جميعا ولدوا رسول الله ، أى أن له فيهم قرابة كلهم .

فقال له عبد المطلب : عَزّ جَدُّك وعلا كعبك ودام مُلكك وطال عمرك ، فهل الملك سارّى بإفصاح ، فقد أوضح لى بعض الإيضاح .

فقال له ابن ذى يزن : والبيت والحُجُب ، والعلامات والنُّصُب ، إنك يا عبد المطلب لَجَدُّه غيرُ الكذب .

فخرّ عبد المطلب ساجدا ، فقال له : ارفع رأسك ثَلُجَ صدرُك وعلا أمرك ، هل أحسست بشىء مما ذكرت لك ؟

فقال عبد المطلب : كان لى ابن ، وكنت عليه رفيقا ، فزوّجته كريمةً من كرائم قومه ، فجاء بغلام فسميته محمداً ، فمات أبوه وأمه ، وكفلته أنا .

فقال له ابن ذى يَزَن : إن الذى قلتُ لك كما قلتَ ، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود ، فإنهم أعداؤه ، ولن يجعل الله عليه سبيلا ، واطْوِ ما ذكرتُ لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لا آمن أن تَدْخلهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة ، فيطلبون له الغوائل ويَنْصِبون له الحبائل ، وهم فاعلون وأبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن الموت مُخْتَرِمِي قبل مَبْعثه لسِرْتُ بخيلى ورَجِلى حتى أصير بيثرب دارِ مُلْكه ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيثرب استحكامُ أمره وأهلُ النصرة له ، وموضع قبره ، ولولا أنى أخاف عليه الآفات وأحْذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه بذِكره ، ولكنى صارفٌ ذلك إليك ، من غير تقصير بمن معك .

ثم أمر لكل رجل من القوم بعشرة أعْبُدٍ وعشر إماء ، وحِلْسٍ من البرود ، ومائة من الإبل ، وخمسة أرطال ذهب ، وعشرة أرطال فضة ، وكَرِشٍ [1] مملوءة عنبرا .

---

(١) الكرش : لذى الخف والظلف كالمعدة للانسان .

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك كله ، وقال له : إذا حال الحَوْلُ فائتنى .

فمات ابنُ ذى يَزَن قبل أن يحُول الحولُ ، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : يا معشر قريش ، لا يغبطنى أحدكم بجزيل عطاء المَلِكَ وإن كَثُر ، فإنه إلى نفاد ، ولكن لِيَغْبِطْنى بما يبقى لى ولعَقِبى من بعدى ذِكرُه ، وفخرُه وشرفه .

فإذا قيل له : فما ذاك ؟ قال : ستعلمون نبأه ولو بعد حين .

وحديثُ سيفٍ بن ذى يَزَن هذا عن غير ابن إسحق[1] وهو عندنا بالإسناد ، وقد تقدم ما ألقاه تُبَّعٌ الآخر إلى ملوك حمير وأبنائهم من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن عِلْمَ سيفٍ بذلك إنما كان من تلك الجهات . والله أعلم .

[وفاة جده]

ثم إن عبد المطلب بن هاشم هلك عن سنٍّ عالية مُخْتَلَفٍ فى حقيقتها .

أدناها فيما انتهى إلىَّ ووقفت عليه ، خمسٌ وتسعون سنة . ذكره الزبير .

وأعلاها فيما ذكر الزبير أيضاً عن نوفل بن عمارة قال : كان عبيدُ بن الأبْرص تِرْبَ عبد المطلب ، وبلغ مائةً وعشرين سنة ، وبقى عبدُ المطلب بعده عشرين سنة .

وقال محمد بن سعيد بن المسيِّب : لما حضرت الوفاة عبدَ المطلب وعرف أنه

---

(١) وهو فى دلائل النبوة لأبى نعيم ٥٦ ، وفى تاريخ ابن عساكر ١/٣٦١ .

ميت جمع بناته وكنّ ستًّا ، صفية ، و بَرّة ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء ، وأُمَيْمة وأرْوَى ، فقال لهن : ابكين عليّ حتى أسمع ما تقُلْن قبل أن أموت .

فقالت كل واحدة منهن شعرا ترثيه به وأنشدته إياه ، فأشار برأسه ، وقد أصْمَت : أنْ هكذا فابكينني .

وذكر ابن إسحق تلك الأشعار .

وقال ابن هشام : إنه لم يَرَ أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها .

قال ابن إسحق : قال حذيفة بن غانم أخو بنى عَدِى بن كعب يبكى عبدَ المطلب بن هاشم ، ويذكر فضله ، وفضلَ قُصَىٍّ على قريش وفضلَ ولده مِن بعده عليهم :

أعَيْنَىَّ جُودَا بالدموع على الصدرِ
ولا تَسْأما ، أُسْقِيتُما سَبَلَ القَطْرِ[1]

وجُودَا بدَمْعٍ واسْفَحا كلّ شارقٍ
بكاء امرىء لم يُشْوِه[2] نائب الدهرِ

وسُحّا وجُمّا واسجُمَا ما بقيتما[3]
على ذى حَيَاء من قريشٍ وذى سِتْرِ

على رجلٍ جَلْدِ القُوَى ذى حفيظة
جميلِ المُحَيَّا غير نِكْسٍ[4] ولا هَذْرِ

---

(١) السبل محركة : المطر .

(٢) لم يشوه : لم يخطئه .

(٣) سحا : صبا . وجما : أجما واسجما : أسيلا. (٤) النكس : الجبان .

على الماجد البُهْلولِ ذى البأس والنَّدَى
ربيعِ لُؤَىٍّ فى القُحوطِ وفى العُسْرِ [1]

على خير حافٍ من مَعَدٍّ وناعلٍ
كريم المساعى طَيِّب الخِيم والنَّجْرِ [2]

على شيبةِ الحمد الذى كان وجهه
يضىء سوادَ اللَّيلِ كالقمرِ البَدْرِ

وساقِ الحجيجِ ، ثم للخَيْرِ هاشمٍ
وعبدِ مناف ذلك السيد الفِهْرِى

طوَى زمزماً عند المقامِ فأصبحت
سِقَايتُهُ فَخراً على كلِّ ذى فَخرِ

ليَبْكِ عليه كلُّ عانٍ بكُرْبَةٍ
وآلُ قُصَىٍّ من مُقِلٍّ وذى وَفْرِ

بَنُوه سَرَاةٌ كَهْلُهم وشبابهم
تَفَلَّقَ عنهم بيضةُ الطائرِ الصَّقْرِ

قُ ىٌّ الذى عادَى كِنانةَ كلَّها
ورابَط بيتَ اللهِ فى العُسْر واليُسْرِ

فإن تكُ غالَتْه المنايا وصَرْفُها
فقد عاش ميمونَ النَّقِيبةِ والأمر

---

(١) من ابن هشام .

(٢) الخيم : السجية . والنجر : الأصل .

وأبقَى رجالاً سادةً غـيرَ عُزَّلٍ
مصاليتَ أمثـالَ الرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ(١)

أبو عُتْبـةَ الملقِى إلىَّ حِباءه
أغرُّ هِجانُ اللونِ مِنْ نَفَرٍ غُرّ(٢)

وحمزةُ مثل البَدْرِ يهـتزُّ للنَّدَى
نَقِيُّ الثياب والذِّمام من الغَدْرِ

وعبدُ منافٍ ماجدٌ ذو حفيظةٍ
وَصولٌ لذى القُرْبَى رحيمٌ بذى الصِّهْرِ

كُهولهمُ خـيرُ الكهول ونَسْلُهُمْ
كنَسْلِ المـلوكِ لا تَبُورُ ولا تَحْرِى(٣)

متى ما تلاقى منهمُ الدهرَ ناشئـا
تجِدْه بإجْـرِيَّا أوائله يَجْرِى(٤)

همُ ملأوا البطحاء مَجْـدًا وعزةً
إذا استُبِقَ الخيراتُ فى سالف العصرِ

وهم حضَروا والنـاسُ بادٍ فريقهم
وليس بها إلا شيـوخُ بنى عمرِو

بنَوْها دِياراً جَمَّـةً وطوَوْا بها
بِئاراً تَسُحُّ المـاء مِن ثَبَجٍ بَحْرِ

---

(١) الردينية : الرمح .
(٢) الهجان : الأزهر .
(٣) لا تحرى : لاتنقص .
(٤) الإجريا : الوجه الذى تأخذ فيه وتجرى عليه .

لِـكَىْ يَشْرب الحُجَّاجُ منها وغـــيرُهم
إذا ابتدروها صُبْحَ تابعةِ النَّحْــرِ

ثلاثةَ أيامٍ تظـــلُّ ركابهـــم
مُحَبَّسةً بين الأخاشب والحِجْرِ

وقِدْماً غَنِينا قبـــل ذلك حِقْبـــة
ولا نستـــقى إلا بخُمٍّ أو الحَفْرِ (١)

هم، (٢) يغفرون الذنبَ يُنْقَم دُونَه
ويَعْفُون عن قول السفاهة والهُجْرِ

أخارجَ (٣) إمَّا أهلِـكَنَّ فلا تَزَلْ
لهم شاكراً حتى تُغَيَّبَ فى القَبْرِ

ولا تنسَ ما أسْـــدَى ابنُ لُبْنَى فإنه
قد أسدى يداً مَحْقُوقةً منك بالشُّـكرِ

وأنت ابنَ لُبْنَى من قصىٍّ إذا انتموا
بحيث انتهى قَصْدُ الفؤادِ من الصدرِ

وأمُّك سِرٌّ من خزاعة جَـــوْهَرٌ
إذا حصَّل الأنسابَ يوماً ذوو الخُبْرِ

إلى سَبَإِ الأبطالِ تُنْمى وتَنْتَمى
وأكْرِم بها منسوبةً فى ذُرَى الدَّهْرِ (٤)

(١) خم والحفر : بئران من آبار مكة .
(٢) ابن هشام : وهم .
(٣) ابن هشام : نخارج .
(٤) ابن هشام : فى ذرى الزهر .

ابن لُبْنى هو[1] أبو لهب عبد العُزَّى بن عبد المطلب ، وهو أبو عُتْبة الذى ذكره قبل فى هذا الشعر .

وكانت أمه امرأةً من خزاعة اسمها لُبْنى بنت هاجَر . ولذلك قال :

« وَأُمُّكَ سِرٌّ من خُزَاعَة » .

ونَمَاهَا إلى سبأ الأبطال بناء على ما قدمناه من انتماء خزاعة إلى عمرو بن عامر ، من غسّان وانتفائهم من المُضَرِية .

واليدُ التى ذكر هذا الشاعر أنها ترتبت عليه لأبى لهب : ذكر ابن إسحاق أنه كان أخذ بغُرْم أربعة ألف درهم بمكة ، فوقِف بها ، فمرَّ به أبو لهَب فافتكه .

ونسب الزبيرُ هذا الشعرَ لحُذَافة بن غانم ، ودليله قولُه فيه :

« أخارجَ إما أهْلِكنّ البيت . . »

فإن خارجة هو ابن حذافة .

وحذيفة الذى نسب ابن إسحاق إليه الشعرَ هو أخو حذافة ، ولا يعرف له ابن يسمى خارجة ، وإنما هو والد أبى جَهْم بن حذيفة ، واسمُ أبى جهم عُبَيد ، وهو الذى بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخميصة ذات الأعلام التى ألهته عن صلاته ، وأمر أن يؤتى بأنبجانيّة[2] .

---

(١) ت ط : هذا .
(٢) الأنبجانية : كساء . من الصوف له خمل ولا علم فيه ، ينسب إلى منبج على غير قياس

[العباس يَلِي زمزمَ]

ولما هلك عبدُ المطلب ، وَلِيَ زمزم والسقاية عليها ابنُه العباس وهو يومئذ مِن أحدثِ إخوته سنا ، فلم تَزَلْ إليه حتى قام الإسلام وهى بيده ، فأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما مضى من ولايته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُجِله إجلال الولدِ الوالدَ .

يقول كُرَيب [مولى ابن عباس(١)] : وما ينبغى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلّ إلا والدا وعمًّا ، فضيلةٌ خص الله بها العباس دون مَن سواه .

وقال صلى الله عليه وسلم : احفظونى فى عمى العباس ، فإن عمّ الرجل صِنْوُ أبيه .

وطلع يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا العباس أجْوَدُ قريش كفًّا وأوْصلها .

ولم يزل العباس سيداً فى الجاهلية والإسلام ، يمنع الجارَ ويبذل المـال ويعطى فى النوائب .

قال الزبير : وكان يقال : كان للعباس بن عبد المطلب ثوبٌ لعارى بنى هاشم ، وجَفْنَةٌ لجائعهم ، ومِقْطَرةٌ لجاهلهم . والمِقْطَرة : خشبة ذات سلسلة يُحْبس فيها الناسُ .

وفى ذلك يقول إبراهيم بن على بن هَرْمة :

---

(١) من ب .

وكانت لعبـــاسٍ ثلاثٌ نَعُدُّها
إذا ما جَنَابُ الحيِّ أصبح أشهبا(١)

فسلسلةٌ تَنهى الظَّلُومَ وجَفْنةٌ
لمـــارٍ ضَرِيكٍ(٢) ثوبه قدتهدَّبا

وقال ابن شهاب : لقد جاء الله بالإسلام وإن جَفْنة العباس لتدور على فقراء بنى هاشم ، وإن قَيْده وسَوْطه لَمُعَدٌّ لسفهائهم .

قال : فكان ابن عمر يقول : هذا والله الشرفُ ، يطعم الجائعَ ويؤدب السفيه !

وكان أبو بكر وعمر فى ولايتهما لا يَلْقَ العباسَ واحدٌ منهما وهو راكبٌ إلا نزل عن دابته وقادها ومشى مع العباس حتى يبلغ منزله أو مجلسه فيفارقه .

[كفالة عمه أبى طالب]

وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مَهْلِكِ جده عبد المطلب مع عمه أبى طالب .

وكان عبد المطلب يوصيه به فيما يزعمون .

وذلك أن عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا طالب أخوان لأب وأم ، فكان أبو طالب هو الذى يلى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد جده ، فكان إليه ومعه .

---

(١) الأشهب : الجدب (٢) الضريك : هو الصغير ، وهو الفقير

وذكر الواقدى أن أبا طالب كان مُقِلا من المـال ، وكانت له قطعة من الإبل بعُرَنَة[١] ، فيبدو إليها فيـكون فيها ، ويؤتى بلبنها إذ كان حاضرا بمكة .

فـكان عيال أبى طالب إذا أكلوا جميعا وفُرَادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا .

فـكان أبو طالب إذا أراد أن يعشيهم أو يغديهم يقول : كما أنتم حتى يأتى ابنى .

فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فيُفْضِلون من طعامهم ؛ وإن كان لبنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولَهم ، ثم يناول العيالَ القَعْبَ فيشربون منه فيروون من عند آخرهم من القعب الواحد ، وإن كان أحدهم ليشرب قَعْبا !

فيقول أبو طالب : إنك لَمُبَارَك ! .

وكان الصبيان يصبحون شُعْثا رُمْصا ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دَهِينًا كحيلا .

وقالت أم أيمن ، وكانت تحضنه : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم شَـكَا جوعا قط ولا عطشا ، وكان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة ، فربما عَرَضْنا عليه الغذاء فيقول : لا أريده أنا شبعان .

[رحلته إلى الشام]

قال ابن إسحق : ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرا إلى الشام ، فلمـا

---

(١) عرنة : واد بحذاء عرفات .

تهيأ للرحيل صَبَّ[١] به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون ، فرقّ له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا . أو كما قال .

فخرج به معه ، فلما نزل الركبُ بُصرى فى أرض الشام ، وبها راهب يقال له بَحِيرى فى صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهبٌ إليه يصير عِلمهم عن كتاب منها ، فيما يزعمون ، يتوارثونه كابرا عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العامَ ببحيرى وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يَعْرِض لهم ، حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك فيما يزعمون عن شىء رآه وهو فى صومعته ، يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركب حين أقبلوا وغمامةٌ تظلّه من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه ، فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهصرت أغصانُ الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ، ثم أرسل إليهم فقال : إنى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحرُّكم .

فقال رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك اليوم لشأنا ! ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟

قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

---

(١) صب به : تعلق وتروى : ضبث . أى لزمه .

فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه فى رِحال القوم، فلما نظر بحيرى فى القوم لم ير الصفة التى يعرف و يجدُ عنده ، فقال : يا معشر قريش لا يتخلفنّ أحد منكم عن طعامى .

قالوا له : يا بحيرى ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحْدث القوم سنًّا ، فتخلّف فى رحالهم . قال : لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم . فقال رجل من قريش : واللات والعزى إنْ كان لَلُؤماً(١) بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا . ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا و ينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده فى صفته .

حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال له : ياغلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . و إنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما . فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضتُ شيئا قط بغضهما . فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه قال له : سَلْنى عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء مِن حاله فى نومه وهيئته وأموره ، و يخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

---

(١) ابن هشام : للؤم

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب ، فقال : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابن أخى . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حُبْلى به .

قال : صدقتَ ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهودَ ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليَبْغُنَّه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرعْ به إلى بلاده .

فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقْدَمه مكةَ حين فرغ من تجارته بالشام .

فزعموا أن نفراً من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلَ ما رأى بَحِيرى فى ذلك السَّفَر الذى كان فيه مع عمه أبى طالب ، فأرادوه فردَّهم عنه بحيرى ، وذكَّرهم الله وما يجدون فى الكتاب من ذِكْره وصفاته ، وأنهم إن أجمعوا لِمَا أرادوا لم يَخْلُصوا إليه ، حتى عرفوا ما قال لهم وصدَّقوا بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه .

[حِفْظُ الله له]

فشَبَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وَيَكْلَؤه اللهُ ويحفظه ، ويَحُوطه من أقذار الجاهلية لِمَا يريد به من كرامته ورسالته .

حتى بلَغ أنْ كان رجلاً أفضلَ قومه مروءة ، وأحسنَهم خُلقا ، وأكرمَهم حَسَبا ، وأحسَنَهم جواراً ، وأعظمهم حِلْما ، وأصْدَقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفُحش والأخلاق التى تدنِّس الرجال ، تنزُّهاً وتكرُّماً .

حتى ما اسمهُ فى قومه إلا الأمينُ ، لِمَا جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدِّث مما كان الله يحفظه به في صِغَره وأمرِ جاهليته ، أنه قال : لقد رأيتُني في غلمان قريش ننقل حجارةً لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرّى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فإني لأُقبِلُ معهم كذلك وأُدْبِرُ إذ لكَمَني لاكمٌ ما أراه لَكْمةً وجيعة ، ثم قال : شُدَّ عليك إزارك .

قال : فأخذته فشدَدْتُه عليّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي .

وذكر البخاري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما همَمْتُ بسوء من أمر الجاهلية إلا مرتين .

وروى غيرُه أن إحدى المرتين كان في غَنَم يرعاها هو وغلام من قريش ، فقال لصاحبه : اكْفِني أمرَ الغنم حتى آتي مكة ، وكان بها عرسٌ فيه لهو ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك أُلقِيَ عليه النوم ، فنام حتى ضربَتْه الشمس ، عصمةً من الله له !

والمرة الأخرى مثل الأولى سواء .

وذكر الواقدي عن أم أيمن قالت : كانت بوانة صنما تَحْضُره قريش وتعظّمه وتَنْسك له وتَحْلق عنده وتعكف عليه يوماً إلى الليل في كل سَنَةَ ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ويكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معهم فيأبى ذلك .

قالت: حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عمّاته غضبن يومئذ أشدّ الغضب،

وجعلن يقلن : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا . و يقلن : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تُكثر لهم جمعا ؟ !

فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوبا فزعا ، فقلن له : ما دهاك ؟ قال : إنى أخشى أن يكون بى لَمَم(١) .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذى رأيت ؟

قال : إنى كلما دنوت من صنم منها تمثّل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يا محمد لا تمسّه .

قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نُبِّئ صلوات الله عليه وعلى آله .

[زواجه بخديجة]

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد ، فيما ذكره غير واحد من أهل العلم .

وذكر الواقدى بإسناد له إلى نفيسة بنت مُنَية أخت يعلى بن منية ، وقد رويناه أيضاً من طريق أبى على بن السكن ، وحديث أحدهما داخل فى حديث الآخر مع تقارب اللفظ ، وربما زاد أحدهما الشىء اليسير ، وكلاهما يَنْمى إلى نفيسة .

قالت : لمّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خمساً وعشرين سنة وليس له بمكة اسمٌ إلاّ الأمين ، لما تكاملت فيه من خصال الخير ، قال أبو طالب :

---

(١) المطبوعة لى وهو خطأ .

يا بن أخى أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علىّ وألحّت علينا سنون منكَرة ، وليست لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عِير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عِيرها فيتّجرون لها فى مالها ويصيبون منافعَ .

فلو جئتها فعرضتَ نفسك عليها لأسرعَتْ إليك وفضّلتك على غيرك ، لِما بلغها عنك من طهارتك ، وإنْ كنتُ لأكره أن تأتى الشامَ وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا نجد من ذلك بُدًّا .

وكانت خديجة رضى الله عنها امرأةً تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام ، فيكون عِيرها كعامّةِ عير قريش ، وكانت تستأجر الرجالَ وتدفع لهم المال مضاربةً .

وكانت قريش قوماً تجاراً ، ومن لم يكن تاجراً من قريش فليس عندهم بشىء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلعلها ترسل إلىّ فى ذلك .

فقال أبو طالب : إنى أخاف أن تولى غيرك ، فتطلب أمرًا مُدْبرا .

فافترقا ، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمّه له ، وقَبْل ذلك ما قد بلغها من صدق حديثه ، وعِظم أمانته وكرم أخلاقه ، فقالت : ماعلمت أنه يريد هذا .

ثم أرسلت إليه فقالت : إنه دعانى إلى البِعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعِظَم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضِعف ما أعطى رجلا من قومك .

ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقى أبا طالب وذكر له ذلك ، فقال : إن هذا لرزق ساقه الله إليك .

فخرج مع غلامها مَيْسَرَة حتى قدِم الشام ، وجعل عمومتُه يوصون به أهلَ العِير ، حتى قدِم الشامَ فنزلا فى سوق بُصْرى فى ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا .

فاطّلع الراهب إلى مَيْسَرة وكان يعرفه فقال : يا ميسرة من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟

فقال ميسرة : رجل من قريش من أهل الحرم .

فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى(١) .

ثم قال له : فى عينيه حمرة ؟

قال ميسرة : نعم لا تفارقه .

فقال الراهب : هو هو ، وهو آخر الأنبياء ، ويا ليت أنى أدركه حين يؤمر بالخروج . فوعَى ذلك ميسرة .

ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوقَ بُصْرى ، فباع سلعته التى خرج بها واشترى سلعةً ، فكان بينه وبين رجل اختلاف فى سلعة ، فقال الرجل : احلف باللات والعُزّى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط . فقال الرجل : القولُ قولك .

ثم قال لميسرة، وخَلاَ به : يا ميسرة، هذا نبىٌّ، والذى نفسى بيده إنه لهو ، تجده أحبارُنا منعوتاً فى كتبهم .

فوعى ذلك ميسرة .

ثم انصرف أهل العِير جميعاً .

---

(١) يريد : ما نزل الآن وإلا فلم يخل أن يجلس تحتها كثير من الناس غير أنبياء .

وكان ميسرة يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يُظِلاَّنه من الشمس وهو على بعيره .

قال : وكان الله عز وجلّ قد ألقى على رسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة من ميسرة ، فكان كأنه عبدٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما رجعوا وكانوا بمَرّ الظّهران تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة ، وخديجة فى عُلِّيَة[1] لها ، معها نساء فيهن نفيسة بنت مُنَيَّة ، فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكبٌ على بعيره ، وملَكان يُظِلاَّن عليه ، فأرته نساءها ، فعجبن لذلك .

ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخبَّرها بما ربحوا ، فسرَّت بذلك . فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، فقال لها ميسرة : قد رأيتُ هذا منذ خرجنا من الشام . وأخبرها بقول الراهب نسطورا ، وقولِ الآخر الذى خالفه فى البيع .

قالوا : وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارتها ، فربحت ضعفَ ما كانت تربح ، وأضْعَفَت له ما سمّت له .

فلما استقرّ عندها هذا ، وكانت امرأة حازمةً شريفةً لبيبةً ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهنّ مالاً ، وكلُّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو يقدر عليه ، عرضت عليه نفسها .

فقالت له فيما يزعمون : يا بنَ عمِّى ، إنى قد رغِبْتُ فيك لقرابتك

---

(١) العلية : الحجرة .

وصِيتك[1] فى قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصِدق حديثك .

فلما قالت له ذلك ، ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمُّه حمزة بن عبد المطلب ، رحمه الله تعالى ، حتى دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها إليه فتزوّجها .

هكذا ذكر[2] ابن إسحاق ، وذكر الواقدى وغيره من حديث نفيسة ، أن خديجة أرسلت إليه دسيساً ، فدعته إلى تزوّجها .

فلمّا أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى عمِّها عمرو بن أسد فحضر ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمومته فزوّجه أحدُهم .

وقال عمرو : هذا الفَحلُ لا يُقدَعُ أنفُهُ .

قال ابن هشام : وأصْدَقَهَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عشرين بَكْرَةً .

وكانت أوّل امرأة تزوّجها ، ولم يتزوّج عليها غيرها حتى ماتت .

قال ابن إسحاق : فولدت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولدَه كلَّهم ، إلا إبراهيم : القاسمَ ، وبه كان يُكْنى صلى الله عليه وسلم ، والطاهر ، والطيِّب ، وزينبَ ، ورقيّة ، وأمَّ كلثوم ، وفاطمة .

فأما القاسمَ والطاهرَ والطيِّب فهلكوا فى الجاهلية .

وأما بناته فكلّهن أدركْن الإسلامَ ، فأسلمن وهاجرن معه .

هذا قول ابن إسحاق فى ذكور البنين ، أنّهم هَلكوا فى الجاهلية .

وقال الزبير بن بَكّار ، وهو من أئمة هذا الشأن : ولدت له القاسمَ ، وعبدَ الله وهو الطاهر والطيّبُ ، وُلِدَ بعد النبوّة ومات صغيراً .

---

(١) ط : ووسطتك .

(٢) المطبوعة : قال .

وفى مسند الفِرْيابى ، مايدلّ على أنه مات قبل أن تتم رضاعته و بعد النبوّة[1] .

وذلك أن خديجة دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت القاسم وهى تبكى عليه فقالت : يارسول الله ، لو كان عاش حتى تَستكمل رضاعته لهُوّن علىّ . فقال : إنّ له مُرضِعاً فى الجنّة تستكملُ رضاعتَه . فقالت خديجة : لو أعلم ذلك لهوّن علىّ . فقال رسول الله : إن شئتِ أسمعْتُكِ صوتَه فى الجنة . فقالت خديجة : بل أصدّق الله ورسولَه .

قال ابن هشام : وأما إبراهيم فأمه مارية سُرِّيه النبى صلى الله عليه وسلم التى أهداها إليه المُقَوقس من حَفْنَ من كُورة أنصِناء[2] .

وهى قبطية من قبط مصر ، وهذا هو الصهر الذى ذكره لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « اللهَ اللهَ فى أهل الذمة ، أهل المدَرة السوداء السُّحْم الجعاد ، فإن لهم نسباً وصهراً » .

قال مولى غُفْرة : نسبُهم أن أمّ إسماعيل النبى منهم ، وصِهْرُهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرّر فيهم .

وفى حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمةً ورَحِما » .

* * *

(١) أى القاسم

(٢) هى مدينة بنواحى الصعيد على شرقى النيل .

قال ابن إسحق : وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورَقة بن نوفل بن أسد ابن العزى ، وكان ابن عمها[1] وكان نصرانيا قد تتبّع الكتب وعَلِم من علم الناس ، ما ذكر لها غلامُها مَيْسرة من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يُظِلانه .

فقال وَرَقة : لئن كان هذا حقًا يا خديجة إن محمدا لنبى هذه الأمة ، قد عرفتُ إنه كائنٌ لهذه الأمة نبى يُنتَظر ، هذا زمانه . أو كما قال .

فجعل ورقة يستبطىءُ الأمرَ ويقول : حتى متى ؟ ! وقال فى ذلك :

لَجِجْتُ وكنتُ فى الذكرى لَجُوجا
لِهَمٍّ طالما بَعَث النَّشِيجا

ووصفٍ من خديجة بعدَ وَصْفٍ
فقد طال انتظارى يا خديجا

ببطن المكتين[2] على رجائِى
حديثَكِ أنْ أرَى منه خُروجا

بما خبَّرتِنا من قول قسٍّ
من الرُّهبان أكْرهُ أن يَعوجا

بأن محمداً سَيسُود يوماً
ويَخْصِم مَنْ يكونُ له حَجِيجا

---

(١) المطبوعة : عمه وهو خطأ .

(٢) يريد بالمكتين : جانبا مكة ، أو بطاحها وظواهرها .

وَيُظْهِر فى البـلاد ضيـاء نور
يقيم به البريَّة أن تَمُوجـا
فيَلْقى من يحـاربُه خَسـارا
ويَلْقى من يُسَالمـه فُلوجـا(١)
فياليـتي إذا ما كان ذاكم
شهدتُ فكنت أوّلهم وُلوجـا
ولوجاً فى الذى كَرِهت قريشٌ
ولو عجَّتْ بمكتهـا عَجِيجـا
أرجّى بالذى كَرِهـوا جميعاً
إلى ذى العرش إنْ سَفِلوا عُروجـا
وهل أمرُ السفاهة(٢) غـير كُفْرٍ
بمن يختار(٣) ، مَنْ سَمك البروجـا
فإن يَبْقَـوا وأَبْقَ تكُنْ أمورٌ
يَضِجُّ الكافرون لها ضجيجـا
وإن أهْلِكْ فكلُّ فـتًى سيَلْـقَى
من الأقدار مَتْلَفَة حَرُوجـا(٤)

---

(١) أى ظهوراً ونجاحاً .
(٢) ابن هشام : السفالة .
(٣) المطبوعة : مختار .
(٤) أى مهلكة واسعة التصرف .

وقال ورقة بن نَوْفل أيضاً ذلك وهو ما رواه يونس بن بُكير عن ابن إسحاق :

أتُبكِرُ أمْ أنت العَشِيَّةَ رائحُ
وفى الصَّدْرِ مِنْ إضمارك الحزْنَ قادحُ

لفُرقةِ قوم لا أحبُّ فراقَهم
كأنّك عنهم بَعْدَ يومين نازحُ

وأخبارِ صِدْقٍ خبِّرتْ عن محمدٍ
يخبِّرها عنه إذا غاب ناصحُ

فتاكِ الذى وَجَّهْتِ يا خيرَ حُرَّةٍ
بِغَوْرٍ وبالنَّجْدَيْنِ حيثُ الصحاصحُ(١)

إلى سُوق بُصْرَى فى الركاب التى غَدَتْ
وهُنّ من الأحمال قُعْصٌ دَوَالحُ(٢)

فخبّرنا عن كلِّ خَيْرٍ بعلمه
وللحقِّ أبوابٌ لهنّ مفاتحُ

بأنّ ابنَ عَبْدِ الله أحمدَ مُرْسَلٌ
إلى كلِّ مَنْ ضُمَّتْ عليه الأباطحُ

وظنِّى به أنْ سوف يُبْعث صادقاً
كما أرسِلَ العَبْدانِ هُودٌ وصالحُ

---

(١) الصحاصح : الأرض المستوية .

(٢) أى ثقيلات خطو منقبضات .

ومُوسَى وإبراهيمُ حتى يُرَى له
بَهَاءٌ ومنشورٌ من الذِّكر واضحُ
ويَتْبَعُه حَيًّا لُؤَىٌّ بن غالبٍ
شَبَابُهُم والأشْيَبُون الجحاجحُ
فإنْ أبْقَ حتى يدركَ الناسَ دهرُه
فإنى به مستبشرُ الوُدِّ فارِحُ
وإلا فإنى يا خديجةُ فاعلمى
عن أرضكِ فى الأرضِ العريضة سائحُ

ذكر بنيان قريش الكعبة

مع ذكر ما أحدثوه في المناسك

ولما بَلَغ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين[1] سنة ، اجتمعت قريش لبُنْيان الكعبة .

قال موسى بن عُقْبة : وإنما حَمَل قريشاً على ذلك[2] أن السَّيْل كان أتى مِن فوق الرَّدْم الذى صنعوا فأخْرَبه ، فخافوا أن يدخلها الماء ، وكان رجلٌ يقال له مُلَيح سرق طيب الكعبة .

فأرادوا أن يشيِّدوا بنيانها ، وأن يرفعوا بابها ، حتى لا يدخلها إلا مَنْ شاءوا وأعدُّوا لذلك نفقة ، وعمالاً ، ثم عمدوا إليها ليهدموها على شَفَقٍ وحَذَر من أن يمنعهم اللهُ الذى أرادوا .

قال ابن إسحاق : وكانوا يهمُّون بذلك [ليُسقِّفوها][3] ويهابون هَدْمَه ، وإنما كانت رَضْماً[4] فوق القامة ، فأرادوا رَفْعها وتسقيفها ، وذلك أن نفراً سرقوا كنزَ الكعبة ، وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة .

قال : وكان الذى وُجِد عنده الكنزُ دُويكٌ مولًى لبنى مُلَيح بن عمرو ، من خزاعة [قال ابن هشام :] فقطعت قريش يده .

(١) المطبوعة : خمساً وعشرين ، وهو خطأ .
(٢) المطبوعة : على بنيانها .
(٣) من ابن هشام
(٤) أى حجارة نصد بعضها على بعض من غير ملاط

وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دُوَيك .

قال : وكان البحر قد رمَى بسفينة إلى جُدَّة لرجل من تجار الروم فتحطَّمت فأخذوا خشبها فأعدُّوه لتسقيفها ، وكان بمكة رجل قِبْطِىٌّ نجَّار ، فتهيّأ لهم فى أنفسهم بعضُ ما يصلحها .

وكانت حيَّة تخرج من بئر الكعبة التى كان يُطرَح فيها ما يُهدَى لها ، فتتشرَّقُ(١) على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحدٌ إلا احزألَّت(٢) وكشَّت وفتحت فاها ، فكانوا يهابونها . فبينما هى يوماً تتشرّق على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله إليها طائراً فاختطفها ، فذهب بها .

فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى بما أَرَدْنا ، عندنا عاملٌ رفيق وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحيَّة .

فلما أجمعوا أمرهم فى هَدْمها وبنيانها ، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ ابن عِمْران بن مخزوم ، فتناول من الكعبة حَجَراً فوثب مِن يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش ، لا تُدْخلوا فى بنيانها مِن كَسْبكم إلا طيِّباً ، لا تُدخلوا فيها مَهرَ(٣) بَغِىٍّ ولا بيعَ رباً ، ولا مَظْلَمَة أحدٍ من الناس .

والناس يَنْحلون هذا الكلامَ الوليدَ بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم .

---

(١) تتشرق : تبرز للشمس.
(٢) احزألت : رفعت رأسها. وكشت : صوتت من جلدها لا من فيها.
(٣) فى ط : مقر ، وفى هامشها : فى السيرة : مهر .

ثم إن قريشاً تجزّأت[1] الكعبة ، فكان شِقُّ الباب لبنى عبد مناف وزُهرة ، وكان ما بينى الرُّكن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضمّوا إليهم ، وكان ظَهْرُ الكعبة لبنى جُمَح وبنى سهم ، وكان شِقُّ الحِجْر لبنى عبد الدار بن قُصَى ، ولبنى أسد بن عبد العُزّى[2] بن قصى ، ولبنى عدى بن كعب رَهْوُ الحطيم[3] .

ثم إن الناس هابوا هَدْمها وفَرِقُوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤُكم فى هَدْمها ، فأخذ المِعْوَل ، ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم تُرَع[4] . ويقال : لم نَزِغْ . اللهم إنا لا نريد إلا الخير .

ثم هَدَم من ناحية الركنَين ، فتربَّص الناسُ تلك الليلة ، وقالوا : ننظر ، فإن أُصِيبَ لم نَهْدِم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يُصِبْه شىء ، فقد رضى الله ما صنَعْنا .

فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناسُ معه ، حتى إذا انتهى الهدمُ بهم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام ، أفْضوا إلى حجارة خُضْرٍ ، كالأسْنِمة[5] آخذٍ بعضها بعضاً .

قال ابن إسحاق : فحدثنى بعض من يروى الحديث : أن رجلا من قريش ممن كان يهدمها ، أدخل عَتَلةً بين حجَرَين منها ليقلع بها أحدَهما ، فلما تحرَّك الحجر تنقضَت مكةُ بأسْرِها ، فانتهَوْا عن ذلك الأساس .

---

(١) ابن هشام : جزأت .
(٢) ابن هشام : ابن العزى .
(٣) الرهو : ما اطمأن من الأرض وارتفع ما حوله .
(٤) أى لم نفزع الكعبة .
(٥) ط : كالأسنة

قال : وحُدِّثتُ أن قريشاً وجدوا فى الركن كتاباً بالسريانية ، فلم يَدْروا ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا هو : أنا الله ذو بَكَّة ، خلقتُها يوم خلقتُ السموات والأرض ، وصوّرتُ الشمسَ والقمر ، وحَفَفْتُها بسبعة أملاك حُنَفاء ، لا تزول حتى يزول أخْشَباها[1] ، مبارَك لأهلها فى الماء واللَّبَن .

وحُدِّثْتُ أنهم وجدوا فى المقام كتاباً فيه : مكة بيت الله الحرام ، يأتيها رِزقُها من ثلاث سُبُل ، لا يُحِلّها أوّلَ مِنْ أهلها[2] .

وزعم ليثُ بن أبى سُلَيم أنهم وجدوا حَجَرا فى الكعبة قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، إن كان ما ذكر حقاً ، مكتوباً فيه : مَنْ يَزْرع خيراً يحصدِ غِبْطةً ، ومن يزرع شرًّا يحصد ندامة ، تعملون السيِّئات ، وتُجزَون الحسنات ! ! أَجَلْ كما [لا] يُجتَنَى من الشوك العِنَبُ .

[وضع الحجَر]

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش ، جمعت الحجارة لبنائها ، كلُّ قبيلة تجمع على حِدَة ، ثم بنَوْها حتى بلغ البنيانُ موضعَ الركن ، فاختصموا فيه ، كلُّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوزوا وتحالفوا ، وأعدُّوا للقتال ، فقرَّبت بنو عبد الدار جَفْنةً مملوءةً دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عَدِى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسُمُّوا لَعَقَةَ الدم .

فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد ، فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية ، أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله

---

(١) أخشباها : جبلاها . (٢) أى أن أهلها هم الذين يبتدئون باحلالها.

ابن عمر بن مَخْزوم ، وكان عامئذٍ أسنّ قريش كلِّها ، قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أوّلَ مَنْ يَدْخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم. ففعلوا .

فكان أوّلَ داخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه ، قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمدٌ .

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم : هلُمّ إلىّ ثوباً . فأُتِى به، فأخذ الركنَ فوضعه فيه بيده ثم قال لِتَأخذ كلُّ قبيلة بناحيةٍ من الثوب ثم ارفعوه جميعاً . ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ، ثم بُنى عليه .

[كسوة الكعبة]

وكانت الكعبة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثماني عشرة ذراعاً ، كانت تُكْسَى القَبَاطِىّ[1] ، ثم كُسِيَتْ البُرودَ .

وأول من كساها الديباجَ ، الحجاجُ بن يوسف . هذا قول ابنِ اسحاق .

وقال الزبير : بل أولُ من كساها الديباجَ عبدُ الله بن الزبير .

وذكر جماعة سواها منهم الدارَقُطنى : أن نُتَيلة بنت جناب ، أمّ العباس ابن عبد المطلب ، كانت قد أضلّت العباسَ وهو يومئذ صغير ، فنذرتْ إن هى وجَدَتْه أن تكسو الكعبة الديباجَ ، ففعلت ذلك حين وجدته .

وذَكر الزبير أن الذى أضلّته نُتَيلة بنت جناب إنما هو ابنها ضرار بن

---

(١) ثياب بيض كانت تصنع بمصر .

عبد المطلب [شقيق العباس[1]] ، ونذرت أن تكسو البيت إن وجدته ، فكَسَتْه حين وجدته ثيابًا بيضًا ، فالله تعالى أعلم .

[أمْرُ الحُمْس]

قال ابن إسحاق : وكانت قريش ، لا أدرى أقَبْلَ الفيل أم بعده ، ابتدعتْ أمرَ الحُمْس ، رأيًا رأوه وأداروه .

فقالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحُرْمة وولاة البيت ، وقاطنُ مكة وساكنها ، فليس لأحد من العرب مثل حَقّنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظّموا شيئًا من الحِلّ كما تعظّمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفّت العربُ بحُرْمتكم ، وقالوا : قد عظّموا من الحلّ مثلَ ما عظّموا من الحَرَم .

فتركوا الوقوفَ على عرفة والإفاضة منها وهم يعرفون ويقرّون أنهما من المَشاعر والحجّ ودينِ إبراهيم ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها ، وأن يُفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم ، فليس ينبغى لنا أن نخْرُج من الحرمة ، ولا نعظّم غيرَها كما نعظّمها ، نحن الحُمْس ، والحُمْس أهل الحَرَم .

ثم جعلوا لمن وَلَدوا من العرب مِن ساكن الحِلّ والحرَم مثلَ الذى لهم بولادتهم إياهم ، يَحِلُّ لهم ما يَحِلُّ لهم ويَحْرُم عليهم ما يَحْرُم عليهم .

وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك .

ثم ابتدعوا فى ذلك أمورًا لم تكن لهم ، حتى قالوا : لا ينبغى للحُمْس أن

(١) من المطبوعة .

يأتقطوا الأقِطَ[١] ، ولا يسألوا السمن وهم حُرُم ، ولا يدخلوا بيتاً من شَعَرٍ ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأَدَم ما كانوا حُرُما .

ثم رفعوا فى ذلك فقالوا : لا ينبغى لأهل الحِلّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحِلّ إلى الحرم إذا جاءوا حُجّاجاً وعُمّاراً ، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أوّلَ طوافهم إلا فى ثياب الحُمْس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عُرَاةً ، فإن تكرّم منهم متكرّم من رجل أو امرأة ، ولم يجد ثياب أحْمَسَ فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحِلّ ، ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسّها هو ولا أحد غيره أبداً . فكانت العرب تسمّى تلك الثياب اللَّقَى[٢] .

فحملوا على ذلك العربَ فدانت به ، فوقفوا على عرفات وأفاضوا منها ، وطافوا بالبيت عُرَاةً ، أما الرجال فيطوفون عراة ، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلّها إلا ثوباً[٣] مفرّجاً عليها ، ثم تطوف فيه .

فكانوا كذلك حتى بعث الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عليه حين أحْكَم له دينه وشرع له سُنَن حجّه : « ثم أفيضُوا مِنْ حيثُ أفاضَ الناسُ واستغفِروا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ »[٤] ، يعنى قريشاً ، والناسُ العربُ . فرفعهم فى سُنَّة الحجّ إلى عرفات والوقوف عليها والإفاضة منها .

وأنزل عليه فيما كانوا حرّموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت ،

---

(١) الأقط : شىء متخذ من المخيض الغنمى .
(٢) اللقى : الشىء الملقى .
(٣) ابن هشام : درعا .
(٤) سورة البقرة ١٩٩ .

حين طافوا عند البيت عُرَاةً وحرّموا ما جاءوا به من الحِلّ من الطعام : « يا بنى آدَمَ خُذُوا زينتكم عندَ كُلِّ مسجدٍ وكُلُوا واشربوا ولا تُسْرِفوا إنه لا يحبُّ المسرفين . قُلْ مَنْ حَرَّم زينةَ الله التى أخْرَجَ لعباده والطيّبات من الرِّزقِ ؟ قل : هى للذين آمَنُوا فى الحياةِ الدُّنيا خالصةً يومَ القيامة ، كذلك نُفَصِّل الآياتِ لقومٍ يَعْلَمونَ »[1] .

فوضع اللهَ أمْرَ الحُمْس، وما كانت قريش ابتدعتْ منه على الناس ، بالإسلام حين بعث الله رسوله .

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموافقِ قومَه على تغيير مشاعر الحجّ والعدول عن مواقف الناس .

قال جُبَير بن مُطعِم : لقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبلَ أن ينزل عليه الوحى ، وإنه لواقفٌ على بعيره بعرفات مع الناس مِنْ بَيْن قومه حتى يدفع معهم ، توفيقاً من الله له .

وقد تقدّم ما أحدثوه من النَّسِيء ، وما أبْطَلَ اللهُ من حُكْمه بقوله سبحانه : « إنما النَّسِيءُ زيادةٌ فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلونه عاماً وَيُحَرِّمونه عاماً ليواطئوا عدَّةَ ما حرّم اللهُ فيُحِلوا ما حَرَّمَ الله زُيِّنَ لهم سوء أعمالهم والله لا يَهْدِى القوم الكافرين »[2] .

فأغنى ذلك عن إعادته .

* * *

(١) سورة الأعراف : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) سورة التوبة ٣٧ .

ذكر ما حفظ عن الأحبار والرهبان

والكهان مِنْ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبْلَ مَبْعثه ، سوى ما تقدم من ذلك ، مع ذكر شيء مما سُمع من ذلك عند الأصنام أو هَتَفت به الهواتف[1]

قال ابن إسحاق : وكانت الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهّان من العرب ، قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبْلَ مَبْعثه لمـّا تقارب من زمانه .

أما الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فعمّا وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه .

وأما الكهان من العرب فأتتْهم به الشياطين فيما تَسْتَرِقُ من السمع ، إذ كانت لا تُحجَب[2] عن ذلك ، وكان الكاهن والكاهنة ، لا يزال يقع منهما ذكرُ بعض أموره لا تُلقِى العربُ لذلك فيه بالاً ، حتى بعثه الله ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها .

فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثُه ، حُجِبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها و بين المقاعد التى كانت تقعد فيها لاستراقه[3] ، فرُمُوا بالنجوم ، فعرفت الجنّ أن ذلك لأمر حدث من أمر الله فى العباد .

---

(١) يعترض على الاستدلال بقول الكهان فى إثبات النبوة بأن الإسلام قد أبطل الكهانة . قال الماوردى : « فعنه جوابان: أحدهما: أنه تأويل رؤيا تحققت خرج بها عن حكم الكهانة الثانى أنه علمها بنقل الجن : كهتوف الجن » .

وعلى كل ، فما أغنى الإسلام عن هتاف الجان وقول الكهان :!

(٢) ابن هشام : وهى لا تحجب .

(٣) ابن هشام : لاستراق السمع فيها .

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حين بعثه يقصُّ عليه خبرَ الجنِّ إذ حُجِبوا : « قُلْ : أُوحِيَ إليَّ أنَّهُ استمعَ نَفَرٌ مِن الجنِّ فقالوا إنَّا سَمِعْنا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فآمَنَّا بِهِ ولَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً . وَأَنَّا ظَنَنَّا أنْ لَنْ تَقُولَ الإنسُ والجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنْ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنْ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا . وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيداً وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهم رَشَدا »[1] .

فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما مُنعت من السمع قبل ذلك لئلا يُشْكِل الوحيُ بشيء من خبر السماء فيُلْبَسَ[2] على أهل الأرض ماجاءهم من الله فيه ، لوقوع الحجّة وقطع الشبهة، فآمنوا وصدّقوا . ثم « ولَّوْا إلى قومهم مُنْذِرِين قَالُوا : يا قومنا إنَّا سَمِعْنا كِتابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إلى الْحَقِّ وإلى طرِيقٍ مُسْتَقِيم »[3] .

وقولُ الجنِّ[4] : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنْ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا » هو أن[5] الرجل من العرب من قريش وغيرهم كان إذا

---

(١) سورة الجن ،
(٢) ابن هشام : فيلبس .
(٣) سورة الأحقاف .
(٤) ابن هشام : وكان قول
(٥) ابن هشام : أنه كان .

سافر فنزل بَطنَ وادٍ من الأرض ليبيت فيه قال : إنى أعوذ بعزيزِ هذا الوادى من الجنّ الليلةَ من شرِّ ما فيه .

* * *

وذُكِر أن أولَ العربِ فَزِع للرّمْيِ بالنجوم ، حين رُمِي بها ، ثَقِيفٌ ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية ، أحد بنى عِلاَج ، وكان أدْهَى العرب وأنكَرَها[1] رأياً فقالوا له : يا عمرو ألم تر ما حدث فى السماء من القذف بهذه النجوم ؟

قال : بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يُهْتدى بها فى البرّ والبحر ، وتُعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ، لِمَا يُصلِح الناس فى معايشهم ، هى التى يُرمَى بها فهو والله طَيُّ الدنيا ، وهلاكُ هذا الخَلْق الذى فيها .

وإن كانت نجوماً غيرَها ، وهى ثابتة على حالها ، فهذا لِأمرٍ أراد الله به هذا الخلق . فما هو ؟!

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه لنفر من الأنصار : ما كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يُرمَى به ؟

قالوا : يا نبى الله كنا نقول حين رأيناها يُرمَى بها : مات مَلِكٌ ، مُلِّكَ مَلِكٌ وُلِد مولودٌ ، مات مولودٌ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك كذلك ، ولكنّ الله تبارك تعالى كان إذا قضى فى خَلْقه أمراً سمعه حملةُ العرش فسبّحوا ، فسبّح مَنْ تحتهم

(١) أنكرها : من النكر بفتح النون ، وهو الدهاء .

لتسبيحهم ، فسبّح من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فسبّحوا . ثم يقول بعضهم لبعض : ممّ سبحتم ؟ فيقولون : سبّح مَن فوقنا فسبّحنا لتسبيحهم . فيقولون : ألا تسألون مَنْ فوقكم مم سبّحوا ؟ فيقولون مثل ذلك ، حتى ينتهوا إلى حملة العرش ، فيقال لهم : ممّ سبّحتم ؟ فيقولون : قضى الله فى خلقه كذا وكذا . للأمر الذى كان . فيهبط به الخبرُ من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى السماء الدنيا ، فيتحدّثوا به ، فتَسْتَرِقه الشياطين بالسمع على تَوَهُّمٍ واختلاف ، ثم يأتون به الكُهّان من أهل الأرض فيحدّثونهم فيخطئون ويصيبون ، فتحدّث به الكهّان فيُخطئون بعضاً ، ويصيبون بعضاً .

ثم إن الله حجب هذه الشياطين بهذه النجوم التى يُقذَفون بها ، فانقطعت الكهانةُ اليومَ ، فلا كهانة .

***

وذكر أبو جعفر العُقيلى بإسناد له ، إلى لُهَيب بن مالك اللِّهْبى(١) . قال : حضرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذُكِرت عنده الكهانة ، فقلتُ : بأبى أنت وأمّى يا رسول الله! نحن أول مَن عَرَف حراسة السماء وزَجْرَ الشياطين ، ومَنْعهم من استراق السمع عند قذف النجوم ، وذلك أنّا اجتمعنا إلى كاهنٍ لنا يقال له خَطر بن مالك ، وكان شيخاً كبيراً ، قد أتت عليه مائة سنة وثمانون سنة ، وكان من أعلم كُهّاننا، فقلنا : يا خطر ، هل عندك علم بهذه النجوم التى يُرمَى بها ؟ فإنّا قد فزعنا لها وخِفْنا سوء عاقبتها .

فقال : ائتونى بسَحَر ، أخبركم الخبر ، أخير أم ضرر ، أو أمْنٌ أو حَذَر .

قال : فانصرفنا عنه يومَنا ، فلما كان من غدٍ فى وجه السَّحر أتيناه ، فإذا هو

---

(١) بنو لهب : قوم من الأزد

قائم على قدميه شاخصٌ فى السماء بعينيه ، فناديناه : يا خَطَر يا خطر . فأومأ إلينا أن أمسكوا . فأمْسَكْنا .

فانقضّ نجم عظيم من السماء ، وصرخ الكاهن رافعاً صوته : أصابه أصابه ، خامَرَه عِقَابُه ، عاجَله عذابه ، أحْرَقه شِهابه ، زايَله جوابه ، يا ويحه[1] ما حاله ، بَلْبلَه بَلْبالُه ، عاوَدَه خَبالُه ، تقطَّعت حِبالُه ، وغُيِّرت أحواله .

ثم أمسك طويلا وقال : يا معشر بنى قحطان ، أخبركم بالحق والبيان ، أقسَمتُ بالكعبة والأركان ، والبلد المؤتمن السُّدّان ، لقد مُنِع السمعَ عتاةُ الجان ، بثاقبٍ بأمر ذِى سلطان ، من أجل مبعوثٍ عظيم الشان ، يُبْعث بالتنزيل والقرآن ، و بالهدى وفاصل الفرقان ، تبطل به عبادة الأوثان .

قال : فقلت : يا خطر ، إنك لتذكر أمراً عظيما فماذا ترى لقومك ؟

قال :

أرى لقومى ما أرى لنفسى
أن يَتّبِعوا خيرَ بنىّ الإنسِ
برهانه مثلُ شُعاع الشمسِ
يُبْعَث فى مكة دارِ الحُمْسِ
بِمُحْكَم التّنزيل غيرِ اللَّبْس

فقلنا له : يا خطر ، وممن هو ؟

فقال : والحياةِ والعيش ، إنه لمن قريش ، ليس فى حِلْمه[2] طيش ولا فى خُلُقه

(١) المطبوعة : ياويله .
(٢) المطبوعة : فى حكمه .

هيش[1] يكون فى جيش وأى جيش ! من آل قحطان وآل أيش . فقلنا له : بيِّن لنا من أى قريش هو ؟

فقال : والبيت ذى الدعائم ، إنه لمن نَجْل هاشم ، من مَعْشرٍ أكارم ، يبعث بالملاحم ، وقَتْلِ كلِّ ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان .

ثم قال : الله أكبر جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبرُ .

ثم سكت وأغمى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاثة ، فقال : لا إله إلا الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ، لقد نطق عن مِثْل نبوة ، وإنه ليبعث يوم القيامة أمةً وحده .

* * *

قال ابن إسحق : وحدثنى بعض أهل العلم أن امرأة من بنى سَهْم يقال لها الغَيْطلة ، كانت كاهنة فى الجاهلية ، جاءها صاحبها ليلة من الليالى فانقضّ تحتها ، ثم قال : بَدْرٌ ما بدر[2] ، يومُ عَقْرٍ ونَحر .

فقالت قريش حين بلغها ذلك : ما تريد ؟

ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها ، ثم قال : شُعُوبٌ ما شُعوب[3] تُصْرَع فيه كَعْبٌ لجُنُوب .

---

(١) الهيش : الإفساد

(٢) ابن هشام : أدر ما أدر . وما هنا أوضح .

(٣) شعوب هنا بضم الشين وكأنه جمع شعب ، وقول ابن إسحق يدل على هـذا حين قال : فلم يدر ما قالت حتى قتل من قتل ببدر وأحد بالشعب .

فلما بلغ ذلك قريشا ، قالوا : ماذا يريد ؟ إن هـذا لأمرٍ هو كائن فانظروا ما هو .

فما عرفوه حتى كانت وقعة بَدْر وأُحُد بالشِّعب ، فعرفوا أنه الذى كان جاء به إلى صاحبته .

قال : وحدثنى على بن نافع الجُرَشى أن جَنْبا بَطْنًا من اليمن ، كان لهم كاهن فى الجاهلية ، فلما ذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر فى العرب قالت له جَنْب : انظر لنا فى أمر هـذا الرجل . واجتمعوا له فى أسفل جَبَله .

فنزل عليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائما متكئا على قوس له ، فرفع رأسه إلى السماء طويلا ، ثم جعل ينزو ثم قال : أيها الناس ، إن الله أكرمَ محمداً واصطفاه ، وطهرّ قلبه وحَشاه ، ومُكْثُه فيكم أيها الناس قليل . ثم اشتد فى جبله راجعا من حيث جاء(١) .

* * *

قال : وحدثنى مَنْ لا أتهم ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينا هو جالس فى الناس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل رجل من العرب يريد عمر ، فلما نظر إليه عمر قال : إن الرجل لَعَلَى شِركه ما فارقه بعدُ، أو لقد كان كاهنا فى الجاهلية .

فسلّم عليه الرجل ، ثم جلس ، فقال له عمر : هل أسلمتَ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فهل كنت كاهنا فى الجاهلية ؟ فقال له الرجل : سبحان الله

---

(١) ط : ثم أسند فى جبله راجعا من حيث شاء .

يا أمير المؤمنين ! لقد خِلْت فيّ واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليتَ .

فقال عمر : اللهم غَفْراً ، قد كنا في الجاهلية على شرّ من هذا ، نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله و بالإسلام .

قال : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لقد كنتُ كاهنا في الجاهلية .

قال : فأخبرني بما جاءك به صاحبك .

قال: جاءني قبيل الإسلام بشهر أو شَيْعِه[1]، فقال : ألم تر إلى الجن و إبلاسها و إياسها من دينها ، ولحوقها بالقِلاَص وأحلاسها !

قال ابن هشام : هذا الكلام سَجْع وليس بشعر وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر :

عجبتُ للجنّ وإبْلاَسها وشَدِّها العِيسَ بأحْلاَسِها
تَهْوِى إلى مكة تَبْغِى الهُدَى ما مؤمنُ الجن كأنجاسها

فقال عمر رضي الله عنه عند ذلك ، يحدِّث الناس : والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب عجلا ، فنحن ننتظر قَسْمه ليَقْسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتا ما سمعت قط أنْفَذَ منه ، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شَيْعِهِ يقول : يا ذَرِيح أمرٌ نجيح ، رجل يصيح يقول لا إله إلا الله .

قال ابن هشام : و يقال : رجل يصيح بلسان فصيح يقول لا إله إلا الله .

---

(١) أى مقداره.

وهذا الرجل الذى ظن به عمر رضى الله عنه ما ظن ، هو سواد بن قارب الدَّوْسى ، وكان يتكهنُ فى الجاهلية .

وقد ذكر خبره غيرُ ابن إسحق ، فساقه سياقةً أحسن من هذه وأتمَّ ، وذكر فيه أنه كان قائمًا على جبال من جبال السَّراة ليلةً من الليالى ، فأتاه آتٍ ، فضربه برجْله وقال :

قُمْ يا سواد بن قارب ، أتاك رسولٌ مِن لُؤَىِّ بن غالب .

قال : فرفعت رأسى وجلست فأدْبَر وهو يقول :

عَجِبْتُ للجنِّ وتطْلاَبهــــا
وشــدِّها العِيسَ بأقتابهــا

تَهْوى إلى مكة تَبْغِى الهُدَى
ما صادقُ الجنِّ ككذّابهــا

فارْحل إلى الصفوةِ من هاشمٍ
ليس قُدَاماها كأذنابهــا

وأتاه فى الليلة الثانية ، فضربه برجْله ، وقال : قم يا سوادَ بن قارب ، أتاك رسول من لوىّ بن غالب . قال : فرفعت رأسى فجلست ، فأدبر وهو يقول :

عَجِبْتُ للجنِّ وأخبــارها
ورَحْلِهــا العِيس بأكوارهــا

تَهْوِى إلى مكة تَبْغِى الهُــدَى
ما مُؤْمنــوها مثلُ كُفّارهــا

فارحلْ إلى الصـــفوة مِنْ هاشمٍ
ليس قُـــدَاماها كأدبارها

وأتاه فى الليلة الثالثة بعد ما نام ، فضربه برجله وقال : قم يا سواد بن قارب أتاك رسـول من لؤى بن غالب قال : فرفعت رأسى وجلست ، فأدبر وهو يقول :

عجبتُ للجنّ وإبْلاسـها
ورَحْلِهـا العِيسَ بأحلاسـها
تهوى إلى مكة تبغِى الُهـــدَى
ما مؤمنوها مثـــلُ أرْجاســها
فارحل إلى الصـــفوة من هاشمٍ
وارم بعينيـــك إلى رأســها

قال : فلما أصبحت اقتعدت بعيرى فأتيت مكة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ظهر ، فأخبرته الخبر وبايعته .

وفى بعض طرق حديثه أنه أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم شعراً منه فى معنى ما جاء به رَئِيُّه :

أتانى رئِيٌّ بعد هَدْءٍ وَرَقْدةٍ(١)
ولم يَكُ فيما قد بَلَوْتُ بكاذبِ

(١) ط : وهجمة .

ثلاثَ ليـــالٍ قولُه كلَّ ليلةٍ
أتاكَ رســولٌ(١) من لؤىِّ بن غالبِ

فرفَّعتُ أذيالَ الإزار وشمَّـــرت
بِىَ العِرْمِسُ الوَجْناءُ وَسْطَ السَّباسبِ(٢)

فأشهد أنَّ الله لا رَبَّ غـــيره
وأنك مأمونٌ على كلِّ غائبِ

فمُرْنا بما يأتيك من وَحْىٍ ربِّنا
وإن كانَ فيما جِئْتَ شَيْبُ الذَّوائبِ

وكن لى شفيعاً يومَ لاذو شفاعةٍ(٣)
بمُغْنٍ فَتِيلا عن ســـوادِ بن قاربِ

ولسواد بن قارب هـذا مقام حميد فى قومه دَوْس ، حين بلغهم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يثبِّتهم فى الدين ويحضُّهم على التمسك بالإسلام ، سنذكره إن شاء الله مع نظائره بعد استيفاء الخبر عن وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

***

وذكر الواقدى بإسناد له قال : كان أبو هريرة يحدِّث أن قوماً من خَثْعم كانوا عند صنم لهم جلوساً ، وكانوا يتحاكمون إلى أصنامهم ، فيقال لأبى هريرة : هل كنت أنت تفعل ذاك ؟ فيقول : قد فعلتُ فأكثرت ، فالحمد لله الذى أنقذنى(٤) بمحمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) المطبوعة : نبى .
(٢) العرمس : الناقة الصلبة . وتروى : الذعلب . والسباسب : جمع سبسب وهى الفلاة
(٣) ط : ذو قرابة . (٤) ط : تنقذنى .

قال أبو هريرة : فبَيْنَا الخثعميون عند صنمهم إذ سمعوا هاتفاً يهتف :

يا أيها الناس ذوو الأجسامِ
ومسندو الحُكْمِ إلى الأصنامِ
أكلُّكم أوْرَهُ كالكهامِ (١)
ألا ترون ما أرى أمامى
مِن ساطعٍ يَجْلُو دُجَى الظَّلامِ
ذاك نبىٌّ سَيِّدُ الأنامِ
من هاشمٍ فى ذِروة السَّنامِ
مستعلنٌ بالبلد الحرامِ
جاء بهدم (٢) الكفرِ بالإسلامِ (٢)
أكرَمه الرحمنُ من إمامِ

قال أبو هريرة : فأمسكوا ساعة حتى حفظوا ذلك ثم تفرقوا ، فلم تمض بهم ثلاثة حتى فجأهم خبرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد ظهر بمكة . قال : فما أسْلَمَ الخثعميون حتى استأخر إسلامهم ورأوا عِبَراً عند صنمهم .

وذكر الواقدى أيضاً أن رجلا من الأنصار حدّث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : انطلقت أنا وصاحبان لى نريد الشام ، حتى إذا كنا بمفرة من الأرض نزلنا بها ، فبينا نحن كذلك إذ لحقنا راكب ، فكنا أربعة وقد أصابنا سَغَب شديد ، والتفتُّ فإذا أنا بظبية عَضْباء ترتع قريباً منى فوثبتُ إليها .

(١) الأوره : الأحمق .
(٢) المطبوعة : جاء بهدم الكفر بالإسلام .

فقال الرجل الذى معنا : خلِّ سبيلها ، لا أبا لك ، والله لقد رأيتها ونحن نسلك هذا الطريق ونحن عشرة أو أكثر فيُختطف بعضنا ، فما هو إلا أن كانت هذه الظّبية فما يُهاجُ بها أحد .

فأبيْتُ وقلت : لا لعَمْر الله لا أخليها .

فارتحلنا وقد شددتها معى ، حتى إذا ذهب سَدَف من الليل إذا هاتف يهتف بنا ويقول :

يا أيها الركبُ السِّرَاعُ الأربعهْ
خلوا سبيل النافر(١) المفزَّعَهْ
خلوا عن العضباء فى الوادى سَعَهْ
لا تذبَحُنَّ الظبيةَ المروَّعَهْ
فيها لأيتام صغار منفعَهْ

قال : فخليت سبيلَها ، ثم انطلقنا حتى أتينا الشام ، فقضينا حوائجنا ، ثم أقبلنا حتى إذا كنا بالمكان الذى كنا فيه هتف بنا هاتف مِن خلفنا :

إياك لا تَعجل وخذها من ثِقَهْ
فإن شرَّ السَّيرِ سَيْرُ الحقْحقَهْ(٢)
قد لاحَ نجمٌ فأضاء مَشرِقَهْ
يُخرِج مِن ظَلْما عَسُوفٍ مُوبِقَهْ

(١) ط : النافذ .

(٢) الحقحقة : أرفع السير وأتعبه للظهر أو اللجاج فى السير .

ذاكَ رسولٌ مُفْلِحٌ مَن صَدَّقه اللهُ أَعْلَى أمرَه وحقّقَه

قال الرجل : فأتيت مكة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام .

فقال عمر : الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ورويناعن أبى المنذر هشام بن محمد الكلبى بإسناد متصل إليه ، قال : لقد لقيتُ شيوخا من شيوخ طَيِّىء المقدمين ، فسألتهم عن قصة مازن ، يعنى مازن بن الغضوبة الطائى ، وسببِ إسلامه ووفوده على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقطاعه أرضَ عُمَان ، وذلك بمَنِّ الله وفضله .

وكان مازن بأرض عُمَان بقرية تدعى سَمَايِل . قال مازن : فعَترتُ ذات يوم عَتِيرة ، وهى الذبيحة ، فسمعت صوتا من الصنم يقول : يامازن أقْبِلْ أقبل ، فاسمع مالا تجْهَل ، هذا نبىٌّ مُرْسل ، جاء بحق مُنْزَل ، فآمِن به كى تُعْزَل ، عن حر نار تُشْعل ، وقودها بالجندل .

قال مازن : فقلت إن هذا والله لعجب ، ثم عَترتُ بعد أيام عتيرة أخرى ، فسمعت صوتا أَبْيَن من الأول ، وهو يقول : يامازن اسمع تُسَرّ ، ظهر خيرٌ و بطن شر ، بُعث نبى من مُضَر ، بدين الله الأكبر(١) ، فدَعْ نحيتاً من حجر ، تَسْلم من حر سَقَر .

قال مازن : فقلت إن هذا والله لعجب و إنه لخير يراد بى ، وقدِم علينا رجل من أهل الحجاز فقلنا : ما الخبر وراءك ؟ قال : خرج بتهامة رجل يقول لمن أتاه : أجيبوا داعىَ الله ، يقال له أحمد .

---

(١) هذه رواية المطبوعة . وفى ط : بدين لله الكبر . وفى ا : بدين الله الكبر

فقلت : هذا والله نبؤٌ ما سمعت .

فثرتُ إلى الصنم فكسرته جُذَاذا وشـــــددت راحلتي ورحلت ، حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرح لى الإسلام فأسلمت ، وأنشدت[1] أقول :

كسَّرتُ ياجُرَ أجذاذا وكان لنا
ربًّا نُطيف به ضَلَّاً بتضلالِ[2]

بالهاشمىّ هدانا من ضلالتنا
ولم يكن دينُه منـــــا على بالِ

يا راكبًا بلِّغَن عَمْرا وإخوتها
أنّى لِمـــــن قال ربى يَاجُرُ قالِى

وقلت : يا رسول الله إنى امرؤ مُولَع بالطرب وبشرب الخمر وبالملوك إلى النساء ، وألحّت علينا[3] السنُون ، فأذهَبْن الأموالَ وأهزَلن الذّرارى والرجالَ ، وليس لى ولد ، فادع الله أن يُذهب عنى ما أجد ويأتينى بالحياء ، ويهَب لى ولدا .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم أبْدِله بالطرب قراءةَ القرآن ، وبالحرام الحلالَ ، وائته بالحياء ، وهَبْ له ولدا .

قال مازن : فأذهب اللهُ عنى كلّ ما أجد ، وأخصبَتْ عُمان ، وتزوجتُ

(١) ط : فأنشأت .

(٢) المطبوعة : ضلا لتضلال .

(٣) ط : على .

أربع حرائر، ووهب الله لى حيان[1] بن مازن ، وأنشأت أقول :

إليك رسول الله سُقْتُ مَطِيَّتى
تجوبُ الفيافى من عُمَان إلى العَرْج[2]
لتشفع لى ياخيرَ مَنْ وَطِىءَ الثرى
فيغفر لى ربى فأرجع بالْفَلْج[3]
إلى معشرٍ خالفتُ فى الله دينَهم
فلا رَأيُهم رأيى ولا شَرْجهم شَرْجى[4]
وكنت امرءا باللهو والخمر مُولَعاً
شبابىَ حتى أذَّن الجسم بالنهج
فأصبحت هَمِّى فى جهـــادٍ ونيتى
فلله ما صَوْمى ولله ما حجىِّ[5]

* * *

ومما يلحق بهذا الباب من حِسان أخبار الـكهان و إن كان بعد المبعث بزمان ولـكنه يجتمع مع الأحاديث السابقة فى الدلالة على صدق الرسول ، والإعلام بالغيب المجهول ، والإرشاد إلى سواء السبيل ، ما ذكره أبو على إسماعيل بن القاسم فى أماليه[6] بإسناد له إلى ابن الـكلبى عن أبيه قال :

---

(١) المطبوعة : حبة .
(٢) العرج : موضع بين مكة والمدينة .
(٣) الفلج بفتح الفاء الظفر والاسم منه الفلج بالضم .
(٤) الشرج: المثل والنوع
(٥) هذه رواية المطبوعة ، وفى ط : بالزعب وهو الجماع وفى ا باللعب .
(٦) الأمالى ١ / ١٣٢ — ١٣٤

كان خُنافر بن التوأم الحِمْيرى كاهنا ، وكان قد أوتى بسطةً فى الجسم وسعة فى المال ، وكان عاتياً ، فلما وفدت وفود اليمن على النبى صلى الله عليه وسلم [وظهر الإسلام] أغار على إبل لمراد فاكتسحها ، وخرج بأهله وماله ولحق بالشِّحْر لحالف جَوْدَان بن يحيى[١] [الفرضمى[٢]] ، وكان سيِّدا منيعا[٣] ، ونزل بوادٍ من أودية الشِّحر مخصبٍ كثير الشجر من الأيك والعرين .

قال خنافر : وكان رئيى فى الجاهلية لا يغيب عنى[٤] ، فلما شاع[٥] الإسلام فقدته مدة طويلة وساءنى ذلك ، فبينا أنا ليلة بذلك الوادى نائما إذهَوَى هُوِيَّ العُقاب ، فقال خنافر ؟ فقلت شصار ؟ فقال : اسمع أقُلْ . قلت : قُلْ أسمع . فقال : عِهْ تغنم ، لكل مدة نهاية وكل ذى أمد إلى غاية . قلت : أجل . فقال : كل دولة إلى أجل ثم يتاح لها حول ، انتسخت النحل ورجعت إلى حقائقها الملل ، إنك سَجِير موصول[٦] والنصح لك مبذول ، إنى آنستُ بأرض الشام نفرا من أهل العُزام[٧] حكاما على الحكام يذبرون[٨] ذا رونق من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف ، ولا بالسجع المتكلف ، فأنصتُّ فزُجرت ، فعاودتُ فظلمت[٩] ، فقلت : بِمَ تهيمنون وإلام تعتزون ؟ فقالوا خِطاب كبار جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع ياشصار عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار تنجُ من أوار النار .

(١) ط : بن تحى . وضبطها بضم التاء وفتح الحاء بالقلم .
(٢) من الأمالى .
(٣) ط : منيعا .
(٤) الأمالى : لايكاد يغيب عنى .
(٥) ا : شرع .
(٦) السجير : الصديق .
(٧) العزام : قبيلة من اليمن.
(٨) قال : ذبرت الكتاب اذا قرأته وزبرته إذا كتبته ، وقالوا : زبرته وذبرته بمعنى واحد اذا كتبته . وفى ط : يذكرون .
(٩) ظلمت : منعت .

فقلت : وما هذا الكلام ؟ قالوا : فرقانٌ بين الكفر والإيمان ، رسول من مُضَر ، من أهل المَدَر ، ابتُعث فظهر ، فجاء بقول يَبْهر ، وأوضح نَهْجًا قد دَثَر ، فيه مواعظُ لمن اعتبر ، ومَعاذٌ لمن ازْدَجَرْ ، أُلِّف بالآى الكُبَر .

فقلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟ قالوا : أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشَّبَر[1] ، وإن خالفت أُصليت سَقَر .

فآمنتُ يا خُذافر ، وأقبلت إليك أبادِرْ ، فجانبْ كلَّ نجس كافر ، وشايِع كلَّ مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراقُ لا عن تلاقِ[2] .

قلت : من أين أبغى هذا الدين ؟

قال : من ذات الإحَرِّين[3] والنَّفَر اليمانِين أهل الماء والطين .

قلت : أوضِحْ . قال : الحقْ بيثربَ ذات النخل ، والحرَّةِ ذات النَّعْل[4] ، فهنالك أهلُ الطَّوْل والفضل والمواساة والبذل .

ثم امَّلَس عنى فبتُّ مذعوراً أراعى الصباح ، فلما برق لى النور امتطيت راحلتى وآذنت[5] أَعْبُدِى واحتملت بأهلى ، حتى وردت الجوف فرددت الإبل على أربابها بحُولها وسِقَابها[6] ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصَبْتُ بها

---

(١) الشبر : بسكون الباء الخير ، وحرك للسجع ، كما قال العجاج :

الحمد لله الذى أعْطَى الشَّبَرْ   موالى الخير إنِ المولَى شَكَرْ

(٢) فى غير المطبوعة : عن لا .

(٣) قال الأصمعى جمع الحرة : حرار وحرون وأحرون .

(٤) النعل : المكان الغليظ من الحرة .

(٥) آذنت : أعلمت .

(٦) الحول : جمع حائل ، وهى الأنثى فى أولاد الإبل . والسقاب : جمع سقب ، وهو الذكر .

معاذَ بن جبل أميراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبايعته على الإسلام ، وعلّمنى من القرآن ، فمنّ الله علىّ بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة ، وقالت فى ذلك :

أَلَمْ تر أن اللهَ عادَ بفضله
فأَنْقَذَ مِنْ لَفحِ الزَّخيخِ خُنافرا[1]

وكشَّف لى من حَجْمَتَىَّ عماهُما
وأَوْضَح لى نَهْجى وقد كان داثرا[2]

دعانى شِمَارٌ للتى لو رفضْتُها
لأُصْليتُ جَمْرًا من لَظَى الهَوْب واهرا[3]

فأصبحتُ والإسلامُ حشْو جوانحى
وجانبتُ مَنْ أمسَى عن الحقّ نائرا[4]

وكان مُضِلِّى مَن هُديتُ بِرُشْده
فلله مُغْوٍ عادَ بالرُّشْد آمرًا

نجوتُ بحَمْدِ الله من كل قَحْمةٍ
تؤرِّث هُلْكاً يومَ شايعتُ شاصرا[5]

(١) الزخيخ : بلغة أهل اليمن النار .
(٢) الحجمتان : العينان بلغة أهل اليمن . قال شاعرهم ، وأكل أمه الذئب :

فيا حَجْمتا بَكىّ على أمٍّ واهبٍ
أكيلة قِلَّوْبٍ ببعض المذانب

(٣) الهوب : النار ، باقتهم والواهر : الساكن مع شدة الحر .
(٤) النائر : النافر .
(٥) القحمة : الشدة .

فقـــد أمِنَتْنِي بعـــد ذاك يُحابِرٌ
بما كنتُ أغْشَى المُنْدياتِ يُحابرا

فمَنْ مُبْلِغٌ فتيـــانَ قومِى ألوكةً
بأنِّى مِنْ أقتالِ مَنْ كان كافرا[1]

عليكم سواءَ القَصْدِ لا فُـــلَّ حدُّكم
فقد أصبحَ الإسلامُ للشِّرْكِ قاهرا

وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم حدَّثه ، أنه كان لمِرْداس أبى العباس بن مِرْداس السلمىّ وَثَنٌ يعبده ، وهو حجرٌ يقال له ضِمارِ ، فلما حضر مرداساً الموت[2] قال للعباس : أى بُنَىّ اعبُدْ ضِمارِ ، فإنه ينفعك ويضُرك . فبينا العباس يوماً عند ضِمار ، إذ سمع فى جوف ضمار منادياً يقول :

قُلْ للقبائل من سُلَيمٍ كلّهَـــا
أوْدَى ضِمارِ وعاش أهـــلُ المسجدِ

إن الذى ورث النبـــوّة والهُدَى
بعد ابن مريمَ مِنْ قريشٍ مهتـــدِى

أوْدَى ضِمارِ وكان يُعْبَد مرّة
قبل الكتاب إلى النبى محمـــدِ

فحرق العباس ضِمارِ ، ولحِق بالنبى صلى الله عليه وسلم فأسلم .

* * *

---

(١) الألوكة : الرسالة ، والأقتال : الأعداء .

(٢) غير المطبوعة : فلما حضر مرداس .

والأخبار فى هذا الباب مما نُقِل من ذلك عن الكُهّان ، أو سُمِع عند الأصنام ، أو هتفت به هواتفُ الجانّ كثيرة جداً ، وقد أثبتنا منها ما استحسنّاه ممّا ذكره ابن إسحاق ، أو ذكره سواه .

[إنذار يهود بالنبى]

قال ابن إسحاق: وحدّثنى عاصمُ بن عمر بن قتادة ، عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله لنا وهُداه ، لمّا كنّا نسمع من أخبار يهود .

كنا أهلَ شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهلَ كتاب عندهم علمٌ ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورٌ ، فإذا نِلْنا منهم بعضَ ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقاربَ زمانُ نبىٍّ يُبعَث الآن ، نقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرَمَ .

فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم .

فلما بعث الله رسولَه محمداً صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله وعَرفْنا ما كانوا يتواعدوننا به ، فبادَرْناهم إليه ، فآمنّا به وكفروا به .

ففينا وفيهم نزلتْ هذه الآيات من البقرة « ولَمّا جاءهم كتابٌ مِنْ عندِ الله مصدِّقٌ لما معهم ، وكانوا من قبل يَسْتَفْتِحُون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عَرَفوا كفروا به ، فلعنةُ الله على الكافرين »[1] .

قال : وحدثنى صالح بن إبراهيم ، عن محمود بن لبيد ، عن سَلَمة بن سلامة بن وَقَش وكان من أصحاب بَدْر قال : كان لنا جارٌ من يهود فى بنى عبد الأشهلِ ، فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث

(١) سورة البقرة ٨٩

والحساب والميزان والجنة والنار ، فقال ذلك لقومٍ أهلِ شِرْكٍ وأصحاب أوثان ، لا يرون أن بَعْثًا كائنٌ بعدَ الموت .

فقالوا له : ويحك يا فلان أترى هذا كائناً ، أنّ الناس يُبْعَثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنةٌ ونار ، يُجْزَوْن فيها بأعمالهم .

قال : نعم والذى يُحْلَف به : ولَوَدَّ أنّ له بحظِّهِ من تلك النار أعظمَ تَنُّورٍ فى الدار يُحْمُونه ثم يدخلونه إياه فيطيِّنونه عليه ، بأن ينجو من تلك النار غداً .

فقالوا له : ويحك يا فلان ، وما آية ذلك ؟

قال : نبيٌّ مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن .

قالوا : ومتى نَرَاه ؟

قال : فنظر إلىّ ، وأنا أحْدَثهم سنًّا ، فقال : إن يستنفد هذا الغلام عُمْرَه يُدْرِكه .

قال سَلَمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وهو حىٌّ بين أظهُرنا ، فآمنّا به وكفر به بَغْياً وحسداً .

فقلنا له : ويحك يا فلان ! ألست بالذى قلتَ لنا فيه ما قلت ؟ !

قال : بلى ولكن ليس به !

قال : وحدثنى عاصم بن عمر عن شيخ من بنى قريظة . قال : قال لى : هل تدرى عمَّ كان إسلام ثعلبة بن سَعْيَة وأسَيد بن سَعْيَة وأسد بن عبيد ، نفر من هَدَل إخوة بنى قريظة كانوا معهم فى جاهليتهم ، ثم كانوا سادتهم فى الإسلام ؟ قال : قلت : لا .

قال : فإن رجلا من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهَيَّبان ، قدم علينا قبل الإسلام بسنين ، فحلّ بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلى الخمس أفضل منه .

فأقام عندنا ، فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له : أخرج يا ابن الهَيَّبان فاستَسْقِ لنا . فيقول : لا والله حتى تقدّموا بين يَدَىْ مَخْرجكم صدقة . فنقول له : كم ؟ فيقول : صاعاً من تمر ومُدَّين من شعير .

فنخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حَرَّتنا فيستسقى لنا ، فوالله ما يبرح مجلسه حتى تمر السحابُ ونسقى .

قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ، ثم حضرته الوفاة عندنا . فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ، ما ترون أنه[1] أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟

قلنا : أنت أعلم .

قال : فإنما قدمت هذه البلدة أتوكَّف[2] خروجَ نبى قد أظلّ زمانُه ، وهذه البلدة مُهاجَره ، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه ، وقد أظلكم زمانه ، فلا تُسْبقن إليه يا معشر يهود ، فإنه يُبعث بسفك الدماء وسَبْى الذرارى والنساء ممن خالفه ، فلا يمنعنكم ذلك منه .

فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بنى قريظة قال هؤلاء الفِتْيَة ، وكانوا شباباً أحداثاً : يا بنى قريظة والله إنه للنبى الذى عهد إليكم

---

(١) المطبوعة : ما ترونه .
(٢) أتوكف : أنتظر .

فيه ابن الهَيّبان ، قالوا : ليس به . قالوا : بلى والله ، إنه لهو بصفته . فنزلوا وأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم .

قال ابن إسحاق : فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود[١] .

[حديث سَلْمَان الفارسي]

قال : وحدثني عاصم بن محمود[٢] عن ابن عباس رضي الله عنه قال : حدثني سَلْمَان الفارسي مِنْ فِيه ، قال :

كنتُ رجلاً فارسيًا من أهل أصبهان ، من أهل قرية يقال لها جَيٌّ ، وكان أبي دِهْقان[٣] قريته ، وكنتُ أحبَّ خلق الله إليه ، لم يَزَلْ به حُبُّه إيَّايَ حتى حبسني في بيته كما تُحْبَس الجاريةُ ، واجتهدتُ في المجوسيّة حتى كنتُ قَطَنَ[٤] النار الذي يُوقدها ، لا يتركها تخبو ساعةً .

وكانت لأبي ضيعةٌ عظيمة ، فشُغِل في بنيان له يوماً ، فقال لي : يا بُنَيَّ إني قد شغلتُ في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي ، فاذهب إليها فاطَّلعْها . وأمرني فيها ببعض ما يريد ، ثم قال لي : لا تحتبس عنِّي ، فإنك إن احتبستَ عني كنتَ أهمَّ إليَّ من ضَيْعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري .

فخرجتُ أريد ضيعته التي بعثني إليها فمررتُ بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعتُ أصواتهم فيها وهُم يصلُّون ، وكنتُ لا أدري ما أمرُ الناس ، لحَبْسِ أبي إيَّايَ في بيته .

(١) المطبوعة : من أخبار يهود .
(٢) المطبوعة : عاصم عن محمود ، وهو خطأ .
(٣) الدهقان : زعيم فلاحي العجم أو رئيس الإقليم .
(٤) أي خادمها .

فلما سمعت أصواتهم ، دخلتُ عليهم[1] أنظرُ ما يصنعون ، فلما رأيتُهم أعجبتنى صلاتُهم ، ورغبتُ فى أمرهم وقلتُ : هذا والله خيرٌ من الذى نحن عليه . فوالله ما بَرِحْتُهم حتى غربت الشمس ، وتركتُ ضيعة أبى فلم آتِها ، ثم قلتُ لهم : أين أَصْلُ هذا الدين ؟ قالوا : بالشام .

فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى ، وشغلته عن عمله كلِّه ، فلما جئتُه قال : أى بُنَىَّ أين كنت ؟ ألم أكن عهدتُ إليك بما عهدتُ ؟ ! قلتُ : يا أبت مررتُ بأناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى ما رأيت فى دينهم ، فوالله ما زِلتُ عندهم حتى غربت الشمس .

قال : أى بنىّ ليس فى ذلك الدين خيرٌ ، دينُك ودين آبائك خيرٌ منه

فقلت له : كلاَّ والله ، إنه لخيرٌ من ديننا .

قال : فخافنى ، فجعل فى رجلى قيداً ثم حبسنى فى بيته .

وبعثتُ إلى النصارى ، فقلتُ لهم : إذا قدم عليكم ركبٌ من الشام فأخبرونى بهم ، فقدم عليهم [ركب من الشام][2] تجار من النصارى ، فأخبرونى . فقلتُ لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم ، فآذِنونى بهم .

قال : فلما أرادوا الرَّجعة أخبرونى بهم ، فألقيت الحديدَ من رجلى ، ثم خرجتُ معهم حتى قدمتُ الشام .

---

(١) المطبوعة : إليهم .

(٢) من ابن هشام .

فلما قدمتُها قلتُ مَن أفضلُ أهل هـذا الدين علما ؟ قالوا : الأسْقُفُ في الـكنيسة . فجئتُه فقلت له : إنى قد رغبتُ فى هذا الدين ، وأحببتُ أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك ، وأتعلّم منك ، وأصلى معك .

قال : ادخلْ .

فدخلتُ معه ، فـكان رجلَ سَوْء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطِه المساكين ، حتى جمع سَبْعَ قِلالٍ من ذهب وورِق .

فأبغضتُه بُغْضاً شديداً لِما رأيته يصنع .

ثم مات . واجتمعت النصارى ليدفنوه ، فقلتُ لهم : إنَّ هذا كان رجلَ سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغّبكم[1] فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يُعط المساكين منها شيئاً .

فقالوا لى : وما عِلمك بذلك ؟ قلت : أنا أدلـكم على كنزه فأريتُهم موضعه فاستخرجوا سبعَ قِلالٍ مملوءة ذهباً وورقاً ، فلما رأوها ، قالوا : والله لا ندفنه أبداً .

فصلبوه ورجموه بالحجارة .

وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه ، فما رأيتُ رجلاً لا يصلّى الخمس ، أرى أنه كان أفضل منه ، أزهدَ فى الدنيا ولا أرْغَبَ فى الآخرة ، ولا أدْأبَ ليلا ونهاراً منه ، فأحببتُه حبًّا لم أحبّه شيئاً قبلَه ، فأقمت معه زماناً ، ثم حضرته

---

(١) المطبوعة : يأمرهم ويرغبهم.

الوفاة ، فقلتُ له : يا فلان إني كنت معك وأحببتُك حبًّا لم أحبّه شيئًا قبلك وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من تُوصِي بي ، وبِمَ تأمرني.

فقال : أي بنيّ والله ما أعْلَمَ اليوم أحداً على ما كنتُ عليه ، لقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه [فالحق به][1] .

فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان إن فلانًا أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره . فقال : أقِمْ عندي .

فأقمتُ عنده ووجدتُه خيرَ رجل على أمر صاحبه .

فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان إن فلانًا أوصى بي[2] إليك ، وأمرني باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بي ؟ وبِمَ تأمرني ؟ قال : يا بُنيّ والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنّا عليه إلا رجلاً بنَصِيبِين[3] ، وهو فلان فالحقْ به .

فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب نَصِيبِين ، فأخبرتُه خبري ، وما أمرني به صاحبي فقال : أقِمْ عندي .

فأقمتُ عنده ، فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حُضِرَ قُلْتُ له : يا فلان إن فلانًا كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصى بي : وبِمَ تأمرني .

---

(١) من ابن هشام

(٢) المطبوعة : أوصاني إليك . وهو تحريف .

(٣) مدينة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل في الموصل الى الشام .

قال : يا بنيّ والله ما أعلمه بقي أحدٌ على أمرنا آمرك أن تأتيه ، إلا رجلا بعَمُّورِيَّة من أرض الرّوم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأْتِهِ .

فلما مات وغُيِّب ، لحقتُ بصاحب عمورِيّة ، فأخبرته خبري ، فقال : أقِمْ عندي .

فأقمتُ عند خير رجل على هَدْي أصحابه وأمرهم ، واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغُنيمة ، ثم نزل به أمر الله ، فلما حُضِر قلت له : يا فلان إني كنت مع فلان فأوصَى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصِي بي ؟ وبم تأمرني ؟

قال : أي بنيّ والله ما أعْلمه أصبح على مِثل ما كنّا عليه أحدٌ من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظلّ زمانُ نبيٍّ مبعوثٍ بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب، مُهاجَرُه إلى أرضٍ بين حَرّتين بينهما نَخْل ، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتَم النبوّة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد ، فافعل .

ثم مات وغُيِّب .

فمكثت بعمورية ، ما شاء الله أن أمكث ، ثم مرّ بي نفرٌ من كَلْبٍ تجارٌ . فقلت لهم : احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقَرَاتي هذه وغنيمتي هذه . قالوا : نعم . فأعطيتهموها وحملوني معهم ، حتى إذا بلغوا وادي القُرَى ظلموني ، فباعوني من رجل يهودي عبداً ، فكنت عنده فرأيتُ النخل ، فرجوتُ أن يكونَ البلدَ الذي وصف لي صاحبي ، ولم يَحِقّ في نفسي .

فبَيْنا أنا عنده إذ قَدِم عليه ابنُ عمٍّ له من بني قريظة من المدينة ،

فابتاعنى منه ، فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُها بصِفَةِ صاحبى فأقمتُ بها .

وبُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام بمكة ما أقام لا أسمعُ له بذكرٍ ، مع ما أنا فيه من شُغْل الرِّق .

ثم هاجر إلى المدينة ، فوالله إنى لفى رأس عَذْقٍ لسيّدى أعملُ له فيه بعضَ العمل ، وسيّدى جالس تحتى ، إذ أقبل ابنُ عمٍّ له حتى وقف عليه . فقال : يا فلان قاتل الله بنى قَيْلَة[1] ، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قَدِم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبى .

فلما سمعتُها أخذَتْنى العُرَواء[2] حتى ظننتُ أنى سأسقط على سيدى ، فنزلتُ عن النخلة فجعلتُ أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ فغضب سيدى فلكمنى لكمة شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا أقبلْ على عملك . فقلتُ : لا شىء إنما أردتُ أن أستثبته عما قال .

وقد كان عندى شىء جمعتُه ، فلما أمسيتُ أخذتُه ثم ذهبتُ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء ، فدخلت عليه فقلتُ له : إنه قد بلغنى أنك رجلٌ صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شىء كان عندى للصدقة ، فرأيتكم أحقّ به من غيركم ، فقرّبتُه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : كلوا . وأمسك يده فلم يأكل .

---

(١) قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة أم الأوس والخزرج .

(٢) العرواء : الرعدة من البرد والانتفاض ، فإن كان مع ذلك عرق فهى الرحضاء .

فقلت فى نفسى : هذه واحدة .

ثم انصرفتُ عنه ، فجمعت شيئا ، وتحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم جئته به ، فقلت : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هديةٌ أكرمتك بها . فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأمر أصحابه فأكلوا معه .

فقلتُ فى نفسى هاتان ثنتان .

ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد[1] قد تبع جنازة من أصحابه ، علىّ شملتان لى وهو جالس فى أصحابه ، فسلمتُ عليه ثم استدرتُ أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ؟ فلما رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستديرُ به ، عرف أنى أستثبتُ فى شىء وصف لى ، فألقى الرداء عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببتُ عليه أقبّله وأبكى . فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحوّلْ . فتحولتُ فجلستْ بين يديه ، فقصصتُ عليه حديثى كما حدّثتُك يا ابن عباس .

فأعْجَب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه . ثم شغل سلمانَ الرِقُّ ، حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بَدْر وأُحد .

قال سلمان : ثم قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كاتبْ يا سلمان . فكاتبتُ صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير[2] وأربعين أوقية .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعينوا أخاكم . فأعانونى بالنخل ، الرجل

---

(١) الغرقد : مقبرة أهل المدينة .

(٢) أى بالحفر والغرس .

بثلاثين وَدِيّة[1] ، والرجل بعشرين وديّة ، والرجل بخمس عشرة والرجل بعشر ، يُعين الرّجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعتْ إليَّ ثلاثمائة ودية ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب يا سلمان ففقِّر لها فإذا فرغتَ فائتنى ، أكُنْ أنا أضعها بيدى .

ففقرت وأعانى أصحابى حتى إذا فرغتُ جئته فأخبرتُه ، فخرج معى إليها ، فجعلنا نقرّب إليه الوَدِيّ ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده حتى فرغت . فوالذى نفس سلمان بيده ، ما ماتت منها وَدِيّةٌ واحدة .

فأدّيتُ النخل و بقى علىّ المال فأُتِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن ، فقال : ما فعل الفارسىّ المكاتب فدعيت له فقال : خذْ هذه فأدِّها مما عليك يا سلمان . قلتُ : وأين تقعُ هذه يا رسول الله مما علىّ ؟! قال : خذها فإن الله سيُؤدِّى بها عنك . فأخذتُها فوزنتُ لهم منها ، والذى نفس سلمان بيده ، أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم منها ، فشهدتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حرًّا . ثم لم يَفُتْنِى معه مَشْهَد .

وعن سلمان أيضاً أنه قال : لمّا قلتُ وأين تَقَعُ هذه من الذى علىّ يا رسول الله ؟! أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلّبها على لسانه . ثم قال : خذْها فأوفهم منها . فأخذتُها فأوفَيْتُهم منها حقّهم كلّه أربعين أوقية .

وعنه أيضاً أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره خبره : إن صاحب عَمُّورِيَة قال له : ايت كذا وكذا فى أرض الشام ، فإن بها رجلاً بين غَيْضَتَين ، يخرج فى كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزاً ، يعترضه ذوو الأسقام

---

(١) الودية : واحدة الودى وهو فراخ النخل الصغار .

فلا يدعو لأحد منهم إلا شُفِى ، فسَلْه عن هذا الدين الذى تبتغى ، فهو يخبرك عنه .

قال سلمان : فخرجت حتى جئتُ حيث وُصف لى ، فوجدتُ الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هنالك ، حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى الغيضتين إلى الأخرى ، فغشيه الناس بمرضاهم ، لايدعو لمريض إلا شُفى ، وغلبونى عليه ، فلم أخلُصْ إليه حتى دخل الغيضة التى يريد أن يدخل ، إلا مَنكِبُه فتناولتُه فقال : من هذا ؟ والتفت إلىّ قلتُ : يرحمك الله أخبرنى عن الحنيفية دين إبراهيم . قال : إنك لتسأل عن شىء ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك زمان نبىّ يُبعَث بهذا الدين من أهل الحرم ، فائته فهو يحملك عليه . ثم دخل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كنت صَدَقْتنى يا سلمان ، لقد لقيتَ عيسى بن مريم[1] .

[حديث أمية بن أبى الصلت وأبى سفيان]

ومن حديث غير ابن إسحاق ، عن أبى سفيان بن حرب قال : خرجتُ أنا وأميّة بن أبى الصلت ، وآخر سقط اسمهُ فى كتابى ، تجاراً إلى الشام . قال أبو سفيان : فكلَّما نزلنا منزلاً أخرج أميّة سِفْراً يقرأه علينا ، فكنا كذلك حتى نزلنا بقرية من قرى النصارى ، قال : فرأوه وعرفوه وأهدوا له فذهب معهم إلى بيعتهم ، ثم رجع فى وسط النهار ، فطرح ثوبيْه ، واستخرج ثوبين أسودين ، فلبسهما ثم قال : يا أبا سفيان هل لك فى عالم من علماء النصارى إليه انتهى علمُ الكتب تسأله عما بدالك ؟ . قال : قلت لا أرَبَ لى فيه ، والله لئن حدّثنى ما أحِبّ لا أثق به ، ولئن حدثنى ما أكره لأوجَلنّ منه .

قال : وذهب يخالفه شيخ من النصارى ، فدخل علينا فقال — يعنى له

(١) هذا الخبر ضعيف جدا كما قال ابن كثير . وفيه مغالطة تاريخية .

والآخر الذى كان معه : ما منعكما أن تذهبا إلى هذا الشيخ ؟ قُلنا : لسنا على دينه . قال : وإنْ ، فإنّكما تَسْمعان عجبًا وترياِنه . قال : قلنا : لا أَرَب لنا فى ذلك . قال أثَقَفِيّانِ أنتما ؟ قلنا : لا ولكن من قريش . قال : فما منعكما من الشيخ ، فوالله إنه ليحبّكم ويُوصى بكم .

وخرج من عندنا ، ومكث أميّة عندنا حتى جاءنا بعد هدأة من الليل ، فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه ، فوالله ما قام ولا نام حتى أصبح . قال : فأصبح كئيبًا حزينًا ، ساقطًا غَبُوقُه على صَبُوحه ما يكلّمنا ، ثم قال : ألا تَرحَلانِ ؟ قلنا . وهل بك من رحيل ؟ قال : نعم فارحلا .

فرحلْنا فسِرْنا بذلك ليلتين فى همّه وبثّه . ثم قال ليلةً : ألا نتحدّث يا أبا سفيان؟ قلت : وهل بك من حديث ! فوالله ما رأيتُ مثل الذى رجعتَ به من عند صاحبك . قال :أما إن ذلك شيء لستَ فيه إنما ذلك شيء رَجِلْتَ به من مُنْقَلَبِى فقلت : وهل لك من مُنْقَلَبٍ ؟ قال : إى والله لأموتنَ ولأحاسَبَنّ قلت : فهلْ أنت قابل أمانى ؟ قال : وعلى ماذا ؟ قلتُ : على أنك لا تبعث ولا تحاسب . فضحك ثم قال : بلى والله يا أبا سفيان لَنبعثنّ ولنُحاسبنّ ، وليدخلن فريق فى الجنّة وفريق فى النار قلتُ : فى أيتهما أنت أخبرك صاحبُك . قال : لا علْم لصاحبى فى ذلكَ فىَّ ولا فى نفسه .

فكنّا فى ذلك ليلتنا ، يعجب منّا ونضحك منه ، حتى قدمنا غُوطة دِمَشْق وإيّاها كنّا نريد ، فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين ، ثم ارتحلنا حتى نزلنا بتلك القرية من قرى النصارى ، فلما رأوه جاءوه وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيعتهم ، حتى جاءنا مع نصف النهار ، فلبس ثوبيه الأسودين ، فذهب ولم يَدْعُنَا إليه كما دعانا أول مرّة ، حتى جاءنا بعد هدأة من الليل ، فطرح ثوبيه ،

ثم رمى بنفسه على فراشه فوالله ما نام ولا قام ، فأصبح مبثوثاً حزيناً ، لا يكلمنا ولا نكلمه ثم قال لى : ألا ترحلان ؟ قلت : بلى إن شئت . قال : فارحلا .

فرحلنا فسرْنا كذلك من بَثه وحزنه ليالى . ثم قال لى ليلةً : يا أبا سفيان هل لك فى المسير ؟ ونخلّف هذا الغلام يستأنس بأصحابنا و يستأنسون به ؟ قلتُ له : ما شئتَ . قال : سِرْ. فسرنا حتى برزنا . قال : هى يا صخرا . قلتُ مالك؟ . قال : هى عَنْ عُتْبة بن ربيعة أيجتنب المحارم والمظالم ؟ قلتُ : إى والله . قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : نعم ويصل الرحم ويأمر بصلتها . قال : وكريم الطرفين ، واسِطٌ فى العشيرة ؟ قلت : كريم الطرفين واسط فى العشيرة . قال : فهلْ تعلم قُرَشياً أشرف منه ؟ قلت : لا ما أعلم . قال ومُحْوِجٌ هو ؟ قلتُ : لا بل ذو مال . قال : فكم أتى له ؟ قلت : هو ابن سبعين نظر إليها قد قاربها ، هو لها ، هو ابنها. قال : السنّ والشرف أزْرَيا به قلت : وما لهما أزرَيا به ؟ لا والله بل هما زاداه خيراً . قال : هو ذاك هل لك فى المبيت ؟ قلت: هل لك فيه حاجة ؟ قال : فاضطجعنا . حتى مرّ الثقل فسِرْنا حتى نزلنا فكنّا فى المنزل و بتنا .

ثم رحلنا ، فلما كان الليل قال : يا أبا سفيان . قلت : لبّيك قال : هل لك فى البارحة ؟ قلت : هل لى . قال : فسرْنا على ناقتين ناجيتين ، حتى إذا برزنا قال : يا صخر إيهِ عن عتبة . قلت : إيهِ عنه قال : أيجتنب المحارم والمظالم ؟ و يأمر بصلة الرحم و يصلها . قلت : ويفعل . قال : ومحوج ؟ قلت: ومحوج .

قال : هل تعلم قُرَشياً أسْوَدَ منه ؟ قلت : والله ما أعلمه . قال : وكم أتى له ؟ قلت : سبعون هو لها هو ابنها قد واقَعَها . قال : فإنّ السنّ والشرف أزرَيا به . قلت : لا والله ما أزرَيا به ولكنّهما زاداه ، وأنت قائل شيئاً فقُلْه . قال :

والله لا تذكر حديثى حتى يأتى ما هو آت . قلت : والله لا أذكره . قال : الذى رأيتَ أصابنى فإنّى جئتُ هذا العالِم فسألته عن أشياء . قلت : أخبرنى عن هذا النبى الذى يُنتَظَر ؟ قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمتُ فمن أىّ العرب ؟ قال : هو من أهل بيت تحجّه العرب قلت : فينا بيتٌ تحجّه العرب . قال : لاهم إخوتكم وجيرانكم من قريش . قال فأصابنى والله شىء ما أصابنى منه قط . وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وقد كنت أرجو أن أكون أنا هو .

قلت : فإذا كان ما كان فصفه لى ؟ قال : هو شابّ حين دخل فى الكهولة بَدْء أمره ، أنه يجتنب المحارم والمظالم ، و يصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو مُحْوج ليس ينازَع شرفًا كريمُ الطرفين ، متوسط فى العشيرة أكثر جنده من الملائكة . قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد رجف بالشام منذ هلك عيسى بن مريم ثمانون رجْفة كلّها فيهم(١) مصيبةٌ عامّةٌ ، و بقيتْ رَجْفة عامّة ، فيها مصيبة يخرج على أثرها .

قال أبو سفيان : قلت : وإن هذا هو الباطل ، لئن بعث الله رسولاً ، لا يأخذه إلا شريفًا مُسِنًّا .

قال : والذى يُحلَف به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان . هل لك فى الدبيت .

فبتنا حتى مرّ بنا الثِّقَل ، فرحلنا حتى إذا كان بيننا و بين مكة ليلتان ، أدركنا الخبرُ من خلفنا : أصاب الشام بعدكم رجفةٌ دمّر أهلَها وأصابتهم فيها مصيبة عظيمة .

قال : كيف ترى يا أبا سفيان ؟ قلت : أرى والله ما أظنّ صاحبَك إلا صادقًا .

وقدمنا مكة فقضيتُ ما كان معى ، ثم انطلقتُ حتى جئتُ أرض الحبشة

---

(١) كذا وفى الوفا وابن كثير : فيها .

تاجراً ، فسكنت بها خمسةَ أشهر ، ثم أقبلتُ حتى قدمت مكة فبينا أنا فى منزلى ، جاءنى الناس يسلّمون علىّ ، حتى جاءنى فى آخرهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وعندى هِنْدٌ جالسة تلاعب صبية لها ، فسلّم علىّ ورحَّب بى وسألنى عن سفرى ومَقْدمى ، ثم انطلق . فقلت : والله إن هذا الفتى لعجبٌ ، ما جاءنا أحدٌ من قريش له معى بضاعة ، إلا سألنى عنها وما بلغتْ وواللهِ إنّ له معى لبضاعةً ، ما هو بأغناهم عنها، ثم ماسألنى فقلت: أوماعلمتَ بشأنه؟ قلتُ وفزعت: ما شأنُه؟! قالت : والله إنه ليزعم أنه رسول الله . قال : فوقذنى ذلك وذكّرنى قولَ النصرانى ، ووجمتُ حتى قالت لى : مالك ؟ فانتبهتُ وقلتُ : إن هذا والله لهو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا . قالت : بلى والله إنه ليقوله ، ويؤتى عليه وإن له لصحابة(١) معه على أمره . قلت : هو والله باطل .

فخرجت فبينا أنا أطوف إذ لقيتُه ، فقلت : إن بضاعتك قد بلغتْ وكان فيها خيرٌ ، فأرسلْ إليها فخذْها ، ولست آخذاً فيها ما آخذُ من قومك . قال فإنّى غير آخذها حتى تأخذ منى ما تأخذ من قومى . قلت : ما أنا بفاعل . قال : فوالله إذاً لا آخذها . قلتُ : فأرسل إليها . فأخذتُ منها ما كنتُ آخذ ، وبعثتُ إليه ببضاعته .

ولم أنشب أن خرجتُ تاجراً إلى اليمن فقدمتُ الطائف فنزلنا على أميّة ، فتغديتُ معه ثم قلتُ : يا أبا عثمان ، هل تذكر حديث النصرانى؟ قال : أذكره. قلتُ: فقد كان قال : ومَن ؟ قلت: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . ثم قصصت عليه خبر هِنْد . قال : فالله يعلم أنه تصبب عرقاً ثم قال : يا أبا سفيان لعلّه ، وإن صِفَتَه لَهِيَه ، ولئن ظهر وأنا حىّ لأبلين الله فى نصرته عُذْراً .

ومضيتُ إلى اليمن فلم أنشب أن جاءنى هناك استهلاله ، وأقبلت حتى قدمتُ

(١) ط : لصاحبة .

الطائف فنزلنا على أميّة بن أبى الصلت . قلت : قد كان من هذا الرجل ما قد بلغك وسمعتَ . قال : قد كان . قلت : فأين أنت ؟ قال : ما كنت لأومن برسولٍ ليس من ثقيف ! . قال أبو سفيان : فأقبلتُ إلى مكة ووالله ما أنا منه ببعيد حتى جئته فوجدته هو وأصحابه يُضرَبون ويُقْهَرون ، فجعلتُ أقول : فأين جُنده من الملائـكة ؟ ! ودخلنى ما دخل الناس من النفاسة .

ووقع فى هذا الحديث من قول أبى سفيان : أن عُتْبَة بن ربيعة ذو مال ، ووقع بعد ذلك من قول أبى سفيان أيضاً أنه محوج ، ولا يصحُّ أن يجتمع الأمران ، وأحدُهما غلطٌ من الناقل والله أعلم .

والمشهور من حال عُتْبة أنه كان فقيراً وكان يقال : لم يسُدْ من قريش مُملقٌ إلا عُتْبة وأبو طالب ، فإنهما سادَا بغير مال .

***

وأما أميّة بن أبى الصَّلْت فرجلٌ من ثَقِيف ، لم يَرْض دينَ أهلِ الجاهلية ، ولا وفقه الله للدخول فى السَّمْحة الحنيفيّة .

فـكان كما رُوى عن عُروَة بن الزبير قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمية بن أبى الصلت فقال : أُوتى عِلماً فضيَّعه .

وكما رُوى عن الحسن وقتادة أنّهما قالا فى قول الله تعالى : « واتْلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتْبَعَه الشيطانُ فـكان من الغاوين »[1] أنه أمية بن أبى الصلت .

***

---

(١) سورة الأعراف .

قال ابن إسحاق : واجتمعتْ قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظّمونه ، وينحرون له ، ويعتكفون عنده ، فخَلَصَ منهم أربعةُ نفر نجيًّا ، ثم قال بعضهم لبعض : تَصَادَقُوا وَلْيَكْتُمْ بعضُكم على بعض .

قالوا : أجَلْ . وهم : وَرَقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحُوَيرث بن أسد بن عبد العُزّى ، وزيد بن عمرو بن نُفَيل ، فقال بعضهم لبعض : تعلّموا والله ما قومُكم على شىء ، لقد أخطأوا دينَ أبيهم إبراهيم ، ما حَجرٌ نُطِيف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضرُّ ولا ينفع ! !

يا قوم : التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شىء .

فتفرّقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية ، واتّبع الكتبَ من أهلها .

وذكر الزبير بن بكّار بإسناد له إلى عروة بن الزبير قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ورقة بن نوفل . فقال : لقد رأيته فى المنام عليه ثياب بيض ، فقد أظنّ أنه لو كان من أهل النار ، لم أرَ عليه البَياض .

وكان يذكر الله فى شعره فى الجاهلية ، ويسبّحه وهو الذى يقول :

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم
أنا النذير فلا يَغرُرْكم أحَدُ

لا تعبدون إلهاً غيرَ خالقكم
فإنْ دَعَوْكم فقولوا بيننا حَدَدُ

سبحان ذى العرش سبحاناً يدوم له
ربُّ البريّة فَرْدٌ واحدٌ صَمَدُ

سبحان ذى العرش سبحاناً نَعُود له
وقَبْلُ سَبَّحه الجُــودىُّ والجُمُدُ

مُسَخَّرٌ كلٌّ ما تحت السماء له
لا ينبغى أن يُنادِى مُلْـكَه أحــــد

لا شىء مما تَرَى تَبقى بشاشتُه
يَبْقَى الإلهُ ويُودِى المالُ والوَلَدُ

لم تُغْنِ عن هُرْمزٍ يوماً خزائنُه
والخُلْدَ قد حاولتْ عادٌ فما خَلَدُوا

ولا سليمانُ إذ تجرِى الرياح به
والإنسُ والجنّ فيما بينهم بُرُدُ

أين المــــلوك التى دانت لعزّتها
من كل أَوْبٍ إليها وافدٌ يَفِدُ

حوضٌ هنالك موروردٌ بلا كَذِبٍ
لا بُدَّ من وِرْدِهِ يوماً كما وَرَدُوا

وفى هذا الشعر ألفاظ عن غير الزبير ، والبيت الأخير كذلك ، وفيه أبيات تُروى لأمية بن أبى الصَّلْت .

* * *

قال ابن إسحاق : وأما عُبَيد الله بن جحش فإنه أقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى أرض الحبشة ، ومعه امرأته أمّ حبيبة بنت أبى سفيان مُسلِمةً ، فلما قدماها تنصَّر وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانياً ، وخلف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعده على امرأته أم حبيبة

وكان حين تنصّر يمرّ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : فقّحْنا وصأصأتم . أى أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد .

وأما عثمان بن الحُوَيرث فقدم على قَيصَر ملك الروم فتنصَّر وحسنتْ منزلتُه عنده .

وذكر الزبير : أن قيصر ملّكه على أهل مكّة ، وكتب له إليهم . فأنفت قريش أن يدينوا لأحدٍ ، وصاح فيه ابن عمّه أبو زمْعة الأسود بن المطلب بن أسد والناس فى الطواف : إنّ قريشاً لا تملِك ولا تُملك . فمضتْ قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان ما جاء يطلب ، فرجع إلى قيصر ومات بالشام مسموماً . يقال : سَمَّه عمرو بن جفْنة الغسّانى الملك ، وكان يقال لعثمان هذا البطريق ولا عقب له.

***

قال ابن إسحاق : وأما زيد بن عمرو بن نُفَيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان ، والميتة والدم ، والذبائح التى تُذبَح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودَة ، وقال أعبدُ ربّ إبراهيم ، وبَادَى قومَه بِعَيْب ما هم عليه .

قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها : لقد رأيتُ زيدَ بن عمرو ابن نُفَيل شيخاً كبيراً مُسنداً ظهرَه إلى الكعبة ، وهو يقول : يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيرى . ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أىّ الوجوه أحبّ إليك عبدتُك به ، ولكن لا أعلم. ثم يسجد على راحلته .

وسأل ابنُه سعيدُ بن زيد وابنُ عمّه عُمر بن الخطّاب بن نفيل رضى الله عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ قال : نعم ، فإنه يُبعَث أمّةً وحده .

وقال زيد بن عمرو بن نُفَيل فى فراق دين قومه :

أربًّا واحــــداً أم ألفَ ربٍّ
أدينُ إذا تقسَّمتِ الأمــــورُ
عزَلتُ الـــلاتَ والعُزَّى جميعاً
كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصَّبــورُ
فلا العُزَّى أدين ولا ابنَتيهـــا
ولا صَنَمَىْ بَنِى - عمــرو أزورُ
ولا غنمًا أدينُ وكان ربًّا
لنا فى الدهر إذ حُلْمِى يَســيرُ
عجبتُ وفى الليـــالى مُعجِبات
وفى الأيام يَعرِفُهـــا البَصــير
فإنّ الله قد أفــــنَى رجالاً
كثيراً كان شأنَهمُ الفجـــور
وأبقى آخرين ببرِّ قـــومٍ
فــيَرْبُلُ[1] منهم الطِفْلُ الصغير
وبَينْا المرء يَعْــثر ثابَ يوماً
كما يتروّح الغُصْنُ المطـــير
ولــكن أعبُدُ الرحمنَ ربّى
ليَغفِــرَ ذنبىَ الربُّ الغفورُ

---

(١) ربل القوم إذا نموا وكثروا .

فتقوى الله ربكمُ احفظوها
متى ما تحفظوها لا تبوروا

ترى الأبرارَ دارُهمُ جنانٌ
وللكفّار حاميةٌ سعيرُ

وخِزْىٌ فى الحياة وإنْ يموتوا
يلاقوا ما تَضيقُ به الصُّدور

وقال زيد بن عمرو بن نُفَيل ، وذكر ابن هشام أن أكثرها لأمية بن أبى الصلت ، فى قصيدة له :

إلى الله أهْدِى مِدْحتى وثَنائيا
وقولاً رصينًا لايَنِى الدَّهْرَ باقيًا

إلى الملِكِ الأعلى الذى ليس فوقه
إلهٌ ولا ربٌّ يكون مُدانِيًا

ألا أيّها الإنسان إياك والرَّدَى
فإنّك لا تُخْفى من الله خافيًا

فإياك لا تَجْعَلْ مع الله غيرَه
فإنّ سبيلَ الرُّشْد أصبحَ باديًا

حنانيك إن الجنّ أنتَ رجاؤهم
وأنت إلهى ربُّنا ورَجائيا

رضيتُ بك اللهم ربًّا فلن أرَى
أدينُ إلهًا غيرَك اللهُ ثانيًا

فأنت الذى مِنْ فضل مَنٍّ ورحمـةٍ
بعثتَ إلى موسى رسـولاً مناديا

فقلتَ له يا اذْهَبْ وهارونَ فادْعُوَا
إلى الله فرعونَ الذى كان طاغِيا

وقولا له آأنت سَوَّيتَ هـذه
بلا وَتَدٍ حتى اطمأنَّتْ كما هِيا

وقولا له آأنت رفعتَ هـذه
بلا عَمَـدٍ أرْفِقْ إذًا بك بانيا

وقولا له آأنت سوَّيتَ وسطها
مُنيراً إذا ما جَنَّه الليـلُ هاديا

وقولا له مَن يُرسـل الشمسَ غُدْوَة
فيُصبحُ ما مَسَّتْ من الأرض ضاحيا

وقولا له مَن يُنبت الحبَّ فى الثَّرى
فيُصبحُ منه البَقْلُ يهْـتزُّ رابيا

ويُخرج منه حَبَّـه فى رءوسه
وفى ذاك آياتٌ لِمَن كان واعيا

وأنت بفضلٍ منـك نَجَّيْتَ يُونُسا
وقد بات فى أضعافِ حُوتٍ لياليا

وإنِّى وإن سبَّحْتُ باسمك ربَّنا
لأُكْثِرُ إلاَّ ما غفَرْتَ خطـائيا

فربَّ العباد ألقِ سَيْبًا ورحمةً
علىَّ وبارِكْ فى بَنِيَّ ومـاليا

وقال زيد بن عمرو أيضاً :

أسلمتُ وجهى لمــــن أسلمَتْ
له الأرضُ تحمِـــلُ صَخراً ثِقالاً

دَحاها فلما رآهـــا استوتْ
على الماء أرْسَى عليهـــا الجبالاً[1]

وأسلمتُ وجهى لمــــن أسلَمتْ
له المُزْنُ تحمـــل عَذْباً زلالا

إذا هىَ سِيقَتْ إلى بلدةٍ
أطاعتْ فصبَّتْ عليهـــا سِجالاً

ويُروى أن زيداً كان إذا استقبل الكعبة داخِل المسجد قال : لبَّيْك حقًّا حقًّا تعبُّداً ورِقًّا ، عُذْتُ بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم ، إذ قال أنفى لك عانٍ راغِم ، مهما تُجَشِّمْنِى فإنى جاشِم ، البِرُّ أبغِى لا الخالَ ، ليس مهجِّر كمَنْ قال :

ويقال : البِرُّ أَبْقَى لا الخالَ .

وكان الخطاب بن نُفَيل قد آذَى زيداً حتى أخرجه إلى أعلَى مكة .

---

(١) رواية البيت فى البداية والنهاية .

دَحاها فلما استـــوت شـــدَّها
سَـــواء وأرْسَى عليها الجبـــالاً

(٢) الخال : الخيلاء والكبر ، والمهجر : من يسير فى الهاجرة ، ومن قال : أى من نام فى القائلة .

وكان الخطابُ عمَّه وأخاه لأمه ، وكَّل به شباباً من شباب قريش وسفهائهم ، فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة .

فكان لا يدخلها إلا سِرًّا منهم ، فإذا علموا بذلك آذَنُوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه ، مخافة أن يُفْسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحــــد منهم على فراقه .

وكان زيدٌ قد أجمع الخروجَ من مكة ليضرب فى الأرض يطلب الحنيفيَّة دين إبراهيم ، فكانت امرأته صفية بنت الحَضْرمى كلما رأته قد تهيأ للخروج أو أراده ، آذنت به الخطابَ بن نفيل ، وكان الخطّاب وكّلها به وقال : إذا رأيتيه هَمَّ بأمرٍ فآذِنيني به .

ثم خرج يطلب دِينَ إبراهيم و يسأل الرهبان والأحبار ، حتى بلغ الموْصِلَ والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجَالَ الشامَ كلَّها ، حتى انتهى إلى راهب بِمَيْفَعَةٍ(١) من أرض البَلْقاء ، كان ينتهى إليه عِلمُ النصرانية فيما يزعمون ، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال : إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجدٍ من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظلَّك زمانُ نبى يخرج فى بلادك التى خرجتَ منها يُبْعث بدِين إبراهيم الحنيفيةِ ، فالْحقْ به فإنه مبعوث الآن ، هذا زمانه .

وقد كان زيدٌ شامَّ اليهودية والنصرانية فلم يرضَ منهما شيئاً ، فخرج سريعاً حين قال له ذلك الراهب ما قال ، يريد مكة ، حتى إذا توسَّط بلادَ لَخْم عدَوْا عليه فقتلوه . فقال ورَقةُ بن نوفل يُبَكِّيه :

---

(١) الميفعة : الأرض المرتفعة .

رَشِدْتَ وأنْعَمتَ ابنَ عمرو وإنما
تجنّبْتَ تَنُّورًا من النار حاميا

بدَيْنك ربًّا ليس ربٌّ كمثله
وتركِك أوثانَ الطَّواغى كما هيا

وإدراكك الدين الذى قد طلبتَه
ولم تكُ عن توحيد ربِّك ساهيا(١)

فأصبحتَ فى دارٍ كريم مُقامها
تُعلَّل فيها بالكرامةِ لاهيا

تُلاَقِى خليلَ الله فيها ولم تكُنْ
من الناس جبارًا إلى النار هاويا

وقد تُدْرِك الإنسانَ رحمةُ ربه
ولو كان تحت الأرض سبعين واديا(٢)

* * *

قال ابن إسحاق : وكان فيما بلغنى عما كان وَضَع عيسى بن مريم فيما جاءه من الله فى الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : مَنْ أَبْغضنى فقد أبغض الربّ ، ولولا أنى صنعت بحضرتهم صنائعَ لم يصنعها أحدٌ قبلى ما كانت لهم خطيئةٌ ، ولكن من الآن بطِروا ، وظنوا أنهم يَعِزّونى وأيضاً للربّ ، ولكن لا بد من أن تتم الكلمة التى فى الناموس ،

(١) من ابن هشام .
(٢) نصب سبعين على الحال من لفظ مقدر مثل : بعد تحت الأرض .

أنهم أبغضونى مجاناً ، أى باطلا ، فلولا قد جاء الْمُنْحَمَنَّا هذا الذى يرسله الله إليكم من عند الرب ، روح القِسْط هو الذى من عند الرب خَرَج فهو شهيدٌ علىّ ، وأنتم أيضاً لأنكم قديماً كنتم معى ، هذا قلت لكم لكيلا تشكُّوا .

فالْمُنْحَمَنَّا بالسريانية هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو بالرومية البَرْقَلِيطس .

* * *

قال ابن هشام : وبلغنى أن رؤساء نَجْران كانوا يتوارثون كتاباً عندهم ، فكلما مات رئيس فأفضَت الرياسة إلى غيره خَتَم على ذلك الكتاب خاتماً مع الخواتم التى قبلها ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذى كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم يمشى فعثر ، فقال ابنه : تعس الأبعد . يريد النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبوه : لاتفعل فإنه نبى واسمه فى الوضائع . يعنى الكتب . فلما مات لم تكن لابنه هِمة إلا أن شدّ فكسر الخواتم ، فوجَد ذِكر النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلَمَ فحسُن إسلامه وحجّ .

وهو الذى يقول :

إليكَ تَعْدو قَلِقًا وَضِينُها[1]
معترِضاً فى بطنها جَنِينُها
مخالفاً دِينَ النَّصارى دينُها

---

(١) الوضين : بطان عراض منسوج من جلد أو شعر . والقلق : غير المحكم . والمعنى أن الإبل هزيلة .

[صفة النبي فى التوراة]

وقد جاءت أحاديث حِسَان بما وقع من صفة النبي صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، لم يذكر ابن إسحق منها[1] شيئاً .

فمن ذلك ما ذكره الواقدىُّ عن عَطَاء بن يَسَار قال : لقيتُ عبدَ الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة .

فقال : أجَل : والله ، إنه لموصوفٌ فى التوراة بصفته فى الفرقان :

« يا أيها النبىُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً وحِرْزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سمّيتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صَخَّاب فى الأسواق ، ولا يَدْفع السيئةَ بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، وان يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، يفتح بها أعيناً عُمْيا وآذاناً صُمًّا وقلوباً غُلْفاً .

قال عطاء : ثم لقيت كعبَ الأحبار فسألته فما اختلفا فى حَرْف !

وذكر الواقدى أيضاً عن النعمان السَّبَئِىِّ قال : وكان من أحبار اليهود باليمن ، فلما سمع بذكر النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه فسأله عن أشياء ، ثم قال : إن أبى كان يختم على سفْر يقول : لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبىٍّ قد خرج بيثرب ، فإذا سمعت به فافتحه .

---

(١) المطبوعة منهم . وهو خطأ .

فقال نعمان : فلما سمعت بك فتحت السِّفْرَ ، فإذا فيه صِفَتك كما أراك الساعة ، وإذا فيه ما تُحِلُّ وما تحرِّم ، وإذا فيه أنك خيرُ الأنبياء وأمتك خير الأمم واسمك أحمد صلى الله عليك وسلم ، وأمَّتُك الحَمّادون ، قُربانهم دماؤهم وأناجيلهم فى صدورهم ، لا يحضرون قتالاً إلا وجبريلُ معهم ، يتحنَّن الله عليهم[1] كتحنُّن الطير على أفراخه .

ثم قال : إذا سمعتَ به فاخرج إليه وآمِن به وصدِّق به .

فكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب أن يُسمع أصحابَه حديثَه ، فأتاه يوما فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : يا نعمان حدِّثنا .

فابتدأ النعمان الحديث من أوله فرئى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم ، ثم قال : أشهد أنى رسول الله .

ويقال إن النعمان هذا هو الذى قتله الأسود العَنْسى وقطّعه عضواً عضواً وهو يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ، وأنك كذّاب مُفْترٍ على الله عز وجل . ثم حرقه بالنار .

---

(١) ط : إليهم وما أثبته رواية المطبوعة .

ذكر المبعث

قال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله رحمةً للعالمين وكافةً للناس .

وكان الله تعالى قد أخذ له الميثاقَ على كل نبي بَعَثه قَبْله بالإيمان به والتصديق له والنصر له على مَنْ خالفه ، وأخَذ عليهم أن يؤدُّوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدَّقهم ، فأدَّوْا مِنْ ذلك ما كان عليهم من الحق .

فيه يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ : أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي » أي ثِقَلَ ما حَمَّلتكم مِنْ عهدى « قَالُوا : أَقْرَرْنَا . قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ »(١) .

فأخذ الله ميثاقَ النبيين جميعاً بالتصديق له والنصر وأدُّوا ذلك إلى من آمن بهم وصدَّقهم من أهل هذين الكتابين .

وعن عائشة رضى الله عنها أن أولَ ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامتَه ورحمةَ العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رؤيا إلا جاءت كفَلَق الصبح .

---

(١) سورة آل عمران : ٨١ .

وحبَّبَ الله إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يَخْلو وحده .

وعن بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته وابتدائه بالنبوة ، كان إذا خرج لحاجته أبْعَد حتى تَحَسَّرَ عنه البيوتُ ويُفْضى إلى شِعاب مكة وبطون أوديتها ، فلا يمرُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه وشماله فلا يرى إلا الشجر والحجارة .

فمكث كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث .

ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحِرَاء في شهر رمضان .

وعن عُبَيد بن عُمير بن قتادة الليثى ، يحدِّث كيف كان بَدْء ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين جاءه جبريل قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حِراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحنَّثُ به قريشٌ في الجاهلية ، والتحنُّث : التَّبرُّر .

فكان يجاور ذلك الشهرَ من كل سَنة ، يُطْعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى جواره من شَهْره ذلك كان أولُ ما يبدأ به إذا انصرف [من جواره][1] قبل أن يدخل بيته الكعبة ، فيطوف سبعا أو ما شاء الله ، ثم يرجع إلى بيته .

حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله به فيه ما أراد من كرامته ، وذلك الشهرُ رمضانُ ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورَحِم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله

(١) من المطبوعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءنى وأنا نائم[1] بنَمَط من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ فغتّنى[2] به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ ؟ فغتّنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ماذا أقرأ ؟

ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع .

فقال : « اقرأ باسْمِ رَبِّك الذى خَلَق ، خَلَق الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقرأ وربُّكَ الأكرمُ الذى علّم بالقلم ، علّم الإنْسانَ ما لم يَعْلم » .

فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهبَبْتُ من نومى ، فكأنما كُتِبتْ فى قلبى كتابا .

فخرجتُ حتى إذا كنت فى وسطٍ من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفعتُ رأسى إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل فى صورة رجل صافٌّ قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصْرِف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك .

فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رُسُلَها

---

(١) الذى فى الروايات الأخرى أن جبريل جاءه فى الغار وهو يقظان ، فلعل جبريل جاءه مرة فى النوم ومرة فى اليقظة ، كما ذكر ابن كثير وشراح السيرة .

(٢) غتنى : حبس نفسى . ورواية المواهب اللدنية : فغطنى .

فى طلبى ، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى وانصرفت عنه راجعـا إلى أهلى حتى أتيتُ خديجة فجلستُ إلى فخذها مضيفا إليها[1] .

فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثتُ رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلىّ .

ثم حدّثتها بالذى رأيت ، فقالت : أبْشِر يابن عمى واثبُتْ ، فوالذى نفسُ خديجة بيده إنى لأرجو[2] أن تـكون نبىّ هذه الأمة

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها ، وكان قد تنصّر وقرأ الـكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قُدُّوسٌ قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن كنتِ صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموسُ الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هـذه الأمة ، فقولى له فليَثْبُتْ .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالـكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالـكعبة ، فقال له : يابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت .

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هـذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ،

---

(١) أى ملتصقا بها (٢) المطبوعة : أرجو .

ولَتُكَذَّبَنَّه[1] ولتُؤْذينه ولتُخرجنّه ولتقاتلنّه ، والئن أنا أدركت ذلك اليومَ لأنصرنّ الله نصراً يَعلمه .

ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

ويروى عن خديجة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى ابنَ عم ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به .

فجاءه جبريل كما كان يصنع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى . قالت : قم يا بن عم فاجلس على فخذى اليسرى . فقام فجلس عليها . قالت : هل تراه ؟ قال نعم . قالت : فتحوّلْ فاقعد على فخذى اليمنى . فتحوّلَ فقعد على فخذها اليمنى ، فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت : فتحوّلْ فاجلس فى حِجرى . فتحوّلَ فجلس فى حجرها . ثم قالت له : هل تراه ؟ قال : نعم . فتحسّرت وألقت خمارها ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالس فى حجرها ، ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا .

قالت : يا بن عم اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملَك وما هذا بشيطان .

ويروى أن خديجة أدخلت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بينها و بين درعها فذهب عند ذلك جبريل .

* * *

---

(١) الهاء هنا للسكت .

[بدء نزول القرآن]

وابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل فى رمضان .

يقول الله عز وجل : « شهرُ رمضانَ الذى أُنزِلَ فيهِ القرآنُ هُدًى للناس وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفرقَان »(١) .

وقال : « إنا أنزلناهُ فى ليلةِ القَدْر »(٢) إلى خاتمة السورة .

وقال : « حم والـكِتَابِ المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا مُنْذِرِين فيها يُفرَق كلُّ أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كُنَّا مُرْسَلِين »(٣) .

وقال : « إنْ كُنتُم آمنتم باللهِ وما أنزلنا على عبدنا يَوْمَ الفُرْقَان يَوْمَ التقى الجَمْعَان »(٤) ، يعنى مُلْتَقَى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ببدر ، وذلك يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

* * *

هكذا أورد ابن إسحاق رحمه الله هذه الآيات كالمستشهد بها على ابتداء التنزيل فى شهر رمضان على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى صورة هذا الاستشهاد نظر .

---

(١) سورة البقرة : ١٨١

(٢) سورة القدر

(٣) سورة الدخان : ١ — ٤

(٤) سورة الأنفال : ٤٢

فإن ظاهر قوله سبحانه : « شهرُ رمضانَ الذى أُنزِلَ فيهِ القرآنُ » عمومُ نزول القرآن بجملته فيه . وكذلك قوله : « إنا أنزَلناهُ فِى ليلةِ القدرِ » . و « إنا أنزلناهُ فى ليلةٍ مباركة » .

ولم يقع الأمر فى إنزاله على رسوله صلى الله عليه وسلم هكذا ، بل أنزله الله عليه فى رمضان وفى غيره مفترقاً ، آياتٍ وسوراً ، بحسب سؤال السائلين ، أو أحداث المُحْدِثين ، أو ما شاء الله من هداية العالمين .

وقد قيل فى قوله تعالى : « شهرُ رمضان الذى أنزلَ فيهِ القرآن » أى الذى أنزل فى شأنه القرآن ، أى نزل الأمر من الله عز وجل بصيامه كتاباً يتلى وقرآناً لا يَدْرُس ولا يَبْلَى .

كما يقال : «نزل القرآنُ بالصلاة» أى نزل جزء منه بفرضها و«نزل القرآن فى عائشة » وإنما نزلت منه آيات ببراءتها من الإفك .

ومثل هذا الإطلاق موجود فى الأحاديث والآثار كثيراً .

وليُسَلَّم أن معنى قوله : « أُنزِلَ فِيهِ القرآنُ » أى ابتدئَ فيه إنزاله ، فقد قيل ذلك وليس ببعيد فى المفهوم ولا مما تضيق عنه سعة الكلام ، ثم نُجْرِى ذلك المجرى الآيتين[1] الاخريين وهما : « إنا أنزَلناهُ فِى ليلةٍ مباركة » ، و « إنا أنزَلناهُ فى ليلةِ القدر » ، وإنْ بَعُدَ ذلك فيهما لما ورد من الآثار المصحَّحة لحكم عمومهما حسبما نذكره بَعْدُ ، فما بال الآية الأخرى التى هى : « وما أنزلنا على عَبْدِنا يومَ الفرقان يومَ التقى الجمعان » تنتظم فى هذا النظام ، وقد أعقبها مُفَسِّراً بأن المعنىّ بذلك يومُ بدر ، وهو الحق ؟ ! .

وهل كان يومُ بدر إلا فى السنة الثانية من الهجرة ، وبعد اثنتى عشرة سنة

(١) المطبوعة : تجرى ذلك المجرى فى الآيتين .

من البعث ونزول الوحى ، أو بعد خمس عشرة سنة ، على ما ورد من الخلاف فى مدة مُكْث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة ، وما زال القرآنُ المكىُّ والمدَنى ينزل فيما مضى تلك السنين !.

فإن كان ابن إسحاق عنى ما ذكرناه عنه ونسبناه إليه فقد بيَّنا وجهَ رَدِّهِ واستوفينا التنبيه عليه ، وإن كان عَنَى غيرَ ذلك فقصَّر عنه تحريرُ عبارته أو سقط على الناقل من كلامه ما كان يَفِى لو بقى بإفهامه ، فالله تعالى أعلم .

والرجلُ أوْلَى منا بأن يُصيب ويَسْلَم ، إلا أنه لا يُنْكَر أن يَغْلط هذا البشر .

ونعوذ بالله أن نقصد بهذا الاعتداء على ذى علم أو الغَضَّ من ذى حق ، فإن العلماء هم آباؤنا الأقدمون وهداتنا المتقدِّمون ، بأنوارهم نَسْرى فنبصر ونستبصر ، وإلى غايتهم نجرى فطَوْراً نَصِل وأطواراً نقصِّر ، فلهم دوننا قَصَبُ السَّبْق ، ولهم علينا فى كل الأحوال أعظمُ الحق ، إذا أصابوا اعْتَمَدْنا ، وإذا أخطأوا استفَدْنا ، وإذا أفادوا اسْتَمْدَدْنا ، فجزاهم الله عنا أفضل الجزاء ، ووفَّقنا لتوفية حقوق الأئمة والعلماء .

* * *

وبعدُ : فمن أحسن ما يتعلق بتلك[1] الآيات الثلاث التى صدَّر بها كلامه ، مما يحفظ حكم عمومها ويطابق ظاهر مفهومها ، ما رواه سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس رضى الله عنه أن القرآن أُنزِل جملة واحدة فى شهر رمضان إلى سماء الدنيا ، فجُعل فى بيت العزة ، ثم أُنزِل على النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً فشيئاً إلى حين وفاته .

وقيل للشَّعْبى : شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، أما كان ينزل فى سائر السنة ؟

(١) ط : ما يتقلد فى تلك الآيات . وما أثبته رواية المطبوعة .

قال : بلى ، ولكن جبريل كان يعارض محمداً صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان ما أنزلَ فى ماضى السَّنة فيمحو الله ما يشاء ويُثبت .

* * *

قال ابن إسحاق : ثم تتَامّ الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله مصدِّق لما جاءه منه ، قد قَبِلَهُ بقبوله وتحمَّل منه ما حُمِّله على رضا العباد وسخَطِهم .

وللنبوة أثقالٌ ومُؤْنة لا يَحْملها ، ولا يستطيع بها إلا أهلُ القوة والعزم من الرسل بعون الله وتوفيقه ، لِمَا يَلْقون من الناس وما يُرَدُّ عليهم مما جاءوا به عن الله عز وجل .

فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله على ما يَلْقى من قومه من الخلاف والأذى .

[إسلام خديجة]

وآمنت به خديجة ابنة خويلد ، وصدَّقت بما جاءه من الله ، وآزَرَتْهُ على أمره .

فكانت أولَ من آمن بالله وبرسوله وصدَّق بما جاء منه .

فخفَّفَ الله بذلك عن رسوله ، لا يسمع شيئاً يكرهه من رَدٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبِّته وتخفِّف عليه وتصدِّقه وتهوِّن عليه أمْرَ الناس .

يرحمها الله .

[فترة الوحى]

ثم فَتَرَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحىُ حتى شقّ عليه وأحْزَنه .

فجاءه جبريل بسورة « والضحى » ، يُقْسم له ربه جل وتعالى ، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به ، ما وَدّعه وما قَلاه .

فقال : « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » ، يقول : ما صَرَمك فتركك ، وما أبْغَضَك منذ أحبّك .

« وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولَى » أى لَمَا عندى مِنْ مَرْجعك إلىّ خيرٌ لك مما عَجّلْتُ لك من الكَرامة فى الدنيا .

« وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » من الفُلْج[1] فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

« ألَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأغْنَى » .

يُعرّفه ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره ، ومَنّه عليه فى يُتْمه وعَيْلته وضلالته ، واستنقاذه من ذلك كله برحمته .

« فأمّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ ، وأمّا السائلَ فلا تَنْهَرْ » أى لا تكن جبّاراً ولا متكبرا ولا فحّاشا فظًّا على الضعفاء من عباد الله .

« وأمّا بنعمة ربّك فحدّثْ » اذكرها وادْعُ إليها .

---

(١) الفلج : الفلاح والنصر .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سِرًّا إلى مَن يطمئن إليه مِن أهله .

[فَرْض الصلاة]

وافترِضت عليه الصلاة ، فصلّى صلوات الله عليه وسلامه ورحمته وبركاته .

قالت عائشة رضى الله عنها : افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أولَ ما افترضت ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله أتمّها فى الحَضَر أربعا وأقرّها فى السَّفر على فَرْضها الأول ركعتين .

وعن بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعَقِبه فى ناحية الوادى فانفجرت منه عين ، فتوضأ جبريل ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينظر ، ليريه كيف الطُّهور للصلاة ، ثم توضأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريلَ توضأ ، ثم قام به جبريل فصلّى به وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته ، ثم انصرف جبريل فجاء رسول الله خديجةَ فتوضأ لها ليريها كيف الطُّهُور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ ثم صلى بها كما صلى به جبريل فصلّت بصلاته .

وعن نافع بن جُبَير بن مُطْعِم ، وكان كثيرَ الرواية عن ابن عباس ، قال : لمـا افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فصلّى به الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظلُّه مثلَه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفَق ، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر .

ثم صلّى به الظهر حين كان ظلّهُ مثلَه ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول ، ثم صلى به الصبح مُسْفِراً غير مُشْرِق .

ثم قال : يا محمد ، الصلاةُ فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس .

[إسلام على بن أبى طالب]

قال ابن إسحق : ثم كان أول ذَكَرٍ من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معه وصدّقَ بما جاءه من الله تبارك وتعالى علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو ابن عشر سنين يومئذ .

وكان مما أنعم الله به عليه أنه كان فى حِجْر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام .

وذلك أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ، وكان مِن أيسر بنى هاشم : يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناسَ ما ترى من هذه الأَزْمة ، فانطلقْ بنا إليه فلنخفّف [عنه][1] من عياله ، آخُذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنَكْفُلهما عنه . قال العباس : نعم .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا : إنا نريد أن نخفف عنك مِن عيالك حتى ينكشف عن الناس ماهم فيه . فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لى عَقيلا فاصنعا ما شئتما ، ويقال : عقيلا وطالبا .

فأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليًّا فضمّه إليه ، وأخذ العباس

(١) من ابن هشام

جعفرا فضمه إليه ، فلم يزل علىٌّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبيا فاتبعه على وآمن به وصدقه ، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب مُسْتخفيا عن أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصلِّيان الصلوات فيها ، فإذا أمْسَيَا رجعا . فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا .

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان فقال لرسول الله : يابن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ !

قال : أى عمّ ، هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم . أو كما قال صلى الله عليه وسلم . بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أىْ عمّ أحقُّ مَنْ بذلتُ له النصيحة ودعوته إلى الهُدَى ، وأحقُّ من أجابنى إليه وأعاننى عليه . أو كما قال .

فقال أبو طالب : أى ابنَ أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دينَ آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخْلَصُ إليك بشىء تكرهه ما بقيتُ .

وذكروا أنه قال لعلى : أى بنىّ ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟

فقال : ياأبتِ آمنت برسول الله وصدقت بما جاء به وصليت معه لله واتبعته .

فزعموا أنه قال له : أما إنه لم يَدْعُكَ إلا إلى خير فالْزَمْه .

[إسلام زيد بن حارثة]

قال ابن إسحاق : ثم أسْلَمَ زيدُ بن حارثة الكَلْبى مَوْلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أولَ ذَكَر أسلم وصلّى بعد على بن أبى طالب .

وعن غير ابن إسحق أن زيدا أصابه فى الجاهلية سِباء[1] فاشتراه حكيم ابن حِزَام لعمته خديجة بنت خويلد ، وقيل بل وَهَبه لها ، فوهَبَته خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبنَّاه ، وذلك قبل أن يوحَى إليه ، وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعا شديداً و بكى عليه حين فقده ، فقال :

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فَعَـلْ
أحىٌّ فيُرْجَى أم أتَى دونَه الأجَلْ

فوالله ما أدرى وإنى لسـائلٌ
أغَالَكَ بَعْدِى السَّهْلُ أمْ غَالَكَ الجَبَلْ

ويالَيت شعرى هل لكَ الدهرَ أوبةٌ
فَحَسْبِى من الدنيا رجوعُك لى بَجَلْ[2]

تُذَكِّرُنِيه الشمسُ عنـدَ طلوعها
وتَعْرِضُ ذكراهُ إذا قَرْنُها أفَلْ[3]

وإنْ هَبَّتِ الأرواحُ[4] هَيَّجْنَ ذِكْرَه
فيـا طولَ ما حُزْنى عليه وما وَجَلْ

سأُعمِلُ نَصَّ العِيسِ[5] فى الأرض جاهداً
ولا أسْـأمُ التَّطْوافَ أو تسأمَ الإبِلْ

---

(١) السباء : الأسر .
(٢) بجل : حسبي .
(٣) ط وابن هشام : «إذا غربها أفل» وما أثبته من المطبوعة .
(٤) الأرواح : جمع ريح .
(٥) نص العيس : أرفع سيرها .

حيـــاتِىَ أو تأتى علىّ مَنِيَّتِى

فـكلُّ امرئٍ فانٍ وإن غرّه الأجَلُ

ثم إن أناسا من كَلْب حجُّوا فرأوا زيدا فعرفهم وعرفوه ، فأعلَموا أباه ووصفوا له موضعه وعند مَن هو .

فخرج أبوه حارثةُ وعمه كعب ابنا شراحيل لفدائه .

وقدما مكة فسألا عن النبى صلى الله عليه وسلم فدخلا عليه فقالا : يابن عبد المطلب بن هاشم يا بن سيد قومه ، أنتم أهل حَرَم الله وجيرانُه تفكُّون العانىَ وتُطْعمون الأسير ، جئناك فى ابننا عَبْدِك ، فامنُنْ علينا وأحسِن إلينا فى فدائه .

قال : من هو ؟ قالا : زيد بن حارثة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلاَّ غير ذلك ؟ قالا : ما هو ؟

قال : أدعوه فأخيرّه ، فإن اختاركم فهو لـكم ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على مَن اختارنى أحداً . قالا : قد زِدْتنا على النَّصَف وأحسنتَ .

فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هذا ؟ قال : أبى وهذا عمى . قال : فأنا من قد علمتَ ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما .

قال زيد : ما أنا بالذى اختار عليك أحداً ، أنت منى مكانَ الأب والعم !

فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك !

قال : نعم ، قد رأيتُ مِنْ هـذا الرجل شيئًا ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً .

فلما رأى ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أخرجه إلى الحِجْر فقال : يا من حضر ، اشهدوا أن زيدا ابنى يَرِثنى وأرثه . فلما سمع ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما ، فانصرفا .

ودُعى : زَيْدَ بنَ محمد ، حتى جاء الله بالإسلام فنزلت : « ادعوهم لآبائهم هو أقْسَط عند الله(١) » فدعى من يومئذ زيد بن حارثة .

[إسلام أبى بكر]

قال ابن إسحاق : ثم أسلم أبو بكر بن أبى قُحافة رضى الله عنه ، واسمه عَتِيق ، وقيل : عبد الله ، وعتيق لقبٌ ، لحسن وجهه وعتقه ، فيما قال ابن هشام .

واسم أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة ابن كعب بن لُؤىّ .

فلما أسلم أظهر إسلامَه ودعا إلى الله وإلى رسوله .

وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلا مُؤَلَفًا لقومه محبَّبا سهلا ، وكان أنسَبَ قريش لقريش وأعْلَمَ قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ذا خُلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته .

---

(١) سورة الأحزاب .

فجعل يدعو إلى الله والإســلام مَن وَثِق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه .

فأسلم بدعائه ، فيما بلغني ، عثمانُ بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، والزبير بن العوام بن خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَي ، وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث ابن زُهرة بن كلاب ، وسعد بن أبي وقاص ، مالك بن أُهَيب ، بن عبد مناف ابن زُهرة ، وطلحة بن عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيْم ابن مُرّة .

فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حــين استجابوا له فأسلموا وصلوا .

فـكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما بلغني : ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كَبْوةٌ ونَظَرٌ وتردُّد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قُحافة ، ما عكم(١) عنه حين ذكرتُه له وما تردّد فيه .

قال : فـكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا وصدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من الله .

***

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجرّاح بن هلال بن أُهَيب بن ضَبّة ابن الحارث بن فِهْر .

---

(١) عكم : تحول

وأبو سَلَمة عبدُ الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

والأرقمُ بن أبي الأرقم بن أسد أبي جُنْدُب بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم .

وعثمان بن مَظْعون بن حبيب بن وهب بن حُذَافة بن جُمَح بن عمرو بن هُصَيْص ابن كعب بن لؤى .

وأخواه قُدَامة وعبد الله ابنا مظعون .

وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قُصَى .

وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العُزّى بن عبد الله بن قُرْط بن رياح ابنَ رِزاح بن عَدِىّ بن كعب بن لؤى .

وامرأته فاطمة بنت عمه الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب .

وأسماء بنت أبي بكر الصديق .

وعائشة بنت أبي بكر الصديق وهى يومئذ صغيرة .

وخبّاب بن الأرَتّ حليف بنى زُهْرة .

وعُمَير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص .

وعبد الله بن مسعود الهذَلى حليفُ بنى زهرة .

وجماعة سوى هؤلاء سماهم ابن إسحق .

قال : ثم دخل الناس فى الإسلام أرْسالاً من الرجال والنساء ، حتى فَشَا ذِكْرُ الإسلام بمكة وتُحدِّث به .

[الجهر بالدعوة]

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله أن يَصْدَع بما جاءه منه وأن يُبَادِىَ الناسَ

بأمره وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أَخْفَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمرَه واستَتَرَ به إلى أن أمره الله بإظهاره ثلاثَ سنين ، فيما بلغنى ، من مبعثه .

ثم قال له الله : « فاصْدَع بما تُؤْمرُ وأعْرِضْ عَنِ المُشْرِكين(١) » .

ثم قال : « وأنْذِرْ عشيرَتَك الأقربين ، واخْفِضْ جَنَاحَك لِمَنِ اتَّبَعك مِنَ المُؤْمِنين(٢) » « وقُلْ إنى أنا النَّذِيرُ المبين(٣) » .

قال : وكان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صَلوا ذهبوا فى الشِّعَاب واستَخْفَوْا بصلاتهم من قومهم ، فبَيْنَا سعدُ بن أبى وقاص فى نَفَر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شِعْب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم ناسٌ من المشركين وهم يصلون ، فناكَرُوهم وعابُوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلوهم ، فضرب سعدُ بن أبى وقاص يومئذٍ رجلاً من المشركين بلَحْىِ بعير فشجَّه .

فكان أولَ دم هُرِيق فى الإسلام .

فلما بادَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدَع به كما أمره الله لم يَبْعُدْ منه قومُهُ ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها .

فلما فعل ذلك أعْظَمُوه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من عصم اللهُ منهم بالإسلام ، وهم قليل مُسْتَخْفُون .

وحَدِب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه

---

(١) سورة الحجر ٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ١١٤ ، ١١٥

(٣) سورة الحجر :٨٩

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مُظْهِرا له[1] ، لا يرده عنه شيء .

[بين قريش وأبى طالب]

فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُعْتِبُهم من شيء أنكروه عليه ، من فراقهم وعَيْب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَدِب عليه وقام دونه فلم يُسْلمه لهم ، مشى رجال من أشرافهم إلى أبى طالب ، عُتْبة وشَيْبة ابنا ربيعة بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب ، وأبو البَخْتَرى بن هشام بن الحارث ابن أسد بن عبد العزى بن قُصَىّ ، والأسْوَد بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة ، ونُبَيْه ومُنبِّه ابنا الحجاج ، والعاص بن وائل ، أو من مشى منهم .

فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلِّى بيننا وبينه ، فإنك على مثلِ ما نحنُ عليه مِن خلافه ، فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه .

ثم شَرِىَ[2] الأمر بينه وبينهم ، حتى تباعد الرجالُ وتضاغنوا ، وأكثرت

---

(١) ابن هشام : مظهرا لأمره .
(٢) شرى الأمر : اشتد .

قريش ذِكْرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها ، فتذامروا فيه وحضّ بعضهم بعضا عليه .

ثم إنهم مَشَوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سِنًّا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا مِنْ شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، حتى تكُفّه عنا أو نُنَازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . أو كما قالوا .

ثم انصرفوا عنه ، فعَظُم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم ، ولم يطِبْ نفسا بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خذلانه .

وذُكر أنَّ أبا طالب حين قالت له قريش هذه المقالة بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال له : يابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، للذي قالوا له فأبْقِ عليّ وعلى نفسك ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بَدَا لعمه فيه بَدَاء ، وأنه خاذِله ومُسْلِمه ، وأنه قد ضَعُف عن نصرته والقيام معه ، فقال له : والله يا عمّ لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهْلِك فيه ، ما تركتُه !

ثم استَعْبرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى !

ثم قام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخي . فأقبل عليه ، فقال: اذهب يا بن أخي فقُل ما أحببتَ ، فو الله لا أسْلمك لشيء أبدا .

* * *

ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإسلامه، [وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم[1]] مشوا إليه بعمارة بن الوليد ابن المغيرة، فقالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهَدُ فتى فى قريش وأجمله، فخُذْه فلكَ عَقْلُه ونَصْرُه واتخِذْه ولدا، وأسْلِم إلينا ابنَ أخيك هذا الذى خالف دينك ودينَ آبائك وفرّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل كرجل.

قال : والله لبئس ما تَسُومونني ! أتعطونني ابنكم أغْذُوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ! هذا والله ما يكون أبدا.

فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا.

فقال له أبو طالب : والله ما أنصفونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ، فاصنع ما بدا لك. أو كما قال.

فحقب[2] الأمر وحميت الحرب وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضا.

[إيذاء النبى والمسلمين]

قال : ثم إن قريشا تذامروا بينهم على مَن فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلَموا معه.

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم.

---

(١) من ابن هشام (٢) حقب : اشتد.

ومَنَع الله تبارك وتعالى رسولَه منهم بعمه أبى طالب ، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم و بنى المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه مِن مَنْع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، إلا ما كان من أبى لهب .

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه من جِدهم(١) وحَدَبهم عليه جعل يمدحهم و يذكر قديمهم وفَضْلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم وليَحْدِبوا معه إلى أمره ، فقال :

إذا اجتمعت يوماً قريشٌ لِمَفْخَرٍ
فعبدُ منافٍ سِرُّها وصميمُها

فإن حُصِّلت أشرافُ عَبْدِ منافها
ففى هاشمٍ أشرافُها وقديمُها

وإن فَخَرَتْ يوما فإن محمداً
هو المصطفى مِنْ سِرِّها وكريمُها

تداعت قريشاً غَثُّها وسمينها
علينا فلم تظفر وطاشت حُلُومها

وكنا قديما لا نُقِرُّ ظلامةً
إذا ما ثَنَوْا صُعْرَ الخدود نُقِيمها

ونَحْمِى حِماها كلَّ يومِ كريهةٍ
ونضرب عن أجحارها(٢) من يرومها

(١) ابن هشام : فى جهدهم معه .
(٢) المطبوعة : أحجارها .

بدا انتعش العودُ الذَّوِىُّ وإنما
بأكنافنا تَنْدَى وتَنْمِى أُرُومُها

[الوليد بن المغيرة]

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع عليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسمُ ، فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم ، وإن وفودَ العرب ستَقْدُم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأَجمِعوا فيه رأيا واحداً ولا تختلفوا فيكذِّبَ بعضكم بعضا ويردَّ قولكم بعضه بعضا .

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول فيه(١) .

قال : بل أنتم فقولوا أَسْمَع . قالوا : نقول : كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكُهّان فما هو بزَمْزَمة الكاهن ولا سَجْعِه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : وما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخَنْقه ولا تَخالُجِه ولا وَسْوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعرَ كله رَجَزه وهَزَجه وقَرِيضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قالوا : فنقول ساحر . قال: ما هو بساحر، قد رأينا السُّحَّار وسحرهم، فما هو بنَفْثه ولا عَقْده(٢) .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحَلاوة وإن أصله لَعَذِقٌ وإن فرعه لجَناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأَنْ تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سِحر يفرِّق به بين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته .

---

(١) ابن هشام : به وهو خطأ .
(٢) ابن هشام : بنفثهم ولاعقدهم .

فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها .

[قصيدة أبى طالب]

فلما خشى أبو طالب دَهْماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التى يعوذ[1] فيها بحرَم مكة و بمكانه منها ، وتودّد فيها أشرافَ قومه ، وهو على ذلك يخبرهم وغيرَهم فى ذلك من شعره أنه غير مُسْلِمٍ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ولا تاركه لشىء أبداً حتى يهلك دونه . وأولها .

لمّــا رأيتُ القومَ لا وُدَّ فيهمُ
وقد قطعوا كلَّ العُرَى والوسائلِ

وقد صارحــونا بالعــداوة والأذى
وقد طاوعوا أمرَ العدوِّ المزايلِ

وقد حالفوا قوماً علينــــا أظِنَّةً
يَعَضّــــون غيظاً خلفنا بالأناملِ

صبرتُ لهــــم نفسى بسمراء سَمْحةٍ
وأبيض عَضْبٍ من تراثِ المَقاوِلِ

وأحضرتُ[2] عند البيتِ رَهْطِى وإخوتى
وأمسكتُ من أثوابه بالوصـــائلِ

(١) المطبوعة : تعوذ (٢) المطبوعة : وأحظرت . وهو خطأ .

قياماً مَعاً مستقبلين رِتاجــــه
لدى حيث يَقْضِي حَلْفَه كلُّ نافِلِ

وحيث يُنِيخ الأشعرون ركابَهم
بُمفْضَى السيولِ من إسافٍ ونائلِ

موسَّمةُ الأعضـــاء أو قَصَرَاتِها
مخيَّســةٌ بين السَّديس وبازل(١)

ترى الوَدْع فيها والرُّخامَ وزينةً
بأعناقهـــا معقــودةً كالعثاكلِ(٢)

أعوذ بربِّ الناس مِن كل طاعنٍ
علينـــا بسوء أو ملحٍّ بباطلِ

ومِنْ كاشِــحٍ يسعى لنــا بمَعيبةٍ
ومن مُلْحِقٍ فى الدِّين ما لم نُحاولِ

وثَوْرٍ ومن أرْسَى ثَبِيراً مكانه
وراقٍ لــــيَرْقَى فى حراء ونازلِ

وبالبيت ، حقِّ البيت ، من بطن مكة
وبالله إن الله ليس بغـــافلِ

وبالحجر الْمُسْــوَدّ(٣) إذ يَمْسَحُونه
إذا اكتنفـــوه بالضحى والأصائلِ

---

(١) موسمة: معلمة . والقصرات جمع قصرة وهى أصل العنق . والمخيسة المذللة . السديس من الإبل : الذى دخل فى الثامنة ، والبازل : الذى خرج نابه وذلك لتسع سنين .
(٢) العثاكل : الأغصان التى تنبت عليها الثمار .
(٣) الأصل : الأسود ، وما أثبته من ابن هشام .

وَمَوْطِئُ إبراهيمَ في الصخر وطأةً[1]
على قدميه حافيًا غيرَ ناعلِ

وأشواطِ بَيْنَ المَرْوَتَيْنِ إلى الصَّفَا
وما فيهما من صورةٍ وتماثِلِ[2]

ومَنْ حَجَّ بيتَ اللهِ من كل راكبٍ
ومِنْ كلِّ ذي نَذْرٍ ومن كل راجلِ

وبالمشعَرِ الأقصى إذا عَمَدوا له
إلالِ إلى مُفْضَى الشِّراج القَوَابِلِ[3]

وتَوْقافهم فوق الجبال عشيةً
يقيمون بالأيدي صدورَ الرواحلِ

وليلةِ جَمْعٍ والمنازل من مِنًى
وهل فوقها من حرمةٍ ومنازلِ

وجَمْعٍ إذا ما المقربات أجَزْنَه
سراعا كما يخرجن مِنْ وَقْعِ وابلِ

وبالجمرة الكبرى إذا صمدوا لها
يَؤُمُّون قذفًا رأسها بالجنادل

وكِنْدَة إذ هم بالحصاب عشية
تجيز بهم حجاجُ بكرِ بن وائل

(١) ابن هشام رضية .
(٢) من ابن هشام .
(٣) إلال جبل بعرفة معروف. والشراج القوابل مسايل الماء المتقابلة .

حليفان شـدّا عقْدَ ما اختلفا له
وردًا عليـه عاطفاتِ الوسـائلِ

وحَطْمِهِمُ سُمْـرَ الصِّفاح وسَرْحَه
وشِبْرَقه وَخْـدَ النَّعام الجوافلِ (١)

فهل بَعْدَ هـذا من مَعاذٍ لعائذٍ
وهل من مُعِيذٍ يتّقى الله عادلِ (٢)

يطاع بنا العِدّى (٣) وودوا لو أننا
تُسَدُّ بنـا أبوابُ تُرْكٍ وكابُلِ

كذبتم وبيتِ الله نترك مكةً
ونظعن إلا أمركم فى بلابلِ

كذبتم وبيتِ الله نُبْزَى (٤) محمداً
ولمّا نطاعِن دونه ونُناضِـل

ونُسْلمه حـتى نُصَرَّع حوله
ونَذْهـل عن أبنائنا والحلائلِ

وتنهض قومٌ فى الحـديد إليكمُ
نهوضَ الروايا تحت ذات الصَّلاصِلِ (٥)

---

(١) الصفاح : جمع صفح ، وهو عرض الجبل ، والسمر : شجر الطلح ، أصله بضم الميم فسكنت للضرورة ، والسرح نوع من الشجر ، والشبرق : نبات ، والوخد : السير السريع . والنعام الجوافل : المسرعة .

(٢) ابن هشام : عاذل .

(٣) العدى : جمع عاد كغاز وغزى . (٤) نبزى : نسلب . وفى الروض الأنف : نبذى ، محزمة

(٥) الروايا : الإبل التى تحمل الماء والصلاصل : المزادات التى تصلصل بالماء ، / /

وحتى نرى ذا الضِّغْن يركب رَدْعَه
من الطعن فعلَ الأنكبِ المتحاملِ

وإنّا لعمرو الله إنْ جَـدَّ ما أرى
لتَلْتَبِسَنْ أسيافنـا بالأماثـلِ

بكفَّىْ فتًى مثل الشهاب سَمَيْذَعٍ (١)
أخى ثقةٍ حامى الحقيقة باسـلِ

وما تَرْكُ قومٍ لا أبالك سـيداً
يحوط الذمارَ غير ذَرْبٍ مواكلِ

وأبيـض يُستَسقَى الغمام بوجهه
ثمـالُ اليتامى عِصْمةٌ للأراملِ

يلوذ به الهُـلّاكُ من آل هاشمٍ
فهم عنـده فى رحمةٍ وفواضلِ

جزى الله عنا عبدَ شمسٍ ونوفلاً
عقـوبةَ شرٍّ عاجلاً غير آجـلِ

بميـزان قسطٍ لا يُخِسُّ شعـيرةً
له شاهـدٌ من نفسه غـيرُ عائلِ

لقد سَفِهَتْ أحـلامُ قومٍ تبدّلوا
بنى خَلَفٍ قيضاً بنـا والغياطلِ (٢)

(١) السميدع : السيد .
(٢) الغياطل : بنو سهم لأن أمهم الغيطلة . وقيضا : عوضا .

ونحنُ الصميمُ من ذؤابة هاشمٍ
وآل قصيٍّ في الخطــوب الأوائل

وسهمٌ ومخــزومٌ تمالوا وألّبوا
علينا العِــدَى من كل طِمْلٍ وخاملِ[1]

فعبدَ منافٍ أنتمُ خــير قومكم
فلا تُشرِكوا في أمركم كلَّ واغــلِ[2]

لعمرى لقــد وَهَنْتُمُ وعجــزتمُ
وجئتمُ بأمــر مُخطِىءٍ للمَفاصــلِ

فإن تكُ قومًا نَتَّــئِرْ ما صنعتمُ
وتحتلبوها لِقْحَــةً غير باهــلِ[3]

فأبلغْ قصيًّا أن سَيُنْشَر أمرُنا
وبشِّر قُصَيًّا بعــدنا بالتخاذلِ

ولو طرقَتْ ليــلاً قصيًّا عظيمةٌ
إذا ما لجأنا دونهــم في المداخــلِ

ولو صدقوا ضربًا خــلالَ بيوتهم
لكنا أُسَى[4] عندَ النساء المطافلِ

---

(١) الطمل : الفاحش ، وهو اللص أيضاً .

(٢) الواغل : المتطفل الدخيل .

(٣) نتئر : نثأر ، واللقحة : الناقة ذات اللبن . والباهــل : الناقة التى لا صرار على أخلافها فهى مباحة الحلب .

(٤) الأسى : جمع أسوة .

فإنْ تَكُ كعبٌ من لؤيٍّ صُقَيْبةً[(١)]
فلا بُدَّ يوماً مرةً مِنْ تَزَايُلِ
فكلُّ صديقٍ وابن أختٍ نَعُدُّه
لَعَمْرِي وَجَدْنا غِبَّه غيرَ طائلِ
سوى أنَّ رَهْطاً من كلابِ ابن مُرَّةٍ
بَرَاءٌ إليْنا من مَعَقَّةِ خاذلِ
ونعم ابنُ أختِ القوم غير مكذَّب
زهيرٌ حُساماً مُفرداً مِنْ حمائلِ
أشمُّ من الشُّمِّ البَهَالِيلِ يَنْتَمِى
إلى حَسَبٍ فى حَوْمة المجدِ فاضلِ
لَعَمْرِى لقد كُلِّفْتُ وَجْداً بأحمدٍ
وإخوته[(٢)] دأبَ المحبِّ المواصلِ
فلا زال فى الدنيا جمالا لأهلها
وزَيْناً لمن والاه ربُّ[(٣)] المشاكلِ
فمن مِثْلُهُ فى الناس أىُّ مؤمَّل
إذا قاسه الحكامُ عند التفاضلِ
حكيمٌ[(٤)] رشيدٌ عادلٌ غير طائشٍ
يوالى إلهاً ليس عنه بغافلِ

---

(١) أى قريبة .
(٢) لم يكن للرسول إخوة مما يبين صنعة هذا الشعر .
(٣) المطبوعة : ذب
(٤) المطبوعة : حكيم .

فأيّده ربُّ العبادِ بنصره
وأظهر ديناً حقُّه غير باطلِ[1]

فوالله لولا أن أجيء بسُبَّةٍ
تُجَرُّ على أشياخنا في القبائل

لكُنّا اتَّبعْناه على كل حالةٍ
من الدهر جِدًّا غيرَ قول التهازُل

لقد علموا أنَّ ابننا لا مُكذَّبٌ
لدَيْنا ولا يُعْنَى بقول الأباطل

فأصبح فينا أحمدٌ في أرُومةٍ
تُقصِّرُ عنها سَوْرة المتطاولِ

حَدِبتُ بنفسي دونه وحَمَيْته
ودافعت عنه بالذُّرى والكلاكلِ[2]

* * *

وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثر هذه القصيدة[3] .

قال : وحدثني من أثق به قال : أقحط أهل المدينة فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكوا إليه ذلك ، فصعد المنبر فاستسقى، فما لبث أن جاء من المطر ما أتاه أهلُ الضواحي يَشْكون منه الغرقَ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم حوالينا ولا علينا » .

(١) المطبوعة : غير فاصل .
(٢) الكلاكل : عظام الصدر . وترتيب القصيدة هنا مخالف لترتيب ابن هشام .
(٣) ويظهر عليه أيضا ركاكة الصنم .

فانجاب السحابُ عن المدينة ، فصار حواليها كالإكليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أدْرَكَ أبو طالب هذا اليوم لسرَّه » فقال له بعضُ أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قولَه :

وأبيضَ يُستَسْقَى الغمامُ بوجهه
ثِمالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ

قال : أجَلْ .

[قصيدة أبي قيس بن الأسلت]

قال ابن إسحق : فلما انتشرَ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرب وبلغ البلدان ، ذُكِرَ بالمدينة ، ولم يك حيٌّ من العرب أعلمَ برسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذُكر وقَبْل أن يُذكر من الأوس والخزرج ، وذلك لِمَا كانوا يسمعون من أخبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ومعهم في بلادهم .

فلما وقع ذِكرهُ بالمدينة وتحدَّثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف ، قال أبو قيس بن الأسلت الأوسِي ، وكان يحب قريشاً وكان يقيم فيهم السنينَ بامرأته أرنب بنت أسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَى ، قصيدةً يعظِّم فيها الحُرْمةَ وينهى قريشاً عن الحرب ويَذْكر فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذكِّرهم بلاء الله عندهم ودفعه الفيل عنهم فقال :

يا راكبا إمَّا عَرَضْتَ فبلِّغَنْ
مُغَلْغَلَةً[1] عنى لُؤىَّ بن غالبِ

---

(١) المغلغلة: الداخلة إلى أقصى مايراد بلوغه منها.

رسول امرئٍ قد راعه ذاتُ بَينكم
على النَّأْيِ محزونٍ بذلك ناصبِ

وقد كان عندى للهموم مُعَرَّسٌ
ولم أقضِ[1] منها حاجتى ومآربى

أعيذُكمُ بالله من شر صُنْعِكم
وشرِّ تَبَاغِيكم ودَسِّ العقاربِ

وإظهار أخلاقٍ ونَجْوَى سقيمةٍ
كوَخْز الأشافى وَقْعُها حقٌّ صائبِ[2]

فذكّرهم بالله أولَ وَهْلةٍ
وإحلالِ إحرامِ الظِّباء الشوازبِ[3]

وقل لهمُ واللهُ يحكمُ حُكْمَه
ذَرُوا الحربَ تذهبْ عنكمُ فى المراحبِ

متى تَبْعَثوها تبعثوها ذميمةً
هى الغُول للأقصَيْن أو للأقاربِ

تُقَطِّع أرحاما وتُهْلك أمةً
وتَبْرِى السَّدِيفَ مِنْ سَنَامٍ وغاربِ[4]

فإياكمُ والحربَ لا تَعْلَقَنَّكمْ
وحَوْضاً وَخِيمَ الماء مُرَّ المشاربِ

(١) ابن هشام : فلم أقض .
(٢) الأشافى : جمع إشفى ، وهى المثقب والمراد يخرز به .
(٣) الشوارب : الضامرة التى تأتى من بعد لتأمن فيه ، فهى شازبة أى ضامرة من بعد المسافة ، وفى المطبوعة : الهوادب .
(٤) السديف : لحم الظهر .

تُزَيِّنُ للأقوام ثُمَّ يَرَوْنَهـــا
بعاقبـــةٍ إذ بَيَّنَتْ أُمَّ صاحبِ[1]

تُحَرِّق لا تَشْوِى[2] ضعيفا وتَنْتَحِى
ذرى العِزِّ منكم بالحتوفِ الصوائبِ

ألم تعلموا ما كان فى حَرْبِ داحسٍ
فتعتبروا ، أو كان فى حرب حاطبِ ؟ ![3]

وكم قد أصابت من شريفٍ مُسَوَّدٍ
طويل العماد ضَيْفُهُ غـــيرُ خائبِ

وماء هُرِيقَ فى الضـــــــلالِ كأنما
أذاعت به ريحُ الصَّبَا والجنائبِ

يخبِّركُمْ عنهـــا امرؤٌ حقٌّ عالمٍ
بأيامها والعـــــــلمُ علمُ التجاربِ

---

(١) أم صاحب : أى عجوزا كأم صاحب لك .

(٢) لا تشوى : لا تخطىء .

(٣) داحس فرس كان لقيس بن زهير بن جذيمة بن عبس بن بغيض أجراه مع فرس لحذيفة ابن بدر بن عمرو بن زيد بن ذبيان بن بغيض يقال لها الغبراء ، فدس حذيفة قوما وأمرهم أن يضربوا وجه داحس إن رأوه قد جاء سابقا ، فجاء داحس سابقا فضربوا وجهه ، وجاءت الغبراء ، فلما جاء فارس داحس أخبر قيسا الخبر ، فوثب أخوه مالك بن زهير فلطم وجه الغبراء ، فقام حمل بن بدر فلطم مالكا . فوقعت الحرب بين عبس وفزارة .

وأما حرب حاطب ، فهو حاطب بن الحارث بن قيس . بن عمرو بن عوف بن مالك ابن الأوس ، كان قتل يهوديا جارا للخزرج ، فوقعت الحرب بين الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالا شديدا .

فبيعوا الحرابَ مِلْمُحارِبِ واذكروا
حسابَكمُ واللهُ خـــيرُ مُحاسِبِ
ولىُّ امرئٍ فاختار[1] دِيناً فلا يكن
عليكم رقيبا غـــيرُ ربٌّ الثواقبِ
أقيموا لنـــا دِيناً حنيفاً فأنتمُ
لنا غايةٌ ، قد يُهتـــدى بالذوائبِ
وأنتمْ لهـــذا الناس نورٌ وعصمةٌ
تُؤَمُّون والأحلامُ غـــيرُ عوازبِ
تصونون أجساداً كراماً عتيقةً
مهذَّبةَ الأنساب غـــير أشائبِ[2]
ترى طالبِ الحاجاتِ نحوَ بيوتكم
عصائبَ هَلْكَى تهتـــدى بعصائبِ
لقـــد علم الأقوامُ أنَّ سَرَاتكم
على كل حالٍ خـــيرُ أهل الجَباجِبِ[3]
فقوموا فَصَـــلّوا رَبَّكم وتمسَّحوا
بأركان هذا البيت بين الأخاشبِ[4]
فعندكمُ منه بلاءٌ ومَصْـــدَقٌ
غداةَ أبى يَكْسُومَ هادى الكتائبِ

---

(١) الفاء هنا زائدة (٢) غير مختلطة .
(٣) الجباجب : جبال مكة .
(٤) صلوا : دعوا .

كتيبته بالسهل تُمْشى ورَجْــلُه
على القاذفات فى رءوس المَناقبِ

فلما أتاكم نصرُ ذى العرشِ ردَّهم
جنودُ إلهِ بين ســـافٍ وحاصبِ

فولّوا سراعاً هاربين ولم يَؤُبْ
إلى قومه مِلْحُبْش غـــيرُ عَصائبِ

فإن تهلـكوا نهلكْ وتهلكْ عصائبٌ[1]
يُعاش بها ، قولُ امرئٍ غيرِ كاذبِ

***

[من أذى قريش]

ثم إن قريشا اشتد أمرهم ، للشقاء الذى أصابهم ، فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن أسلم معه منهم .

فأغْرَوْا برسول الله سفهاءهم فـكذبوه وآذوه ورمَوْه بالشِّعر والسحر والـكهانة والجنون .

ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مظهرٌ لأمر الله لا يستخفى به ، مُبادٍ لهم بما يكرهون من عَيْب دِينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم .

فحدَّث عروة بن الزبير أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : ما أكثرُ ما رأيتَ قريشا أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرونه من عداوته ؟

---

(١) كذا فى وفى ابن هشام : مواسم .

قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحِجْر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثلَ ما صَبَرْنا عليه من أمر هذا الرجل قط ! سفّه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرّق جماعتنا وسبّ آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم . أو كما قالوا .

فبينا هم فى ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفا بالبيت ، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول .

قال : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ؟ ! والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذّبح[1] . قال : فأخذت القوم كلمتُه حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه وَصاةً[2] قبل ذلك ليرفؤه[3] بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنتَ جهولا .

قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحِجْر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه !

فبينا هم فى ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل

---

(١) أى بالهلاك والقتل إن عصيتم وكذبتم .

(٢) الوصاة : الوصية ، وفى المطبوعة : وساطا .

(٣) يرفؤه : يسكنه .

واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ، للذى يقول[1] من عَيْب آلهتهم . فيقول رسول الله : نعم أنا الذى أقول ذلك .

فلقد رأيتُ رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقولَ ربِّى الله ! !

ثم انصرفوا عنه .

فإن ذلك لأشد ما رأيتُ قريشا نالوا منه قط .

---

(١) ابن هشام : لمـا كان يقول .

ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب

قال ابن إسحاق : وحدثني رجل من أسلم ، كان واعية ، أن أبا جهل مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ونال[1] منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومولاةٌ لعبد الله بن جُدْعان في مسكن لها تسمع ذلك .

ثم انصرف عنه فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشّحا سيفَه راجعا من قَنَص[2] له ، وكان صاحب قَنَص يرميه ويخْرج له ، وكان إذا رجع من قَنَصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على نادٍ من قريش إلا وقف وسلّم وتحدث معهم ، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدّه[3] شكيمة .

فلما مرّ بالمولاة ، وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته قالت له : يا أبا عُمارة لو رأيتَ ما لقي ابنُ أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام ! وجَده هاهنا جالسا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فاحتمل حمزةَ الغضبُ ، لِمَا أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى لم يقف على

---

(١) المطبوعة : قال . وهو خطأ .

(٢) القنص : الصيد .

(٣) ابن هشام : وأشد .

أحد ، معدًّا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع[1] به .

فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا فى القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوسَ فضربه بها فشجَّه شجةً منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا[2] على دينه أقول كما يقول ، فرُدَّ ذلك علىَّ إن استطعت .

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عُمارة ، فإنى والله قد سَبَبْت ابنَ أخيه سبًّا قبيحا .

وتمَّ حمزةُ على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسولَ الله من قوله .

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزَّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

[عتبة بن ربيعة يفاوض الرسول]

وعن محمد بن كعب القُرَظى قال : حدِّثت أن عُتبة بن ربيعة ، وكان سيدا ، قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ، والنبى صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلِّمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيَّها شاء ويكفُّ عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويَكثرون .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلِّمه .

---

(١) المطبوعة : أن يقع .

(٢) المطبوعة : فأنا .

فقام عُتْبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة[1] فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقتَ به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم ، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرضْ عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منا بعضها .

فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد مُلْكا ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رِئيًا لا تراه ولا تستطيع ردّه من نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه من أموالنا حتى نُبْرِئك منه ، فإنه ربما غَلب التابع على الرجل حتى يداوَى منه . أو كما قال له .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى . قال : أفعل .

قال : « بسم الله الرحمن الرحيم حم ، تنزيلٌ من الرحمن الرحيم . كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قرآنًا عَرَبيًّا لقومٍ يَعْلَمون . بَشِيراً ونَذِيراً فأعْرَضَ أكثرُهم فهُمْ لا يَسْمَعُون . وقالوا قلوبنا فى أكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إليه وفى آذاننا وَقْرٌ ومن بيننا وبينك حِجابٌ ، فاعمل إننا عاملون »[2] .

---

(١) السطة : الشرف .

(٢) سورة فصلت ١ — ٤ .

ومضى[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبةُ أنصت لها وألقى يديه خلفَ ظَهره معتمدا عليها يستمع منه ، ثم انتهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ فأنت وذاك .

فقام عُتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعتُ قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشِّعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، خَلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعتُ نبأ ، فإن تُصِبْه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فمُلْكه ملككم وعزُّه عزكم وكنتم أسعدَ الناس به .

قالوا : سَحَرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بَدَا لكم .

[قريش تفاوض الرسول]

قال ابن إسحاق : ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريشٌ تَحْبِس من قَدَرت على حبسه وتَفْتِن من استطاعت فتنَتَه من المسلمين .

---

(١) ابن هشام : ثم مضى .

ثم إن أشراف قريش[1] من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا لمحمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعْذِروا فيه .

فبعثوا إليه فجاءهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بَدَاء ، وكان عليهم حريصاً يحب رُشْدهم ويَعِزُّ عليه عنتهم .

حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك ، لقد شتمت الآباء وعِبْتَ الدين وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة ، فما بقى أمرٌ قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له .

فإن كنت إنما جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت تريد مُلْكاً مَلّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه قد غلب عليك ، وكانوا يسمون التابع من الجن رَئِيًّا ، فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا فى طلب الطّب لك حتى نُبْرِئك منه أو نُعْذِر فيك .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون ، ما جئتُ بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرفَ فيكم ولا المُلْك عليكم ، ولكنّ الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالاتِ ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم

(١) ابن هشام : سماهم .

فى الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه علىّ أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بينى و بينكم .
أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابلٍ شيئاً مما عرضنا عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيقَ بلداً ولا أقلّ ماء ولا أشد عيشاً منّا ، فسَلْ لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسيِّر عنّا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليَبْسط لنا بلادَنا وليخرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا مَنْ مضى مِنْ آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قُصَىُّ بن كلاب ، فإنه [كان[1]] شيخَ صِدْق فنسألهم عما تقول : أحقٌّ هو أم باطل ، فإن صدقوك وصدقتَ ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا إلينا كما تقول .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بهذا بُعثتُ إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى و بينكم .

قالوا : فإذ لم تفعل هذا لنا فخُذْ لنفسك ، سَلْ ربك أن يبعث معك ملَكا يصدِّقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسَلْه فليجعل لك جِنَاناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً . أو كما قال .

---

(١) ط : فإنه شيخ صدق .

فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا : فَأَسْقِط السماء علينا كِسَفاً كما زعمت أنّ ربك إنْ شاء فَعَل ، فإنا لا نؤمن بك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل .

قالوا : يا محمد فما عَلِم ربُّك أنّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيُعَلِّمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به ؟

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد اعتذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك ، وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له : يا محمد عَرَض عليك قومُك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل . أو كما قال له . فوالله لا أومن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلّما

ثم ترْقَى فيه وأنا أنظر ، حتى تأتيها، ثم تأتى معك بصَكّة[1] أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك .

ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا آسِفًا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولِمَا رأى من مباعدتهم إياه .

* * *

فلما قام عنهم قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشَتْم آبائنا وتَسْفيه أحلامنا وشتم آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحَجَر ما أطيق حَمْلَه . أو كما قال .

فإذا سجد فى صلاته فَضَخْت به رأسه ، فأسْلِمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نسْلمك لشىء أبداً فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغَدَا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو ، وكان بمكة وقِبْلته إلى الشام ، فكان إذا صلَّى صلَّى بين الركنين الركن اليمانى والحَجَر الأسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل

---

(١) ابن هشام : ثم تأتى معك أربعة .

أبو جهل الحَجَر ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حَجَره حتى قذف الحجر من يده .

وقامت إليه رجال قريش فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرَض لى دونه فحلٌ من الإبل لا والله ما رأيت مثلَ هامته ولا قصَرَته(١) ، ولا أنيابه لفحل قط ، فهمَّ بى أن يأكلنى .

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذلك جبريل ، لو دنا لأخذه .

فلما قال ذلك لهم أبو جهل قام النَّضْر بن الحارث بن كَلَدة بن عَلْقَمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَى ، فقال : يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلةٍ بعدُ ، قد كان محمد فيكم غلاما حَدَثا أرضاكم فيكم وأصْدَقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدْغَيْه الشيبَ وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر . لا والله ما هو بساحر ، قد رأينا السحرة نَفْثَهم(٢) وعُقَدهم . وقلتم : كاهن . لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة تخالجهم(٣) وسمعنا سَجْعهم . وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هَزَجه ورجزه . وقلتم : مجنون . لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخَنْقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش انظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

---

(١) ابن هشام : ولا مثل قصرته ، والقصرة : أصل العنق .

(٢) ابن هشام : السحرة ونفثهم .

(٣) ابن هشام : وتخالجهم .

[وفد قريش إلى أحبار اليهود]

فلما قال لهم ذلك النَّضْر بن الحارث بعثوه و بعثوا معه عُقْبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود المدينة ، وقالوا لهما : سَلاَهم عن محمد وصِفَا لهم صفته وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهلُ التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا !

فقالت لهما أحبار يهود : سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مُرْسَل ، و إن لم يفعل فالرجل متقوِّل فَرَوْا فيه رأيكم .

سَلُوه عن فِتْية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه كان لهم حديث عجيب .

وسَلُوه عن رجل طَوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟

وسلوه عن الروح ما هو ؟

فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وإن لم يفعل فهو رجل مُتَقوِّل فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فأقبل النَّضْر بن الحارث وعُقْبة بن أبى مُعَيْط حتى قدما مكة ، فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفَصْلٍ ما بينكم و بين محمد .

أمرَنا أحبارُ يهود أن نسأله عن أشياء ،فإن أخبركم عنها فهو نبى، و إن لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فرَوْا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن تلك الأشياء فقال لهم : أخبركم بما سألتم عليه غدا . ولم يستثن .

فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمسة عشرة ليلة لا يُحْدِث الله إليه فى ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل ، حتى أرْجَف أهلُ مكة ، وقالوا : وعَدَنا محمد غداً ، واليومَ خمسَ عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشىء مما سألناه عنه . وحتى أحزن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحى عنه وشقَّ عليه ما يتكلم به أهل مكة .

ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبتُه إياه على حزنه عليهم وخبرُ ما سألوه عنه من أمْر الفتية[1] والرجل الطوّاف والروح .

فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل حين جاءه : لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤتُ ظنا . فقال له جبريل : « وما نتنزَّل إلا بأمر ربك له ما بَيْنَ أيدينا وما خَلْفَنا وما بَيْنَ ذلك وما كان ربك نَسِيًّا »[2] .

فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صِدْقَه فيما حدَّث وموْقِعَ نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه ، حال الحسَدُ منهم له بَيْنَهم و بين اتباعه وتصديقه ، فعتَوْا على الله وتركوا أمره عيانا ولَجُّوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تَغْلِبُون .

أى اجعلوه لغوا وباطلا واتخذوه هُزُوا لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه وخاصمتموه غلبكم .

---

(١) ابن هشام: من أمر الله الفتية ويبدو أن لفظ الجلالة مقحم هنا .

(٢) سورة مريم ٣١ .

فقال أبو جهل يوما وهو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق : يا معشر قريش ، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أعظم[1] الناس عددا وكثرة ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ !

فأنزل الله فى ذلك من قوله : « وما جَعَلْنَا أصحابَ النارِ إلا ملائكةً وما جَعَلْنَا عِدَّتهم إلا فتنةً للذين كفروا ، ليَسْتَيْقِنَ الذين أوتوا الكتابَ ويزداد الذين آمنوا إيمانا » إلى آخر القصة .

فلما قال ذلك بعضهم لبعض جعلوا إذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو يصلى يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له ، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى استرَق السمع دونهم فرَقًا منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته فظن الذى يستمع أنهم لا يسمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم أصاخ يستمع له[2] .

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه : إنما نزلت هذه الآية : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابْتَغِ بَيْنَ ذلك سبيلا » من أجل أولئك [النفر][3] يقول : لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ، ولا تخافت بها فلا يسمعها من يحب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم ، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به .

---

(١) ابن هشام : أكثر .

(٢) المطبوعة : أصاخ له يستمع منه . (٣) من ابن هشام .

[أول من جهر بالقرآن]

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبدُ الله ابن مسعود فيما حدَّث به عُرْوة بن الزبير قال :

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ما سمعت قريشٌ هذا القرآن يُجْهَر لها به قط ، فمن رجلٌ يُسْمِعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا . قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه . قال : دَعُونى فإن الله سيمنعنى .

قال : فغدا ابنُ مسعود رضى الله عنه حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم رافعاً بها صوته « الرحمنُ ، عَلَّمَ القرآن » قال: ثم استقبلها يقرؤها ،وتأملوه فجعلوا يقولون : ما قال ابنُ أمِّ عَبْدٍ ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعضَ ما جاء به محمد .

فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه وجعل يقرأ حتى بَلَغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثَّروا بوجهه . فقالوا : هذا الذى خشينا عليك فقال : ما كان أعداء الله أهْوَنَ علىَّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادِيَنَّهم بمثلها [غدا][1] قالوا : لا ، حَسْبُكَ ، قد أسمعتهم ما يكرهون .

[قريش تستمع إلى قراءة النبى]

وذكر الزهرى أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من

---

(١) من ابن هشام .

الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له ،حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً .

ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثلَ ما قالوا أول مرة .

ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال: أخبرنى يا أباحَنْظَلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذى حلفتَ به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ ! تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرفَ ، أطعَموا فأطعَمْنا ، وحَمَلوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذَيْنا[1] على الركب وكنا كفرسَى رهان قالوا : مِنّا نبىٌّ يأتيه الوحى من السماء ! !

---

(١) تجاذينا : أقعينا قال السهيلى : وقع فى الجمهرة : الجاذى : المقعى على قدميه .

فمتى ندرك هذه ؟ ! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

فقام عنه الأخنس وتركه .

***

قال ابن اسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يَهْزأون به : قلوبُنا فى أَكِنَّة لا نفقه ما تقول ، وفى آذاننا وَقْر لا نسمع ما تقول ، ومِنْ بيننا و بينك حِجاب قد حالَ بيننا و بينك ، فاعمل بما أنت عليه إنا عاملون بما نحن عليه ، إنا لا نَفقه عنك شيئاً .

فأنزل الله عليه فى ذلك من قولهم : « وإذا قرأتَ القرآنَ جَعَلْنا بينك وبَيْنَ الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مَسْتُوراً وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّةً أَنْ يَفقَهوه وفى آذانهم وَقْرًا ، وإذا ذَكَرْتَ ربَّكَ فى القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْا على أدبارهم نُفُوراً »[١] .

أى كيف فهموا توحيدَك ربَّك ، إنْ كنتُ جعلتُ على قلوبهم أكنَّة وفى آذانهم وقرا و بينك و بينهم حجاباً بزعمهم ؟ أى أنى لم أفعل .

« نحن أعْلَمُ بما يستمعون به إذ يستمعون إليك و إذ هُمْ نَجْوَى ، إذ يقول الظالمون إنْ تتَّبِعون إلا رَجُلاً مَسْحُوراً »[٢] .

أى ذلك ما تواصوا به مِنْ تَرْكِ ما بعثتك به إليهم .

« انْظُرْ كيف ضَرَبُوا لَكَ الأمثالَ فضَلُّوا فلا يَسْتَطِيعُون سَبِيلاً »[٣] .

---

(١) سورة الإسراء ، ٤٥ ٤٦ .

(٢و٣) سورة الإسراء : ٤٧و٤٨ .

أى أخطأوا المَثَلَ الذى ضربوا لك ، فلا يصيبون به هُدًى ولا يعتدل لهم(١) فيه قول .

« وقالوا : أئذا كُنَّا عِظَامًا ورُفَاتًا أئِنَّا لَمَبْعُوثون خَلْقًا جديداً »(٢) .

أى قد جئتَ تخبرنا أنا سنُبْعَث بعد موتنا إذا كنا عظامًا ورُفاتا وذلك ما لا يكون .

« قُلْ : كُونُوا حِجارةً أو حديداً . أو خَلْقًا مما يَكْبُرُ فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ؟ قل : الذى فَطَرَكم أولَ مَرَّة »(٣) .

أى الذى خَلَقكم مما تعرفون ، فليس خَلْقُكم مِن تراب بأعز من ذلك عليه .

وسئل ابن عباس رضى الله عنه عن قول الله عز وجل : « أو خَلْقًا مما يَكْبُرُ فى صدوركم » ما الذى أراد الله به ؟ فقال: الموت(٤) .

[عدوان قريش]

قال ابن إسحاق : ثم إنهم عَدَوْا على من أَسْلَمَ واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كلُّ قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرَمْضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، منهم من يفتتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يَصْلُبُ لهم ويعصمه الله منهم .

---

(١) المطبوعة : بهم .
(٢و٣) سورة الإسراء : ٤٩و٥٠و٥١
(٤) أى لو كنتم الموت الذى هو كبير فى صدوركم فلا بد لكم من الفناء . وهو تفسير غامض

فكان بلال بن رباح وهو ابن حَمَامة لبعض بنى جُمَح مُولَّدا من مولَّديهم ، وكان صادق الإسلام طاهرَ القلب ، فكان أمية بن خلف يخرجه إذا حَمِيَت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو فى ذلك البلاء : أَحَدٌ أَحَدٌ .

وكان ورقة بن نوفل يمرّ به وهو يعذّب بذلك وهو يقول : أَحَدٌ أَحَدٌ . فيقول : أَحَدٌ أحد والله يا بلال ! ثم يقبل على أمية ومن يصنع ذلك به من بنى جُمَح فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا .

أى : لأتخذن قبره مَنْسكاً[1] ومُسْتَرْحما ، والحنان : الرحمة[1] .

حتى مرّ به أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوماً وهم يصنعون ذلك به فقال لأمية : ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ !

قال : أنت الذى أفسدته فأنقِذْه . فقال أبو بكر : أفعلُ ، عندى غلام أسود أجْلَد منه وأقوَى ، على دِينك ، أعطيكه به . قال : قد قبلت . قال : هو لك .

فأعطاه أبو بكر ذلك ، وأخذ بلالا فأعتقه .

وأعتق معه على الإسلام قبل أن يُهاجر إلى المدينة ستّ رقبات ، بلال سابعهم .

عامر بن فُهَيرة ، وأم عُبيس ، وزِنِّيرة ، فأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت

---

(١) المطبوعة : سكنا . وهذا التفسير عن غير ابن هشام .

قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى . فقالت : كذبوا و بيت الله ، ما تضر اللاتُ والعزى ولا تنفعان . فردّ الله إليها بصرها .

وأعتق النّهدية وابنتها ، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار ، فمرّ بهما أبو بكر وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدا . فقال أبو بكر : حِلاًّ[1] يا أم فلان . فقالت : حلّ أنت أفسدتهما فأعتقهما . قال : فبِكَمْ هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما ، وهما حرّتان ، أرجعا إليها طحينها . قالتا : أوْ نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟ قال : أو[2] ذلك إن شئتما .

ومرّ بجارية بنى مؤمل[3] حى من بنى عدى ، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام ، وهو يومئذ مشرك ، فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

وقال له أبوه أبو قحافة : يا بنى أراك تعتق رقابا ضعافا فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جُلَداء يمنعونك ويقومون دونك ؟ فقال أبو بكر : يا أبت إنى إنما أريد ما أريد .

فيُتَحَدث : أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه وفيما قال أبوه : « فأمّا من أعطى وَاتَّقَى وصدّق بِالْحسْنَى فسنُيَسِّرُه لليُسْرَى »[4] إلى آخر السورة .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر و بأبيه وأمه ، وكانوا أهلَ بيت إسلامٍ ، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول فيما بلغنى : صبراً آل ياسر موعدكم الجنّة .

---

(١) أى تحللى من يمنك ، وفى ابن هشام : حل بالضم ، وما هنا أفصح .
(٢) ابن هشام : وذلك ، وما هنا أصح .
(٣) طا : بنى اوفل . (٤) سورة الليل .

فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام !

وكان أبو جهل الفاسق الذي يُغرى بهم ، في رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل له شرفٌ ومَنَعَةٌ قد أسلم أنَّبَه وأخزاه فقال : تركتَ دينَ أبيك وهو خيرٌ منك ! لنسفِّهن حِلْمَك ولَنُفَيِّلَنَّ(١) رأيك ولنضَعَنَّ شرفك . وإن كان تاجراً قال : والله لنكسِّدنَّ تجارتك ولنهلكن مالك . وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرَى به .

وقال سعيد بن جُبير لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يَبْلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يُعْذَرون به في تَرْكِ دينهم ؟

قال : نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له : اللاتُ والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجُعَل ليمر بهم فيقولون له : أهذا الجُعَل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء منهم مما يبلغون من جَهْده .

(١) أى لنخطئنه ونضللنه .

ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة

قال ابن إسحق : فلما رأى رسولُ الله صلى عليه وسلم ما يصيب أصحابَه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمّه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يُظلَم عنده أحد ، وهى أرضُ صِدق ، حتى يجعل الله لكم فرَجا مما أنتم فيه .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا بدينهم إلى الله .

فكانت أولَ هجرة كانت فى الإسلام .

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان مع امرأته رُقَيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عُتْبة بن ربيعة معه امرأته سَهْلة بنت سُهَيْل ، والزُّبَير بن العوّام ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومُصْعَب بن عُمَير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى معه امرأته أم سَلَمة ، وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جُمَح ، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب بن نفيل معه امرأته ليلى بنت أبى حَثْمة ، وسهل بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر ، وأبو سَبْرة بن أبى رُهْم ، ويقال : بل أبو حاطب ابن عمرو . ويقال : هو كان أول من قدمها .

وكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين ، ثم خرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة منهم من خرج بأهله ومنهم من خرج بنفسه .

فكان جميعُ من لحق بأرض الحبشة من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً أو ولدوا بها ، ثلاثةً وثمانين رجلا ، إن كان عمار بن ياسر فيهم ، وهو يُشَكُّ فيه .

[ماقيل من الشعر فى الحبشة]

وكان مما قيل من الشعر فى الحبشة أن عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدى ابن سعيد بن سهم ، حين أمنوا بأرض الحبشة وحَمِدوا جوار النجاشى ، وعبدوا اللهَ لا يخافون على ذلك أحداً قال :

يا راكباً بَلِّغَنْ عـــنِّى مُغَلْغَلَةً(١)
من كان يرجـــو بلاغَ اللهِ والدِّينِ
كلَّ امرىء مِنْ عِبادِ الله مُضْطَهدٍ
ببطنِ مكة مقهـــورٍ ومفتـــونِ
أنا وجـــدنا بلادَ اللهِ واسعـــةً
تُنْجِى من الذلِّ والمَخزاةِ والهُونِ
فلا تقيمـــوا على ذل الحياة وخِزْ
يٍ فى الممات وعَيْبٍ غيرِ مأمونِ
إنَّا تبِعْنا رســـولَ الله واطَّرحـــوا
قولَ النبىِّ وعالُوا(٢) فى المـــوازينِ

(١) أى رسالة .
(٢) عالوا : مالوا .

فاجعل عذابك بالقـــوم الذين بَغَوْا
وعائذًا بك أن يَعْـــلُوا فيُطْغونى

وقال عبد الله بن الحارث أيضاً يذكر نَفْيَ قريش إياهم من بلادهم ويعاتب بعض قومه فى ذلك :

أبَتْ كَبِدى لا أكْذِبَنْك قتالَهم
عـلىَّ وتأباه عـلىَّ أنامـــلى
وكيف قتــالى معشراً أدَّبوكمُ
على الحق ألاَّ تأشِبوه[1] بباطلِ
نَفتهم عِبادُ الجنِّ من حُرِّ أرضهم
فأضحَوا على أمرٍ شــديد البَلابِلِ
فإن تلكُ كانت فى عَـــدِىٍّ أمانةٌ
عـدىٌّ بن سعدٍ عن تُقًى أو تواصُلِ
فقد كنتُ أرجـــو أن ذلك فيكمُ
بحمدِ الذى لا يُطَّبَى بالجعـــائلِ[2]
وبُدِّلتُ شِبْلاً شِبْلَ كل ضعيفةٍ[3]
بذى فَجَرٍ[4] مأوَى الضعاف الأراملِ

وقال عبد الله بن الحارث أيضاً :

وتلك قريشٌ تجْحَـــدُ اللهَ حقَّه
كما جحدت عادٌ ومَـــدْيَنُ والحِجْرُ

---

(١) تأشبوه : تخلطوه.
(٢) يطبى : يستمال . والجعائل جمع جعالة وهى الرشوة .
(٣) ابن هشام : كل خبيثة .
(٤) ذو فجر : ذو عطاء كثير وفى المطبوعة : بذى نفر وهو خطأ .

فإن أنا لم أبرقْ فلا يَسَعَنَّنِي
من الأرض بَرٌّ ذو فضاء ولا بَحْرُ
بأرضٍ بها عَبدُ الإلهِ محمدٌ
أبيِّن ما فى النفس إذ بُلغ النَّقْرُ(١)

فسمِّى عبدُ الله المُبْرِقَ ببيته الذى قال .

وقال عثمان بن مظعون يعاتب أميةَ بن خلف وهو ابن عمه ، وكان يؤذيه فى إسلامه ، وكان أمية شريف قومه(٢) فى زمانه ذلك :

أتيمَ بنَ عمرو لِلذى جاء بِغضةً
ومن دونه الشِّرمان والبَرْكُ أكتعُ(٣)
أأخرجتنى من بطن مكة آمناً
وأسكنتنى فى صَرْحٍ بيضاء تُقْذَعُ(٤)
تَرِيشُ نِبالاً لا يُواتيك ريشُها
وتَبْرِى نِبالاً ريشُها لك أجمعُ
وحاربتَ أقواماً كراماً أعزةً
وأهلكتَ أقواماً بهم كنت تفزَعُ
ستعلم إنْ نابتْكَ يوماً مُلمّةٌ
وأسلَمك الأوباشُ ما كنت تصنعُ

---

(١) النقر : البحث . نقرت عن الخبر: بحثت .

(٢) ابن هشام : شريفا فى قومه .

(٣) أى عجباً للذى جاء به ، والشرمان بالكسر تثنية شرم وهو البحر لأنه أراد البحر الملح والبحر والعذاب والبرك : ما اطمأن من الأرض واتسع وأكتع : تأكيد .

(٤) تقذع: تكره . وبالدال : تدفع .

وتَيمْ بن عمرو الذى يدعو عثمانُ هو جُمَح بن عمرو ، كان اسمه تَيْماً[1] .

[وفد قريش إلى النجاشى]

قال ابن اسحق : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمِنُوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جَلْدَين إلى النجاشى فيردَّهم عليهم ، ليفتنوهم فى دينهم ويخرجوهم[2] من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها .

فبعثوا عبدَ الله بن أبى ربيعة وعمرَو بن العاص وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ثم بعثوهما إليه .

فقال أبو طالب حين رأى ذلك [من رأيهم وما بعثوهما فيه[3]] أبياتاً يحض النجاشى[4] على حسن جوارهم والدفع عنهم :

ألا ليت شعرى كيف فى النَّأْىِ جعفرٌ
وعمرٌو وأعداء العـــــدوِّ الأقاربُ

وهل نالت أفعالُ النجاشى جعفرًا[5]
وأصحابَه أو عاقَ ذلك شاغِبُ

تَعلَّمْ أبيتَ اللعنَ أنك ماجـــدٌ
كريمٌ فلا يَشقَى لديكَ المجانبُ

---

(١) ابن هشام : الذى يدعو عثمان ، جمح ، كان اسمه تيما . وفيها سقط .

(٢) المطبوعة : ويخرجهم .

(٣) من ابن هشام .

(٤) ابن هشام : أبياتاً للنجاشى يحضه .

(٥) الأصل : وهل نال ، وفى المطبوعة : قال . وما ذكرته من ابن هشام .

تعلَّمْ بأن اللهَ زادَكَ بَسْطَةً
وأسبابَ خــيرٍ كلُّها بك لازبُ
وأنك فيضٌ ذو سِـجالٍ غزيرةٍ
ينــال الأعادى نَفْعَها والأقاربُ

وذكر ابن إسحق من حديث أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : لمـا نزلنا أرض الحبشة [تعنى مع زوجها الأول أبى سلمة] (1) جاورنا بها خيرَ جار النجاشىَّ ، أمِنَّا على ديننا وعبَدْنا الله تعالى لا نؤذَى ولا نسمع شيئاً نـكرهه .

فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى رجلين منهم جَلْدَين وأن يُهْدوا للنجاشى هدايا مما يَسْتطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدَم (2) ، فجمعوا له أَدَماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بِطْريقاً إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبدَ الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص [وأمروهما بأمرهم] (3) وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تـكلِّما النجاشى فيهم ، ثم قدِّما إلى النجاشى هداياه ثم اسألاه أن يسلِّمهم إليـكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يَبْقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلماه (4) وقالا لـكل بِطْريق : إنه قد ضَوَى إلى بلد الملك منا غلمانٌ سفهاء فارقوا دينَ قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مُبْتَدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بَعَثَنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردَّهم إليهم ، فإذا كلَّمْنا الملكَ فأشيروا عليه بأن يسلِّمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعْلَى بهم عَيْناً وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

---

(١) ليست فى ابن هشام.
(٢) الأدم : اسم جمع للأديم وهو الجلد أو أحمره أو المدبوغ منه . (٣) من ابن هشام .
(٤) ابن هشام : قبل أن يكلما النجاشى .

ثم إنهما قرّبا[1] هداياهما إلى النجاشي فقبلها ، ثم قالا له : أيها الملك إنه ضَوَى[2] إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء فارقوا دينَ قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً وأعْلَمُ بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامَهم النجاشيُّ .

فقالت بطارقته : صَدَقَا أيها الملك ، قومُهم أعْلَى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسْلِمْهم إليهما فليَرُدَّاهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي ثم قال : لاها الله ، إذًا لا أُسْلمهم إليهما ولا يُكادُ قومٌ جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتُهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني .

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما عَلِمْنا وما أمَرَنا به نبيُّنا كائناً في ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه المِلَل ؟

---

(١) ابن هشام : قدما .

(٢) ضوى : أوى ولجأ .

قالت : فكان الذى كلّمه جعفر بن أبى طالب ، فقال له : أيها الملك ، كنا قوماً أهلَ جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوىُّ منـا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نَسَبه وصِدْقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحِّدَه ونَعْبُده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفِّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقَذْف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت : فعدّدَ عليه أمورَ الإسلام .

فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، وعبدنا اللهَ وحده فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرّم الله علينا وأحلَلْنا ما أحلّ لنا ، فعَدَا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحلّ ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا و بين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورَغِبْنا فى جوارك ، ورجونا ألاّ نُظْلَمَ عندك أيها الملك .

فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟ فقال له جعفر : نعم . قال : فاقرأه علىّ . فقرأ عليه صدراً من « كهيعص » .

فبكى والله النجاشى حتى أخْضَل لحيتَه ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال له النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فوالله لا أُسْلِمهم إليكما أبداً ولا يُكادون .

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه عنهم غداً بما أستأصل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ، وكان أتقى الرجلين فينا : لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا .

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عَبْدٌ .

ثم غدا عليه ، فقال : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما فسَلْهم عما يقولون فيه .

قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، ولم ينزل بنا مثلُها قط .

فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ فقالوا : نقول والله ما قال الله وما جاء به نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون فى عيسى بن مريم ؟ قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ، يقول: هو عبدُ الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول .

فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : ما عدا عيسى ابنُ مريم ما قلتَ هذا العودَ .

قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شُيوم بأرضى آمنون ، من سَبَّكم غَرِم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، فما أحب أن لى دَبْراً من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم . ويقال دِبْراً ، وهو الجبل بلسان الحبشة فيما قال ابن هشام .

رُدُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ اللهُ منى الرشوةَ حين ردَّ علىَّ مُلْـكى فآخذَ الرشوة فيه ، وما أطاع الناسَ فىَّ فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحَيْن مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

* * *

قالت : فوالله إنا لعَلَى ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه فى مُلْـكه .

قالت : فوالله ما عَلِمتُنا حَزِنَّا حزناً قط كان أشدَّ علينا من حزنٍ حَزِنَّاه عند ذلك ، تخوُّفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه .

وسار إليه النجاشى و بينهما عَرْض النِّيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وقيعةَ القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ قالت : فقال الزبير بن العوَّام : أنا . قالوا : فأنت . وكان مِن أحْدَث القوم سِنًّا .

فنفخوا له قِرْبة فجعلها فى صدره ثم سَبَح عليها حتى خرج إلى ناحية النِّيل التى بها مُلْتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم .

قالت : فدعونا اللهَ للنجاشى بالظهور على عدوِّه والتمـكين له فى بلاده .

قالت : فوالله إنا لعَلَى ذلك متوقِّعون لِمَا هو كائن إذ طلع علينا الزبير وهو يسعى ، فلَمَع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظهر النجاشى وأهلك الله عدوَّه [ومكَّن له فى بلاده][1] .

(١) من ابن هشام .

قالت : فوالله ما علمتُنا فرِحْنا فرحة قط مثلَها .

قالت : ورجع النجاشي ، وقد أهلك الله عــدوَّه ومكَّن له في بلاده واستوسق[1] عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وهو بمكة][2] .

* * *

قال الزُّهرى : فحدثتُ عروةَ بن الزبير هذا الحديث ، فقال : هل تدرون ما قوله : « ما أخذ الله منى الرشوة حين ردَّ علىَّ مُلْكى فآخذَ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىَّ فأطيع الناس فيه » ؟ قال : قلت لا .

قال : فإن عائشة أم المؤمنين حدثتنى أن أباه كان ملكَ قومه ، ولم يكن له ولد إلا النجاشى ، وكان للنجاشى عمٌّ له من صُلْبه اثنا عشر رجلا ، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة ، فقالت الحبشة بينها : لو أنا قتلنا أبا النجاشى وملَّكنا أخاه ، فإنه لا ولد له غير هذا الغلام ، وإن لأخيه من صلبه اثنى عشر رجلا فتوارثوا ملكه من بعده بقيت الحبشة بعده دهراً .

فعَدَوْا على أبى النجاشى فقتلوه وملَّكوا أخاه ، فمكثوا على ذلك حينا ونشأ النجاشى مع عمه ، وكان لبيبا حازما من الرجال ، فغلب على أمر عمه ونزل منه بكل منزلة ، فلما رأت الحبشة مكانه قالت بينها : والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه ، وإنا لنتخوف أن يملِّكه علينا ، وإنْ ملَّكه علينا ليَقْتُلَنَّنا أجمعين ، لقد عرف أنَّا نحن قتلنا أباه .

---

(١) استوسق : اجتمع .

(٢) من ابن هشام.

فمشوا إلى عمه ، فقالوا : إما أن تقتل هذا الفتى وإما أن تُخْرِجه من بين أظهرنا ، فإنا قد خفناه على أنفسنا .

قال : ويلكم ! قتلتُ أباه بالأمس وأقتله اليوم ! بل أخرجه من بلادكم .

قالت : فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم ، فقذفه فى سفينة فانطلق به حتى إذا كان العشىُّ من ذلك اليوم هاجت سحابةٌ من سحائب الخريف فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته .

قال : ففزعت الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحْمِق ليس فى ولده خير ، فمَرِج[1] على الحبشة أمرهم ، فلما ضاق عليهم ماهم فيه من ذلك قال بعضهم لبعض : تعلّموا والله أن مَلِككم الذى لا يقيم أمرَكم غيرُه لَلّذى بِعْتُم غُدْوَةً ، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه . قالت : فخرجوا فى طلبه وطَلَبِ الرجل الذى باعوه منه حتى أدركوه فأخذوه منه ، ثم جاءوا به فعقدوا عليه التاج وأقعدوه على سرير الملك فملّكوه ، فجاءهم التاجر الذى كانوا باعوه منه ، فقال : إما أن تعطونى مالى وإما أن أكلّمه فى ذلك . قالوا : لا نعطيك شيئاً . قال : إذا والله أكلمه . قالوا : فدونك .

قالت : فجاءه فجلس بين يديه ، فقال : أيها الملك ابتعتُ غلاما من قوم بالسوق بستمائة درهم، فأسلموا إلىّ غلامى وأخذوا دراهمى ، حتى إذا سرتُ بغلامى أدركونى فأخذوا غلامى ومنعونى دراهمى .

قالت : فقال لهم النجاشى : لَتُعْطُنَّه دراهمه أو ليضعنّ غلامُه يدَه فى يده فليذهبن به حيث شاء !

---

(١) اضطرب واختلط .

قالوا : بل نعطيه دراهمه .

فلذلك يقول : « ما أخذ اللهُ منى رِشوةً حين ردّ علىّ ملكى فآخذَ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىّ فأطيعَ الناس فيه » .

قالت : وكان ذلك أولَ ما خُبِر من صلابته فى دينه وعدْله فى حكمه .

وعن عائشة قالت : لمّا مات النجاشى كان يُتَحدث أنه لا يزال يُرَى على قبره نور .

وذكر ابن إسحق أيضاً عن جعفر بن محمد عن أبيه ، أن الحبشة اجتمعت ، فقالوا للنجاشى : إنك قد فارقتَ ديننا . وخرجوا عليه ، فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيّأ لهم سفناً وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزمتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرتُ فاثبتوا .

ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ويشهد أن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم .

ثم جعله فى قبائه عند المَنكِب الأيمن ، وخرج إلى الحبشة وصُفُّوا له ، فقال : يا معشر الحبشة ألستُ أحقّ الناس بكم ؟ قالوا بلى . قال : فكيف رأيتم سِيرتى فيكم ؟ قالوا : خير سيرة . قال : فما بالكم ؟ قالوا : قد فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبدٌ . قال : فما تقولون أنتم فى عيسى ؟ قالوا : نقول هو ابن الله . فقال النجاشى ، ووضع يده على صدره على قبائه : هو يشهد أن عيسى بن مريم لم يَزدْ على هذا شيئاً . وإنما يعنى ما كتب .

فرضوا وانصرفوا .

فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له .

* * *

قال ابن إسحاق ، ولما قدم عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وردّهما النجاشي بما يكرهون ، وأسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان رجلا ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره ، امتنع به أصحاب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة حتى عازّوا[1] قريشاً .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلّى عند الكعبة وصلينا معه .

وقال ابن مسعود فى رواية البكّائى[2] عن غير ابن إسحاق : إن إسلام عمر كان فَتْحًا ، وإن هِجْرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا وما[3] نصلّى عند الكعبة ، حتى أسلم عمر ، وذكر مثل ما تقدم نصا إلى آخره .

---

(١) عازوا قريشا : غلبوهم .
(٢) هو : أبو محمد زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائى العامرى الكوفى يروى عن ابن إسحق المغازى وعن الأعمش وغيرهما روى عنه أحمد بن حنبل وغيره ، وقال : كان صدوقا ، وكان القطان وابن المعين يضعفانه توفى بالكوفة سنة ١٨٣ .
(٣) ابن هشام : كنا ما .

ذكر الحديث عن إسلام عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

حدّث عبد الله بن عامر عن أمه ، أم عبد الله بنت أبى حَثْمة قالت :

والله إنا لنترحّل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر فى بعض حاجتنا ، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علىّ ، وهو على شِرْكه ، قالت : وكنا نَلْقى منه البلاء أذًى لنا وشدة علينا ، فقال : إنه كَلانطلاق يا أم عبد الله !

فقلت : نعم ، والله لنَخْرجن فى أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مَخْرجاً ! فقال : صحبكم الله ! .

ورأيت له رِقّةً لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرَى خروجُنا .

قالت : فجاء عامر بحاجته تلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمرَ آنفاً ورِقّتَه علينا !

قال : أطَمِعْتِ فى إسلامه ؟ قالت : نعم . قال : لا يُسلم الذى رأيتِ حتى يُسْلم حمارُ الخطاب ! !

قالت : يأساً منه لِما كان يرى منه من غلظته وقسوته عن الإسلام .

قال ابن إسحاق : وكان إسلام عمر بعد خروج مَن خرج مِن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة[1] .

---

(١) وذلك فى السنة الخامسة للبعثة .

قال : وكان إسلامه فيما بلغنى أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد أسلمت ، وأسلم زوجها سعيد بن زيد ، وهم مُسْتَخْفُون بإسلامهم من عمر ، وكان نُعيم بن عبد الله النَّحَّام من بنى عدى قد أسلم[١] ، وكان يستخفى بإسلامه فَرَقاً من قومه ، وكان خَبَّاب بن الأرَتّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرِئها القرآن .

فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفَه يريد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ورَهْطاً من أصحابه ، قد ذُكروا له أنهم اجتمعوا فى بيت عند الصَّفا ، قريباً[٢] من أربعين بين رجال ونساء ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمُّه حمزة ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين .

فلقيه نُعيم فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال : أريد محمداً هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب[٣] دينَها وسبّ آلهتها فأقتله .

فقال له نُعيم : والله لقد غرّتك نفسُك من نفسك يا عمر ! أترى بنى عبدمناف تاركيك تمشى على الأرض ، وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرَهم .

قال : أىُّ أهل بيتى ؟ قال : خَتَنُك[٤] وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

فرجع عمر عائداً إلى أخته وخَتَنه ، وعندهما خَبَّاب معه صحيفة فيها « طه »

---

(١) ابن هشام : وكان نعيم بن عبد الله النحام رجل من قومه من بنى عدى بن كعب قد أسلم .
(٢) ابن هشام : وهم قريب من .
(٣) ط : وأعاب .
(٤) الختن محركة : الصهر وهو المتزوج إليه بنته أو أخته .

يُقرِئُهما إياها ، فلما سمعوا حِسّ عمر تغيّب خَبَّاب فى مَخْدع لهم ، أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر قراءة خَبَّاب ، فلما دخل قال : ما هذه الهَيْنَمة[1] التى سمعت ؟ قالا : ما سمعتَ شيئاً . قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

وبَطَش بخَتَنه سعيد ، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجَّها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وخَتَنه : نعم أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك !

فلما رأى عمرُ ما بأخته من الدم ندم وارعوى ، وقال لها : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذى جاء به محمد . وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها . قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردَّنها إليها إذا قرأها .

فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه ، فقالت له : يا أخى ، إنك نجس على شِرْكك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها « طه » فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسَن هذا الكلام وأكرَمه .

فلما سمع ذلك خَبَّاب خرج إليه فقال : يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيِّد الإسلام بأبى الحكَم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فاللهَ اللهَ يا عمر .

فقال له عند ذلك : فدُلَّنى يا خَبَّاب على محمد حتى آتيه فأسْلِم . فقال له خَبَّاب : هو فى بيتٍ عند الصَّفا معه نفر من أصحابه .

---

(١) الهينمة : الصوت الخفى .

فأخذ عمر سيفَه فتوشَّحه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل منهم فنظر من خَلَل الباب فرآه متوشِّحاً السيفَ فرجع وهو فزِع فقال : يا رسول الله ، هذا عمر ابن الخطاب متوشحاً السيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فَأْذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له فأذِن له الرجل .

ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى الحجرة فأخذ بحُجْزته[1] أو بمَجْمع ردائه ثم جَبَذه جبذةً شديدة .

وقال : ما جاء بك يا بن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُنْزل الله بك قارعةً !

فقال عمر : يا رسول الله جئتُ لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عنده[2] .

قال : فكبَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرةً عرف أهلُ البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسْلم .

فتفرقوا من مكانهم وقد عزُّوا فى أنفسهم حين أسلم عمر ، مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيَمْنعان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وينتصفون بهم من عَدُوّهم .

فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر .

* * *

(١) ابن هشام : فأخذ بحجزته .
(٢) ابن هشام : جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله .

وقد روى غيرهم أن إسلام عمر فيما تحدَّثوا به عنه أنه كان يقول : كنت للإسلام مُباعدا وكنت صاحب خمر فى الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحَزْوَرة[١] ، فخرجتُ ليلةً أريد جلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك فلم أجد فيه منهم أحداً ، فقلت : لو أنى جئت فلاناً الخمّار لعلى أجد عنده خمراً فأشرب منها ، فجئته فلم أجده .

فقلت : فلو أنى جئت الكعبة فطُفْت بها سَبعاً أو سبعين[٢] . فجئت أريد ذلك فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل بينه وبينها الكعبة ، فكان مُصَلاه بين الركنين الركن الأسود والركن اليمانى ، فقلت حين رأيته : والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أستمع ما يقول .

فقلت : لئن دنوت منه لأروِّعنه ، فجئت من قِبل الحِجْر ، فدخلت تحت ثيابها ، فجعلت أمشى رويداً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى يقرأ القرآن حتى قمت فى قبلته مُسْتَقْبِله ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة .

فلما سمعت القرآن رَقَّ له قلبى ! فبكيتُ ودخلنى الإسلام ، فلم أزل قائماً فى مكانى ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حُسَين ، وكانت طريقه حتى يخرج[٣] المَسْعَى ثم يَسْلك بين دار عباس بن عبد المطلب وبين دار ابن أزْهر .

فتبِعْتُه حتى إذا دخل بينهما أدركته ، فلما سمع حسى عرفنى ، فظن أنى إنما اتبعته لأوذيه فنهَمَنى[٤] ثم قال : ما جاء بك يابن الخطاب هذه الساعة ؟ قلت : جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله .

---

(١) الحزورة : كانت سوق مكة وقد دخلت فى المسجد لما زيد فيه .

(٢) سبعين : يريد كرر الطواف حول الكعبة ، وهو سبع مرات فى كل طوفة .

(٣) ابن هشام . حتى يجزع . (٤) نهمه : زجره .

فحمد الله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : قد هداك الله يا عمر . ثم مسح صدرى ودعا لى بالثبات . ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته .

قال ابن إسحق : فالله أعلم أى ذلك كان .

وذكر محمد بن عبد الله بن سَنْجَر الحافظ فى إسلام عمر رضى الله عنه زيادة لم يذكرها ابن إسحق ، فروى بإسناد له إلى شُرَيح بن عُبَيد قال: قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسْلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد فقمت خلفه ، فاستفتح سورةَ الحاقّة فجعلت أتعجّب من تأليف القرآن ، فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : « إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » قال : فقلت : كاهنٌ عَلِمَ ما فى نفسى فقرأ : « ولا بقَوْلِ كاهنٍ قليلا ما تذكّرون » إلى آخر السورة .

قال : فوقع الإسلام فى قلبى كلّ موقع .

* * *

قال ابن إسحق : وحدثنى نافع عن ابن عمر قال : لما أسْلَمَ عمر قال : أىُّ قريشٍ أنقَلُ للحديث ؟ قيل له : جميل بن مَعْمر الجُمَحى . فغدا عليه وغدوت أتبع أثره أنظر ما يفعل ، وأنا غلام أعْقِل كلّ ما رأيت ، حتى جاءه فقال له : أمَا علمت يا جميل أنى أسلمت ودخلت فى دين محمد ؟ ! .

فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه ، واتبعه عمر ، واتبعت أبى ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش — وهم فى أنديتهم حول الكعبة — ألا إن ابن الخطاب قد صبأ .

قال : يقول عمر من خلفه : كذبتَ ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم

ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم .

قال : وطَلَحَ[1] فقعد ، وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا .

فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلةُ حِبَرةٍ وقميصٌ مُوَشًّى حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر . قال : فمَهْ ، رجلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب يُسْلمون لكم صاحبهم ! هكذا[2] عن الرَّجل . فوالله لكأنما كانوا ثوباً كُشط عنه .

فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبت مَن الرجل الذى زجر القومَ عنك بمكة يومَ أسلمت وهم يقاتلونك ؟ جزاه الله خيراً . قال : أىْ بنى ، ذلك العاص بن وائل السَّهْمى ، لا جزاه الله خيراً .

وهذا الدعاء عليه وله مما زاده ابن هشام عن غير ابن إسحق .

وعن بعض آل عمر قال : قال عمر : لما أسلمتُ تلك الليلة تذكرت أى الناس[3] أشد عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت ، قال : قلت أبو جهل . وكان عمر لِحَنْتَمة بنت هشام ابن المغيرة ، فأقبلتُ حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، فخرج إلىَّ فقال : مرحباً وأهلا يا بن أختى ، ما جاء بك ؟ قلت : جئتك أخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدَّقت بما جاء به .

فضرب الباب فى وجهى وقال : قبحك الله وقبح ما جئت به ! .

* * *

---

(١) طلح : تعب .
(٢) ابن هشام : هكذا خلوا عن الرجل .
(٣) ابن هشام : : أى أهل مكة .

وفيما رواه يونس بن بُكَير عن ابن إسحق[1] أن عمر رضى الله عنه قال حين أسلم :

الحمد لله ذى المَنِّ الذى وجبتْ ... له علينا أيادٍ كلُّها عِبَرُ
وقد بدأنا فكذَّبنا فقال لنا ... صِدْقَ الحديث نبىٌّ عنده الخَبَرُ
وقد ظلمتُ ابنةَ الخطاب ثم هدى ... ربِّى عشيةَ قالوا قد صَبا عمرُ
وقد ندمتُ على ما كان مِن زَلَلٍ ... بظلمها حين تُتْلى عندها السُّوَرُ
لمَّا دعَتْ ربَّها ذا العرش جاهدةً ... والدمعُ من عَيْنها عَجْلانُ يَبْتَدِرُ
أيقنتُ أنَّ الذى تدعوه خالقُها ... تكادُ تسبقنى من عَبْرةٍ دُرَرُ[2]
فقلت أشهد أن الله خالقنا ... وأن أحمد فينا اليومَ مُشْتَهِرُ
نبىُّ صِدْقٍ أتى بالحق من ثقةٍ ... وافى الأمانة ما فى عُوده خَوَرُ[3]

[كتابة الصحيفة]

قال ابن إسحق : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن لا يُنْكِحوا إليهم ولا يُنكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا فى صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علَّقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

---

(١) لم يذكر ابن هشام هذه الرواية .
(٢) ط : من غيره وهو تحريف .
(٣) ط : ما فى عوده حور بفتح العين وسكون الواو .

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شِعْبه [واجتمعوا إليه[1]] وخرج من بنى هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم ، ولقى هندا بنت عُتْبة بن ربيعة حين فارق قومَه وظاهر عليهم قريشاً ، فقال لها : يا بنت عتبة ، هل نصرتُ اللات والعُزّى وفارقتُ من فارقهما وظاهَر عليهما ؟ قالت : نعم ، فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة .

وقال أبو طالب فيما صنعت قريش من ذلك واجتمعوا عليه :

ألا أبْلِغَا عنّى على ذات بَيْنِنا ... لُؤَيًّا وخُصًّا من لُؤَىٍّ بنى كعب
ألم تعلموا أنا وجَدْنا محمداً ... نبيًّا كموسى خُطَّ فى أول الكُتْبِ
وأن عليه فى العِباد محبةً ... ولا خيرَ[2] ممن خصه الله بالحُبّ
وأن الذى لصّقتمُ من كتابكمْ ... لكم كائنٌ نحساً كَرَاغِيَةِ السَّقْب[3]
أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحفَرَ الثرى ... ويُصْبِحَ من لم يَجْنِ ذنبا كذى الذّنْب
ولا تتبعوا أمرَ الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعْدَ المودة والقُرْب
وتَسْتَجْلبوا حرب عَواناً وربما ... أمَرّ على من ذاقَه حَلَبُ الحَرْب[4]
فلسنا وربِّ البيت نُسْلِم أحمداً ... لِعَزّاء مِن عَضّ الزمان ولا كَرْب
ولمّا تَبِنْ منا ومنكم سوالفٌ ... وأيْدٍ أُتِرّتْ بالقُسَاسِيَّة الشُّهْب[5]

---

(١) من ابن هشام .

(٢) القياس هنا أن ينون ما بعد لا ، وإنما حذف التنوين مراعاة لأصل الكلمة لأن خيرا معناه أخير على وزن أفعل وحذفت الهمزة تخفيفاً وأفعل لا ينصرف . انظر الروض الأنف ١/٢٢١ .

(٣) قال السهيلى : يريد ولد الناقة التى عقرها قدار ، فرغا ولدها ، فصاح لرغائه كل شىء له صوت ، فهلكت ثمود عند ذلك ، فضربت العرب ذلك مثلا فى كل هلكة .

(٤) العوان : التى يتكرر فيها القتال ، وحلب الحرب : وبالها . وفى ابن هشام : على من ذاقه جلب الحرب .

(٥) القساسية : السيوف ، نسبها إلى معدن حديد لبنى أسد اسمه قساس الروض ١/٢٢١ .

بمُعْتَرَكٍ ضَنْكٍ تَرى كِسرَ القَنَـــا
به والنُّسُورَ الطُّخْمَ (١) يَعْكُفن كالشَّرْبِ

كأنّ مجالَ الخيل فى حَجَراته ومعمعةَ الأبطال معركةُ الحربِ

أليس أبونا هاشمٌ شدَّ أزْرَه وأوصى بَنيه بالطِّعان وبالضَّرْبِ

ولسنا نَمَلُّ الحربَ حتى تملّنا ولا نتشكّى ماقد ينوب من النَّكبِ

ولكننا أهلُ الحفائظِ والنُّهى إذا طار أرواحُ الكماة من الرُّعْب

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جَهِدوا لا يصل إليهم شىء إلا سرا ، مُستخفياً به مَن أراد صلتهم من قريش .

وقد كان أبو جهل ، فيما يذكرون ، لقى حكيمَ بن حزام معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة وهى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب فتعلَّق به وقال : أتذهب بالطَّعام إلى بنى هاشم ؟ فقال له أبو البَخترى : طعامٌ كان لعمتّه عنده ، أفتمنعه إن كان (٢) يأتيها بطعامها ؟ خلِّ سبيل الرجل .

فأبَى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البَخترى لَحْىَ بعير فضربه ، فشجَّه ووطئه وطأً شديداً ، وحمزة بن عبد المطّلب قريب يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيشمتوا بهم .

ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم على ذلك يدعو قومه ليلا ونهاراً وسرًّا وجهرًا ، مبادياً بأمر الله لا يتّقى فيه أحداً من الناس .

[إيذاء قريش للرسول]

فجعلت قريش حين منعه الله منها وقام عمُّه وقومه من بنى هاشم وبنى المطّلب دونه وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ، يَهْمِزونه

---

(١) النسور الطخم : سود الرءوس . والشرب : الجماعة من القوم يشربون .
(٢) ابن هشام : أفتمنعه أن يأتيها .

ويستهزئون به ويخاصمونه وجعل القرآن ينْزل فى قريش بأحداثهم ، وفيمن نصب لعداوته منهم ، فمنهم منْ سُمِّى لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآن فى عامة مَن ذكر الله من الكفار .

فكان من سمِّى لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن عمُّه أبو لهب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية ، حمالة الحطب ، وإنما سماها الله عز وجل حمالة الحطب لأنها[1] كانت فيما بلغنى تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر .

وكان أبو لهب[2] يقول فى بعض ما يقول : يَعِدُنى محمدٌ أشياء لا أراها يَزْعم أنها كائنةٌ بَعْد الموت ، فماذا وَضَع فى يدىَّ بعد ذلك ! ثم ينفخ فى يديه ويقول : تبًّا لكما ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد !

فأنزل الله عز وجل فيهما : « تبَّت يدَا أبى لَهَبٍ وتبَّ ، ما أَغْنَى عنه مالُه وما كَسَبَ ، سيَصْلَى ناراً ذاتَ لَهَبٍ وامرأتُه حَمَّالَةَ الحَطَبِ فى جِيدها حَبْلٌ من مَسَدٍ » .

قال ابن إسحق : فذُكِر لى أن أم جميل حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن ، أتت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها فِهرٌ[3] من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يَهْجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهْرِ فاه ، أمَا والله إنى لشاعرة [ثم قالت[4]] :

---

(١) الأصل : أنها .

(٢) ذكر ابن اسحق قول أبى لهب هذا عند ذكر امتناعه عن دخول الشعب مع بنى هاشم ، ولكن المؤلف رأى موضعه هنا ، وهو ترتيب حسن .

(٣) الفهر : الحجر الصغير قدر ما يملؤ الكف .

(٤) من ابن هشام .

مُذَمَّمــــاً عَصَيْنا وأمرَه أبَيْنــــا

وعن غير ابن إسحق : ودِينَه قَلَيْنا .

ثم انصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله أمَا تراها رأتك ؟ فقال : ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى .

وكانت قريش إنما تسمِّى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مذمَّما ثم يسبُّونه ، فكان عليه السلام يقول : ألا تعجبون لِمَا صَرَف الله عنىّ من أذى قريش ! يسبُّون ويَهْجون مذمَّما وأنا محمدٌ !

* * *

وأميةُ بن خلَف الجُمَحى ، كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همَزه ولمَزه ، فأنزل الله فيه : « وَيْلٌ لِكلِّ هُمَزةٍ لُمَزةٍ » إلى آخر السورة .

والعاصُ بن وائل السَّهمى ، كان خبَّاب بن الأرَتِّ ، قد باع منه سيوفاً عملها له وكان قَيْناً بمكة فجاءه يتقاضاه ، فقال له : يا خباب ، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلُها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم ؟ ! قال : بلى . قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خباب آثَرَ عند الله منى ولا أعْظم حظاً فى ذلك !

فأنزل الله فى ذلك : « أفرأيت الذى كَفَر بآياتنا وقال لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً ، أطَّلَعَ الغَيْبَ أمِ اتَّخذ عند الرحمن عَهْداً ! كلا سَنَكْتُب ما يقول ونَمُدُّ له من العذاب مَدًّا ، ونَرِثُه ما يقول ويأتينا فَرْداً[1] » .

ولقى أبو جهل ابن هشام رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى ، فقال له : ويحك يا محمد ! لنتركَنَّ سبَّ آلهتنا أو لنسبَّن إلهك الذى بعثك .

---

(١) سورة مريم ٧٧ — ٨٠ .

فأنزل الله تعالى : « ولا تَسُبُّوا الذين يَدْعُون مِن دونِ اللهِ فيسبُّوا اللهَ عَدْواً بغير علم[1] » .

فذكِر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كَفَّ عن سبِّ آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله .

والنَّضر بن الحارث بن كَلَدة[2] ، من شياطين قريش ممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصِب له العداوة ، وكان قدِم الحِيرةَ وتعلّم بها أحاديثَ ملوك الفرس ، فكان إذا جلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكّر فيه بالله ودعا فيه إلى الله وحذّر قومَه ما أصاب الأممَ الخالية من نقمة الله ، خلَفَه فى مجلسه إذا قام ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلمّ فأنا أحدثكم أحسنَ من حديثه . ثم يحدِّثهم عن رستم الشيذ[3] واسبنديار[4] وملوك فارس ، ثم يقول : بماذا محمدٌ أحسنُ حديثاً منى ؟ والله ما محمد بأحسن حديثاً منى ، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتُها .

فأنزل الله عز وجل فيه : « وقالوا : أساطيرُ الأوّلين اكْتَتَبها فهى تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأصيلا . قُلْ : أَنْزَله الذى يَعْلَمُ السِّرَّ فى السمواتِ والأرض إنه كان غفوراً رحيماً[5] » وكلّ ما ذُكر فيه الأساطير من القرآن[6] .

وأنزل أيضاً فيه : « وَيلٌ لكلِّ أفّاكٍ أثيم ، يَسْمعُ آياتِ الله تُتْلَى عليه ثم يُصِرُّ مستكبراً كأن لم يَسْمعها كأنّ فى أذنيه وَقْراً فبَشِّره بعذابٍ أليم[7] » .

---

(١) سورة الأنعام ١٠٨ .
(٢) ابن هشام : بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بنى عبد الدار بن قصى .
(٣) ابن هشام كما فى شرح السيرة لأبى ذر : رستم السنديد .
(٤) ابن هشام : اسفنديار .
(٥) سورة الفرقان ٥ ، ٦ .
(٦) أى نزل فيه كل الآيات التى ذكر فيها أمر الأساطير .
(٧) سورة الجاثية ٧ ، ٨ .

وهو القائل : سأُنزل مثلَ ما أنزل الله ا فيما ذكر ابن هشام .

قال ابن إسحق : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسجد ، فجاء النَّضر بن الحارث فجلس معهم فى المجلس ، وفيه غيرُ واحد من رجال قريش .

فتكلم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فعرَض له النضر ، فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفْحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : « إنكم وما تَعبُدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها وارِدون ، لو كان هؤلاء آلهةً ما وَرَدُوها وكُلٌّ فيها خالدون ، لهم فيها زَفيرٌ وهم فيها لا يَسْمعون(١) » .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عبدُ الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمى حتى جلس ، فقال له الوليد : والله ما قام النضرُ بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد ، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَب جهنم .

فقال ابن الزبعرى : أمَا والله لو وجدتُه لخَصَمْتُه ، فسَلُوا محمدا : أ كلُّ ما يُعبد من دون الله فى جهنم مع مَنْ عَبَده ؟ فنحن نعبد الملائكة واليهودُ تعبد عُزَيرا والنصارى تعبد عيسى بن مريم .

فعجب الوليد ومن كان معه مِن قول ابن الزِّبَعْرَى ، ورأوا أنه قد احتجَّ وخاصمَ .

فذكِر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : من أحبَّ أن يُعبَد من دون الله فهو مع مَن عبَده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومَن أمرَتْهم بعبادته .

فأنزل الله عليه : « إنَّ الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مُبْعَدُون ، لا يسمعون حَسيسها وهم فيما اشتهت أنفسُهم خالدون(٢) » أى عيسى وعُزَيراً ومَن عُبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضَوْا على طاعة الله ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله .

(١) سورة الأنبياء ٩٨ — ١٠٠ . (٢) سورة الأنبياء ١٠١ .

ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله : « وقالوا : اتخذ الرحمن وَلَدا ، سبحانه ، بل عِبَادٌ مُكْرَمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » إلى قوله : « ومَنْ يَقُلْ منهم إنى إلهٌ مِن دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نَجْزِى الظالمين » .

وأنزل فيما ذكر مِن أمر عيسى أنه يُعبد من دون الله وعَجَبِ الوليد ومَنْ حضر من حجته وخصومته : « ولَمَّا ضُرِب ابنُ مريمَ مَثَلاً إذا قومك منه يَصِدُّون » ثم قال : « إنْ هو إلا عَبْدٌ أنْعَمْنا عليه وجعلناه مَثَلاً لبنى إسرائيل ، ولو نشاء لجَعَلْنا منكم ملائكةً فى الأرض يَخْلُفُون ، وإنه لَعِلْمٌ للساعة فلا تَمْتَرُنَّ بها واتبعونِ هذا صراطٌ مستقيم[1] » . أى ما وضعت على يديه من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلا على عِلم الساعة . يقول : « فلا تَمْتَرُنَّ بها واتبعونِ هذا صراطٌ مستقيم » .

والأَخْنَس بن شَرِيق الثَّقَفى حليف بنى زُهرة ، وكان من أشراف القوم وممن يُستمع منه ، فكان يصيب مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويردُّ عليه ، فأنزل الله تعالى فيه : « ولا تُطِعْ كلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاء بنميم[2] » إلى قوله « زنيم » .

ولم يقل « زنيم » لعيب فى نسبه ، لأن الله[3] لا يعيب أحداً بنسبه ولكنه حَقَّق بذلك نعتَه ليُعْرف ، والزنيم العديد للقوم[4] . قال الخَطِيم[5] [التميمى][6] فى الجاهلية :

زَنِــيمٌ تداعاه الرجالُ زيادةً
كما زِيدَ فى عَرْضِ الأَدِيم الأكارِعُ[7]

---

(١) سورة الزخرف ٥٧ ــ ٦١ . (٢) سورة ن ١٠ ــ ١٣ . (٣) الأصل : إن الله .
(٤) أى الدعى فيهم . (٥) قال السهيلى : الأعرف أنه لحسان .
(٦) من ابن هشام . (٧) الأكارع : الأطراف .

والوليد بن المغيرة ، قال : أَيُنَزَّل على محمد وأُتْرَكُ وأنا كبير قريش وسيدها ، ويُتْرك أبو مسعود وعمرو بن عُمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما قريش[1] !

فأنزل الله فيه ، فيما بلغنى : « وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رَجُلٍ من القريتين عظيم ؟ أهُمْ يَقْسمون رحمةَ ربك ؟ ! نحنُ قَسَمْنَا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذَ بعضُهم بعضاً سخريا ورحمةُ ربِّك خيرٌ مما يَجْمَعُون[2] » .

وأُبَيُّ بن خَلَف الجُمَحى وعُقْبة بن أبى مُعَيط ، وكانا مُتصافيين حَسَنًا ما بينهما ، فكان عقبة بن أبى معيط قد جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، فبلغ ذلك أُبَيًّا فأتى عقبةَ فقال : ألم يَبْلُغنى أنك جالستَ محمداً وسمعت منه ؟ ! ثم قال : وجهى من وجهك حرام أن أكلمك ، واستغلظَ من اليمين ، إن كنت جلستَ إليه أو سمعت منه ، أو لم تأته فتتفل فى وجهه .

ففعل ذلك عدوُّ الله عقبة ، فأنزل الله فيه : « ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يديه ، يقول : ياليتنى اتخذتُ مع الرسولِ سبيلا ، ياويلَتَى ليتنى لم أتَّخِذْ فلاناً خليلا ، لقد أضلّنى عن الذِّكْرِ بَعْدَ إذ جاءنى وكان الشيطانُ للإنسان خَذُولاً »[3] .

ومشى أُبَيُّ بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعَظْمٍ بالٍ قد ارفَتّ فقال : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرى[4] ؟ ! ثم فتّه بيده ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك النار .

---

(١) ابن هشام : عظيما القريتين

(٢) سورة الزخرف ٢٠ ـ ٢٢ .

(٣) سورة الفرقان ٢٧ ـ ٢٩ .

(٤) ابن هشام : بعدما أرم .

فأنزل الله فيه : « وضَرَبَ لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَه ، قال من يُحْيِي العِظَامَ وهى رَمِيمٌ ؟ قل : يُحْيِيها الذى أنشأها أولَ مَرَّةٍ وهو بكل خَلْقٍ عليم ، الذى جَعَل لكم من الشَّجَرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه توقدون[1] »

واعترض رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى الأسودُ بن المطّلب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل وكانوا ذوى أسنان فى قومهم ، فقالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تَعْبد وتَعْبد ما نَعْبد فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه !

فأنزل الله فيهم : « قُلْ : يا أيها الكافرون ، لا أعْبدُ ما تَعْبدُون ، ولا أنتم عابدون ما أعْبُدُ ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » .

أى إن كنتم لا تعبدون الله[2] إلا أن أعبد ما تعبدون فلا حاجة لى بذلك منكم ، لكم دينكم ولى دين .

وأبو جهل بن هشام ، لمّا ذكر الله شجرة الزقوم تخويفاً بها لهم ، قال يا معشر قريش : هل تدرون ما شجرة الزّقوم التى يخوّفكم بها محمد ؟ قالوا : لا . قال : عَجْوة يَثْرِبَ بالزُّبد ! والله لئن استمكنّا منها لنتزقّمنّها تزقُّماً !

فأنزل الله فيه : « إنّ شجرةَ الزَّقُّوم طعامُ الأثيم ، كالمُهْل يَغْلى فى البطون كغَلْيِ الحميم[3] »

---

(١) سورة يس ٧٨ — ٨٠ .
(٢) ابن هشام : لا تعبدون إلا الله . وما هنا أصح .
(٣) سورة الجاثية ٤٣ — ٤٦ .

وأنزل الله فيه : « والشجرةَ الملعونةَ فى القرآن ونخوِّفهم فما يزيدهم إلا طُغيانًا كبيرًا[1] »

ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله يكلِّمه وقد طمع فى إسلامه ، فبينا هو فى ذلك إذ مرَّ به ابنُ أم مكتوم الأعمى ، فكلَّم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وجعل يستقرئه القرآن ، فشقَّ ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضجره ، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسًا وتركه ، فأنزل الله فيه : « عَبَس وتولّى أنْ جاءه الأعمى ، وما يُدْرِيك لعلّه يزَّكّى أو يذَّكرُ فتنفَعَه الذكرى . أمَّا من استغنى فأنت له تصدَّى وما عليك ألاّ يزَّكّى ، وأمَّا من جاءك يسعى وهو يَخْشَى فأنت عنه تَلَهَّى ، كلاَّ إنها تذْكِرة ، فمن شاء ذكَره فى صُحُفٍ مُكرَّمةٍ مرفوعةٍ مُطَهَّرةٍ[2] » .

أى : إنما بعثتك بشيرا ونذيرا لم أخصَّ بك أحداً دون أحد ، فلا تمنعه ممن ابتغاه ولا تتصدَّ[3] به لمن لا يريده .

[رجوع المهاجرين من الحبشة]

قال ابن إسحق : وبلغ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلامُ أهل مكة فأقبلوا لمّا بلغهم ذلك[4] ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ذلك كان باطلا ، فلم يدخل أحد منهم إلا بجِوارٍ أو مستخفيًا .

وذكر موسى بن عقبة أن رجوع هؤلاء الذين رجعوا كان قبل خروج جعفر وأصحابه إلى أرض الحبشة ، وأنهم الذين خرجوا أولا قبله ثم رجعوا حين أنزل الله سورة النجم .

(١) سورة الإسراء ٦٠ .
(٢) سورة عبس .
(٣) ابن هشام : ولا تتصدين .
(٤) ابن هشام : لما بلغهم فى ذلك .

قال : وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ، ولكنه لا يذكر من خالفه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر به آلهتنا من الشتم والشر .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله وأصحابَه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنته ضلالتهم وكان يتمنى هداهم ، فلما أنزل الله تعالى سورة «والنجم» قال : «أفرأيتم اللاتَ والعُزّى ومَنَاةَ الثالثة الأخرى» ألقى الشيطان عندها على لسانه كلمات حين ذكَر الطواغيت فقال : وإنهن لمن الغرانيق العُلَى وإن شفاعتهن لهى التى تُرتجى .

وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتباشروا بها وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين آبائه . فلما بلغ رسول الله صلى عليه وسلم آخر «والنجم» سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك ، غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلا كبيراً ، فرفع ملء كفه ترابا فسجد عليه .

فعجب الفريقان كلاهما من اجتماعهم فى السجود لسجود رسول الله صلى الله عليه سلم .

فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ، ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان على ألسنة المشركين .

وأما المشركون فاطمأنت نفوسهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما ألقى الشيطان فى أمنية النبى صلى الله عليه وسلم فسجدوا لتعظيم آلهتهم .

وفشت تلك الكلمة فى الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين ، عثمان بن مظعون وأصحابه ، وحدَّثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلّوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود

الوليد بن المغيرة على التراب على كفيه ، وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة . فأقبلوا سِرَاعا وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته ، وقال عز من قائل : « وما أرسلنا مِنْ رَسُول ولا نبيٍّ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطانُ في أُمْنِيّته فينسخ اللهُ ما يُلقي الشيطانُ ثم يُحْكِم اللهُ آياتِه واللهُ عليم حكيمٌ ، ليجعل ما يُلقي الشيطانُ فِتْنَةً للذين في قلوبهم مرضٌ والقاسيةِ قلوبُهم وإنّ الظالمين لفي شِقَاقٍ بعيد ، وليَعْلم الذين أوتوا العلم أنه الحقُّ من ربّك فيُؤْمنوا به فتُخْبِت له قلوبُهم ، وإنّ الله لهَادِي الذين آمَنُوا إلى صراطٍ مستقيم » .

فلمّا بين الله قضاءه فبرأه من سَجْع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم للمسلمين فاشتدوا عليهم (١)

فلهذا الذي ذكره ابن عُقْبة لم يستطع أحد ممن رجع من أرض الحبشة أن يدخل مكة إلا بجوارٍ أو مستخفياً ، كما ذكر ابن إسحق .

---

(١) قصة الغرانيق تلك التي أوردها المؤلف — رحمه الله — موضوعة ظاهرة الاختلاق ويمكن أن تنقد بمجرد العقل وبديهيات علم النبوة .

فأولا : كيف يلقي الشيطان على لسان رسول معصوم كلمات مناقضة لرسالته بل هي ارتداد عنها ، وإذا كان مؤرخو السيرة ومنهم الكلاعي يذكرون حادثة شق الصدر وأنها كانت لتطهير النبي من حظ الشيطان ، فكيف يعترفون ، بإمكان تسلط الشيطان على عقل الرسول ولسانه !

ثم كيف لايتنبه المشركون لما بعد مدح آلهتهم من ذم وهجوم في قوله : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » وقوله : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » ولما ورد بعد من نفي الشفاعة عن الأصنام نفياً قاطعاً في قوله : « وكم من ملك في السموات والأرض لا تغني شفاعتهم شيئاً » وكيف تسحرهم كلمتان ثم لا توقظهم آيات طوال تنعى على آلهتهم وتوجههم إلى التوحيد والإيمان .

وقد يكون معقولا أن يسجد المشركون عند ذكر آلهتهم بالمدح ولكن كيف يسجدون عند نهاية السورة عند قوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » مع أنهم كانوا يرفضون السجود لله « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » =

قال : فكان جميع من قدم مكة منهم ثلاثة وثلاثين رجلاً ، دخل منهم بجوارٍ ، فيمن سمى لنا : عثمان بن مظعون الجُمَحى ، دخل بجوار من الوليد بن المغيرة ، وأبو سلمة بن عبد الأسد بجوار خاله أبي طالب .

فأما عثمان فإنه لمّا رأى ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء ، وهو يغدو ويروح فى أمان الوليد ، قال : والله إن غُدوِّى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهلُ دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى لنقصٌ كبير فى نفسى

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس وَفَتْ ذمتك وقد رددتُ إليك جوارك . قال : لِمَ يا بن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومى ؟ قال : لا ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره . قال : فانطلقْ إلى المسجد فرُدَّ علىّ جوارى علانيةً كما أجَرْتك علانية .

= كذلك كيف يسمع المشركون ما ألقى الشيطان على لسان الرسول ولا يسمع المؤمنون ؟ ! إن كان كذلك فالشيطان هو الذى تكلم ، مما يدخلنا فى عالم الأوهام والخرافات

ثم إن الاعتماد على آية : « وما أرسلنا من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » خطأ بالغ فليست الآية تحتمل هذه الرواية ولا تصلح تفسيرا لها أو حديثاً عنها .

ثم كيف لا يرتد أحد من المسلمين أو يزلزل حين يعلم أن رسوله قد مدح الأصنام وجعل لها شفاعة ! !

وغفر الله لعلمائنا الأولين ، فلقد كانوا يحرجون أنفسهم بهذه المرويات ويحملون لها فى أعناقهم حقاً ، هو حق الذكر ، ولو كانت خرافة أو أسطورة من أخبار الأولين لما احتملناها ، لكنها فرية ضد الإسلام ومكر برسوله عليه السلام .

وقال السهيلى :

« وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة ومن صححه قال فيه أقوالا ، منها :

أن الشيطان قال ذلك وأذاعه والرسول عليه السلام لم ينطق به .

وهذا جيد لولا أن فى حديثهم أن جبريل قال لمحمد : ما أتيتك بهذا .

ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قالها من قبل نفسه وعنى بها الملائكة أن شفاعتهن لترتجى .

=

فخرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان جاء يردُّ عليَّ جوارى .
قال : صدق ، قد وجدته وفيًّا كريم الجوار ، ولكنى أحببت أن لا أستجير بغير الله .

ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة فى مجلس ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد :

* ألا كلُّ شىء ما خلا اللهَ باطلُ *

قال عثمان : صدقت . قال

وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

قال عثمان : كذبتَ ، نعيمُ الجنة لا يزول !

قال لبيد : يا معشر قريش ، والله ما كان يؤذَى جليسكم فمتى حدَث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه فى سفهاء معه فارقوا ديننا فلا تجدن فى نفسك منه[1] .

= ومنها أن النبى عليه الصلاة والسلام قالها حاكياً عن الكفار وأنهم يقولون ذلك ، فقالها متعجباً من كفرهم .

والحديث على ما خيلت غير مقطوع بصحته »

وقال القاضى عبد الجبار فى كتابه « تنزيه القرآن عن المطاعن » ٢٤٣ :

« فإن قيل : فما المراد بقوله : « إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » وكيف يصح ذلك على الأنبياء ؟ وجوابنا أن المراد إذا تلا القرآن يلحقه السهو فى قراءته وذلك معروف فى اللغة ، فلذلك قال بعده « فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » ولو كان المراد غير ما ذكرناه من التلاوة لم يصح ذلك .

فأما ما يرويه الحشوية من أنه صلى الله عليه وسلم ذكر فى قراءته أصنامهم وقال إن الغرانيق العلا شفاعتهن ترتجى ، حتى فرح الكفار ، فلا أصل له ، ومثل ذلك لا يكون إلا من دسائس الملحدة » .

(١) سيرة ابن هشام : من قوله .

فردّ عليه عثمان حتى شَرِى أمرها ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخَضَّرها [1] والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال : أمَا والله يابن أخى إن كانت عينك عمَّا أصابها لغنيّة ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

قال : بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها فى الله : وإنى لفى جوار مَنْ هو أعزُّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

فقال له الوليد : هلم يا بن أخى إن شئت إلى جوارك ؟

فقال : لا .

وأما أبو سلمة بن عبد الأسد ، فإنه لما استجار بأبى طالب مشى إليه رجال بنى مخزوم فقالوا : يا أبا طالب هذا منعتَ منا ابن أخيك محمداً ، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ فقال : إنه استجار بى وهو ابن أختى ، وإنْ أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابنَ أخى . فقام أبو لهب فقال : يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ما تزالون توَثَّبون عليه فى جواره مِن بين قومه ، والله لَتنتهُنَّ عنه أو لنقومن معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .

فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة . وكان لهم وليًّا وناصراً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبقَوْا على ذلك .

فطمع فيه أبو طالب حين سمعه يقول ما قال ، ورجا أن يقوم معه فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يحرضه على ذلك :

وإن امرءاً أبو عُتَيبة عمُّه لفى روضةٍ ما إن يُسَام المظالِماَ
أقول له وأين منه نصيحتى أبا مُعْتِبٍ ثَبِّتْ سوادَك قائماَ
ولا تَقبلنَّ الدهرَ ما عشتَ خطةً تُسَبُّ بِها إمّا هبطتَ المواسماَ
ووَلِّ سبيلَ العجزِ غيرَك منهمُ فإنك لم تُخلَق على العجز لازماَ

(١) خضرها : ورمها .

وحاربْ فإن الحربَ نصْفٌ ولن ترى
أخا الحرب يعطى الخسْفَ حتى يسالما

وكيف ولم يجنوا عليكَ عظيمةً ولم يخذلوك غانماً أو مُغارِمَا

جزى اللهُ عنا عبدَ شمسٍ ونوفلاً وتيما ومخزوما عُقوقًا ومأثما

بتفريقهم مِنْ بَعْدِ وُدٍّ وألْفةٍ جماعتنا كَيْما ينالوا المحارِمَا

كَذَبتمْ وبيتِ الله نُبْزَى[(١)] محمدا ولمّا تروا يوماً لدى الشِّعْبِ قائما

[ابن الدغنة يجير أبا بكر]

وكان أبو بكر رضى الله عنه، كما حدثت عائشة رضى الله عنها، حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى، ورأى مِن تظاهُر قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما رأى، قد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فأذن له، فخرج مهاجراً حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدُّغُنَّة، أخو بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد الأحابيش[(٢)] فقال: أين يا أبا بكر؟

قال: أخرجنى قومى وآذونى وضيّقوا علىّ. قال: لِمَ؟ فوالله إنك لتزين العشرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتُكسِب المعدوم، فارجع فأنت فى جوارى.

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدُّغُنَّة فقال: يا معشر قريش: إنى قد أجَرْتُ ابنَ أبى قحافة فلا يعرِضَنّ له أحد إلا بخير.

---

(١) نبزى: نسلب

(٢) الأحابيش: بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة، سمو الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة.

قالت : فكَفُّوا عنه . وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جُمَح فكان يصلِّى فيه ، وكان رجلا رقيقا إذا قرأ القرآن استبكى ، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته[١] .

فمشى رجال من قريش إلى ابن الدُّغُنَّة فقالوا له : إنك لم تُجِرْ هذا ليؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمدٌ يرِقُّ وكانت له هيئة ونحْوٌ ، فنحن نتخوَّف على صبياننا ونسائنا وضَعَفتنا أن يفتنهم ، فائته فأْمُره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء .

فمشى ابن الدُّغُنَّة فقال : يا أبا بكر إنى لم أُجِرْك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت به وتأذَّوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

قال : أوْ أردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

قال : فاردد علىَّ جِوارى . قال : قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش إن ابن أبى قحافة قد ردَّ علىَّ جوارى فشأنكم بصاحبكم .

وعن القاسم بن محمد أن أبا بكر لقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامدٌ إلى الكعبة ، فحثا على رأسه التراب ، فمرَّ الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل فقال أبو بكر : ألا ترى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت هذا بنفسك وهو يقول : أى ربِّ ما أحْلَمك أى رب ما أحْلَمك !

[نقض الصحيفة]

قال ابن إسحق : ثم إنه قام فى نقض الصحيفة التى تكاتبت فيها قريش

---

(١) ط : هيبته .

على بنى هاشم وبنى المطلب نفرٌ من قريش ، ولم يُبْلِ أحدٌ فيها أحسنَ من بلاء هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حِسْل ، وذلك أنه كان ابنَ أخى نَضْلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، فكان هشام لبنى هاشم واصلاً ، وكان ذا شرف فى قومه ، فكان فيما بلغنى يأتى ليلا بالبعير قد أوْقَره طعاماً ، حتى إذ أقْبَله فى فم الشِّعْب[1] خلع خِطَامه من رأسه ثم ضرب على جنبه ليدخل[2] الشعب عليهم ، ويأتى[3] به قد أوْقَره بُرًّا[4] فيفعل به مثل ذلك .

ثم إنه مشى إلى زهير بن أمية بن المغيرة ، وأمُّه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا زهير أرضيتَ أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت لا يُبَاعون ولا يُبْتَاع منهم ولا يَنْكحون ولا يُنكح إليهم ، أمَا إنى أحلف بالله ، أن لو كانوا أخوالَ أبى الحكم ابن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً .

فقال : ويحك ياهشام ، فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجلٌ واحد . والله لو كان معى رجل آخر لقمتُ فى نَقْضها حتى أنقضها . قال : قد وجدتَ رجلا . قال : من هو[5] ؟ قال أنا . قاله له زهير : أَبْغِنَا ثالثا .

فذهب إلى المطْعِم بن عدى فقال له : يا مطعم أرضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ! أمَا والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنَّهم إليها منكم سِرِعا . قال : ويحك فماذا أصنع ؟

---

(١) ابن هشام : أقبل به فم شعب .
(٢) ابن هشام : فيدخل .
(٣) ابن هشام : ثم يأتى .
(٤) وتروى : بزا بالزاى المعجمة .
(٥) ابن هشام : فمن هو .

إنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدتَ ثانياً . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال أبغنا ثالثاً . قال : قد فعلتُ . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية . قال : أبغنا رابعاً .

فذهب إلى أبي البَخْتَرى بن هشام ، فقال له نحوًا مما قال للمطعم بن عدى . فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدى وأنا معك . قال : أبغنا خامساً .

فذهب إلى زَمْعَة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه وذكر له قرابتهم ومكانهم[1] . فقال : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم . ثم سمّى له القوم .

فاتّعَدُوا خَطْمَ الحَجُون[2] ليلا بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك فأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير : أنا أبْدَؤكم فأكون أولَ من يتكلم .

فلما أصبحوا غدَوْا إلى أنديتهم ، وغدا زهير عليه حُلة ، فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ! والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل ، وكان فى ناحية المسجد : كذبتَ والله لا تُشَقُّ .

قال زَمْعَة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كُتبت . قال أبو البَخْتَرى : صدق زَمْعَة ، لا نرضى ما كتب فيها

---

(١) ابن هشام : وحقهم .
(٢) خطم الحجون : مقدمه .

ولا نقرُّ به . قال المُطْعِم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها .[و] قال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمرٌ قُضى بليل تشُوورِ فيه بغير هذا المكان .

وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد ، وقام المطعم إلى الصحيفة يشقُّها فوجد الأَرَضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم .

وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة ، فشلَّت يده فيما يزعمون .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى طالب : يا عم إن الله قد سلّط الأَرَضة على صحيفة قريش فلم تدَعْ فيها اسما هو لله إلا أثبتَتْه فيها و نفَت منها القطيعةَ والظلم والبهتان . قال : أربُّك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم . قال فوالله ما يدخل عليك أحدٌ . ثم خرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش إن ابن أخى أخبرنى كذا وكذا ، فهلم صحيفتكم فإن كانت كما قال فانتهُوا عن قطيعتنا ، وإن كان كاذبًا دفعت إليكم ابن أخى . قال القوم : رضينا . فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فزادهم ذلك شرا فعند ذلك صنع الرهط فى نقض الصحيفة ما صنعوا .

قال ابن إسحق : فلما مُزقت الصحيفة وبطل ما فيها قال أبو طالب فيما كان من أمر أولئك الذين قاموا فى نقضها يمدحهم :

ألا هل أتى بَحْرِيّنا صنعُ ربنا على نأيهم والله بالناس أرْوَدُ(١)

فيخبرهم أنّ الصحيفة مُزِّقت وأنْ كلُّ ما لم يرْضه الله مُفْسَدُ

---

(١) يريد بالبحرى هنا من هاجر إلى الحبشة من المسلمين . وأرود : أرفق .

تراوحها إفكٌ وسحرٌ مجمَّع ... ولم يُلفَ سحراً آخر الدهر يَصْعَدُ

جزى الله رهطا بالحَجُون تتابعوا ... على ملأٍ يَهْدِى لحزمٍ ويُرْشِدُ[1]

قُعُودًا لدى خَطْم الحجون كأنهم ... مَقَاوِلةٌ بل هم أعزُّ وأمجدُ

أعان عليها كلُّ صقرٍ كأنه ... إذا ما مشى فى رفرف الدرع أحْرَدُ[2]

جَرِىٌّ على جُلِّ الخطوب كأنه ... شهابٌ بكفَّىْ قابسٍ يتوقَّدُ

من الأكرمين من لؤىِّ بن غالب ... إذا سِيمَ خَسْفًا وجهه يتربَّدُ

طويلُ النجاد خارجٌ نصف ساقِهِ ... على وجهه تُسْقَى الغمامَ ونَسْعَدُ

عظيمُ الرماد سيدٌ وابن سيدٍ ... يحضُّ على مَقْرى الضيوف ويَحْشِدُ

ويبنى لأبناء العشيرة صالحاً ... إذا نحن طُفْنا فى البلاد ويَمْهَدُ

ألظَّ[3] بهذا الصلح كلُّ مُبرَّإٍ ... عظيمُ اللواء أمره ثَمَّ يُحْمَدُ

قَضَوْا ما قَضَوْا فى ليلهم ثم أصبحوا ... على مَهَلٍ وسائر الناس رُقَّد

همُ رجعوا سهلَ بن بيضاء[4] راضياً ... وسُرَّ أبو بكر بها ومحمَّدُ

متى شُرِّكَ الأقوامُ فى جُلِّ أمرنا ... وكنَّا قديماً قبلها نَتَوَدَّدُ

وكنا قديماً لا نُقِرُّ ظلامةً ... وندرك ما شئنا ولا نتشدد

---

(١) أسقط المؤلف من القصيدة أبياتا ذكرها ابن هشام . انظر ابن هشام ٢ / ١٨ .

(٢) رفرف الدرع : ما فضل منه . وأحرد بطىء المشى من ثقل الدرع .

(٣) ألظ : أقام ولزم .

(٤) هو سهل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن ضبة بن الحارث بن فهر والبيضاء أمه .

فيا لَقصىٍّ هل لكم فى نفوسكمْ   وهل لكمُ فيما يجىء به غدُ

فإنى وإياكم كما قال قائلٌ   لَدَيْك البيانُ لو تكلمتَ أسْوَدُ

أسْوَدُ هنا اسم جبل كان قُتل فيه قتيل لم يعرف قاتله ، فقال أولياء المقتول هذه المقالة ، يعنون بها أن الجبل لو تكلم لأبان عن القاتل ولعرّف بالجانى ، ولكنه لا يتكلم ، فذهبت مقالتهم تلك مثلا .

[حديث الطفيل بن عمرو الدوسى]

قال ابن إسحق : فكان(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يرى من قومه يبذل لهم النصيحة ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه ، وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذّرونه الناسَ ومَنْ قدم عليهم من العرب .

فكان طُفَيل بن عمرو الدّوسى [وكان رجلا شريفا شاعراً لبيبا](٢) يحدِّث أنه قدِم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له : يا طُفَيل إنك قدمتَ بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعْضَل بنا ، فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق [به](٣) بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنّه ولا تسمعن منه(٤) .

قال : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ،

---

(١) ابن هشام : وكان

(٢) ابن هشام : وكان الطفيل .

(٣) ليست فى ابن هشام .

(٤) ابن هشام : ولا يستمعن منه شيئا .

حتى حشوتُ فى أذنىّ حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا[١] فَرَقًا من أن يبلغنى شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه .

قال : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة ، فقمت قريبًا منه ، فأبى الله إلا أن يُسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلامًا حسنًا ، فقلت فى نفسى : واثكل أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر وما يخفى علىّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل [ما يقول][٢] ، فإن كان الذى يأتى به حسنًا قَبِلْته ، وإن كان قبيحًا تركته .

فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يا محمد إن قومك قالوا لى كذا وكذا [للذى قالوا[٢]] ، فو الله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددتُ أذنىّ بكُرْسُفٍ لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يُسْمعنى [قولك[٣]] فسمعت قولا حسنًا ، فاعرض علىّ أمرك .

فعرض علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلامَ وتلا علىّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسنَ منه ولا أمرًا أعدَل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يانبى الله إنى امرؤ مطاع فى قومى وإنى راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لى آيةً تكون لى عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه . فقال اللهم اجعل له آية .

فخرجت إلى قومى حتى إذا كنت على ثَنِيَّة[٤] تُطْلِعنى على الحاضر

---

(١) الكرسف : القطن .
(٢) من ابن هشام .
(٣) من ابن هشام .
(٤) ابن هشام : بثنية . والثنية : الفرجة بين الجبلين .

وقع نور بين عينيَّ مثلُ المصباح . قلت : اللهم في غَيْر وجهي ، إني أخشى أن يظنوا أنها مُثْلَةٌ وقعت في وجهي لفراق دينهم . قال : فتحوَّل فوقع في رأس سَوْطى ، فجعل أهل الحاضر يتراءون ذلك النورَ في سوطي كالقنديل المعلّق ، وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جئتهم .

فلما نزلتُ أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً ، فقلت : إليك عني يا أبت فلستُ منك ولستَ منّي . قال : لِمَ يا بنى ؟ قلت : أسلمتُ وتابعت دينَ محمد . قال : أي بنيَّ فديني دينُك . فقلت : فاذهب فاغتسل وطهِّر ثيابك ، ثم تعال حتى أعلمك ما علِّمت . فذهب فاغتسل وطهّر ثيابه ، ثم جاء فعرضتُ عليه الإسلام فأسلم

ثم أتتني صاحبتي فقلت لها : إليك عني فلستُ منك ولستِ مني . قالت : لِمَ بأبي أنت وأمي ؟ ! قلت : فرّق بيني وبينك الإسلام وتابعت دينَ محمد . قالت : فديني دينك . قلت : فاذهبي إلى حِنَا ذِي الشَّرى . — قال ابن هشام : ويقال حِمَى ذي الشَّرَى — فتطهرى منه ، وكان ذو الشرى صنما لدوس والحِنا[1] حِمًى حَمَوْه له ، به وَشَل[2] من ماء يهبط من جبل . فقالت : بأبي أنت وأمي ، أتخشى على الصِّبْيةِ من ذي الشرى شيئاً ؟ قلت : لا أنا ضامن لذلك . فذهبتْ فاغتسلت ثم عادت فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمت .

ثم دعوتُ دَوْسًا إلى الإسلام فأبطأوا ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقلت : يا نبي الله إنه غلبني على دوس الزِّنا فادع الله عليهم . فقال : اللهم اهْدِ دَوْسًا ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

---

(١) ابن هشام : والحمى .

(٢) الوشل : القليل .

فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ومضى بدر وأُحُد والخندق ، ثم قدِمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معى من قومى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بَيْتاً من دَوْسٍ ، ثم لحقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فأسْهَمَ لنا مع المسلمين .

ثم لم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا فتح الله عليه مكة قلت : يا رسول الله ابعثنى إلى ذى الكَفَّيْن صنمِ عمرو بن حُمَمَة حتى أحرقه .

قال ابن إسحٰق : فخرج إليه فجعل وهو يوقد عليه النار يقول :

يا ذا الكَفَيْنِ[1] لستُ مِنْ عُبَّادِكا

ميلادُنا أَقْدَمُ مِنْ ميلادِكا

أنا[2] حشَوْتُ النارَ فى فؤادكا

ثم رجع ، فكان بالمدينة حتى قبض الله رسولَه ، فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين فسار معهم حتى فرغوا من طُلَيحة ومن أرض نجد كلها ، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن طُفَيل فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة فقال لأصحابه : إنى قد رأيتُ رؤيا فاعْبُرُوها لى . رأيتُ أن رأسى حُلِق ، وأنه خرج من فمى طائر ، وأنه لقيتنى امرأة فأدخلتنى فى فرجها وأرى ابنى يَطْلبنى طلباً حثيثاً ثم [رأيته][3] حُبِس عنى .

قالوا : خيراً . قال : أمَّا أنا فقد أوَّلتُها . قالوا : ماذا ؟ قال : أمَّا حَلْق رأسى فوَضْعُه ، وأما الطائر الذى خرج من فمى فروحى ، وأما المرأة التى

---

(١) الكفين : أصله بالتشديد خفف للضرورة .

(٢) ابن هشام : إنى .

(٣) من ابن هشام .

أدخلتنى فى فرجها فالأرض تُحْفَر لى فأغيَّب فيها ، وأمّا طلبُ ابنى إياى ثم حَبْسُه عنى فإنى أراه سيَجْهَدُ أن يصيبه ما أصابنى .

فقُتل رحمه الله شهيداً باليمامة ، وجُرح ابنه جراحة شديدة ثم استَقَلّ(١) منها ثم قتل عامَ اليرموك فى زمن عمر شهيدا .

[أعشى قيس]

وذكر ابن هشام أن أَعْشَى بنى قيس بن ثعلبة خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام ، وقال قصيدة يمدحه فيها ، نذكرها بعد .

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره ، فأخبره أنه جاء يريد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليُسلم . فقال له : يا أبا بصير إنه يحرِّم الزنا . فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر مالى فيه من أَرَب . فقال : يا أبا بصير : فإنه يحرِّم الخمر . فقال : أمّا هذه فو الله إن فى النفس منها لَعُلالاَت ، ولكنى منصرف فأتروّى منها عامى هذا ثم آتيه فأسلم .

فانصرف فمات فى عامه ذلك ولم يَعُد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا ما ذكر ابن هشام فى قصة الأعشى ، وظاهره يقتضى أن قَصْده كان إلى مكة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها حينئذ لم يهاجر بَعْدُ .

ويعارض هذا الظاهرَ ما ذكر من تحريم الخمر ، فإن أهل النقل مجمعون على أن الخمر إنما حرمت بالمدينة بعد أن مضى بدر وأحد ونزل تحريمها فى سورة المائدة وهى من آخر ما نزل من القرآن ، فإن صحّ أن خروج الأعشى كان قبل الهجرة كما فى ظاهر الخبر فلعــل المشرك الذى لقيه وأخبره عن

---

(١) ابن هشام : استبل . والمعنى أفاق وشفى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريم الخمر ، أراد بهذا القول تنفيره عن الإسلام وإبعاده عنه ، مع ما كان من كراهية رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً للخمر وتنزيه الله إياه عنها .

ألا تراه ليلة الإسراء لمّا عُرضت عليه آنية الخمر واللبن اختار اللبن فقيل له هُديتَ للفطرة ، لو أخذت الخمر غوتْ أمتك . والإسراء إنما كان بمكة فى صدر الإسلام .

وقد يمكن أن يكون قَصد الأعشى إلى المدينة بعد الهجرة وبعد تحريم الخمر فتلقّاه بعضُ المشركين من قريش ممن لم يكن أسلم بعد .

ولعل هذا هو الأَولى بدليل قوله فى قصيدته الآتية بعد :

ألا أيّهذا السائلى أين يَمّمَتْ ... فإن لها فى أهل يَثْرِبَ مَوْعِدَا

والله أعلم بالحقيقة فى ذلك كله .

والقصيدة التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرْمَدَا ... وبِتّ كما بات السليمُ مُسَهَّدَا
وما ذاك مِن عِشْقِ النساء وإنما ... تناسيتَ قبل اليوم خُلّةَ مَهْدَدَا
ولكنْ أرى الدهرَ الذى هو خائنٌ ... إذا أصلحت كفّاى عاد فأفْسَدَا
كهولا وشبانًا فقدتُ وثروةً ... فلله هذا الدهرُ كيف تردّدا
وما زلتُ أبْغِى المالَ مُذْ أنا يافعٌ ... وليداً وكَهْلاً حين شِبْتُ وأمْرَدَا
وأبتذلُ العِيسَ المراقيلَ تَغْتَلى ... مسافة ما بين النُّجَيْر فصَرْخَدا (١)
ألا أيهذا السائلى أينَ يَمّمَتْ ... فإن لها فى أهل يثرب مَوْعِدَا
فإن تسألى عنى فيا رُبّ سائلٍ ... حَفِىٌّ عن الأعشى به حيث أصْعَدَا

(١) المراقيل : المسرعة . والنجير وصرخد موضعان باليمن والجزيرة .

أجَدَّتْ برجليها النَّجاءَ وراجعت ... يداها خِنافاً ليِّناً غير أحْرَدا(١)

وفيها إذا ما هَجَّرتْ عَجْرَفية ... إذا خِلْتَ حِرْباء الظهيرة أصْيَدا(٢)

وآليتُ لا آوِى لها من كلالةٍ ... ولا مِنْ حَفىً حتى تلاقِى محمدا

متى ما تُناخِى عند باب ابن هاشمٍ ... تُرَاحِى وتلْقَىْ مِن فَوَاضِله نَدَا

نبيًّا يرى مالا ترون وذِكْرُه ... أغارَ لَعَمْرى(٣) فى البلاد وأنْجَدا

له صدقاتٌ ماتَغِبُّ ونائلٌ ... وليس عطاء اليوم مانعَه غَدَا

أجَدَّكَ لَمْ تَسْمَع وَصَاةَ محمدٍ ... نبىِّ الإله حين أوْصَى وأشْهَدَا

إذا أنت لم تَرْحَلْ بزادٍ من التُّقَى ... ولاقيتَ بعدَ الموت مَنْ قد تزوَّدا

ندمتَ على أن لا تكون كمثله ... فتُرصِدَ للموت الذى كان أرْصَدَا

فإياكَ والميتات لا تقربنَّها ... ولا تأخذنْ سهماً حديداً لتُفْصِدا

وذا النُّصُب المنصوب لا تَنْسُكَنَّه ... ولا تَعْبُد الأوثانَ والله فاعبُدَا(٤)

ولا تَقْرَبَنَّ حرةً كان سِرُّها ... عليكَ حَرَاما فانكحنْ أو تأبَّدا

وذا الرحم القربى فلا تَقْطَعنَّه ... لعاقبةٍ ولا الأسيرَ المقيَّدَا

وسبِّح على حين العشيات والضحى ... ولا تَحْمَد الشيطانَ والله فاحمدا

ولا تسخَرَنْ من بائس ذى ضرارةٍ ... ولا تحسبَنَّ المالَ للمرءِ مُخْلِداً

---

(١) الخناف : أن تلوى يديها فى السير من النشاط . والأحرد : الذى يتثقل فى السير .

(٢) هجرت : أى سارت فى الهاجرة وهى شدة الحر ، والعجرفية : نسبة إلى العجرفة فى السير والحرباء : دويبة يدور بوجهه مع الشمس حيث دارت . والأصيد : مائل العنق .

(٣) قال ابن دريد : وغار الرجل فى غور تهامة ، إذا دخله ، ولا يقال أغار ، فإنه خطأ ، قال الأعشى : نبى يرى مالا ترون وذكره . لعمرى غار فى البلاد وأنجدا . ومن روى : « أغار لعمرى » فقد لحن وأخطأ . الاشتقاق / ١٨ .

(٤) أصله : فاعبدن بالنون الخفيفة فوقف عليها بالألف ، وكذا فيما يأتى من الأفعال .

[مع أبي جهل وركانة]

قال ابن إسحق : وقد كان عدوُّ الله أبو جهل [بن هشام[1]] مع عداوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وبُغْضه إياه وشدته عليه يذله الله له إذا رآه .

حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي ، وكان واعيةً قال : قدِم رجل من إراش بإبلٍ له مكةَ ، فابتاعها منه أبو جهل فمطله بأثمانها ، فأقبل الإراشي حتى وقف على نادٍ من قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ في ناحية المسجد ، فقال : يا معشر قريش ، مَنْ رجلٌ يؤدِّيني[2] على أبي الحكم بن هشام ، فإني غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي .

فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل ؟ لرسول الله صلى الله عليه وسلم — يهْزأون به لِمَا يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة — اذهب إليه فهو يُؤدِّيك عليه .

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام غلبني على حق لي قِبَله وأنا غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدِّيني عليه ، يأخذ لي حقي منه ، فأشاروا لي إليك فخذ لي حقي منه يرحمك الله .

قال : انطلقْ إليه . وقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ما يصنع .

قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضرب عليه بابه . فقال : من هذا ؟ فقال : محمد ، فاخرج إليَّ . فخرج إليه وما في وجهه من رائحة ، لقد انتقع لونه ، فقال : أعط هذا حقه . قال : نعم لا يبرحْ حتى أعطيه الذي له .

(١) من ابن هشام .
(٢) يؤديني : يعينني .

فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ، فأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً ، فقد والله أخذ لى حقى .

وجاء الرجل الذى بعثوا معه فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟

قال : عجباً من العَجَب ! والله ما هو إلا أنْ ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه ، فقال : أعط هذا الرجل حقّه . قال : نعم ،لا يبرح حتى أخرج إليه حقّه . فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه .

ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا : ويلك ! مالك ؟ والله ما رأينا مثل ماصنعت قط .

قال : ويحكم ! والله ما هو إلا أن ضرب علىّ بابى وسمعتُ صوته فلمئت رعباً ، ثم خرجتُ إليه وإنّ فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قَصَرته (١) ولا أنيابه لِفحل قط ، والله لو أبَيْتُ لأكلنى .

وذكر الواقدى عن يزيد بن رُومان قال : بَيْنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالساً فى المسجد معه رجال من أصحابه أقبل رجل من بنى زبيد يقول : يا معشر قريش كيف تدخل عليكم المادة أو يُجْلَب إليكم جَلَب أو يَحُلّ تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم فى حَرَمكم . يقف على الحِلَق حَلْقةً حلقة .

حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومَنْ ظَلَمك ؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال كانت خيرة إبله ، فسامه أبو جهل ثُلْثَ أثمانها ثم لم يَسُمْه بها لأجْله سائم ، قال : فأكْسَدَ علىّ سلعتى وظلمنى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأين أجمالك ؟ قال : هى هذه بالحزورة .

---

(١) القصرة : أصل العنق .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم معه وقام أصحابه ، فنظر إلى الجمال فرأى جمالا قُرْحاً . فساوم الزبيدىّ حتى ألحقه برضاه ، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فباع جملين منها بالثمن ، وأفضَل بعيرا باعه وأعطى أراملَ بنى عبد المطلب ثمنه ، وأبو جهل جالس فى ناحية من السوق لا يتكلم .

ثم أقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عمرو إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابى فترى منى ما تكره . فجعل يقول : لا أعود يا محمد لا أعود يا محمد .

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عليه أمية بن خلف ومن حضر من القوم ، فقالوا : ذللتَ فى يدىْ محمد ، فإما أن تكون تريد أن تتبعه وإما رعبٌ دخلك منه . قال : لا أتبعه أبداً ، إنّ الذى رأيتم منى لِمَا رأيتُ معه ، لقد رأيت رجالا عن يمينه وشماله معهم رماح يَشْرعونها إلىّ ، لو خالفته لكانت إياها . أى لأتوا على نفسى .

* * *

وذكر محمد بن إسحق عن أبيه قال : كان رُكانة بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب أشدّ قريش ، فخَلَا يوماً برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض شعاب مكة ، فقال له : ياركانة ألا تتقى الله وتقبل ماأدعوك إليه ؟ ! قال : لو أعلم أن الذى تقول حقٌّ لاتبعتك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم . قال : فقم حتى أصارعك . فقام إليه ركانة فصارعه[1] ، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه لا يملك من نفسه شيئاً .

ثم قال : عُدْ يامحمد . فعاد فصرعه . فقال : يامحمد إن ذا لَلْعَجب أتصرعنى ! ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأَعْجَبُ من ذلك إن شئتَ أن أرِيكه إن اتقيتَ الله واتبعت أمرى .

---

(١) ابن هشام : يصارعه .

قال : ما هو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى . قال : ادعها . فدعا بها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : ارجعى إلى مكانك ، فرجعت إلى مكانها .

فذهب رُكانة إلى قومه فقال : يا بنى عبد مناف ساحِروا بصاحبكم أهلَ الأرض ، فوالله ما رأيت أسْحَر منه قط . ثم أخبرهم بالذى رأى وصَنع[1] .

* * *

قال ابن إسحق : ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو قريباً من ذلك من النصارى ، يقال إنهم من أهل نجران ، حين بلغهم خبره من الحبشة .

فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا [القرآن][2] فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره .

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيَّبكم الله مِنْ رَكْب ! بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه ! ما نعلم ركباً أحمق منكم . أو كما قالوا .

فقالوا لهم : سلام عليكم لا نُجاهِلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نَألُ أنفسَنا خيراً .

---

(١) ابن هشام : والذى صنع .

(٢) من ابن هشام .

فيقال والله أعلم : فيهم نزلت هؤلاء الآيات : « الذين آتيناهم الكتابَ مِن قبله هُمْ به يُؤْمِنُون ، وإذا يُتلَى عليهم قالوا آمَنَّا به إنَّهُ الحقُّ مِنْ ربنا إنا كنا مِنْ قَبْله مُسْلمين أولئك يؤتون أجْرَهم مرَّتين بما صبروا ويدرءون بالحسنةِ السيئة ومما رزقناهم ينفقون .

وإذا سمعوا اللغو أعْرضُوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين[1] » .

قال : وقد سألت ابن [شهاب[2]] الزهرىَّ فقال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن فى النجاشى وأصحابه . والآياتِ من المائدة قول الله عز وجل : « ولتجدنَّ أقْرَبهم مَوَدَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نَصارى ، ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسين ورُهْبانًا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أُنْزِل إلى الرسول تَرَى أعينَهم تفيضُ من الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا من الحقِّ يقولون رَبَّنَا آمَنَّا فاكتبنا مع الشاهدين[3] » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس فى المسجد فجلس إليه المستضعفون من أصحابه ، خَبَّاب وعَمَّار وأبو فُكَيْهة يسار وصُهَيب وأشباههم هَزِئَت بهم قريش وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِن بيننا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا .

فأنزل الله تعالى فيهم : « ولا تَطْرُدِ الذين يَدْعُون ربَّهم بالغَدَاة والعَشِيِّ يُرِيدون وَجْهَه ، ما عليك مِنْ حسابهم من شىء وما مِنْ حِسَابك عليهم

---

(١) سورة القصص ٥٢ — ٥٥ .
(٢) من ابن هشام .
(٣) سورة المائدة ٨٢ ، ٨٣ .

مِنْ شيء ، فَتَطْرُدَهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا ، أليس الله بأعْلَمَ بالشاكرين ، وإذا جاءك الذين يُؤْمنون بآياتنا فقُلْ : سلامٌ عليكم كتَبَ ربكم على نفسه الرحمةَ أنَّه مَنْ عَمِل منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تابَ مِنْ بَعْدِه وأَصْلَحَ فإنه غفورٌ رحيم[(١)] » .

وهؤلاء أيضاً ومن قال بقولهم هم الذين عَنَى الله سبحانه بقوله : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خَيْراً ما سَبَقُونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفكٌ قديم[(٢)] » .

قال ابن إسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المرْوَة إلى مَبْيعة غلام نصرانى يقال له جَبْرٌ ، عَبْدٌ لبنى الحَضْرمى ، وكانوا يقولون : والله ما يعَلِّمُ محمدًا كثيراً مما يأتى به إلا جبرٌ النصرانى ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم : « ولقد نَعْلَمُ أنهم يقولون : إنما يعلِّمه بَشَرٌ ، لسانُ الذى يُلْحِدون إليه أعْجَمِيٌّ وهذا لسانٌ عَرِبِيٌّ مُبِين[(٣)] » .

وكان العاص بن وائل إذا ذُكِر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دَعُوه ، فإنما هو رجل أبتر ، لو قد مات لقد انقطع ذكره فاسترحتم منه ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قوله : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصَلِّ لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر » أى أعطيناك ما هو خير من الدنيا ومافيها . والكوثر العظيم . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الكوثر الذى أعطاك الله ؟ قال : نهر كما بين صنعاء إلى أيلة آنيته كعدد نجوم السماء تَرِده طير لها

---

(١) سورة الأنعام ٥٢ — ٥٤ .
(٢) سورة الأحقاف ١١ .
(٣) سورة النحل ١٠٣ .

أعناق كأعناق الإبل . قال عمر بن الخطاب : إنها يا رسول الله لَناعمةٌ .
قال : آكِلها أنعم منها .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً إلى الإسلام ، فقال له زَمْعة بن الأسود والنضر بن الحارث والأسود بن عبد يغوث وأُبيّ بن خلف والعاص بن وائل : لو جُعِل معك يا محمد مَلَك يحدِّث عنك الناسَ ويُرَى معك ؟ فأنزل الله في ذلك : « وقالوا لولا أُنْزِل عليه مَلَك ولو أنزلنا ملَكا لقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرون ، ولو جعلناه ملَكاً لجعلناه رجلا ولَلَبَسْنا عليهم ما يَلْبِسون[1] » .

ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبي جهل ، فهمزوه واستهزءوا به ، فغاظه ذلك ، فأنزل الله عليه : « ولقد استهزئ برُسُلٍ من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون[2] » :

---

(١) سورة الأنعام ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الأنعام ١٠ .

ذِكْرُ الحديث عن مَسْرى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحق : ثم أُسْرِىَ[1] برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس من إيلياء ، وقد فشا الإسلام بمكة فى قريش وفى القبائل كلها .

فـكان من الحديث فيما بلغنى عن مَسْرَاه صلوات الله عليه وسلامه عن عبد الله بن مسعود وأبى سعيد الخدرى وعائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ومعاوية بن أبى سفيان وأم هانئ بنت أبى طالب والحسن بن أبى الحسن وابن شهاب الزهرى وقتادة وغيرهم من أهل العلم ما اجتمع فى هذا الحديث ، كلٌّ يحدِّث عنه بعضَ ما ذُكر من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أُسْرِىَ به صلى الله عليه وسلم .

وكان فى مَسْرَاه وما ذُكر عنه بلاء وتمحيص وأمرٌ من الله فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب وهدًى ورحمة وثبات لمن آمن وصدَّق .

---

(١) لم يذكر ابن اسحق تحديداً للسنة التى وقع فيها الإسراء ، وقد تعرض لذلك ابن كثير فى البداية والنهاية ٣ / ١٠٨ فقال : « ذكر ابن عساكر أحاديث الإسراء فى أوائل البعثة ، وأما ابن إسحق فذكرها فى هذا الموطن ، بعد البعثة بنحو من عشر سنين . وروى البيهقى من طريق موسى بن عقبة عن الزهرى أنه قال : « أسرى برسول الله (ص) قبل خروجه إلى المدينة بسنة .. ثم روى الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن أسباط ابن نصر عن إسماعيل السدى أنه قال : فرض على رسول الله ص الخمس ببيت المقدس ليلة أسرى به قبل مهاجره بستة عشر شهراً . فعلى قول السدى يكون الإسراء فى شهر ذى القعدة ، وعلى قول الزهرى وعروة يكون فى ربيع الأول .. ثم ذكر عن جابر وابن عباس قالا : ولد رسول الله (ص) عام الفيل يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات . وفيه انقطاع . ثم ذكر أن المقدسى أورد حديثاً لا يصح سنده أن الاسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب ، والله أعلم » .

وكان مِنْ أمر الله على يقين ، فأسرى به كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التى يصنع بها ما يريد .

فكان عبد الله بن مسعود فيما بلغنى عنه يقول أُتِيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالبُرَاق ، وهى الدابة التى كانت تُحْمَل عليها الأنبياء قبله ، تضع حافرها فى منتهى طرفها ، فحُمل عليه[1] ، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السموات والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء عليهم السلام قد جمعوا له ، فصلّى بهم ثم أُتِيَ بثلاثة آنية ، إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، قال : فسمعت قائلا يقول : إنْ أخَذ الماء فغرق[2] وغرقت أمته ، وإن أخذ الخمر فغوى وغوت أمته ، وإن أخذ اللبن هُدِى وهُدِيت أمته . قال : فأخذت إناء اللبن فشربتُ ، فقال له جبريل : هُديتَ وهديَتْ أمتك يا محمد .

قال : وحُدثت عن الحسن أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا أنا نائم فى الحِجْر[3] جاءنى جبريل فهمزنى بقدمه ، فجلست فلم أرَ شيئاً ، فعُدْتُ لمضجعى ، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئاً ، فعُدْتُ لمضجعى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فأخذ بعضدى ، فقمت معه فخرج بى إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض ، بين البغل والحمار ، فى فخذيه جناحان يَحْفِز[4] بهما رجليه ، يضع يديه فى منتهى طرفه ، فحملنى عليه ثم خرج معى لا يَفُوتنى ولا أفوته .

---

(١) ابن هشام : عليها .
(٢) ابن هشام : غرق .. غوى .
(٣) ابن هشام: إذ جاءنى
(٤) أى يدفع .

وفى حديث قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لمّا دنوت منه لأركبه شَمَس[1] فوضع جبريل يده على مَعْرَفته[2] ثم قال : ألا تستحى يا براق مما تصنع ! فوالله ما ركبك عبدٌ لله قبلَ محمد أكْرَمُ عليه منه . فاستحيا حتى ارفضّ عرقاً ثم قرّ حتى ركبته .

وفى حديث الحسن من انتهاء جبريل بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس وإمامته فيه بمن وجده عنده من الأنبياء ، على جميعهم السلام ، نحو ما تقدم من ذلك فى حديث ابن مسعود .

قال : ثم أتى بإناءين فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن ، فأخذ إناء اللبن وترك إناء الخمر ، فقال له جبريل : هُدِيتَ للفطرة وهديت أمتك وحرِّمت عليكم الخمر .

وذِكْر تحريم الخمر هنا غريب جداً ، والذى عليه العلماء أن الخمر إنما حرمت بالمدينة بعد سنين من الهجرة .

قال الحسن : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر . فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْر[3] البَيِّن ، والله إن العير لتُطْرَد شهرا من مكة إلى الشام مُدْبرةً وشهرا مُقْبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة !

قال : فارتدّ كثير ممن كان أسْلَمَ ، وذهب الناس إلى أبى بكر ، فقالوا : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ! يزعم أنه جاء هذه الليلة بيتَ المقدس وصلّى فيه ورجع إلى مكة . فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ها هو ذاك فى المسجد يحدِّث به الناس .

---

(١) شمس : امتنع ولم يمكن أحدا من ظهره .
(٢) المعرفة : اللحم الذى ينبت عليه شعر العرف .
(٣) الإمر : العجيب المنكر .

فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبْعَدُ مما تعجبون منه .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله أحدَّثتَ هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال . يانبي الله فصِفْه لي فإني قد جئته .

قال الحسن: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرفِـع لي حتى نظرتُ إليه . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يَصِفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقْتَ أشهد أنك رسول الله . كلما وصف له منه شيئاً قال : صدقتَ أشهد أنك رسول الله.

حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : وأنت يا أبا بكر الصِّديق . فيومئذ سماه الصديقَ .

قال الحسن : وأنزل الله فيمن ارتد عن إسلامه لذلك : وما جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إلا فِتْنَةً للناسِ ، والشجرةَ الملعونةَ في القرآن ونخوّفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً [(١)] » .

فهذا حديث الحسن عن مَسْرَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما دخل فيه من حديث قَتادة .

قال ابن إسحق : وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول : ما فقِد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحه .

وكان معاوية بن أبي سفيان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كانت رؤيا من الله صادقة .

---

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

فلم يُنكَر ذلك من قولها لقول الحسن إن هذه الآية نزلت في ذلك ، قول الله : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس » ولقوله تعالى في الخبر عن إبراهيم إذ قال لابنه « يا بنيَّ إني أرى في المنام أنِّي أذبحك[1] » ثم مضى على ذلك ، فعرفت أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظاً ونياما .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تنام عَيْني وقلبي يقظان .

فالله أعلم أي ذلك كان قد جاءه وعاين فيه ما عاين من أمر الله ، على أي حالتيه كان نائما أو يقظان ، كل ذلك حق وصدق[2] .

وزعم الزهري عن سعيد بن المسيَّب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك الليلة ، صلوات الله على جميعهم ، فقال :

أما إبراهيم فلم أرَ رجلا أشْبَه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه ، وأما موسى فرجلٌ آدمُ طويل ضَرْبٌ جَعْدٌ أقْنى[3] كأنه من رجال شَنُوءة ،

---

(١) سورة الصافات ١٠٢ .

(٢) هذه التسوية من ابن اسحق بين كلا الرأيين عجيبة جداً ، فإن مذهب جمهور السلف والخلف أن الإسراء كان ببدنه وروحه صلوات الله وسلامه عليه ، فلو كان مناما لما بادر كفار قريش إلى التكذيب به واستبعاده إذ ليس في ذلك كبير أمر ، فدل على أنه أخبرهم بأنه أسري به يقظة لا مناما ، والقرآن قال : « سبحان الذي أسرى بعبده » فالعبد عبارة عن الروح والجسد ، وكذلك التسبيح إنما يكون عند الآيات العظيمة الخارقة .

قال ابن كثير : وقد توقف ابن إسحق في ذلك وجوز كلا الأمرين من حيث الجملة ، ولكن الذي لا يشك فيه ولا يتمارى أنه كان يقظان لا محالة . وليس مقتضى كلام عائشة رضي الله عنها أن جسده صلى الله عليه وسلم ما فقد وإنما كان الإسراء بروحه أن يكون مناما ، كما فهمه ابن اسحق ، بل قد يكون وقع الإسراء بروحه حقيقة وهو يقظان لا نائم . . »

ثم قال : « ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طبق ما وقع بعد ذلك ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقد تقدم مثل ذلك في حديث بدء الوحي أنه رأى مثل ما وقع له يقظة مناما قبله ، ليكون ذلك من باب الإرهاص والتوطئة والتثبيت والإيناس والله أعلم » انظر البداية والنهاية ٣ / ١١٣ — ١١٤ .

(٣) ضرب : أي خفيف اللحم . وجعد : متكسر الشعر ، وأقنى : مرتفع قصبة الأنف .

وأما عيسى بن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل ، سَبْطُ الشَّعر كثير خِيلان الوجه كأنه خرج من دِيماس[1] تخال رأسه يقْطر ماء وليس فيه[2] ماء ، أشبه رجالكم به عُرْوة بن مسعود الثَّقفي .

قال ابن هشام : وكانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر عمر مولى غُفْرَة عن إبراهيم بن محمد بن على بن أبي طالب قال : كان علىٌّ إذا نَعَتَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : لم يكن بالطويل الممَّغط[3] ولا القصير المتردد ، كان رَبعة من القوم ، ولم يكن بالجَعْد القَطَط[4] ولا بالسَّبْط كان جَعدا رَجْلاً[5] ، ولم يكن بالمطهَّم ولا المُكَلْثَم[6] ، وكان أبيض مُشْربا أدْعَج العينين أهدب الأشفار جليل المُشَاش والكتد[7] دقيق المسْرُبة[8] أجْرَدَ شَثْنَ الكفَّين[9] والقدمين ، إذا تمشَّى تقلَّع كأنما يمشى فى صَبَب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين أجود الناس كفا وأجرأ الناس صَدْراً وأصْدَق الناس لهجة وأوْفَى الناس بذمة وألْيَنهم عريكة وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهةً هابه ومن خالطه معرفةً أحبَّه ، يقول ناعِته : لم أرَ قبله ولا بعده مثله ، صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحٰق : وكان فيما بلغنى عن أم هانئ بنت أبى طالب رضى الله عنها أنها كانت تقول : ما أسْرِى برسول الله صَلى الله عليه وسلم إلا وهو فى

---

(١) السبط : المسترسل غير الجعد ، والخيلان جمع خال وهو الشامة السوداء . والديماس : الحمام .
(٢) ابن هشام : به .
(٣) الممغط : الممتد .
(٤) القطط : الشديد جعودة الشعر .
(٥) مسرح الشعر .
(٦) المطهم : العظيم الجسم والمكلثم : المستدير الوجه فى صغر
(٧) المشاش : عظام رءوس المفاصل ، والكتد ما بين الكتفين .
(٨) المسربة : الشعر الذى يمتد من الصدر إلى السرة .
(٩) الأجرد : قليل شعر الجسم . وشثن الكفين : غليظهما .

فى بيتى ، نام عندى تلكَ الليلة[١] فصلّى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبّنا[٢] رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيتِ بهذا الوادى ، ثم جئت بيتَ المقدس فصليت فيه ثم قد صليتُ معكم صلاة الغداة الآن كما ترين .

ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه ، فتكشّف عن بطنه وكأنه قُبْطِيّة[٣] مطوية ، فقلت : يا نبىَّ الله لا تحدِّث بهذا الناسَ فيكذبوك ويؤذوك ، قال : والله لأحدِّثنَّهُموه . فقلت لجارية لى حَبَشية : ويحك اتّبعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تسمعى ما يقول للناس وما يقولون له .

فلما خرج إلى الناس أخبرهم فعجبوا وقالوا : ما آية ذلك يا محمد ، فإنا لم نسمع بمثل هذا قط ؟ قال : آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا[٤] ، فأنفرهم حِسُّ الدابة ، فنَدَّلهم بعير فدللتهم عليه وأنا موجّه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضَجَنان[٥] مررت بعير بنى فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشىء ، فكشفتُ غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عِيرهم الآن تُصوِّب من البيضاء[٦] ، ثنيّة التنعيم ، يَقْدُمها جمل أَوْرَق عليه غِرارتان إحداهما سوداء والأخرى بَرْقاء[٧] .

فابتدر القومُ الثنيّة فلم يَلْقَهم أولُ من الجمل ، كما وصف لهم ، وسألوهم

---

(١) ابن هشام : نام عندى تلك الليلة فى بيتى .
(٢) أهبنا : أيقظنا .
(٣) ثياب من كتان تنسج بمصر منسوبة إلى القبط على غير قياس .
(٤) ابن هشام : كذا وكذا .
(٥) ضجنان : جبل بناحية تهامة .
(٦) تصوب : تنزل من علٍ ، والبيضاء : عقبة قرب مكة .
(٧) أى مختلفة الألوان .

عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه ، وأنهم هبُّوا فوجدوه مُغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماء ، وسألوا الآخرين وهم بمكة فقالوا : صدق والله ، لقد أُنْفِرنا في الوادى الذى ذكر وندَّ لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه .

[المعـــــراج]

قال ابن إسحاق : وحدثنى من لا أتهم ، عن أبى سعيد الخُدْرى رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لمَّا فرغت مما كان في بيت المقدس أُتِىَ بالمعراج ، ولم أرَ شيئاً قط أحسن منه ، وهو الذى يمدُّ إليه ميتكم عينيه إذا حُضِر .

فأصعدنى صاحبى فيه حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء يقال له : باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل تحت يديه اثنا عشر ألف ملك تحت يدى كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حدَّث بهذا الحديث : « وما يَعْلَمُ جنودَ ربك إلا هو[(١)] » .

فلما دخل بى قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : محمد . قال : أوَ قد بُعِث ؟ قال : نعم ، فدعا [لى[(٢)]] بخير وقاله .

قال : وحدثنى بعض أهل العلم عمن حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم تلقتنى الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ، فلم يَلْقَنى ملك إلا ضاحكا مستبشراً ، يقول خيراً ويدعو به ، حتى لقينى ملَكٌ من الملائكة فقال مثل ما قالوا ودعا بمثل ما دعوا به ، إلا أنه لم يضحك ، ولم

---

(١) سورة المدثر ٣١ .

(٢) من ابن هشام .

أر منه من البِشْر مثلَ ما رأيت من غيره ، فقلت لجبريل : من هذا الملَكُ الذى قال لى مثل ما قالت الملائكة ولم يضحك ولم أر منه من البِشْر مثلَ الذى رأيت منهم . فقال جبريل : أمّا إنه لو كان ضحك إلى أحد قبلك أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك لضحك إليك ، ولكنه لا يضحك ، هذا مالكٌ صاحبُ النار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت لجبريل ، وهو من الله بالمكان الذى وصف لكم « مُطَاعٍ ثَمَّ أمين » ألا تأمره أن يرينى النار ؟ فقال بلى ، يا مالك أرِ محمداً النار ، فكشف عنها غطاءها ففارت حتى ظننت لتأخذن ما أرى .

فقلت لجبريل : مُرْه فليردَّها إلى مكانها . فأمره ، فقال لها : اخْبِى فرجعت إلى مكانها الذى خرجت منه ، فما شبَّهتُ رجوعها إلا وقوع الظل ، حتى إذا دخلت من حيث خرجت ردَّ عليها غطاءها .

قال أبو سعيد الخدرى فى حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : لما دخلتُ السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالساً تُعْرض عليه أرواح بنى آدم ، فيقول لبعضها إذا عُرضت عليه خيراً ويُسرّ به ، ويقول : روح طيبة خرجت من جسد طيب ، ويقول لبعضها إذا عرضت عليه أفّ ، ويعبس بوجهه ، روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

قال : قلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم تعرض عليه أرواح ذريته ، فإذا مرّت به روح المؤمن منهم سُرَّ بها وإذا مرت به روح الكافر منهم أنِفَ منها وكرهها .

قال : ثم رأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل ، فى أيديهم قطع من نار كالأفْهَار(١) يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدبارهم ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أَكَلَةُ أموال اليتامى ظُلْمًا .

(١) الأفهار : جمع فهر وهو الحجر الصغير قدر ما يملأ الكف .

ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط ، بسبيل آل فرعون ، يمرون عليهم كالإبل المَهْيومة⁽¹⁾ حين⁽²⁾ يُعْرَضون على النار ، يطأونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا .

ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن ، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن .

ثم رأيت نساء معلقات بِثُدُيِّهن ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم .

قال : ثم صعد بى إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا .

قال : ثم أصعد⁽³⁾ بى إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر ، قلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب ثم أصعد بى إلى السماء الرابعة ، فإذا فيها رجل ، فسألته من هو ؟ فقال : هذا إدريس . قال : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ورفعناه مكاناً عَلِيًّا » .

قال : ثم أصعد بى إلى السماء الخامسة فإذا فيها كَهْل أبيض الرأس واللحية عظيم العُثْنون⁽⁴⁾ لم أرَ كهلاً أجمل منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا المحبَّب فى قومه : هرون بن عمران .

---

(١) أى العطاش .

(٢) ط : حتى .

(٣) ابن هشام : أصعدنى .

(٤) العثنون : اللحية .

قال : ثم أصعد بى إلى السماء السادسة فإذا فيها رجل آدَمُ طويلٌ أقْنَى كأنه من رجال شَنُوءة فقلت : من هذا ياجبريل ؟ قال هذا أخوك موسى بن عمران .

ثم أصعد بى إلى السماء السابعة فإذا كهل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة ، لم أر رجلا أشبَهَ بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه . قلت : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

ثم دخل بى الجنة فرأيت فيها جارية لعْسَاء[1] فسألتُها لمن أنت ؟ وقد أعجبتنى حين رأيتها ، فقالت : لزيد بن حارثة . فبشّر بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زيداً[2] .

ومن حديث عبد الله بن مسعود أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن فى دخولها : من هذا ياجبريل ؟ فيقول : محمد . فيقولون أوَ قد بُعث ؟ فيقول : نعم . فيقولون حيَّاه الله من أخ وصاحب .

حتى انتهى به إلى السماء السابعة ، ، ثم انتهى به إلى ربه[3] ، ففرض عليه خمسين صلاة كل يوم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأقبلت راجعاً فلما مررت بموسى بن عمران ، ونِعْمَ الصاحبُ كان لكم ، سألنى : كم فرض عليك من الصلاة ؟ فقلت خمسين صلاة فى كل يوم . قال : إن الصلاة ثقيلة وإن أمتك ضعيفة ، فارجع إلى ربك فسَلْه أن يخفف عنك وعن أمتك . فرجعت فسألت رَبِّى فوضع عنى عَشْراً ، ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لى مثل ذلك ، فرجعت

---

(١) اللعس : حمرة فى الشفاه تضرب إلى السواد .

(٢) ابن هشام : زيد بن حارثة .

(٣) يحسن هنا الفهم المجازى بمايتفق مع العقيدة الإسلامية فى البعد عن التجسيم والتشبيه .

فسألت ربى فوضع عنى عشراً ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك كلما رجعت إليه ، فأرجع فأسأل حتى انتهيت إلى أن وضع عنى ذلك إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة .

ثم رجعت على[1] موسى فقال لى مثل ذلك ، فقلت : راجعتُ ربى وسألته حتى استحييت منه ، فما أنا بفاعل .

فمن أدّاهن منكم إيماناً واحتساباً لهن كان له أجر خمسين صلاة .

[عاقبة المستهزئين]

قال ابن إسحق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله صابراً محتسباً مؤدياً إلى قومه النصيحة ، على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء ، وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر من قومه ، وكانوا ذوى أسنان وشَرَف فى قومهم : الأسود بن المطلب الأسدى ، أبو زَمعة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى قد دعا عليه لِما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به فقال : اللهم أعم بصره وأثْكِلْه ولده .

والأسود بن عبد يغوث الزُّهرى والوليد بن المغيرة المخزومى ، والعاص ابن وائل السَّهْمى ، والحارث بن الطُّلاَطِلَة الخُزَاعى .

فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله عليه : « فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ وأعْرِضْ عن المشركين . إنا كَفَيْنَاكَ المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون[2] »

فأتى جبريلُ عليه السلام رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ، فمرّ به الأسود

---

(١) ابن هشام : إلى .

(٢) سورة الحجر ٩٤ — ٩٦ .

ابن المطلب فرمى[1] فى وجهه بورقة خضراء فعمى ، وسيأتى بعدُ أنه أصيب له يومَ بدر ثلاثة من ولده ، ابناه زَمعة وعقيل وابن ابنه الحارث بن زمعة ، فاستوفى اللهُ سبحانه بذلك فيه لرسوله صلى الله عليه وسلم إجابة لدعوته عليه بالعمى والثكل .

ثم مر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حَبَنًا[2] .

وعن غير ابن إسحق أنه لما نزل : « إنا كفيناك المستهزئين » نزل جبريل عليه السلام فحنا ظهر الأسود بن عبد يغوث الزُّهْرى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خالى خالى فقال له جبريل : خله عنك ، ثم حناه حتى قتله .

قال ابن إسحق : ومرَّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جُرْح بأسفل كعب رجله أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجرّ سَبَله[3] ، فانتقض به فقتله .

ومرَّ به العاص بن وائل فأشار إلى أَخْمَص رِجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف فربَض به على شُبارقةٍ[4] فدخلت فى أخمص رجله شوكة فقتلته .

ومر به الحارث بن الطُّلاَطلة فأشار إلى رأسه فامتخض قيحاً فقتله .

قال : وكان النفر الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته أبو لهب ، والحكم بن أبى العاص بن أمية ، وعُقْبة بن أبى مُعَيْط ، وعَدِىُّ ابن حمراء الثقفى وابن الأَصْداء الهُذَلى ، وكانوا جيرانه لم يُسْلم أحد منهم إلا الحكَم .

---

(١) أى جبريل .

(٢) الحبن محركة : انتفاخ البطن من داء .

(٣) سبله : فضول ثيابه .

(٤) الأصل : شبرقة . وما ذكرته عن ابن هشام . والشبارقة : شجرة عالية .

فكان أحدُهم فيما ذُكِرَ لى يَطْرح عليه رَحِمَ الشاة وهو يصلى ، وكان أحدهم يطرحها فى بُرْمته[1] إذا نصبت له حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حِجْرا[2] يستتر به منهم إذا صلى .

فكان صلى الله عليه وسلم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العُود فيقف به على بابه ثم يقول : يا بنى عبد مناف أىُّ جوار هذا ؟ ! ثم يلقيه فى الطريق .

[وفاة خديجة وأبى طالب]

قال ابن إسحق : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد[3] ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهُلْك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام[4] ، يسكن إليها ، وبهُلْك أبى طالب عمه ، وكان له عَضُداً وحِرْزًا فى أمره ومَنَعة وناصراً على قومه ، وذلك قبل مُهاجره إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع فيه[5] فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى

---

(١) البرمة : قدر من حجر .

(٢) أى حائطا .

(٣) كان الأنسب ، أن يذكر وفاة أبى طالب وخديجة قبل الإسراء . كما ذكره البيهقى وغير واحد . وقد روى عن عروة أن خديجة توفيت قبل أن تفرض الصلاة ، كما روى عن الزهرى أنه قال : توفيت خديجة بمكة قبل خروج رسول الله (ص) إلى المدينة وقبل أن تفرض الصلاة . قال البيهقى : وزعم الواقدى أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين عام خرجوا من الشعب ، وأن خديجة توفيت قبل أبى طالب بخمس وثلاثين ليلة .

(٤) البداية والنهاية : الابتلاء .

(٥) ابن هشام : تطمع به .

تبكى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبكى يا بنية فإن الله مانعٌ أباك . ويقول بين ذلك : ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب .

قال : ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثِقَلُه قال[1] بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبى طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليُعطه منا فإنا والله ما نأمن أن يَبْتَزُّونا أمرَنا .

فمشوا إلى أبى طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه ، عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب فى رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوّفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه وخُذْ له منا وخُذْ لنا منه ليَكُفَّ عنا ونَكُفَّ عنه وليدَعَنا وديننا وندعه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال : يا بن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا بك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم كلمة واحدة تعطونيها تَمْلِكون بها العرب وتدين لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعم وأبيك ، عَشْر كلمات ، قال : تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه .

قال : فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلٰهاً واحداً ؟ ! إن أمرك لعجب .

ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ،

---

(١) ابن هشام : قالت قريش بعضها لبعض .

فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا .

فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا بن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً . فلما قالها طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فجعل يقول له : أي عم ، فأنت فقلْها أستحلُّ لك بها الشفاعة يوم القيامة . فلما رأى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه قال : يا بن أخي والله لولا مخافة السُّبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلْتها ، لا أقولها إلا لأسرّك بها .

فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه فأصغى إليه بأذنيه ، فقال : يا بن أخي والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أسمع .

وخرّج مسلم بن الحجاج في صحيحه من حديث المسيّب بن حزن قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعم قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغَب عن ملة عبد المطلب ؟ ! .

فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمَا والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك . فأنزل الله عز وجل : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بَعْدِ ما تبيَّن لهم أنهم أصحاب الجحيم[1] »

---

(١) سورة التوبة ١١٣ .

وأنزل فى أبى طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين[1] » .

وفى الصحيح أيضاً أن العباس قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا طالب كان يَحُوطك ويَنْصرك ويغضب لك ، فهل ينفعه ذلك ؟ قال : نعم ، وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحضاح .

وفيه أيضاً من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذُكِر عنده عمه أبو طالب ، فقال : لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيُجْعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه .

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَهْوَنُ أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو مُنْتعل بنعلين يَغْلى منهما دماغه »

ويروى أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشر قريش ، أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع وفيكم المقدَّم الشجاع والواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا احتزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البَنِيَّة فإن فيها مرضاةً للرب وقواماً للمعاش وثباتاً للوطأة ، صِلُوا أرحامكم ولا تقطعوها فإنَّ فى صلة الرحم مَنْسَأة فى الأجل وزيادة فى العَدَد ، واتركوا البغىَ والعقوقَ ففيهما هلكتِ القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والممات ، عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبةً فى الخاص ومَكرمة فى العام[2] ، وإنى أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين فى قريش

---

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) تظهر على الخطبة أثر الصنعة فى هذه الألفاظ .

والصِّدِّيق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاء بأمر قَبِلَه الجَنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن ، وأيم الله لكأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البِرِّ فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدَّقوا كلمته وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا ودورها خرابًا وضعفاؤها أربابًا وإذا أعْظَمُهم عليه أحْوَجُهم إليه ، وأبْعَدُهم منه أحْظاهم عنده ، قد مَحَضَتْه العربُ ودادها وأعطته قيادها ، دونكم يا معشر قريش ابنَ أبيكم ، كونوا له ولاة ولِحِزْبه حماةً ، والله لا يسلك أحد منهم سبيلَه إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهَدْيِه إلا سَعِد ، ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز[1] ولدافعت عنه الدواهى .

---

(١) الهزاهز : الحروب والشدائد .

ذكر خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف

بعد مهلك عمه أبي طالب

قال ابن إسحق : ولما هلك أبو طالب ونالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم تكن تنال منه فى حياته ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وحده يلتمس النصرة مِن ثقيف والمَنَعة بهم من قومه ، ورجا أن يَقبلوا منه ما جاءهم به من الله .

فلما انتهى إلى الطائف عَمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثَقِيف وأشرافهم ، وهم إخوةٌ ثلاثة ، عَبْد يا ليل ومسعود وحبِيب ، بنو عمرو بن عمير بن عُقْدة بن غِيرَة بن عوف بن ثقيف ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جُمَح .

فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلَّمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام على من خالفه من قومه .

فقال له أحدهم : هو يَمْرُط[1] ثيابَ الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أمَا وَجَدَ أحداً يرسله غيرَك ! وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ! لئن كنتَ رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم : فيما ذكِر لى ، إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا علىّ . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومَه فيُذْئِرهم[2] ذلك عليه .

---

(١) أى ينزعها ويرمى بها .

(٢) يذئرهم : يجرئهم .

فلم يفعلوا ، أغْرَوا به سفهاءهم وعبيدهم يسُبّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس .

قال موسى بن عقبة : وقعدوا له صفين على طريقه ، فلما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صَفَّيْهم جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة ، حتى أدْمَوا رجليه .

وزاد سليمان التيمى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيمونه ، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون !

قال ابن عقبة : فخلَص منهم ورجلاه تسيلان دما فعمد إلى حائط من حوائطهم فاستظلّ فى ظل حَبَلة(١) منه وهو مكروب مُوجَع ، وإذا فى الحائط عُتْبة وشَيْبة ابنا ربيعة ، فلما رآهما كره مكانهما لِمَا يعلم من عدائهما لله ورسوله .

وذكر ابن إسحاق أن الحائط كان لهما وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اطمأن ، يعنى فى ظلّ الحبَلة قال : اللهم إليك أشكو ضَعْف قوّتى ، وقِلّة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى مَنْ تَكلُنى إلى بعيدٍ يتجهّمنى ، أم إلى عدوٍّ ملّكْتَه أمرى ، إن لم يكن بك علىّ غضبٌ فلا أُبالِى ولكنّ عافيتك هى أوسعُ لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أنْ تُنْزِل بى غضبَك أو يَحِلّ على سُخْطك ، لك العُتْبى حتى تَرْضَى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

قال : فلما رآه ابنا ربيعة ، تحركت له رَحِمهما ، فدعَوا غلاماً نصرانياً يقال له : عدّاس فقالا له : خذ قِطْفاً من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطّبق ،

---

(١) الحبلة : شجرة العنب .

ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه . ففعل عَدّاسٌ ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : بسم الله ثم أكل ، فنظر عدّاسٌ فى وجهه ثم قال له : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أى البلاد أنت يا عَدّاس وما دينك ؟ قال : نصرانى وأنا من أهل نِينَوى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال عدّاس : وما يدريك ما يونس بن مَتّى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى كان نبيًّا وأنا نبيٌّ . فأكبّ عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبِّل رأسه ويديه وقدميه . فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ، مالك تقبّل رأسى هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدى ما فى الأرض شىء خيرٌ من هذا لقد أَعْلَمنى بأمر لا يعلمه إلا نبيٌّ . قالا : ويحك يا عدّاس لا يصرفنّك عن دينك فإن دينك خيرٌ من دينه .

وقد خرّج البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها قالت للنبىّ صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أُحد ؟

فقال : لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقَبة ، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردتُ ، فانطلقت على وجهى وأنا مهموم ، فلم أستفِقْ إلا وأنا بقَرن الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فنادانى وقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك ، وقد بعث إليك ملَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ فقال : يامحمد ذلك لك ، فما شئتَ ؟ إن شئتَ

أن أطْبِق عليهم الأَخْشَبَيْن[1] . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يُخْرِج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً .

وذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا انصرف عن أهل الطائف ، ولم يجيبوه إلى مادعاهم إليه من تَصْديقه ونُصرته ، سار حتى أتى مكة ثم بعث إلى الأخنس بن شُرَيق ليُجيره ، فقال له : أنا حليفٌ والحليف لا يُجير . فبعث إلى سُهَيل بن عمرو فقال : إن بني عامرٍ لا تجيرُ على بني كعبٍ . فبعث إلى المطعِم بن عَدِي فأجابه إلى ذلك ، ثم تسلَّح المطعم وأهلُ بيته ، وخَرجُوا حتى أتوا المسجد ، ثم بَعَث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ادخل. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت وصلَّى عنده ثم انصرف إلى منزله[2] .

ولأجل هذه السابقة التي سبقت للمُطْعِم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدرٍ : لو كان المطعم بن عَدِيٍّ حَيًّا ثم كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى ، لتركتهم له .

* * *

وفي انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم لكفرهم ، راجعاً إلى مكَّة حين يئس من خير ثقيف مرَّ به النفر من الجن الذين ذكر الله تعالى في كتابه ورسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة قد قام من جوف الليل يصلِّي ، فمرَّ به أولئك النفر من الجن فيما ذكر ابن إسحاق قال : وهم فيما ذكر لي سبعةُ نفرٍ من جن أهل نَصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقصَّ الله خَبَرهم عليه صلى الله عليه وسلم قال عزَّ مِنْ قائل :

---

(١) الأخشبان : جبلان حول مكة .

(٢) ليس في سيرة ابن هشام التي بين أيدينا ذكر لخبر هذا الجوار . . . ولعله سقط منها .

« وإذ صَرَفْنَا إليك نفراً من الجنِّ يستمعون القرآنَ فلما حضروه قالوا أنْصِتُوا فلما قُضِيَ ولَّوْا إلى قومهم مُنْذِرِين . قالوا يا قومنا إنَّا سَمِعْنَا كتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ موسى مصدِّقاً لما بَيْنَ يديه يَهْدِي إلى الحقِّ وإلى طريق مُسْتَقِيم . يا قومنا أجِيبُوا داعِيَ الله وآمِنُوا به يَغْفِرْ لكم مِنْ ذنوبكم ويُجِرْكُم مِنْ عذابٍ أليم[1] » .

---

(١) سورة الأحقاف ٢٩ ـ ٣١ .

ذِكْرُ عَرْض رسول الله صلى الله عليه وسلم

نفسه على قبائل العرب

قال ابن إسحاق : ثم قَدِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكةَ وقومه أشدُّ ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعْرِض نفسَه فى المواسم إذا كانت على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبىٌّ مُرْسَل ، ويسألهم أن يُصَدِّقوه ويمنعوه حتى يبيِّن عن الله ما بعثَهُ به (١) .

قال ربيعة بن عَبّاد الدُّؤَلى : إنى لَغلامٌ شاب مع أبى بمِنًى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدِّقونى وتمنعونى حتى أبيِّن عن الله ما بعثنى به ، وخَلْفَه رجلٌ أَحْوَلُ وضىء له غديرتان ، عليه حُلَّة عَدَنِيَّة ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ، وما دعا إليه قال ذلك الرجل : يا بنى فلان إن هذا يدعوكم إلى أن تَسْلخوا اللاتَ والعُزَّى من أعناقكم ، وحُلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أُقَيْش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

قال ربيعة : فقلت لأبى : من هذا الرجل الذى يتبعه ويردُّ عليه ما قال ؟ قال : هذا عمُّه عبدُ العُزَّى بن عبد المطلب ، أبو لهب .

وعن غير ربيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى كِنْدةَ فى منازلهم ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فأبوا عليه ، وأتى كَلْباً فى منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه

---

(١) فى سيرة ابن هشام : حتى يبين لهم الله ما بعثه به . وهى مضطربة ، وما هنا مستقيم .

حتى إنه ليقول لهم : يا بنى عبد الله : إن الله عز وجل قد أحْسَن اسمَ أبيكم . فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم . وعرض نفسَه على بنى حنيفة فلم يكُ أحدٌ من العرب أقبحَ رَدًّا عليه منهم .

وذكر الواقدى بإسناد له عن عامر بن سلمة الحنفى ، وكان قد أسلم فى آخر عُمُر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : نسأل الله عز وجل أن لا يَحْرمنا الجنَّة ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءنا ثلاثة أعوام بعُكاظ وبمجنَّة وبذى المَجَاز يدعونا إلى الله عزّ وجل وأن نمنع له ظهره حتى يبلِّغ رسالات ربه ، ويشرط لنا الجنَّة ، فما استجبنا له ولا رددنا جميلاً ، لقد أفحشنا عليه وحَلُمَ عنا .

قال عامر : فرجعت إلى حَجْرٍ[1] فى أول عام فقال لى هَوْذة بن على : هل فى موسمكم هذا خبرٌ ؟ فقلت : رجل من قريش يطوف على القبائل ، يدعوهم إلى الله وحده ، وإلى أن يمنعوا ظهره حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة . فقال هوذة : من أى قريش ؟ قلت : هو من أوسطهم نسباً من بنى عبد المطلب .

قال هوذة : أهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ قلت : هو هو . قال : أمَا إن أمره سيظهر على ماها هنا ، فقلت : ها هنا قط من بين البلدان ؟ قال : وغير ما هاهنا .

ثم وافيتُ السنة الثانية فقدمتُ حَجراً ، فقال : ما فعل الرجل ؟ فقلت : رأيته على حاله فى العام الماضى . قال : ثم وافيت فى السنة الثالثة وهى آخرُ ما رأيته ، وإذا بأمره قد أمِر ، وإذا ذِكره كثير فى الناس ، وأسمع أن الخزرج تبعته ، فقدمت حجراً ، فقال لى هوذة : ما فعل الرجل ؟ فقلت : رأيت أمره قد أمِر ورأيت قومه عليه أشدّاء . فقال هوذة : هو الذى قلت لك ، ولو أنا تبعناه كان خيراً لنا ، ولكننا نَضِنٌّ بملكنا . وكان قومه قد توّجوه وملّكوه .

---

(١) حجر : موضع فى ديار بنى حنيفة .

قال عامر : فمرَّ بي سَليط بن عمرو العـامرى ، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هوذة ، فضيَّفته وأكرمته وأخبرنى من خبر هوذة أنه لم يسلم ، وقد ردّ ردًّا دون ردّ . قال : فأخبرت سليطاً خبرى لهوذة ، فأخبره سليطٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأسْلَم عامرُ بن سلمة ، ومات هوذة ابن على سنة ثمان من الهجرة كافراً على نصرانيته.

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبس إلى الإسلام فلم يقبلوا .

قال أبو وابصة العبسى فيما ذكر الواقدى : جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزلنا بمنى ، فدعانا إلى الله ، فوالله ما استجبنا له ، وما خِيرَ لنا ، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسى فقال لنا : أحلف بالله لو صدّقنا هذا الرجلَ وحملناه حتى نحلّ به وسط رحالنا لـكان الرأى . فقال له القوم : من بين العرب نفعل هذا ؟ قال : نعم من بين العرب ، فأحلف بالله ليظهرن أمره ، حتى يبلغ كلّ مَبلغ . فقال له القوم : دعنا منك لا تعرّضنا لما لا قِبَل لنا به . وطمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى ميسرة ، فـكلمه ، فقـال ميسرة : ما أحسن كلامك وأنوره ، ولـكن قومى يخالفوننى ، وإنما الرجل بقومه . فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج القوم مغادرين إلى أهليهم ، فقال ميسرة ميلوا بنا إلى فدك فإن بها يهود ، نسألهم عن هذا الرجل . فمالوا على يهود ، فأخرجوا سِفراً لهم فوضعوه ، ثم درسوا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، الأمىّ العربى يركب الحمار ويجتزئ بالـكِسْرة ، وليس بالطويل ولا بالقصـير ، ولا بالجعْد ولا بالسَّبْط ، فى عينيه حمرة مشربُ اللون . قالوا : فإن كان هذا الذى دعاكم فأجيبوه ، وادخلوا فى دينه ، فإنَّا نحسده ولا نتبعه ولنا منه فى مواطنَ بلاء عظيم ، ولا يبقى فى العرب أحدٌ إلا اتبعه أو قتله ، فـكونوا ممن يتبعه . قال ميسرة : يا قوم والله ما بقى شىء إن هذا لأمرٌ بيِّن . قال القوم : نرجع إلى الموسم ونلقاه ، ورجع القوم

إلى بلادهم ، وأبَى ذلك عليهم رجالهم ، فلم يتبعه أحدٌ منهم ، فلمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً وحجّ حجّة الوداع لقيه ميسرة ، فعرفه فقال : يا رسول الله والله ما زلتُ حريصاً على اتباعك منذ يوم رأيتك أنخْتَ بها حتى كان ما كان ، وأبى اللهُ عزّ وجل إلا ما ترى من تأخر إسلامى ، وقد مات عامةُ النّفر الذين كانوا معى ، فأين مدخلهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات على غير الإسلام فهو فى النار . فقال ميسرة : الحمد لله الذى تنقّذنى . فأسلم ، فحسن إسلامه ، وكان له عند أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه مكان .

وعن ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى عامر بن صَعصعة ، فدعاهم إلى الله عزّ وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يقال له بَيْحرة ابن فِرَاس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .

قال : أفنُهْدِف(١) نحورَنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لا حاجة لنا بأمرك .

فلما صدَر الناسُ رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم أدركته السنُّ حتى لا يقدر أن يوافى معهم موسمهم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان فى موسمهم ، فقالوا جاءنا فتًى من قريش ثم أحَدُ بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

(١) ابن هشام : أفتهدف .

فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بنى عامر ، هل لها من تلافٍ ، هل لذُنَاباها[1] من مَطْلب ؟ والذى نفس فلان بيده ما تقوَّلها إسماعيلىٌّ قط وإنها لحق ، فأين رأسكم[2] كان عنكم ؟ !

وزاد الواقدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قام عن بنى عامر وانصرف إلى راحلته ليركبها أتاه بَيْحرة ، ونسَبَه الواقدى : بَيْحرة بن عبد الله ابن سلمة ، ورجلان معه فنخَسوا به راحلته حتى سقط عنها ، ويقال قطعوا بِطانَ راحلته .

قال : فقامت امرأة منهم يقال لها ضُباعة بنت قُرط ، وكانت قد أسلمت وكانت تحت عبد الله بن جُدْعان ، فكرهته ففارقها وخلَف عليها بعده هشامُ بن المغيرة وهى أم ابنه سلمة ، وصاحت : يا بنى عامر أيؤذَى محمدٌ وأنا شاهدة ؟ ! فقام إليهم غطيف وغطفان ابنا سهيل وعُذْرة بن عبد الله بن سلمة بن قُشَير ، فضربوهم حتى هزموهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صنعوا ما صنعوا : اللهم بارك على هؤلاء ، والعن هؤلاء الآخرين . فأسْلَم الذين بارك عليهم جميعاً ومات الذين لَعَن وهم كفار .

وذكر الواقدى أيضاً من حديث جَهْم بن أبى جَهْم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على بنى عامر يدعوهم إلى الله فقام رجل منهم فقال له : عجباً لك والله ، أعياك قومُك ثم أعياك أحياء العرب كلها ، حتى تأتينا وتردد علينا مرة بعد مرة ! والله لأجعلنك حديثاً لأهل الموسم .

ونهض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان جالساً فكسر الله عز وجل ساقه ، فجعل يصيح من رجله ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه .

---

(١) مثل يضرب للفوت .
(٢) ابن هشام : فأين رأيكم .

قال الواقدى بإسناد ذكره : وأتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غسانَ فى منازلهم بعُكَاظ ، وهم جماعة كثيرة ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

قال : وأن تمنعوا لى ظهرى حتى أبلِّغ رسالات ربى ولكم الجنة .

فقال رجل منهم : هذا والله ياقوم الذى تذكر النصارى فى كتبها والذى يقولون : بَقِى من الأنبياء نبيٌّ اسمه أحمد ، فتعالوا نؤمن به ونتبعه فنكون من أنصاره وأوليائه ، فإنهم يزعمون أنه يظهر على ما بلغ الخفُّ والحافر ، فيجتمع لنا شرف الدنيا مع ما يكون بعد الموت .

قال القوم : فنكون نحن أول العرب دخل فى هذا الأمر فتنصب لنا العربُ قاطبةً ويبلغ ملوكَ بنى الأصفر فيخرجوننا من ديارهم، ولكننا نقف عنه وننظر ما تصنع العرب ، ثم ندخل فيما يدخل فيه الناس .

قال الرجل : يا محمد تأبى عشيرتى أن يتبعوا قولى فيك ، ولو أطاعونى رشدوا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذه القلوب بيد الله عز وجل .

فانصرف عنهم ثم عاد بعد ذلك إليهم فدعاهم إلى الإسلام فقالوا : نرجع إلى من وراءنا ثم نلقاك قابلا .

فرجعوا فوفد منهم نفر إلى الحارث بن أبى شِمْر ، فذكروا له أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الحارث : إياكم أن يتبعه رجلٌ منكم ، إذاً يَبيد ملكى من الشام ويتهمنى هِرَقْل .

قال : فأمسكوا عن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى محارب بن خَصفة بعكاظ فوجدهم فى محالِّهم فيهم شيخ منهم وهو جالس فى أصحابه ، فنزل رسول الله

صلى الله عليه وسلم عن راحلته ودعا إلى الله وطلبَ المنعةَ حتى يبلغ رسالات ربه ، فردَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبحَ الرد وقال له : عجباً لك ! يأبى قومُك أن يتبعوك ، وتأتى إلى محارب تدعوهم إلى ترك ما كان عليه آباؤهم ! اذهب فإنه غيرُ مُتَّبِعك رجل من محارب آخرَ الدهر .

ويُقبِل إليه سفيه منهم فقال : يا محمد ما فى بطن ناقتى هذه إن كنتَ صادقاً ؟ فلعمرى إنك لتدعى من العلم أعظم مما سألتك عنه ، تزعم أن الله يوحى إليك ويكلمك .

فأسكَت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأقبل إليه رجل منهم يقال له سلمة بن قيس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً قريباً من منزلهم ، فأراد أن يطرحه فى البئر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنحَّى عن البئر ، فجعل سلمة يقول : لو وقعتَ فى البئر استراح منك أهل الموسم .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بزمام راحلته يقودها وهم يرمونها بالحجارة حتى توارى عنهم وهو يقول : اللهم إنك لو شئت لم يكونوا هكذا ، وإن قلوبهم بيدك وأنت أعلم بهم ، فإن كان هذا عن سخط بك علىَّ فلك العُتْبَى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

وذكر قاسم بن ثابت بن حزم العَوْفى من حديث عبد الله بن عباس عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : لمّا أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعْرِض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر الصديق ؛ حتى دَفَعْنا إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر فسلَّم وكان رجلاً نَسَّابةً ومقدَّماً فى كل خير ، فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة . قال :

ومن أىّ ربيعة ؟ أمن هامَتها أم من لَهازمها [١] ؟ قالوا : بل من هامَتها العظمى ، قال : وأىُّ هامَتها العظمى أنتم ؟ قالوا : ذُهْل الأكبر .

فذكر الحديثَ فى مُنَاسبة أبى بكر إياهم ومُقاولته لهم ، وانبراء دَغْفَل ابن حَنْظلة النسَّابة إليه من بينهم وهو يومئذ غلام حين بَقل [٢] وجهُه ، وموافقته لأبى بكر ، حتى اجتذب أبو بكر زمامَ الناقة ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث مشهور تركْتُه لشهرته ، مع أن المقصود فيما بعده .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ثم دَفَعْنا إلى مجلس آخر عليهم السَّكينة والوقار ، فتقدم أبو بكر فسلَّم وكان مقدَّماً فى كل خير ، فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من شَيْبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى هؤلاء غُرَرٌ فى قومهم . وفيهم مفروق بن عمرو وهانئ بن قَبيصة والمثنّى بن حارثة والنعمان بن شَريك ، وكان مفروق ابن عمرو قد غَلبهم جمالا ولسانا ، وكانت له غَديرتان تسقطان على تَريبتيه [٣] وكان أدنى القوم مجلسا من أبى بكر .

فقال له أبو بكر : كيف العَدَد فيكم ؟ قال له مفروق : إنا لنزيد على ألفٍ ولن تُغلب ألف من قِلة . فقال أبو بكر : فكيف المَنَعةُ فيكم ؟ قال : علينا الجَهْدُ ولكل قوم جَدٌّ [٤] ، قال أبو بكر : فكيف الحربُ بينكم وبين عدوكم ؟ فقال مفروق : إنّا لأَشدُّ ما نكون غضباً حين نَلْقَى ، وإنا لأشد

---

(١) اللهازم : جمع لهزمة بكسر اللام والزاى ، وهى عظم ناتئ فى اللحى تحت الأذن وهما لهزمتان والمراد : الأطراف .
(٢) بقل : خرج شعره
(٣) الترائب : عظام الصدر .
(٤) الجد : الحظ :

مانكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجيادَ على الأولاد والسلاحَ على اللقاح فالنصر من عند الله ، يُديلنا مرةً ويُديل علينا ، لعلك أخو قريش ؟

فقال أبو بكر : أو قد بلغكم أنه رسول الله ؟ فهاهوذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، فإلام تدعو يا أخا قريش ؟

فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأنى رسولُ الله ، وإلى أن تُؤوونى وتنصرونى ، فإن قريشاً قد ظاهرتْ على أمر الله وكذّبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنىُّ الحميد .

فقال مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ماحَرّم ربكم عليكم ، ألاّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولاتقتلوا أولادكم مِنْ إملاقٍ نحن نَرْزُقكم وإيّاهم ولا تَقرَبوا الفواحش ماظهر منها وما بَطَن ، ولا تقتلوا النفس التى حرّمَ اللهُ إلا بالحقِّ ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تَعقِلون »[1] .

فقال مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يأْمُر بالعَدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبَغيِ يَعِظكم لعلكم تَذَكرون[2] » .

فقال مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِك قومٌ كذّبوك وظاهَروا عليك . وكأنه أراد أن يَشركه فى الكلام هانئُ بن قَبِيصة .

---

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة النحل .

فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال هانئ : قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش ، وإنى أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك ، لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، زلةٌ فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة ، وإنما تكون الزلة مع العَجَلة ، ومن ورائنا قومٌ نكره أن نعقد عليهم عَقْدًا ، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر . وكأنه أحبَّ أن يَشْرَكه فى الكلام المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حَرْبنا .

فقال المثنىّ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، والجوابُ هوجواب هانئ ابن قَبيصة فى تَرْك ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلستَ إلينا ليس له أول ولا آخر وإنما منزلنا بَيْنَ صَرَيَى(١) اليمامة والسمامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماهذان الصَّريان ؟ فقال : أنهارُ كسرى ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى فذَنبُ صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول ، وأما ما كان من أنهار العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول ، وإنا إنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى ألا نُحدث حَدَثًا ولا نؤوى مُحْدِثًا ، وإنى أرى أن هذا الأمر الذى تدعونا إليه هو مما تكرهه الملوك ، فإن أحبَبْت أن نؤويك وننصرك مما يَلى مياه العرب فَعَلنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإنَّ دينَ الله لن ينصره إلا مَنْ حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم إنْ لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويُفْرشكم نساءهم أتسبِّحون الله وتقدِّسونه ؟

فقال النعمان : اللهم لك ذا .

---

(١) المصرى : الماء المجتمع . النهاية ٢ /٢٨٥ .

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنا أرسلناك شاهداً ومُبَشِّراً ونَذِيرًا ، ودَاعِيًا إلى الله بإذنه وسِرَاجًا مُنِيراً » .

ثم نهض النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدى فقال : يا أبا بكر يا أبا حَسَن أيةَ أخلاق فى الجاهلية ! ما أشْرَفها ! بها يدفع الله بأسَ بعضهم عن بعض وبها يتحاجزون فيما بينهم .

* * *

قال ابن إسحق : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ويَعْرِض عليهم نفسه وماجاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة ، ولا يسمع بقادم قدم[1] مكة [من العرب][2] له اسم وشرف إلا تصدّى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده .

وقدِم سُوَيْدُ بن صامت أخو بنى عمرو بن عوف مكة حاجًّا أو مُعْتمراً ، فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له سُويد : فلعل الذى معك مثلَ الذى معى .

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الذى معك ؟ قال : مجلّة لقمان ، يعنى حكمة لقمان .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها علىّ فعرضها عليه . فقال : إن هذا الكلام حَسَن والذى معى أفضل من هذا ، قرآنٌ أنزله الله علىّ هو هدى ونور .

---

(١) ابن هشام : يقدم .
(٢) من ابن هشام .

فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يَبْعُد منه ، وقال : إن هذا القول حَسَن .

ثم انصرف عنه فقدم المدينةَ على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج قَبْل بُعَاث .

فإنْ كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قُتل وهو مُسْلم .

وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل ، لجَلَده وشِعره وشرفه ونسبه وهو القائل :

ألا رُبَّ من تدعو صديقا ولو ترى ... مقالته بالغيب ساءك ما يَفْرِى[1]
مقالتُه كالشَّهدِ ما كان شاهــداً ... وبالغيب مأثور[2] على ثُغْرة النحرِ
يسرُّك باديه وتحتَ أديمــه ... تميمةُ غِشٍّ تبترى[3] عَقَب الظهر
تُبينُ لك العينــان ما هو كاتمٌ ... من الغلّ والبغضاء بالنظر الشَّزْرِ
فرِشْنِي بخـــيرٍ طال ما قد بَرَيْتَنِى ... وخيرُ الموالى مَنْ يَرِيشُ ولا يَبْرى

* * *

ولما قدم أبو الحَيْسر أنسُ بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشْهل فيهم إياسُ بن معاذ يلتمسون الحِلْفَ من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وأنزل علىَّ الكتاب . ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

---

(١) يفرى : يفترى .
(٢) المأثور : السيف الموشى .
(٣) تبترى : تقطع .

فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حَدَثاً : أَىْ قوم ، هذا والله خير لكم مما جئتم له .

فيأخذُ أبو الحَيْسر حفنةً من البَطْحاء فضرب بها وجهَ إياس وقال : دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس . وقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرفوا إلى المدينة ، فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج .

ثمَ لم يلبث إياس أن هلك ، فأَخبر مَنْ حضر مِنْ قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلّل الله ويُكَبِّره ويحمده ويسبِّحه حتى مات .

فما كانوا يشكُّون أنْ قدمات مسلما ، لقد كان استشعر الإسلامَ فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمع .

بَدْء إســـلام الأنصار
وذكر العَقَبة الأولى

قال ابن إسحق : فلما أراد الله إظهارَ دينه وإعزاز نبيه وإنجازَ موعوده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفرٌ من الخَزْرج . قال : أمِنْ موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلِّمكم ؟ قالوا : بلى .

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله به[1] فى الإسلام أنّ يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهلَ شِرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد عَزُّوهم[2] ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبيًّا مبعوثًا الآنَ قد أظلَّ زمانُه نتّبعه فنقتلكم معه قتلَ عادٍ وإرَم .

فلما كلّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلّموا والله إنه لَلنّبى الذى توعّدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الاسلام وقالوا له : إنا تركنا قومنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر مابينهم ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلَ أعزُّ منك . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا .

---

(١) ابن هشام : بهم .
(٢) ابن هشام : غزوهم . وعزوهم : غلبوهم

وهم فيما ذكر لي ، ستة نفر من الخزرج : منهم من بني النّجار أسعد بن زُرارة أبو أمامة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عَفراء . ومن بني زُريق رافع بن مالك بن العجلان ، ومن بني سلمة قُطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن نابي ، وجابر بن عبد الله بن رِئاب .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم يَبْقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذِكرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلا فيهم من الستة المسمَّين قبلُ : أبوأمامة وعوف ورافع وقُطبة وعُقبة ، ومن غير الستة من الخزرج أيضاً : ذَكوان بن عبد قيس بن خَلَدَة الزُّرقي وعُبَادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة من بني غُصَيْنة من بَلِيّ حليف لهم ، والعباس بن عُبادة بن نَضَلة العَجْلاني ، ومعاذ بن الحارث بن رفاعة ، وهو ابن عفراء ، ومن الأوس : أبو الهيثم بن مالك بن التَّيهان ، وعُوَيم بن ساعدة ، فلقوه بالعَقَبة ، وهي العقبة الأولى .

قال عُبَادة بن الصامت : كنت ممن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء[1] وذلك قبل أن تُفْرَض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي بُهتاناً نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف .

قال : فإنْ وَفَيْتُم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً [فأصبتم بحدّه

---

(١) هي البيعة المذكورة في القرآن في قوله تعالى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف » .

فى الدنيا فهو كفارةٌ له ، وإن سُتِرتم عليه إلى يوم القيامة[1]] فأمركم إلى الله ، إن شاء عذَّب وإن شاء غفر .

قال ابن إسحق : فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مُصْعَب بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَى ، وأمره أنْ يُقْرِئهم القرآنَ ويعلّمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، فكان مصعب يسمّى المقرئ بالمدينة ، وكان مَنْزِلهُ على أسعد بن زُرارة بن عدس أبى أمامة ، وكان يصلّى بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يَؤمَّه بعضٌ .

---

(١) سقطت هذه الجملة من ابن هشام .

إسلام سعد بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير على يدى

مُصْعب بن عمير رضى الله عنه

ذكر ابن إسحق عمّن سمّى من شيوخه أن أسعدَ بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دارَ بنى الأشهل ودار بنى ظَفَر ، فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر ، فجلسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسْلَم .

فلما سمع بذلك سعد بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير وهما يومئذ سَيِّدا قومهما بنى عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه ، قال سعد لأُسَيد: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارَيْنا ليسفِّها ضعفاءنا فازجُراهما وانْهَهُما عن أن يأتيا داريْنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث علمتَ كفيتكَ ذلك ، هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدَما .

فأخذ أسيد حَرْبَتَه ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصْدُق الله فيه .

قال : فوقف عليهما مُتَشتِّماً فقال : ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا ، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال له مُصْعَب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قَبِلْتَه وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تكره .

قال : أنصفتَ ثم رَكَزَ حَرْبَتَه وجلس إليهما ، فكلّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : لَعرفنا فى وجهه الإسلامَ قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهّله .

ثم قال : ما أحسن هذا وأجمَلَه ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتتطهّر وتطهر ثوبيك ثم تتشهد الحق ثم تصلّى .

فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهّد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما : إنّ ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ .

ثم انصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلتَ ؟ قال كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت . وقد حُدِّثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخْفِروك .

فقام سعد مُغْضَبًا مبادراً متخوفاً للذى ذكر له من بنى حارثة ، فأخذ الحرْبة من يده ثم قال : والله ما أراكَ أغْنَيْتَ شيئاً .

ثم خرج إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أُسَيدا إنما أراد أن يَسمع منهما ، فوقف عليهما متشتما ثم قال : يا أبا أمامة والله لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى ، أتغشانا فى دارَيْنا بما نكره !

وقد قال أسعد لمصعب بن عمير : أَىْ مصعب ، جاءك والله سيدُ مَنْ وراءه مِن قومه ، إنْ يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان .

فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيتَ أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه وإن كرهته عزَلْنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصفتَ . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن .

قالا : فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهُّله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين ؟

قالا : تغتسل فتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين .

فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهّد شهادة الحق وركع ركعتين ، ثم أخذ حربته فأقبل عامدا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حُضَير ، فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا أفضلنا رأيا وأيمُنَنا نقيبةً . قال : فإنّ كلام رجالكم ونسائكم حرام علىّ حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

قال : فوالله ما أمْسَى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مُسْلماً أو مُسْلمة . ورجع مُصْعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناسَ إلى الإسلام ، حتى لم يبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخَطْمة ووائل وواقف ، وتلك أوْسُ الله ، وهم من الأوس بن حارثة

وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسْلَت وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى بدر وأُحُد والخندق ، وقال فيما رأى من الإسلام وما اختلف الناس فيه من أمره :

أربَّ الناسِ أشياءٌ ألمّتْ يُلَفُّ الصعبُ منها بالذَّلولِ
أربَّ الناسِ إمَّا إن ضَلَلْنا(١) فيسِّرْنا لمعروفِ السبيلِ
فلولا ربُّنا كنا يهودًا وما دينُ اليهود بذى شُكولِ(٢)

---

(١) ابن هشام : أما إذ ضللنا .

(٢) يعنى أنه لا نظير له من الحق ، والشكول جمع شكل وهو المثل والشبيه .

ولولا ربُّنـا كنا نصارى مع الرهبان فى جَبَـل الجليلِ (١)
ولـكنا خُلِقْنـا إذ خُلِقْنـا حنيفاً دينُنـا عن كل جيـلِ
نَسُوق الهَدْىَ تَرْسُفُ مُذْعنات مُـكَشَّفَةَ المَنَاكب فى الجُلُولِ (٢)

ذكر العقبة الثانية

قال ابن إسحق : ثم إن مُصْعَب بن عُمَيْر رجع إلى مكة ، وخَرج مَنْ خرج من الأنصار مِن المسلمين مع حُجَّاج قومهم من أهل الشرك حتى قدِموا مكة ، فواعدوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم العَقَبةَ من أوسط أيام التشريق ، حين أراد الله ما أراد من كرامتـه والنصر لنبيه وإعزاز الإسـلام وأهله وإذلال الشرك وأهله .

حدَّث كعبُ بن مالك ، وكان ممن شهد العقَبة وبايع بها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين وقد صَلَّيْنا وفَقُهْنَا ، ومعنا البَرَاء بن مَعْرور سيدنا وكبيرنا ، فلما وَجَّهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال لنـا البراء : يا هؤلاء إنى قد رأيت رأياً ووالله ما أدرى أتوافقونى عليه أم لا . فقلنا : وما ذاك ؟ قال : رأيت ألاَّ أَدَع هذه البَنِيَّةَ منِّى بظَهْرٍ ، يعنى الـكعبة ، وأن أصلِّى إليها . فقلنا : والله ما بلَغنا أن نبينا يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه . فقال : إنى لمُصَلٍّ إليها . فقلنا له : لـكنا لا نفعل .

فـكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الـكعبة ، حتى قدمنا مكة ، فلما قدمناها وقد كنا عِبْنَا عليه ما صنع ، قال لى : يابن أخى انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسأله عما صنعتُ فى سفرى هذا

---

(١) قال السهيلى : الجليل بالجيم التمام ، وهذا الجبل من جبال الشام معروف بهذا الاسم .
(٢) الجلول : جمع جل وهو ما تلبسه الدابة لتصان به .

فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء لِمَا رأيت من خلافكم إياى فيه .

فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا لا نعرفه لم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عنه فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . فقال : هل تعرفان العباسَ عمَّه ؟ قلنا : نعم . وقد كنا نعرف العباسَ كان لا يزال يَقْدَم علينا تاجراً . قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس .

فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس معه ، فسلّمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البرّاء بن معرور سيد قومه وهذا كعب بن مالك .

فوالله ما أنسى قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألشاعر ؟ قال : نعم .

فقال له البراء بن معرور : يا نبى الله إنى خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام، فرأيت ألاّ أجعل هذه البَنِيَّةَ منى بظَهْرٍ ، فصليت إليها ، وخالفنى أصحابى فى ذلك ، حتى وقع فى نفسى منه شىء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟

قال : قد كنتَ على قِبلةٍ لو صبرتَ عليها .

فرجع البراء إلى قِبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معنا إلى الشام .

قال : وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات ، وليس كما قالوا ، نحن أعلم به منهم .

قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج وواعَدْنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم العقبةَ من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حَرَام ، أبو جابر ، سيدٌ من ساداتنا أخذناه معنا وكنا نكتم مَنْ معنا من المشركين أمرَنا ، فكلمناه وقلنا : يا أبا جابر إنك سيدٌ من ساداتنا وشريف من أشرافنا ،

وإنا نَرْغَبُ بك أن تكون حطباً للنار غدا . ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العَقَبَة ، فأسْلَمَ وشهد معنا وكان نقيباً . فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل تسلُّل القَطَا مُسْتَخْفين ، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا ، نُسَيبة بنت كعب أم عُمارة ، إحدى نساء بني مازن بن النجار ، وأسماء بنت عدى بن عمرو بن نابى ، أم مَنيع ، إحدى نساء بني سَلَمة ، فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحبَّ أن يحضر أمرَ ابن أخيه ويتوثق له .

فلما جلس كان أول متكلم العباسُ فقال : يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب إنما يسمون هذا الحيَّ من الأنصار الخزرج ، خَزْرجِها وأَوْسِها ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومه ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبَى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمّلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدَعُوه ، فإنه في عزو منعة من قومه وبلده .

فقلنا له : قد سمعنا ماقلت . فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما(١) تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع

(١) ط : بما .

منه أُزُرَنا(١) فبايِعْنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحَلْقة ورثناها كابراً عن كابر .

فاعترض القولَ ، والبراء يتكلم ، أبو الهيثم بن التَّيهان فقال : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا ونحن قاطعوها ، يعنى اليهود ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعنا ؟

قال : فتبَسَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدمُ الدمُ والهَدْمُ الهَدْمُ أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

قال كعب : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيباً يكونون(٢) على قومهم بما فيهم .

فأخرَجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، من الخزرج : أبوأمامة أسعد بن زُرَارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رَوَاحة ، ورافع بن مالك بن العَجْلان ، والبَرَاء بن مَعْرور ، وعبد الله بن حَرَام ، وعُبَادة ابن الصامت وسعد بن عبادة بن دُلَيم ، والمنذر بن عمرو . ومن الأوس : أُسَيد ابن حُضَير ، وسعد بن خَيْثَمة ورفاعة بن عبد المنذر .

قال ابن هشام : وأهل العلم يَعُدُّون فيهم أبا الهيثم بن التَّيِّهان ولا يعدون رفاعة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كُفَلَاء كَكَفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيلٌ على قومى . قالوا : نعم .

وحدَّث عاصم بن عمر بن قَتَادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عبادة بن نَضْلة ، أخو بنى سالم بن عوف :

---

(١) الأزر : النساء أو الأنفس .
(٢) ابن هشام : ليكونوا .

يا معشر الخزرج : هل تدرون عَلَامَ تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حَرْب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهِكَتْ أموالكم مصيبةً وأشرافكم قَتْلاً أسْلَمْتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزيُ الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وَفَيْنا ؟ قال : الجنة .

قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

قال عاصم : والله ما قال ذلك العباسُ إلا ليَشُدَّ العَقْدَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أعناقهم . وقال غيره : ما قاله إلا ليؤخر القومَ تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول فيكون أقوى لأمر القوم . فالله أعلم أي ذلك كان .

قال ابن إسحق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرَب على يده ، وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التَّيِّهان .

وفي حديث مَعْبَد بن كعب عن أخيه عبد الله عن أبيه قال : كان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البَرَاء بن مَعْرور ، ثم بايع القوم ، فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفَذِ صوتٍ سمعتُه قط : يا أهل الجَبَاجب ، وهي المنازل ، هل لكم في مُذَمَّم والصُّبَّاء معه قد اجتمعوا على حربكم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أَزَبّ العَقَبة هذا ابن أَزْيَب ، ويقال ابن أَزْيَب ، أتسمع أيْ عدوَّ الله ، أمَا والله لأفرغَنَّ لك .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفَضُّوا إلى رحالكم . فقال له العباس

ابن عُبَادة بن نَضْلة : والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل مِنًى بأسيافنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أُومَرْ بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم . فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها .

فلما أصبحنا غدت علينا جِلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا ، فقالوا : يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين ظهورنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما مِنْ حىٍّ فى العرب أبغض إلينا أن تنشب الحربُ بيننا وبينهم منكم .

فانبعث مَنْ هنالك مِنْ مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء ، وما علمناه . وصَدَقوا ، لم يعلموه ، وبعضنا ينظر إلى بعض .

ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام المخزومى ، وعليه نعلان له جديدان فقلت له كلمة ، كأنّى أريد أن أُشْرِكَ القوم بها فيما قالوا : يا أبا جابر ما تستطيع وأنت سيِّد من سادتنا أن تتخذ مثل نعلى هذا الفتى من قريش ؟ ! فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ، ثم رمى بهما إلىّ فقال : والله لتنتعلنّهما .

قال : يقول جابر : مَهْ أحْفَظْتَ والله الفتى ، فاردد إليه نعليه . قلت : والله لا أردُّهما ، فَأْلٌ والله صالح والله لئن صدق الفَأل لأَسْلُبنّه .

وفى حديث غير كعب أنّهم أتوا عبدَ الله بن أبىّ بن سلُول ، فقال مثل ما قال كعب من القول ، فقال لهم : إن هذا لأمرٌ جسيم ، ما كان قومى ليتفوّتوا علىّ بمثل هذا ، وما علمته كان . فانصرفوا عنه .

ونفر الناس من منىً ، فتنطَّس[1] القومُ الخبرَ ، فوجدوه قد كان ، وخرجوا فى طلب القوم ، فأدركوا سعدَ بن عبادة بأذاخِر والمنذرَ بن عمرو

---

(١) التنطس : المبالغة فى النظر فى الأمور .

أخا بنى ساعدة ، وكلاهما كان نقيباً ، فأمّا المنذر فأعجز القوم ، وأمّا سعدٌ فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسعِ[1] رَحْلِهِ ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكّة ، يضربونه ويجذبونه بجُمّته[2] ، وكان ذا شَعْر كثيف .

قال سعدٌ : فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع نفرٌ من قريش ، فيهم رجل وضىء أبيض شَعْشَاع[3] حلوٌ من الرجال .

قال فقلت فى نفسى : إن يك عند أحدٍ من القوم خير فعند هذا .

فلما دنا منّى ، رفع يده فلكمنى لكمة شديدة ، فقلت فى نفسى : لا والله ، ما عندهم بعد هذا من خير .

فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى إلىّ رجلٌ ممن معهم ، فقال : ويحك ! أمّا بينك وبين أحد من قريش تجارة ولا عهد ؟ فقلت : بلى والله لقد كنت أجيرُ لجُبَيْر بن مُطْعِم تجاره وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث بن حرب بن أمية . قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما .

قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما عند الكعبة ، فقال لهما : إن رجلا من الخزرج الآن يُضْرَب بالأبطح لَيَهْتِف بكما ويذكر أن بينه وبينكما جواراً . قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عُبَادة . قالا : صدق والله ، إنْ كان لَيجير لنا تُجّارنا ويمنعهم أن يُظلموا ببلده .

قال : فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم ، وكان الذى لكَم سعداً سُهَيل ابن عمرو .

---

(١) النسع : الشراك الذى يشد به الرحل .
(٢) الجمة : شعر الرأس المجتمع .
(٣) الشعشاع : الطويل الحسن .

قال ابن هشام : والذى أَوَى له أبو البَخْتَرى بن هشام .

قال ابن إسحق : فكان أول شعر قيل فى الهجرة بيتين قالهما ضِرَارُ بن الخطاب بن مرداس أخو بنى محارِب بن فِهْر . قال :

تداركتَ سَعْدًا عنوةً فأخذتَه ... وكان شِفَاءٌ لو تداركتَ مُنذرَا
ولو نِلْتَهُ طُلَّت هناك جراحةٌ ... وكان حقيقا أن يُهان ويُهْدَرَا

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

لستَ إلى عمرو(١) ولا المرء منذرٍ ... إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمَّرَا
فلولا أبو وَهْبٍ لمرّت قصائدٌ ... على شرف البَرْقاء(٢) يَهْوِين حُسَّرَا
أتفخر بالكتّان لمّا لبسته ... وقد تَلْبَس الأنباطُ رَيْطا مُقَصَّرا(٣)
فلا تَكُ كالوَسْنَان يَحْلُمُ أنه ... بقريةِ كسرى أو بقرية قَيْصَرَا
ولا تَكُ كالثَّكْلَى وكانت بمَعْزِل ... عن الثُّكْل لو كان الفؤادُ تفكَّرَا
ولا تك كالشاة التى كان حَتْفُها ... بحَفْر ذراعيها فلم تَرْضَ مَحْفَرا
ولا تك كالعاوى فأقبل نحرَه ... ولم يخشه سهمٌ من النَّبْل مُضْمَرَا
فإنّا ومَنْ يُهْدِى القصائدَ نحونا ... كمُسْتَبْضِعٍ تمرا إلى أرضِ خَيْبَرَا

* * *

قال : فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها ، وفى قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجَمُوح ، وكان ابنه معاذٌ شهد العقبة وبايَع بها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عمرو سيداً من سادات

(١) ابن هشام : سعد .
(٢) البرقاء : موضع بالبادية .
(٣) الريط : الملاحف البيض .

بنى سلمة وشريفاً من أشرافهم ، وكان قد اتخذ فى داره صنما من خشب يقال له مناة كما كانت الأشراف يصنعون ، يتخذه إلها يعظمه ويطهره[١] ، فلما أسلم فتيانُ بنى سلمة ، ابنه معاذ ومعاذ بن جبل ، فى فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة ، كانوا يُدْلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه فى بعض حُفَر بنى سلمة وفيها عِذَرُ الناس ، منكَّسًا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال : ويلكم مَنْ عَدَا على آلهتنا هذه الليلة ! ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسله وطهّره وطيّبه ، ثم قال : أمَا والله لو أعلم مَنْ فعل بك هذا لأُخزينه .

فإذا أمسى ونام عمرو عَدَوْا عليه ففعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيّبه ، ثم يَعْدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهّره وطيّبه ، ثم جاء بسيفه فعلّقه عليه ثم قال له : إنى والله ما أعلَمُ من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنِعْ فهذا السيف معك .

فلما أمْسَى ونام عمرو عَدَوْا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرَنوه به بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عِذَرٌ من عِذَر الناس ، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه فخرج يَتّبعه حتى وجده فى تلك البئر منكَّسًا مقروناً بكلب ميت ، فلما رآه أبصر[٢] شأنَه ، وكلّمه مَنْ أسْلَمَ من قومه فأسْلَمَ رحمه الله وحَسُن إسلامه ، فقال حين أسْلَم وعرف

---

(١) ابن هشام : تتخذه إلها تعظمه وتطهره .

(٢) ابن هشام : وأبصر . وما هنا أصح .

من الله ما عرف ، يذكر[1] صنمه ذلك وما أبصر من أمره ، ويشكر الله الذى أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنتَ إلهاً لم تكُنْ أنت وكلبٌ وَسْطَ بئرٍ فى قَرَنْ[2]

أُفٍّ لمَلْقاك إلهاً مُسْتَدنْ[3] الآن فتَّشناك عن سوء الغَبَنْ

الحمد لله العلىِّ ذى المِنَنْ الواهب الرزّاق ديّان الدِّيَنْ[4]

هو الذى أنقذنى من قَبْل أنْ أكون فى ظلمة قبرٍ مُرْتَهن

[الإذن بالقتال]

قال ابن إسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ بيعة العقبة لم يُؤْذَن له فى الحرب ولم تحلَّل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله تبارك وتعالى والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه حتى فتنوهم عن دينهم ونَفَوْهم عن بلادهم ، فهُمْ مِنْ بَيْن مفتون فى دينه وبين معذَّب فى أيديهم وبين هارب فى البلاد منهم ، منهم بأرض الحبشة ، ومنهم بالمدينة وفى كل وجه .

فلما عتَتْ قريش على الله وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذّبوا نبيه وعذّبوا ونفوا مَنْ عَبَده ووحّده وصدّق نبيه واعتصم بدينه ، أَذِنَ اللهُ تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبَغَى عليهم .

---

(١) ابن هشام : وهو يذكر .

(٢) القرن : الحبل .

(٣) مستدن : ذليلا مستعبدا .

(٤) الدين : جمع دينة وهى العادة ، ويقال لها أيضا دين . ويجوز أن يكون أراد بالدين : الأديان أى هو ديان أهل الأديان، ولكن جمعها على الدين لأنها ملل ونحل . انظر الروض الأنف .

فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بَغَى عليهم ، فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء ، قول الله تبارك وتعالى : « أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نَصْرِهم لَقَدير ، الذين أُخْرِجوا من ديارهم بغير حَقٍّ إلا أن يقُولوا ربُّنا اللهُ ، ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بَعْضَهم ببعضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَواتٌ ومَسَاجِدُ يُذْكَر فيها اسمُ اللهِ كثيراً ، ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُره إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عزيزٌ ، الذين إنْ مكَّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة وأَمَروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكَرِ ولله عاقبةُ الأُمورِ[1] » .

ثم أنزل الله عليه : « وقاتِلُوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ » أي حتى لا يُفْتَن مؤمن عن دينه « ويكونَ الدِّينُ لله » أي وحتى يُعْبَد اللهُ لا يُعْبَد غيره[2] .

---

(١) سوره الحج ٣٩ — ٤١ .

(٢) ابن هشام : ٤٦٨غيره .

بَدْء الهجرة إلى المدينة

قال ابن إسحق : فلما أذن الله تبارك وتعالى لرسوله فى الحرب ، وبايعه هذا الحىُّ من الأنصار على الإسلام والنُّصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه مِن قومه ومَنْ معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها .

فخرجوا أرسالا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

فكان أول من هاجر إليها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش من بنى مخزوم : أبو سلَمة بن عبد الأسد ، هاجر إليها قبل بيعة أصحاب العقبة بسَنة ، وكان قدِم مكةَ من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسْلَمَ من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً .

قالت أم سلمة : لما أَجْمَع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رَحَل لى بعيرَه ثم حملنى عليه وحمل معى ابنى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بى يقود بعيره ، فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسُك غلَبْتَنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه عَلاَمَ نتركك تسير بها فى البلاد ؟ !

قالت : فنزعوا خِطَام البعير من يده فأخذونى منه ، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا . فتجاذَبوا بُنَىَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده ! وانطلق به بنو عبد الأسد .

وحبسني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة ، ففُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني ، فكنت أخرج كلَّ غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكي حتى أُمْسِي ، سنةً أو قريباً منها . حتى مرَّ بي رجل من بني عمي فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة : ألا تَحرَّجون من هذه المسكينة[1] ! فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئتِ . وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني ، فارتحلتُ بعيري ثم أخذتُ بُنيَّ فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله ، قلت : أتبلَّغ بمن لقيت حتى أقْدَم على زوجي .

حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمانَ بن طلحة بن أبي طلحة ، أخا بني عبد الدار ، فقال : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ قلت : أريد زوجي بالمدينة . قال : أوَ ما معك أحد ؟ قلت : لا والله ، إلا الله وبُنَيَّ هذا ! قال : والله مالك من مَتْرَك . فأخذ بخطام البعير يقودني معه يَهْوِي بي ، فوالله ما صحبتُ رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه كان إذا بلغَ المنزلَ أناخَ بي ثم استأخرَ عني ، حتى إذا نزلتُ استأخر ببعيري فحطَّ عنه ثم قيَّده في الشجر ، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرَّوَاحُ قام إلى بعيري فرحَّله ثم استأخر عني فقال اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى ينزل بي .

فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقْدَمني المدينة ، فلما نظرنا إلى قرية بني عمرو ابن عوف وكان أبو سلمة بها ، قال : زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة الله .

---

(١) ابن هشام : ألا تخرجون هذه المسكينة . وذكر محققو الكتاب أن الأصل : ألا تخرجون من هذه المسكينة . فيكون ما هنا أولى وأصح .

ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فكانت أم سلمة تقول : ما أعلم أهلَ بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آلَ أبى سلمة ، وما رأيت صاحبا كان أكرم من عثمان بن طلحة !

* * *

قال ابن إسحق : ثم كان أولَ من قدمها من المهاجرين بعد أبى سلمة عامرُ ابن ربيعة حليف بنى عدى بن كعب ، معه امرأته ليلى بنت أبى حَثْمة ابن غانم ، ثم عبد الله بن جحش بن رِئاب من بنى غَنْم بن دودان بن أسد بن خزيمة حليف بنى أمية بن عبد شمس ، احتمل بأهله وبأخيه أبى أحمد عُبَيْد ابن جحش ، وكان أبو أحمد رجلا ضرير البصر يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعراً وكانت عنده الفَرْعة بنت أبى سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب .

فَغُلِقَتْ دارُ بنى جحشٍ هجرةً ، فمرَّ بها عُتْبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام فنظر إليها عتبةُ تَخْفِق أبوابها يَبَاباً[1] ليس فيها ساكن ، فتنفس الصعداء ثم قال :

وكلُّ دارٍ وإن طالت سلامتُها يوماً ستُدْرِكها النكباء والحُوبُ[2]

ولما خرج بنو جحش من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخى بنى عامر بن لؤى ، فذكَر ذلك عبد الله بن جحش ، لمّا بلغه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً فى الجنة خيراً منها ؟ قال : بلى . قال : فذلك لك .

---

(١) يبابا : قفرا .

(٢) الحوب هنا : الحزن والوحشية .

فلما افتتح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكة كلمه أبو أحمد فى دارهم فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الناس لأبى أحمد : يا أبا أحمد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجعوا فى شىء أصيب منكم فى الله . فأمسك عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

وكان بنو غَنْم بن دُودان أهل الإسلام قد أوْعَبوا[2] إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هجرةً رجالُهم ونساؤهم ، فقال أبو أحمد بن جحش يذكر هجرة بنى أسد بن خزيمة من قومه إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله ، وإيعابهم فى ذلك حين دُعُوا إلى الهجرة :

لو حلفَتْ بَيْن الصفا أمُّ أحمدٍ ... ومَرْوَتِها بالله بَرَّت يمينُها
لَنَحْنُ الأولى كنَّا بها ثم لم نَزَلْ ... بمكةَ حتى عادَ غثًّا سمينُها
بها خيَّمت غنم بن دودان وابتنت ... وما أُرعدت غَنْمٌ وخفَّ قطينها
إلى الله تعدو بين مَثْنَى وواحدٍ ... ودينُ رسولِ الله بالحق دِينها

وقال أبو أحمد أيضاً :

لمّا رأتنى أمُّ أحمد غاديًا ... بذمةِ مَنْ أَخْشَى بغَيبٍ وأَرْهَبُ
تقول فإما كنتَ لا بُدَّ فاعلا ... فيَمِّمْ بنا البُلْدانَ ولْتَنْأَ يَثْرِبُ
فقلت لها : ما يثربٌ بمظنةٍ ... وما يَشَإِ الرحمٰنُ فالعبدُ يَرْكَبُ
إلى الله وَجْهى والرسولِ ومن يُقِمْ ... إلى الله يومًا وجهَه لا يخيَّبُ
فكم قد تَرَكْنا مِنْ حميمٍ مُناصحٍ ... وناصحةٍ تبكى بدمعٍ وتندبُ
تَرَى أنَّ وَتْرًا نأْيُنا عن بلادنا ... ونحن نرى أنَّ الرغائبَ نَطْلُبُ

---

(١) خبر اغتصاب دار بنى جحش عن غير ابن إسحق .
(٢) أى هاجروا جميعا لم يبق منهم أحد .

دعوتُ بنى غَنْمٍ لحقنِ دمائهم ولِلحقِّ لمّا لاح للناس مَلْحَبُ(١)
أجابوا بحمدِ اللهِ لمّـا دعاهمُ إلى الحقِّ داعٍ والنجاحِ فأوْعَبُوا
وكنا وأصحاباً لنا فارقوا الهُدَى أعانوا علينا بالسلاح وأجْلَبُوا
كفَوْجَيْن أمّا منهما فموفّقٌ على الحق مَهْدِيٌّ وفوجٌ معذَّبُ
طغَوا وتمنّوْا كِذْبةً وأزلَّهم عن الحق إبليسٌ فخابوا وخُيِّبوا
ورُغْنَا(٢) إلى قولِ النبيِّ محمـــدٍ فطاب وُلاةُ الحق منا وطُيِّبوا
نَمُتُّ بأرحامٍ إليهم قريبةٍ ولا قُرْبَ بالأرحام إذ لا تُقَرَّبُ
فأيُّ ابن أختٍ بعدَنا يأمَنَنَّكم وأيةُ صِهْرٍ بعد صِهْرِىَ يُرْقَبُ(٣)
ستَعْلمُ يوماً أيُّنا إذ تَزَايَلوا وزُيِّلَ أمر الناس للحقِّ أصْوَبُ

* * *

ثم خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعيّاش بن أبى ربيعة المخزومى، حتى قدِما المدينة.

قال عمر رضى الله عنه: لمّا أردنا الهجرةَ إلى المدينة اتَّعَدْتُ أنا وعيّاش ابن أبى ربيعة وهشام بن العاص التناضُبَ مِنْ أضاة بنى غِفَار فوق سَرِف(٤)، وقلنـا: أيُّنا لم يُصْبِح عندها فقد حُبِس فليَمْضِ صَاحباه. فأصبحت أنا وعياش عندها وحُبِس عنا هشام وفُتِن فافتتن.

---

(١) ملحب: طريق واضح.
(٢) ابن هشام: ورعنا. ومعناها رجعنا.
(٣) ابن هشام: ترقب.
(٤) التناضب: يقال هو اسم موضع، ومن رواه بالكسر فهو جمع تنضب وهو شجر واحدته تنضبة. وأضاة بنى غفار: موضع على عشرة أميال من مكة، وسرف موضع على ستة أميال من مكة.

فلما قدِمْنا المدينة نزلنا بقُباء ، وخرج أبو جهل والحارث أخوه إلى عيّاش ، وكان ابنَ عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا فقالا له : إن أمك نذرت ألاّ تمسَّ رأسها بمشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك .

فرَقَّ لها ، فقلت له : يا عياش والله إنْ يريدك القومُ إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمَّك القملُ لامتشطت ! ولو قد اشتد عليها حَرُّ مكة لا ستظلَّت .

فقال : أَبَرُّ قَسَمَ أمي ولى هناك مالٌ فآخذه .

قلت : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ، فلَكَ نصفُ مالى ولا تذهب معهما .

فأبى علىَّ إلا أن يخرج معهما ، فلما أَبى إلا ذلك قلت : أمَّا إذ قد فعلتَ ما فعلتَ فخذ ناقتى هذه فإنها نجيبةٌ ذَلُول ، فالزم ظهرها فإنْ رابَك من القوم رَيْب فانجُ عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : والله يا أخى[1] لقد استغلظتُ بعيرى هذا أفلا تُعْقِبنى على ناقتك هذه ؟ قال : بلى . قال : فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عَدَوْا عليه فأوثقوه رباطاً ثم دخلا به مكة ، وفَتَنَاه فافتتن !

وفى غير حديث عمر أنهما دخلا به مكة نهاراً مُوثقاً ثم قالا : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا .

قال عمر رضى الله عنه فى حديثه : فكنا نقول : ما اللهُ بقابلٍ ممن افتتن

---

(١) ابن هشام : يا بن أخى . وما هنا أصح لقوله قبل : وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما .

صَرْفاً ولا عَدْلاً ولا توبة ، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله تبارك وتعالى فيهم وفى قولنا وقولهم لأنفسهم : « قل ياعبادىَ الذين أسْرَفوا على أنفسهم لا تَقْنَطوا مِنْ رحمةِ الله ، إن الله يَغفِرُ الذنوبَ جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأَنيبوا إلى رَبِّكم وأَسْلِموا له مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتيكم العذابُ ثم لا تُنْصَرون * واتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنزِل إليكم مِنْ رَبِّكم مِنْ قَبْلِ أن يأتيكمُ العذابُ بَغْتَةً وأنتم لا تشعرون[١] » .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فكتبتها بيدى فى صحيفة وبعثتُ بها إلى هشام بن العاص .

قال : فقال هشام : لما أتتنى جعلتُ أقْرَؤُها بذى طُوًى[٢] أصَعِّد بها فيه وأصَوِّب ولا أفهمها ، حتى قلت : اللهم فَهِّمْنيها . فألقى الله فى قلبى أنها إنما نزلت فينا وفيما كنا نقول فى أنفسنا ويقال فينا . فرجعتُ إلى بعيرى فجلست عليه ، فلحقتُ برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

هذا ما ذكر ابن إسحق فى شأن هشام .

وذكر ابن هشام عمن يثق به أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو بالمدينة : مَنْ لى بعيَّاش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص ؟ فقال الوليد ابن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما . فخرج إلى مكة فقدمها مستخفيا ، فلقى امرأة تحمل طعاما ، فقال لها : أين تريدين يا أمَة الله ؟ فقالت :

---

(١) سورة الزمر .
(٢) موضع بأسفل مكة .

أريد هذين المسجونين[1] . تعنيهما . فتبعهما حتى عرف موضعيهما ، وكانا محبوسين فى بيت لاسقف له ، فلما أمْسَى تسوّر عليهما ثم أخذ مروة[2] فوضعها تحت قيديهما ثم ضربهما بسيفه فقطعهما ، فكان يقال لسيفه ذو المروة لذلك .

ثم حملهما على بعيره وساق بهما فعثر فدَمِيت إصبعه فقال :

هل أنتِ إلا إصْبَعٌ دَميتِ وفى سبيل الله ما لقيتِ

ثم قدم بهما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

ثم تتابع المهاجرون أرسالا فنزل طلحة بن عبيد الله وصُهيب بن سنان على خبيب بن إساف . ويقال : بل نزل طلحة على أسعد بن زُرَارة .

قال ابن هشام : وذُكر لى أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيراً فكَثُر مالُك عندنا وبلغتَ الذى بلغتَه ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ! والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلّون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال فإنى قد جعلتُ لكم مالى .

فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : رَبِح صهيبٌ ربح صهيب !

* * *

قال ابن إسحق : وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ، ينتظر أن يُؤذن له فى الهجرة ، ولم يتخلف معه أحد بمكة من المهاجرين ، إلا من حُبس أو فتن ، إلا علىٌّ بن أبى طالب وأبو بكر الصدِّيق .

---

(١) ابن هشام : المحبوسين (٢) أى حجرا .

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فيقول له : لا تَعْجَل ، لعل الله يجعل لك صاحبا . فيطمع أبو بكر أن يكونه .

[مؤامرة قريش]

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كانت[1] له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحَذِرُوا خروجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا أنه مُجْمِع[2] لحربهم .

فاجتمعوا له فى دار الندوة ، وهى دار قُصَىٍّ بن كِلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، يتشاورون ما يصنعون فى أمره .

فاعترض لهم إبليس فى هيئة شيخ جليل عليه بَتٌّ[3] ، فوقف على باب الدار فى اليوم الذى اتّعَدُوا له ، ويسمى يومَ الزَّحمة ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : مَن الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نَجْد سمع بالذى اتّعَدْتم له فحضر معكم يسمع ما تقولون وعسى أن لا يُعْدِمكم منه رأياً ونصحاً . قالوا أجل فادخل . فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش وغيرهم .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً .

فتشاوروا ثم قال قائل : احبسوه فى الحديد وأغلِقوا عليه باباً ثم تربّصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زُهَيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم .

---

(١) ابن هشام : قد صارت (٢) ابن هشام : قد أجمع .
(٣) البت : الطيلسان من الخز وغيره .

فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمرُه من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه . فلأوشكوا أن يَثِبُوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظْهُرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نُبَالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمْرَنا وألْفَتَنا كما كانت .

قال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأيٍ ، ألم تروا حُسْنَ حديثه وحلاوةَ منطقه وغلبته على قلوب الرجال لما[1] يأتى به ؟ ! والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يَحُلَّ على حيٍّ من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ، أدِيروا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل : والله إنَّ لى فيه لَرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعدُ .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم .

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كلَّ فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربةَ رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن[2] فعلوا ذلك تفرّق دمه فى القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعَقْل فعَقَلْناه لهم .

---

(١) ابن هشام : إذا . (٢) ابن هشام : بما

فقال الشيخ النجدى : القولُ ما قاله الرجل ، هو الرأى لا رأى غيره[١] .

فتفرّق القوم على ذلك وهم مُجْمعون له .

فأتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبِتْ هذه الليلة على فراشك الذى كنتَ تبيت عليه .

فلما كانت عتمةٌ من الليل اجتمعوا على بابه يَرْصُدونه حتى[٢] ينام فيثبون عليه[٣] ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلى بن أبى طالب : نَمْ على فراشى وتَسَجَّ بِبُرْدِيَ هذا الحضرمى الأخضر فنَمْ فيه فإنه لن يَخْلُص إليك شىء تكرهه منهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى بُرْده ذلك إذا نام

فاجتمعوا له وفيهم أبو جهل ، فقال وهو على بابه : إن محمداً يزعم أنكم إنْ تابعتموه على أمره كنتم ملوكَ العرب والعجم ثم بُعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جِنانٌ كجِنانِ الأرْدُنِّ ، وإن لم تفعلوا كان لكم فيه ذَبحٌ ، ثم بعثتم من بعدِ موتكم فجعلت لكم نار تُحْرَقون فيها !

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال : نعم أنا الذى أقول ذلك[٤] أنت أحدهم .

وأخذ اللهُ على أبصارهم عنه فلا يرونه ، وجعل ينثر ذلك الترابَ على رءوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات : « يس ِ والقرآن الحكيم . إنك لَمِنَ المُرْسَلين

---

(١) ابن هشام : هذا الرأى الذى لا غيره .

(٢) ابن هشام : متى .

(٣) المعروف من أخلاق العرب أنهم كانوا لا يغتالون خصمهم فى داره نائما ، والراجح أنهم انتظروه حتى يخرج .

(٤) ابن هشام : أنا أقول ذلك .

على صراطٍ مستقيم ، تنزيل العزيزِ الرحيم ، لِتُنْذر قوماً ما أُنْذِرَ آباؤهم فهُمْ غافلون ، لقد حَقَّ القولُ على أكثرهم فهُمْ لا يُؤْمِنُون ، وجعلنا مِنْ بَيْنِ أيديهم سَدًّا ومِنْ خَلْفِهم سَدًّا فأغشيناهم فهم لا يُبْصرونَ[1] » .

حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ولم يَبْقَ منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمداً . قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفلا ترون ما بكم ؟ !

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يطَّلِعُون فيرون عليًّا فى الفراش متسجِّيًا بُرْدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : والله إنّ هذا لمحمد نائماً عليه بُرده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علىٌّ عن الفراش ، فقالوا : والله لقد صدقنا الذى كان حدَّثنا .

فكان مما أنزل اللهُ من القرآن فى ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قول الله سبحانه : « وإذ يَمْكُرُ بك الذين كَفَرُوا ليُثْبِتُوك أو يَقْتُلوك أو يُخْرِجوك ، ويَمْكُرُون ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين[2] » .

وأذِن الله تبارك وتعالى عند ذلك لنبيه فى الهجرة .

---

(١) سورة يس . (٢) سورة التوبة .

ذِكْرُ الحديث عن خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضى الله عنه مهاجِرَيْن إلى المدينة

حدَّث عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيتَ أبى بكر أحَدَ طرفى النهار ، إمَّا بُكْرَةً وإمَّا عَشِيةً ، حتى إذا كان اليومُ الذى أذِن الله فيه لرسوله فى الهجرة والخروج من مكّة من بينى ظهرانى قومه ، أتانا بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها ، فلمّا رآه أبو بكر قال : ما جاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذه السّاعة إلا من حَدَثٍ[1] .

فلمّا دخل تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند أبى بكر إلاّ أنا وأسماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عنّى مَنْ عندك . فقال يانبيّ الله إنّما هُمَا ابنتاى ، وما ذاك فداك أبى وأمّى ؟

فقال : إن الله قد أذِن لى فى الخروج والهجرة .

فقال أبو بكر : الصُّحْبة يارسول الله . قال : الصُّحبة .

قالت : فو الله ماشعرت قط قبل ذلك أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذٍ !

ثم قال : يانبيّ الله إن هاتين الرّاحلتين قد كنت أعددتهما لهذا .

---

(١) ابن هشام : إلا لأمر حدث .

وكان أبو بكر رجلاً ذا مالٍ فكان حين استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، فقال : لاتَعْجَل لعلّ الله يجعل لك صاحباً ، قد طمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعنى نفسه ، فابتاع راحلتين ، فحبسهما فى داره يعلفهما إعداداً لذلك .

فاستأجر عبدَ الله بن أُرَيقط رجلا من بنى الدِّيل بن بكر وكان مشركاً ، يدلُّهما على الطريق ، ودفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادهما .

قال ابن إسحاق : ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج أحدٌ ، إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق ، وآل أبى بكر .

أمّا على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدِّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائعَ التى كانت عنده للناس ، ولم يكن بمكّة أحد عنده شىء يَخْشى عليه إلا وضعه عنده لِمَا يَعلم من صدقه وأمانته .

فلما أجمع صلى الله عليه وسلم الخروجَ أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظَهْر بيته ، ثم عَمِدا إلى غار بثور ، جبل بأسفل مكة ، فدخلاه .

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاراً ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، فكان يفعل ذلك ، وأمر عامرَ بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما إذا أمسى فى الغار ، فكان عامرٌ يرعى فى رُعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا غَدَا عبدُ الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة ، تتبّع عامر أثره بالغنم حتى يُعَفِّىَ عليه ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطّعام بما يصلحهما .

وذكر ابن هشام عن الحسن بن أبى الحسن قال : انتهى رسول الله

وأبو بكر إلى الغار ليلا فدخل أبو بكر قبله فلمس الغار لينظر أ فيه سبعة أو حية ، يَقِى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه . ولما فقدت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافَةَ يتبعون أثره فى كل وجه ، فوجد الذى ذهب قِبَل ثور أثره هناك ، فلم يزل يتبعه حتى انقطع له لما انتهى إلى ثور . وشقّ على قريش خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وجزعوا لذلك فطفقوا يطلبونه بأنفسهم فيما قَرُب منهم ، ويرسلون من يطلبه فيما بَعُدَ عنهم ، وجعلوا مائة ناقة لمن ردّه عليهم ، ولما انتهى إلى فم الغار ، وقد كانت العنكبوت ضربت على بابه بعشاشٍ بعضها على بعضٍ ، بعد أن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكروا ، قال قائل منهم : ادخلوا الغار ، فقال أمية ابن خلف : وما أَرَبُكم إلى الغار ؟ إن عليه لعنكبوتاً أقْدَم من ميلاد محمد !

قالوا : فنهى النبى صلى الله عليه وسلم يومئذٍ عن قتل العنكبوت ، وقال : إنها جند من جنود الله .

وخرّج أبو بكر البزّار فى مسنده من حديث أبى مُصْعَب المكى قال : أدركت زيدَ بن أرقم والمغيرة بن شُعبة وأنس بن مالك ، يحدّثون : أن النبى صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة بات فى الغار ، أمر الله تبارك وتعالى شجرةً فنبتت فى وجه الغار ، وأمر الله عزّ وجلّ حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار ، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبى صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعاً ، معهم قِسِيُّهم وعِصِيُّهم ، فتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين ، فرجع فقال لأصحابه : ليس فى الغار شىء ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أَنْ ليس فيه أحد .

فسمع قولَه النبى صلى الله عليه وسلم فعرف أن الله قد دَرَأ بهما عنه فشمّت عليهما(١) وفرضَ جزاءهما واتُّخذت فى حرَم الله ففرّخْن . أحسبه قال : فأصل

(١) شمت عليهما : دعا لهما بخير .

كلّ حمامٍ فى الحرم من فراخهما .

وذكر قاسم بن ثابت فيما تولى شرحه من الحديث أن الله أنبت الرّاءة على باب الغار لما دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه قال : وهى شجرة معروفة .

قال غيره : تكون مثل قامة الإنسان ، ولها زهر أبيض تُحْشَى به المخادُّ للينه وخفّته .

وحكى الواقدى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل الغار ، دعا بشجرة كانت أمام الغار ، فأقبلت حتى وقفت على باب الغار ، فحجبت أعينَ الكفّار وهم يطوفون فى الجبل .

وقال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ : يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصر ما تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما !

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الغار ثلاثاً ، حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيريهما ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بسُفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عِصاماً ، فلمّا ارتحلا ذهبت لتعلِّق السفرةَ فإذا ليس فيها عصام ، فتحلُّ نطاقهـا فتجعله عصاماً ، ثم تعلقها[1] به ، فكان يقال لهـا ذاتُ النِّطَاق لذلك فيما ذكر ابن إسحاق .

وأمّا ابن هشام فذكر أنها إنما يقال لها ذات النطاقين ، وهو المشهور عنها رضى الله عنها ، وذكر أنه سمع غيرَ واحدٍ من أهل العلم يفسِّره بأنّها شقّت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بواحدٍ وانتطقت بالآخر .

قال ابن إسحاق : فلمّا قرّب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله صلى الله

---

(١) ابن هشام : ثم علقتها به .

عليه وسلم قدّم له أفضلهما ، ثم قال : اركب فداك أبى وأمّى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّى لا أركب بعيراً ليس لى . قال : فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمّى . قال : لا ولكن ما الثّمنُ الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا . قال : قد أخذتها بذلك . فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر خلفه مولاه عامرَ بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق .

قال : فحدِّثت عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل ، فقالوا : أين أبوكِ يا بنة أبى بكر ؟ قلت : لا أدرى والله . فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدى لطمة طرح منها قُرْطِى ، ثم انصرفوا فمكثنا ثلاث ليالٍ ما ندرى أين وجّه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب وإنّ الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى اللهُ ربُّ الناس خيرَ جزائه رفيقين حلاَّ خَيْمَتَىْ أم مَعْبَدِ
هما نزلا بالبِرِّ ثم تروّحا فأفلحَ مَنْ أمسَى رفيقَ محمدِ
ليَهْنِ بنى كعبٍ مكانُ فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمَرْصَدِ

قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيثُ وجّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأن وَجْهَهَ إلى المدينة .

[قصة أم معبد]

وعن غير ابن إسحق وهو عندنا بالإسناد من طرق (١) ، أن أمّ مَعْبد هذه امرأة من بنى كعب من خُزَاعة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) قال ابن كثير : وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا .

حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ومولاه عامر بن فُهَيْرة ودليلهما الليثي عبد الله بن الأريقط مرّوا على خيمتي أم مَعْبد الخزاعية وكانت امرأة بَرْزة جَلدة[1] تحتبي بفناء القبة ثم تَسْقِي وتطعم ، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مُرْملين مُسْنِتين[2] فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خَلَّفها الجَهْدُ عن الغنم . قال : هل بها من لبن ؟ قالت : هي أَجْهَدُ من ذلك . قال : أتأذنين أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبي أنت وأمي إن رأيتَ بها حَلَباً فاحلبها . فدعا بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها وسمّى اللهَ ودعا لها في شاتها فتفاجّت[3] عليه ودرّت واجترّت ، ودعا بإناء يُرِيض[4] الرهطَ فحلب فيه ثَجًّا حتى علاه لبنها ، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم ، ثم أراضوا[5] ، ثم حلب فيه ثانياً بعد بَدْء حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها .

فقَلَّ ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنُزاً عجافاً يتَساوَكْنَ[6] هزلا ضخامهن قليل[7] ، فلما رأى أبو معبد اللبنَ عجب وقال : من أين لكِ هذا اللبن يا أم معبد ؛ والشاء عازب حِيال ولا حَلوب في البيت ؟ قالت : لا والله ، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا . قال : صِفيه لي يا أم معبد :

---

(١) البرزة : المرأة العفيفة تبرز للرجال وتتحدث معهم ، وهي المرأة التي أسنت وخرجت عن حد المحجوبات . والجلدة : القوية .

(٢) مرملين : نفد زادهم فافتقروا ، ومسنتين : أصابتهم السنة وهي الجدب .

(٣) التفاج : المبالغة في تفريج ما بين الرجلين . النهاية ٣/٩٩ .

(٤) يريض الرهط : يرويهم بعض الري ، من أراض الحوض إذا صب فيه من الماء ما وارى أرضه . النهاية ٢ / ١١٨ .

(٥) أراضوا : شربوا عللا بعد نهل . أو صبوا اللبن على اللبن .

(٦) يتساوكن: يتمايلن من الضعف .

(٧) كذا بالأصل ، وفي الوفا لابن الجوزي ٢٤٣ : مخهن قليل .

قالت : رأيت رجلا ظاهرَ الوَضَاءة أبْلَجَ الوجه حسَن الخَلْق لم يَعِبْه ثُجْلة ولم تُزْرِ به صَعْلة(١) وسيمٌ قَسِيم فى عينيه دَعَج وفى أشفاره غطَف(٢) وفى عنقه سَطع(٣) وفى صوته صَحَل(٤) وفى لحيته كثافة ، أزجّ أقْرَن(٥) إن صمَتَ فعليه الوقار وإن تكلم سَمَا وعَلاَه البهاء ، أجمل وأبهاه من بعيد وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق فَصْل لا نَزْر ولا هَذر كأنّ مَنْطِقه خرزاتُ نَظْمٍ يتحدّرن رَبعة لا يائس من طُول ولا تقتحمه العين من قِصَر ، غُصْن بين غصنين فهو أنضَر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفّون به إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تَبَادروا لأمره محفود محشود لا عابس ولا مُفَنَّد .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدتُ إلى ذلك سبيلا .

وأصبح صوتٌ بمكة عالٍ يسمعون الصوت ولا يدرون مَنْ صاحِبُه ، وهو يقول :

جزى اللهُ ربُّ الناس خيرَ جزائه رفيقين قَالاَ خيمتَىْ أمِّ مَعْبَدِ

هما نزلاها بالهُدَى فاهتدت به(٦) فقد فاز مَنْ أمْسَى رفيقَ محمدِ

فيا لقُصَىٍّ ما زَوَى الله عنكمُ به من فِعَالٍ لا تُجارَى وسُؤْدَدِ

---

(١) الثجلة : عظم البطن واسترخاؤه والصعلة : الدقة والنحول يقال صعلت الناقة إذا ضمرت . وقيل : أرادت أنه لم يكن منتفخ الخاصرة جدا ولا ناحلا جدا . النهاية لابن الأثير ٢ / ٢٩٣ .

(٢) الغطف : أن يطول شعر الأجفان ثم ينعطف . ويروى بالعين كما يروى بالواو .

(٣) سطع : ارتفاع وطول .

(٤) الصحل : كالبحة ، وأن لا يكون حاد الصوت .

(٥) الزجج : تقوس فى الحاجب مع طول فى طرفه وامتداد . وأقرن : مقرون الحواجب.

(٦) البداية والنهاية : هما نزلا بالبر وارتحلا به .

ليهْنِ بنى كعبٍ مقامُ فتاتهم ومقْعَدها للمؤمنين بمَرْصَدِ
سَلُوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكمُ إنْ تسألوا الشاةَ تشهدِ
دعاها بشاةٍ حائلٍ فتحلَّبت له بصريحٍ ضَرّةُ الشاةِ مُزْبِدِ[1]
فغادرها رَهْنا لديها لحالبٍ يردِّدها فى مَصْدَرٍ ثم مَوْرِدِ

فلما سمع بذلك حسان بن ثابت جعل يجاوب الهاتف ويقول :

لقد خاب قومٌ زالَ عنهم نبيهم وقُدِّس مَنْ يَسْرِى إليهم ويَغتَدِى
ترحَّلَ عن قومٍ فضَلّتْ عقولُهم وحَلَّ على قومٍ بنورٍ مُجَدَّدِ
هداهم به بَعْدَ الضلالة ربُّهم وأرْشَدهم ، مَنْ يَتْبَعِ الحقَّ يُرْشَدِ
وهل يستوى ضُلاَّلُ قومٍ تسكَّعوا عمىً وهداةٌ يَهْتَدُونَ بمهتدِى
لقد نزلتْ منهمْ على أهلِ يثربٍ ركابُ هُدًى حلّت عليهم بأسْعُدِ
نبىٌّ يرى ما لا يرى الناسُ حَوْلَهُ ويتلو كتابَ الله فى كل مَسْجِدِ
وإنْ قال فى يومٍ مقالة غائبٍ فتصديقُها فى اليوم أو فى ضُحَى الغَدِ
ليهْنِ أبا بكرٍ سعادةُ جَدِّه بصحبته ، مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يُسْعَدِ

* * *

وذكر أبو منصور محمد بن سعد الماوردى بإسناد له إلى قيس بن النعمان قال : لما انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه يستخفيان فى الغار مَرّا بعبد يرعى غنما فاستسقياه من اللبن فقال : والله مالى شاة تُحْلَب ، غير أن هاهنا عَناقا[2] حملت أول الشاء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتنا بها . فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ثم حلب عُسًّا[3] فسقى أبا بكر ، ثم حلب آخر فسقى الراعى ، ثم حلب فشرب .

---

(١) الضرة : أصل الضرع .
(٢) العناق : هى الأنثى من أولاد المعز مالم تتم لها سنة .
(٣) العس : القدح الضخم .

فقال العبد : من أنت ؟ فو الله ما رأيت مثلك قط !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتُراكَ إن حدَّثتك تكتم علىَّ ؟ قال : نعم . قال : فإنى محمد رسول الله . قال : أنت الذى تزعم قريشٌ أنك صابئٌ ؟ قال : إنهم ليقولون ذلك · قال العبد : فإنى أشهد أنك رسول الله وأن ماجئت به الحق ، وأنه ليس يفعل فعلك إلا نبى . ثم قال العبد : أتَّبعك ؟ قال : لا ، حتى تسمع بنا أنا قد ظَهَرْنا .

وخرَّج البَرْقانى[١] [فى مصافحته[٢]] من حديث البَرَاء بن عازب رضى الله عنهما ، وأورده الإمامان البخارى ومسلم فى صحيحيهما[٣] من حديثه قال : اشترى أبو بكر رضى الله عنه مِنْ عازبٍ رَحْلًا[٤] بثلاثة عشر درهماً ، فقال أبو بكر لعازب : مُرِ البَرَاء أن يحمله إلى أهلى . فقال له عازبٌ : حتى تحدثنى كيف صنعتَ أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجتما والمشركون يطلبونكم . قال :

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب البرقانى الخوارزمى الفقيه المحدث الأديب الصالح له التصانيف المشهورة روى عن الدارقطنى وخلق كثير روى عنه أبو بكر الخطيب وقال لم نر فى شيوخنا أثبت منه . توفى مستهل رجب من سنة خمس وعشرين وأربعمائة وكانت ولادته سنة ست وثلاثين وثلاثمائة اللباب ١ / ١١٣ .

(٢) المصافحة : هى ضرب من علو السند ، وهى أن تقع المساواة لشيخك لا لك ، فيقع ذلك لك مصافحة . كما قال ابن الصلاح . والمساواة كما قال ابن الصلاح أيضا : أن يقل العدد فى إسنادك لا إلى شيخ مسلم وأمثاله ولا إلى شيخ شيخه بل إلى من هو أبعد من ذلك كالصحابى أو من قاربه وربما كان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يقع بينك وبين الصحابى مثلا من العدد مثل ما وقع من العدد بين مسلم وبين ذلك الصحابى فتكون بذلك مساويا لمسلم مثلا فى قرب الاسناد وعدد رجاله » .

فإذا وقعت هذه المساواة للشيخ وقع ذلك مصافحة لتلميذه إذ يكون كأنه لقى مسلما فى ذلك الحديث لكونه قد لقى شيخه المساوى لمسلم انظر الباعث الحثيث ١٨٣ .

(٣) البخارى ٢ / ١٩٥ مختصرة جدا باختلاف عما هنا.

(٤) ابن كثير : سرجا .

ارتحلنا من مكة فأحْثَثْنا[1] يومَنا وليلتنا حتى أظْهَرْنا وقام قائمُ الظهيرة ، فرميت ببصرى هل أرى من ظل نأوى إليه ، فإذا أنا بصخرة فانتهيت إليها[2] فإذا بقية ظل لها ، فنظرت بقية ظلها فسوَّيته وفرشت لرسول الله صلى الله عليه فَرْوَةً وقلت : اضطجعْ يا رسول الله . فاضطجعَ .

ثم ذهبت أنظر ما حولَه هل أرَى مِن الطَّلَب أحداً فإذا أنا براعى غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها مثلَ الذى أريد ، يعنى الظلَّ . فسألته فقلت : لمن أنت يا غلام ؟ قال : لفلان ، رجل من قريش سمّاه ، فعرفته ، فقلت : هل فى غنمك من لبن ؟ قال : نعم . قلت : هل أنت حالب لى ؟ قال : نعم . فاعتقل شاةً من غنمه فأمرتُه أن يَنْفض ضرعها من الغبار ، ثم أمرته أن ينفض كفيه ، فقال هكذا ، فضرب إحدى يديه على الأخرى ، فحلب لى كُثْبة[3] من لبن وقد رَوَيْت معى لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوة على فمها خرقة ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استيقظ ، قلت : يا رسول الله اشرب . فشرب حتى رضيت ، وقلت : قد آن الرحيلُ يا رسول الله .

فارتحَلْنا والقومُ يطلبوننا فلم يدركنا أحدٌ منهم غير سُرَاقة بن مالك ابن جُعْشُم على فرس له ، فقلت : هذا الطلبُ قد لحقنا يا رسول الله . وبكيت ، قال : لا تحزن إن الله معنا !

قال : فلما دنا فكان بيننا وبينه قدرُ رمحين أو ثلاثة قلت : هذا الطلبُ يا رسول الله قد لَحِقنا . وبكيتُ . قال : ما يبكيك ؟ فقلت : أمَا والله ما على نفسى أبكى ، ولكنى أبكى عليك .

---

(١) ابن كثير : خرجنا فأدلجنا فأحثثنا .
(٢) ابن كثير : فأهويت إليها .
(٣) الكثبة : قدر الحلبة .

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اكْفِنَاه بما شئت ، فساخَتْ فرسُه فى الأرض إلى بطنها ، فوثب عنها وقال : يا محمد قد علمتُ أن هذا عملُك فادْعُ الله أن ينجينى مما أنا فيه ، فو الله لأعَمِّيَنَّ على مَنْ ورائى من الطلب ، وهذه كنانتى نخذ منها سهماً فإنك ستمر على إبلى وغنمى بمكان كذا وكذا . نخذ منها حاجتك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حاجة لى فى إبلك . ودعا له ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه .

وفى حديث البخارى ومسلم : فجعل لا يَلْقَى أحداً إلا قال : قد كَفَيْتكم ماهنا . فلا يَلقى أحدا إلا ردَّه . قال : وَوَفَى لنا .

[حديث سُرَاقة]

وعن سراقة بن مالك بن جُعْشم فيما أورده ابن إسحق قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلتْ قريش فيه مائة ناقة لمن ردَّه عليهم .

قال : فبينما أنا جالس فى نادى قومى أقْبَلَ رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيتُ رَكَبَةً ثلاثة مرُّوا علىَّ آنفا ، إنى لأراهم محمداً وأصحابَه .

قال : فأومأتُ إليه ، يعنى أن اسكت ، ثم قلت : إنما هم بنو فلان يتبعون ضالةً لهم . قال : لعله . ثم سكت .

فمكثتُ قليلا ثم قمت فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرسى فقيدَ لى إلى بطن الوادى وبسلاحى فأُخرج لى من دُبُر حجرتى ، ثم أخذت قِدَاحى التى أستَقْسِم بها ، ثم انطلقت فلبست لأْمتى ، ثم أخرجت قداحى ، فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره : لا يضرُّه . وكنت أرجو أن أردَّه على قريش فآخذ المائة .

فركبت على أثره ، فبينا فرسي يشتد بي عثَر بي فسقطتُ عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ! ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره : لا يضره . فأبَيْتُ إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فبينا فرسي يشتد بي عثر بي فسقطتُ عنه فقلت : ما هذا ؟ ! ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره : لا يضره . فأبيت الا أن أتبعه فركبت في أثره ، فلما بدا لي القومُ عثر بي فرسي وذهبت يداه في الأرض وسقطتُ عنه ، ثم انتزع يديه عن الأرض وتبعهما دخان كالإعصار ، فعرفتُ حين رأيتُ ذلك أنه قد مُنع مني وأنه ظاهرٌ .

فناديت القومَ : أنا سراقة بن جُعْشُم ، انظروني أكلمكم ، فوالله لا أَرِيبُكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه : قل له : ما تبتغي ؟ قال : تكتبوا لي كتاباً يكون آيةً بيني وبينك . قال اكتب يا أبا بكر . فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزَقة[1] ثم ألقاه إليّ ، فأخذته فجعلته في كنانتي ، ثم رجعت فلم أذكر شيئاً .

حتى إذا كان فتحُ مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرغ من حُنَين والطائف خرجتُ ومعي الكتاب لألقاه فلقيته بالجِعْرانة[2] فدخلتُ في كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يَقْرعونني بالرماح ويقولون : إليك إليك ماذا تريد ؟

فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأني

---

(١) ابن هشام : خزفة .

(٢) الجعرانة : ماء بين الطائف ومكة ، وهي إلى مكة أقرب .

أنظر إلى ساقه فى غَرزِه كأنها جُمَّارة[1] ، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لى ، أنا سراقة بن جُعْشُم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يومُ وفاء وبرٌّ ادْنُ[2] . فدنوتُ فأسلمتُ . ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فماأذْكُرُ ، إلا أنى قلت : يا رسول الله الضالةُ من الإبل تَغْشَى حياضى وقد ملأْتُها لإبلى ، هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟ قال : نعم ، فى كل ذات كبد حَرَّى أجرٌ .

ثم رجعتُ إلى قومى فسُقْتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى .

وفى حديث آخر عن غير ابن إسحق أن سراقة بن مالك بن جُعْشُم هذا كان شاعراً مجيداً ، وأنه قال يخاطب أبا جهل بن هشام بعد انصرافه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أبا حَكَمٍ واللهِ لو كنتَ شاهدا ... لِأَمْرِ جَوَادِى إذ تَسُوخُ قوائمُهْ
علمتَ ولم تشكُكْ بأن محمداً ... رسولٌ ببرهانٍ فمن ذا يقاومُهْ
عليك بكَفِّ القومِ عنه فإننى ... أَرَى أمرَه يوماً ستبدو معالمُهْ
بأمرٍ يودُّ الناسُ فيه بأسْرِهم ... بأنَّ جميعَ الناس طُرًّا يُسَالمه

وذكر ابن إسحق[3] من رواية يونس بن بكَير عنه شعراً نسبه إلى أبى بكر الصديق[4] رضى الله عنه ، يذكر فيه مسيره مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصة الغار وأمر سراقة ، وهو :

---

(١) الجمارة : شحم النخل . يريد بياضها .

(٢) ابن هشام : ادله .

(٣) لم يرد هذا الخبر فى ابن هشام ، إذ أن ابن هشام إنما أثبت رواية البكائى عن ابن إسحق .

(٤) روى السهيلى أن عائشة رضى الله عنها قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر فى الإسلام .

قال النبيُّ ولم يَجْزَع يوقِّرنى[1] ونحن فى سُدْفةٍ من ظُلْمةِ الغارِ
لا تَخْشَ شيئاً فإن الله ثالثنا وقد توكَّل لى منه بإظهارِ
وإنما كَيْدُ مَنْ تخشى بوادره كيدُ الشياطين كادَته لكفارِ
والله مهلكهم طُرًّا بما كَسَبوا وجاعلُ المنتهى منهم إلى النارِ
وأنت مُرْتَحِلٌ عنهم وتاركهم إمَّا غُدُوًّا وإما مُدْلجٌ سارِى
وهاجرٌ أرضَهم حتى يكون لنا قومٌ عليهم ذوو عزٍّ وأنصارِ
حتى إذا الليلُ وارتْنا جوانبُه وسَدَّ دون من نَخْشى بأستارِ
سار الأُرَيْقِطُ يهدينا وأَنْيُقُه يعمين بالقَرْم نعياً تحت أكوارِ[2]
يَعْسِفْن عرض الثنايا بَعْدَ أطولها وكلُّ سَهْبٍ رِقاق الترب موّارِ[3]
حتى إذا قلتُ قد أَنْجَدْنَ عارَضَها مِن مُدْلجٍ فارسٌ فى منصبٍ وارِ[4]

يُرْدِى به مشرفُ الأقطار مُعْتزِمٌ
كالسِّيدِ ذى اللبدة المستأسد الضارى[5]

فقال كرُّوا فقلنا إن كرّتنا من دونها لك نصرُ الخالق البارى
إن يخسف الأرض بالأحوى وفارسِه فانظر إلى أربُعٍ فى الأرض غُوّار[6]
فهِيل لمّا رأى أرساغَ مُقْرِبه قد سُخْنَ فى الأرض لم تُحفر بحفارِ
فقال هل لكم أن تُطلقوا فرسى وتأخذوا مَوْثِقى فى نُصح أسرارِ

---

(١) يوقرنى : يطمئنى ، يقال : جنان واقر : لا يستخفه الفزع .
(٢) الأنيق : جمع ناقة . والقرم : السيد : ويعمين : يعدون .
(٣) يعسفن : يقطعن . والسهب : الفلاة . والموار : المضطرب المتحرك
(٤) أنجدن : ارتفعن والوارى : الشديد ، من ورى الزند ، خرجت ناره
(٥) يردى : يجرى . ومشرف الأقطار : مرتفع النواحى . والسيد : الأسد .
(٦) الأحوى : الأسود . يريد الفرس . والأربع : المواضع .

وأصرف الحيَّ عنكم إن لقيتُهم   وأنْ أعوِّرَ منهم عينَ عُوَّارِ
فادْعُ الذى هو عنكم كفَّ عَدْوَتَنا   يطلقْ جوادى وأنتم خيرُ أبرارِ
فقال قولاً رسولُ الله مبتهلاً   يا رب إن كان منه غيرُ إخفارِ
فنجِّه سالماً من شر دعوتنا   ومُهْرَه مطلَقاً من كَلْمِ آثارِ
فأظهر اللهُ إذ يدعو حوافرَه   ونار فارسه من هول أخطار[1]

وسراقة بن مالك هذا الذى أظهر اللهُ فيه هذا العَلَمَ العظيم من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قد أظهر الله فيه أثراً آخر من الآثار الشاهدة له عليه السلام بأن الله أطلعه من الغيوب فى حياته ما ظهر مصداقه بعد وفاته .

روى سفيان بن عيينة عن أبى موسى عن الحسن ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك : كيف بك إذا لبست سِوارَىْ كسرى ؟ !

قال : فلما أُتى عمر رضى الله عنه بسِوَارَىْ كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقةَ بن مالك فألبسه إياها .

وكان سراقة رجلا أزبّ[2] كثير شعر الساعدين ، وقال له : ارفع يديك فقل : الله أكبر ! الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان

---

(١) روى أبو نعيم هذه القصيدة من طريق زياد بن محمد بن اسحق فذكرها مطولة جدا ومع ذلك فسمات الصنعة والتكلف بادية عليها ، وليس بها طابع العصر الأول .

(٢) وذلك سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه السلام . قال ابن كثير : وذلك أول التاريخ الإسلامى كما اتفق عليه الصحابة فى الدولة العمرية . وروى حديث البخارى عن ابن عباس : بعث النبي (ص) لأربعين سنة ، فمكث فيها ثلاث عشرة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، مات وهو ابن ثلاث وستين سنة .

(٣) الأزب : الكثير الشعر .

يقول : أنا رب النـاس وألبسهما سراقةَ بن مالك بن جُعشم أعرابياً من بنى مُدْلج ! !

ورفع بها عمر رضى الله عنه صوته .

* ● *

قال ابن إسحق ، وذكر إسناداً رفعه إلى أسماء بنت أبى بكر ، قالت :

لمـا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج معه أبو بكر احتمَل أبو بكر مالَه كله ، خمسة آلف أو ستة ، فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . فقلت : يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوّة كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعتُ عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضَعْ يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه ثم قال : لا بأس إذا كان ترك لـكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغٌ لـكم .

ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولـكنى أردت أن أسكِّن الشيخَ بذلك .

* * *

وذكر ابن إسحق الطريقَ التى سَلَكَ برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبى بكر الصديق رضى الله عنه دليلهُ عبدُ الله بن أرَيْقط ، والمناقلَ التى سار بهما عليها إلى أن قَدِم بهما قُبـاء على بنى عمرو بن عوف لاثنتى عشرة ليـلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتدل .

وقال غير ابن إسحق : قَدِمها لثمانٍ خلون من ربيع الأول .

وقال ابن الـكلبى : خرج من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول ، ووصل المدينة يوم الجمعة لاثنتى عشرة منه . فالله تعالى أعلم .

[دخول النبي المدينة]

وذكر ابن إسحق من حديث عبد الرحمن بن عُوَيمر بن ساعدة قال : حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا[١] : لما سمعنا بمَخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة توكّفنا[٢] قدومَه ، فكنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حَرّتنا ننتظره ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلاًّ دخلنا ، وذلك في أيام حارة .

حتى إذا كان اليوم الذي قَدِم فيه جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يَبْقَ ظلٌّ دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أولُ من رآه رجل من يهود وقد رأى ما كنا نصنع وأنّا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته : يا بني قَيْلة هذا جَدُّكم قد جاء .

فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سِنه ، وَأَكْثَرُنا لم يكن رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، وركِبه الناسُ ، وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك .

قال ابن إسحق : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون على كُلثوم بن هِدْم ، أخي بني عمرو بن عوف . ويقال : بل نزل على سعد ابن خَيْثمة .

ويقول من يذكر نزوله على كلثوم أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج

(١) الأصل : قال .
(٢) قال الزمخشري : ومن المجاز : فلان يتوكف الأخبار نحو : يستقطر الأخبار . والمعنى : ترقبناه وانتظرناه .

من منزل كلثوم جلس للناس فى بيت سعد بن خيثمة ، لأنه كان عَزَباً لا أهل له ، فمِنْ هنالك يقال نزل عليه . وكان يقال لبيت سعد : بيت العُزّاب[1] ، لأنه كان منزل المهاجرين منهم . فالله أعلم أى ذلك كان .

ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على خُبَيْب بن إساف ، أحد بنى الحارث بن الخزرج بالسُّنْح ، ويقال على خارجة بن زيد بن أبى زهير منهم .

* * *

وأقام على بن أبى طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها ، حتى أدّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل معه .

فكان على رضى الله عنه — وإنما كانت إقامته بقُباء ليلة أو ليلتين — يقول : كانت بقباء امرأة مسلمة لا زوج لها ، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه فتأخذه .

قال : فاستَرَبْتُ شأنَه ، فقلت لها : يا أمَة الله ، من هذا الذى يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدرى ما هو ، وأنت امرأة مسلمةٌ لا زوج لك ؟

قالت : هذا سَهْل بن حُنَيف ، قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فإذا أمسى عَدَا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءنى بها فقال : احتطبى بهذا !

فكان على رضى الله عنه يأثِرُ ذلك فى أمْر سهل بنت حنيف ، حين[2] هلك عنده بالعراق .

* * *

---

(١) فى شرح السيرة لأبى ذر : الأعزاب .

(٢) ابن هشام : حتى .

قال ابن إسحق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقُبَاء فى بنى عمرو ابن عوف يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسَّسَ مسجدهم ثم أخرجه الله تعالى من بين أظْهُرهم يوم الجمعة .

وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك(١) ، فالله أعلم .

فأدركت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الجمعةُ فى بنى سالم بن عوف فصلاّها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وادى رانُوناء ، فكانت أول جمعة صلاها فى المدينة .

فأتاه عِتْبان بن مالك وعباس بن عُبَادة بن نَضْلة ، فى رجال من بنى سالم ، فقالوا : يا رسول الله ، صلى الله عليك ، أقِمْ عندنا فى العَدَد والعُدَّة والمنَعة . قال : خلوا سبيلَها فإنها مأمورة . لناقته . فخلَّوا سبيلها .

فانطلقتْ حتى إذا وازنت دارَ بنى بَيَاضة تلقَّاه زيادُ بن لبيد وفَرْوة ابن عمرو ، رجال من بنى بَيَاضة ، فقالوا : يا رسول الله هلم إلينا إلى العَدَد والعُدَّة وَالمَنَعة . قال : خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة فخلَّوا سبيلها .

فانطلقتْ حتى إذا وازنت دارَ بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد ابن الربيع وخارجة بن زيد بن أبى زهير وعبد الله بن رَوَاحة ، رجال من بلحارث(٢) ، فقالوا يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعُدَّة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . فخلوا سبيلها .

فانطلقت حتى إذا مرَّت بدار بنى عدى بن النجار وهم أخواله دِنْيا

---

(١) ترددت روايات الزيادة عن ذلك بين أربع عشرة ليلة وثمانى عشرة ليلة واثنتين وعشرين .

(٢) ابن هشام : مل بنى الحارث بن الخزرج .

أمُّ عبد المطلب سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم ، اعترضه سَلِيط بن قيس وأبو سليط أُسَيرة بن أبى خارجة ، فى رجال منهم ، فقالوا : يا رسول الله هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة . قال . خلوا سبيلها .

حتى إذا أتت دارَ بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجده ، وهو يومئذ مِرْبَدٌ لغلامين يتيمين من بنى مالك بن النجار ، فى حِجْر مُعَاذ بن عفراء فلما بركت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل وَثَبت ، فسارت غيرَ بعيد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضعٌ لها زِمَامها لا يَثْنيها به ، ثم التفتت خَلْفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تحَلْحَلت ورزمت ووضعت جِرَانها[1] فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتمل أبو أيوب رَحْلَه فوضعه فى بيته .

[بناء المسجد]

ونزل عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى بنى مسجده ومساكنه ، وسأل عن المِرْبَد لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهلٍ وسُهَيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان له وسأرضيهما منه ، فاتخذْه مسجداً .

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُبْنَى ، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغِّب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل المهاجرون والأنصار ودأبوا . فقال قائل من المسلمين :

لئن قعَدنا والنبيُّ يَعْمَلْ ... لَذَاك منا العمل المضلَّلْ

* * *

(١) تحلحلت . تحركت وانزجرت . ورزمت : أقامت من الكلال . والجران مايصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها .

وحدّث أبو أيوب قال : لمّا نزل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل فى السُّفْل وأنا وأم أيوب فى العُلو ، فقلت له : يا نبى الله بأبى أنت وأمى ! إنى لأَكْرَه وأُعْظِم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فكن فى العُلو وننزل نحن فنكون فى السُّفْل . فقال : يا أبا أيوب ، إنّ أرْفَقَ بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .

فلقد انكسر حُبٌّ لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة ما لنا لحاف غيرها نَنْشَف بها الماء ، تخوُّفًا أن يَقْطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء فيؤذيه .

فكنا نصنع له العَشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا ردّ علينا فضلَه تيمّمت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه ، نبتغى بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلةً بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلا أو ثُوما ، فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أرَ ليده فيه أثراً ، فجئته فزِعًا فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى رددتَ عَشَاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنتَ إذا رددتَه علينا تيممتُ أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة . قال : إنى وجدتُ فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أُناجَى ، فأما أنتما فكلوه . فأكلناه ولم نضع له تلك الشجرة بعدُ .

* * *

قال ابن إسحق : وتلاحَق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، ولم يُوعِبْ أهلُ هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، إلا أهلُ دُورٍ مُسَمَّوْن .

بنو مَظْعون من بنى جُمَح ، وبنو جحش بن رِئاب ، حلفاء بنى أمية ،

وبنو البُكَيْر من بنى سعد بن ليث ، حلفاء بنى عدى بن كعب ، فإن دورهم غلقت بمكة هجرةً ، ليس فيها ساكن .

[أول خطبة للنبى بالمدينة]

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إذ قدمها شهرَ ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، يُبنى له فيها مسجده ومساكنه .

قال : وكانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن — نعوذ بالله أن نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل — أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس فقدِّموا لأنفسكم تعلمُنَّ والله ليُصْعَقَنَّ أحدكم ثم ليَدَعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ ، ثم ليقولن له ربه ، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلّغك وآتيتك مالاً وأفضلتُ عليك فما قدَّمتَ لنفسك ؟

فلَينظرن يميناً وشمالاً فلا يَرَى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم .

فمن استطاع أن يَقِي وجهَه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإنَّ بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال ابن إسحق : ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مرة أخرى فقال : « إن الحمد لله أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهْدِه الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِل فلا هادى له ، وأشهد ألاَّ إله إلا الله وحده لا شريك له ، إنّ أحسن الحديث كتاب الله

تبارك وتعالى ، قد أفلح من زَيّنه الله فى قلبه ، وأَدْخله فى الإسلام بعد الكفر ، فاختاره[1] على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسنُ الحديث وأَبْلَغُه ، أَحِبُّوا ما أَحَبَّ اللهَ أحبّوا الله من كل قلوبكم ، ولا تَمَلُّوا كلامَ الله وذِكْرَه ، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم ، فإنه مِنْ كلٍّ ما يَخْلق اللهُ يَخْتار ويَصْطفى ، فقد سمّاه [الله][2] خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد ، والصالحَ من الحديث ومن كل ما أُوتى الناس الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته ، واصدقوا اللهَ صالحَ ما تقولون بأفواهكم ، وتحابُّوا بروح الله بينكم ، إنّ الله يَغْضب أنْ يُنْكث عهده ، والسلام عليكم .

[الإخاء ، وموادعة اليهود]

قال ابن إسحق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادَع فيه يهودَ وعاهدهم وأقرّهم على دِينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرَط لهم .

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا ــ ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يَقُل : تآخَوْا فى الله أخوين أخوين . ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : هذا أخى . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيدُ المرسلين وإمامُ المتقين ورسولُ رب العالمين الذى ليس له خطير ولا نظير من العِباد ، وعلىُّ بن أبى طالب أَخَوَيْن .

ثم سمّى ابن إسحق نفراً ممن آخَى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه تركنا ذكرهم اختصاراً .

---

(١) ابن هشام : واختاره .

(٢) من ابن هشام .

[وفاة أسعد بن زُرَارة]

قال : وهلك فى تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زُرَارة ، والمسجدُ يبنَى ، أخذته الذبحة أو الشهقة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئس الميتُ أبو أمامة ليهود ولِمُنافقى[1] العرب ، يقولون : لوكان نبيًّا لم يمت صاحبه ! ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئاً .

ولما مات أبو أمامة اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو أمامة نقيبَهم ، فقالوا : يا رسول الله إنّ هذا كان منا حيث قد علمت ، فاجعل منا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أخوالى وأنا أوْلَى بكم ، فأنا نقيبكم . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخصّ بها بعضَهم دون بعض .

فكان مِنْ فَضْل بنى النَّجار الذى يَعُدُّون على قومهم أنْ كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نقيبهم .

[الأذان]

قال ابن إسحق : فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمْرُ الأنصار ، استحكم أمر الإسلام فقامت الصلاة وفُرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود وفُرِض الحلال والحرام وتبوّأ الإسلامُ بين أظهرهم ، وكان هذا الحىُّ من الأنصار الذين تبوّأوا الدارَ والإيمانَ .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدِمها إنما يجتمع إليه الناس للصلاة فى مواقيتها[2] بغير دعوة ، فهَمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) ابن هشام : ومنافق .

(٢) ابن هشام : لحين مواقيتها .

أن يجعل بُوقاً كبوق يهود الذى يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس فنُحت ليُضْرب به للمسلمين للصلاة .

فبَيْنا هم على ذلك رأى عبدُ الله بن زيد أخو بَلْحارث بن الخزرج النداء ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله إنه طاف بى هذه الليلة طائف ، مرّ بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت : ياعبد الله أتبيع هذا الناقوسَ ؟قال : وماتصنع به ؟ قلت : ندعوا به إلى الصلاة . قال : أفلا أدلّك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أنْ لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حَىّ على الصلاة ، حى على الصلاة ، حَىّ على الفَلاَح ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فلما أخبر بها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها لَرؤيا حقٌّ إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذِّن بها فإنه أنْدَى[1] صوتاً منك .

فلما أذّن بها بلالٌ سمعها عمر بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجرّ رداءه وهو يقول : يا نبىّ الله والذى بعثك بالحق لقد رأيتُ مثلَ الذى رأى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلله الحمد[2] .

وذكر ابن هشام عن عُبَيد بن عُمَيْر أن عمر بن الخطاب بَيْنا هو يريد أن يشترى خشبتين للناقوس عندما ائتمر[3] به النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذ رأى فى المنام أن لا تجعلوا الناقوسَ ، بل أذِّنوا بالصلاة .

---

(١) أندى : أبعد .
(٢) ابن هشام : فلله الحمد على ذلك .
(٣) ائتمر : هم به .

فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بالذى رأى ، فما راعَه إلا بلالٌ يؤذِّن ، وقد جاء النبيَّ صلى الله عليه وسلم الوحىُ بذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره : سبَقَك[1] بذلك الوحىُ .

* * *

قال ابن إسحق : فلما اطمأنت برسول الله صلى الله عليه وسلم دارُه وأظهر اللهُ بها دينَه وسَرَّه بما جمع من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته قال أبو قيس صِرْمة بن أبى أنس أخو بنى عَدِىّ بن النجار ، يَذْكر ما أكرمهم الله تبارك وتعالى به من الإسلام ، وما خصَّهم به من نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

ثوَى فى قريشٍ بِضْع عَشْرةَ حِجَّةً ... يذَكِّر لو يَلْقَى صَدِيقاً مواتياً[2]

ويَعْرِض فى أهْل المواسم نفسَه ... فلم يَرَ مَن يُؤْوِى ولم يَرَ داعياً

فلما أتانا أظهرَ اللهُ دِينَه ... فأصبحَ مَسْرورا بطِيبَة راضياً

وألْفَى صَدِيقاً واطمأنت به النَّوَى ... وكان له عَوناً من الله هادياً[3]

يقصُّ لنا ما قال نوحٌ لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا

فأصبح لا يَخْشَى من الناسِ واحداً ... قريباً ولا يَخْشى من الناس نائياً

بذلنا له الأموالَ من جُلِّ مالنا ... وأنفسَنا عند الوغى والتآسيا

ونَعْلم أن الله لا شىء غيرُه ... ونَعلم أن الله أفضلُ هاديا

(١) ابن هشام : قد سبقك .

(٢) ثوى : أقام . والحجه : العام . والمواتى : المساعد .

(٣) النوى : البعد . وفى ابن هشام : عونا من الله باديا .

نُعادِي الذى عادَى من الناس كلِّهمْ ... جميعاً وإنْ كان الحبيبَ المصافيا
أقولُ إذا أدْعوك فى كل بِيْعةٍ ... تباركتَ قد أكثرتُ لاسمك دَاعيًا(١)
أقول إذا جاوزتُ أرضًا مَخُوفةً ... حنانَيْك لا تُظْهر علىَّ الأعاديا(٢)
فطَأْ مُعْرضًا إن الحتوفَ كثيرةٌ ... وإنك لا تُبقى لنفسك باقيا
فوالله ما يدرى الفتى كيف يَتّقى ... إذا هو لم يَجعل له اللهُ واقيا
ولا تحفل النخلُ المقيمةُ ربَّها ... إذا أصبحتْ رَيًّا وأصبحَ ثاويا(٣)

وكان أبو قيس هذا رجلاً قد ترهَّب فى الجاهلية ولَبِس المُسُوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة وتطهّر من الحائض من النساء وهَمَّ بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخل فيه طامِثٌ ولا جُنب وقال : أعبدُ رَبَّ إبراهيمَ . حتى قدِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأسلمَ وحَسُن إسلامه وهو شيخ كبير ، وكان قوّالاً بالحق .معظِّما لله فى جاهليته يقول فى ذلك أشعاراً حِسَاناً ، هو الذى يقول :

يقول أبو قيس وأصبحَ غاديًا ... ألا ما استطعتم من وَصاتِىَ فافعلُوا
أوَصيّكمُ بالله والبرّ والتقَى ... وأعْراضِكم والبِرُّ بالله أولُ
وإنْ قومُكم سادُوا فلا تحسُدنّهم ... وإنْ كنتمُ أهلَ الرياسة فاعدِلُوا
وإن نزلت إحدى الدواهى بقومكم ... فأنفسَكم دونَ العشيرةِ فاجعلوا

---

(١) البيعة : مكان العبادة . وهى فى الأصل : معبد النصارى .
(٢) حنانيك : رحمتك .
(٣) ابن هشام : ولا تحفل النخل المعيمة . . ومعنى البيت غير واضح . ولعل مراده ، ربها : أصلها .

وإنْ نابَ غُرْمٌ فادحٌ فارفقوهمُ[1]   وما حمَّلوكم فى المُلمَّات فاحملوا
وإن أنتمُ أمْعَرتمُ[2] فتعفَّفوا
وإنْ كان فضلُ الخير فيكم فأفضِلوا

وقال أبو قيس أيضاً :

سبِّحوا الله شَرْقَ كلِّ صباحٍ   طلعت شمسُه وكلَّ هلالِ
عالم السرِّ والبيان لدَيْنا   ليس ما قال ربُّنا بضلالِ
وله الطير تستدير[3] وتأوِى   فى وكورٍ من آمنات الجبالِ
وله الوحشُ بالفَلاة تراها   فى حِقافٍ وفى ظلال الرمالِ[4]
وله هَوَّدتْ يهودُ ودانت   كلَّ دينٍ إذا ذكرتَ عُضَالِ[5]
وله شَمَّس[6] النصارى وقاموا   كلَّ عيدٍ لديهمُ[7] واحتفالِ
وله الراهبُ الحبيسُ تراه   رَهْنَ بُؤْسٍ وكانَ ناعمَ بالِ
يا بَنِيَّ الأرحام لا تَقْطعوها   وصِلُوها قصيرةً من طِوالِ
واتقوا الله فى ضِعافِ اليتامى   ربَّما يُستحلّ غيرُ الحلالِ
واعلموا أن لليتيم وليًّا   عالمًا يَهتدى بغير السؤالِ

---

(١) ط : فارفعوهم .
(٢) أمعرتم : افتقرتم .
(٣) ابن هشام : تستريد .
(٤) الفلاة : الصحراء . والحقاف : جمع حقف ، وهو الرمل العظيم المستدير .
(٥) العضال : الشديد .
(٦) شمس : تعبد .
(٧) ابن هشام : لربهم .

ثم مالَ اليتيم لاتأكلوه إن مالَ اليتيم يرعاه والي
يا بَنِيَّ النجومَ لا تَخْزِلوها إن خَزْل النجوم ذو عُقَّال[١]
يا بَنِيَّ الأيامَ لا تأمنوها واحذروا مَكْرَها ومَرَّ الليالى
واعلموا أن أمرها لنفاد الخَلْق ما كان من جديدٍ وبالِ
واجمعوا أمرَكم على البر والتقوى وترك الخَنا وأخذِ الحلال

* * *

قال ابن إسحق : ونصَب[٢] عند ذلك أحبارُ يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بَغْيًا وحسدًا وضِغْنًا لما خصَّ الله العربَ من أخذه رسوله منهم .

وانضاف إليهم رجالٌ من الأوس والخزرج ، ممن كان عَسَى[٣] على جاهليته فكانوا أهلَ نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قَهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام واتخذوه جُنَّة من القتل ، ونافقوا فى السر فكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم وجحودهم الإسلام .

وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ويتعنَّتونه ويأتونه باللَّبْس ليَلْبسوا الحق بالباطل ، [إلا ما كان من عبد الله ابن سلاَم ومُخَيْرِيق][٤] فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه إلا قليلا من المسائل فى الحلال والحرام كان المسلمون يَسألون عنها .

---

(١) النجوم : الأصول وتخزلوها : تقطعوها . العقال : داء فى رجل الدابة ، إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط — ورواية البيت فى ابن هشام :

يابنى التخوم لا تخزلوها .. إن خزل التخوم ذو عقال

وفسر السهيلى التخوم بالحدود بين القرى .. وأرى أن ما هنا أصح .

(٢) ابن هشام : ونصبت .

(٣) عسى : غلظ ، أى كبر وتقدم به السن .

(٤) ليست فى ابن هشام .

[إسلام عبد الله بن سلاّم]

وكان من حديث عبد الله بن سلاّم وإسلامه ، وكان حَبْراً عالماً قال : لما سمعتُ برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفتُ صِفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكَّف[1] له ، فكنت مُسِرًّا لذلك صامتاً عليه حتى قدِم المدينة .

فلما نزل بقُباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبّرتُ ، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيَّبك الله ! لو كنتَ سمعتَ موسى بن عمران قادماً ما زِدْتَ !

فقلت لها : أى عمَّة ، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه ، بُعث بما بعث به .

فقالت : أى ابنَ أخى ، أهو النبى الذى كنا نُخْبَر أنه يُبعث مع نفس الساعة ؟ فقلت لها : نعم . فقالت : فذاك إذاً .

قال : ثم رُحت[2] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ ثم رجعت إلى أهلى فأمرتهم فأسلموا وكتمتُ إسلامى من يهود .

ثم جئت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله إن يهود قومٌ بُهتٌ ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيّبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بَهَتونى وعابونى .

---

(١) نتوكف : ننتظر .
(٢) ابن هشام : ثم رجعت .

قال : فأدخلني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض بيوته ، ودخلوا عليه فكلّموه وسألوه ثم قال لهم : أيُّ رجلٍ الُحصَين بن سلام فيكم ؟ فقالوا سيدُنا وابن سيدنا وحَبْرنا وعالمنا .

فلما فرغوا من قولهم خرجتُ عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله وأومِن به وأصدّقه وأعرفه . قالوا : كذبتَ . ثم وقعوا بي !

فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا نبي الله[١] أنهم قوم بُهت أهل غدْر وكذب وفجورٍ ؟ !

قال : فأظهرتُ إسلامي وإسلامَ أهل بيتي ، وأسلمت عمتي خالدة فحَسُن إسلامها .

[إسلام مخيريق]

قال ابن إسحق : وكان من حديث مُخَيْريق ، وكان حَبْراً عالماً غنياً[٢] كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بصفته وما يجد في علمه ، وغلب عليه إلفُ دينه فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يومُ أُحُدٍ ، وكان يومَ السبت ، قال : يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نَصْرَ محمد عليكم لحقٌّ . قالوا : إن اليومَ يوم سبت . قال : لا سبت عليكم[٣] ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم [وأصحابه][٤]

---

(١) ابن هشام : يا رسول الله .
(٢) ابن هشام : وكان رجلا غنيا .
(٣) ابن هشام : لكم .
(٤) ليست في ابن هشام .

بأُحُدٍ ، وعَهِد إلى مَن وراءه من قومه : إن قُتلت هذا اليوم فأموالى لمحمد يصنع فيها ما أراه الله .

فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتل ، وقَبَض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أموالَه ، فعامّة صدقاته بالمدينة منها .

وكان صلى الله عليه وسلم فيما يلغنى يقول : مُخَيريق خيرُ يهود .

[العـداوة]

قال : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر قال : حُدثت عن صفية بنت حُيَيّ أنها قالت : كنت أحبَّ ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألْقهما مع ولد لهما إلا أخذانى دونه ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة غدا عليه أبى وعمى مُغَلِّسَيْن فلما يرجعا حتى كان مع غروب الشمس ، فأتَيا كالَّيْن كسْلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنى فهششْتُ إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلىَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى : أهو هو ؟ قال نعم والله . قال : أتعرفه وتثْبته ؟ قال : نعم . قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيتُ .

وكان(١) هذان الأخوان الشقيان من أشد يهود للعرب حسدًا لما خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، فكانا جاهدَيْن فى ردِّ الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله عز وجل فيهما : « ودَّ كثيرٌ مِنْ أَهلِ الكتابِ لوْ يَرُدُّونكُمْ مِن بعْدِ إيمانِكم كفاراً حَسَداً مِن عندِ أنفسِهم ، من بعدِ ما تبَيَّن لهم الحقُّ ، فاعفُوا واصفَحُوا حَتّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِه إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِير(٢) » .

---

(١) ليست عن ابن هشام .

(٢) سورة البقرة ١٠٩ .

ومَرَّ شأس بن قيس ، وكان شيخاً قد عَسَى(١) عظيمَ الكفر ، شديد الضِّغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بَيْنهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قَيْلَةَ بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع مَلَؤهم بها من قَرَار .

فأمر شاباً من يهود كان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بُعاث وما كان فيه وأنْشِدْهم بعضَ ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار . وكان يوماً قد اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظَّفَر فيه للأوس ، وكان عليها يومئذ حُضَيْرٌ أبو أُسَيْد ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البَيَاضى فقُتِلا جميعاً .

ففعل الشاب ما أمره به شأس ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازَعوا وتفاخَروا حتى تواثب رجلان من الحَيَّيْنِ على الرُّكَبِ وهما أوس بن قَيْظى وجَبَّار ابن صخر فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددْناها الآن جَذَعة . وغضب الفريقان منه جميعاً وقالوا : قد فعَلْنا موعدُكم الظاهرة — وهى الحَرَّةُ — السلاحَ السلاحَ .

فخرجوا إليها ، وبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين اللهَ اللهَ ! أبِدَعْوى الجاهلية وأنا بين أَظْهُرِكم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمرَ الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألَّف به بينكم(٢) .

---

(١) عسى : أسن .
(٢) ابن هشام : بين قلوبكم .

فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان وكيدٌ من عدوهم فبكوا وعانق الرجالُ من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدو الله شأس بن قيس.

فأنزل الله تبارك وتعالى فى شأن شأس(١) وما صنع: « قل يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّون عَنْ سَبِيل الله مَنْ آمَنَ تبغُونها عِوَجًا وأنتم شهداءُ وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملونَ »(٢).

وأنزل الله فى أوس بن قَيْظى وجَبَّار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية: « يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فريقاً مِنَ الذين أُوتوا الكتابَ يَرُدُّوكم بَعْدَ إيمانكم كافرين * وكيف تكفُرُون وأنتم تُتْلى عليكم آياتُ الله وفيكم رَسُولُهُ ومن يَعْتَصِمْ بالله فقد هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيمٍ * يا أيها الذين آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مُسْلِمون * واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جميعاً ولا تَفَرَّقوا واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداء فَأَلَّفَ بَيْنَ قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شَفَا حُفْرَةٍ من النار فأنقذكم منها كذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لكم آياتِهِ لعلكم تَهْتَدُون(٣) ».

* * *

قال(٤): وحُدثت عن سعيد بن جُبَير أنه قال: أتى رهطٌ من يهود رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له: يا محمد، هذا الله خَلَقَ الخلقَ، فمن

---

(١) ابن هشام: فى شأس.

(٢) سورة آل عمران ٩٩.

(٣) سورة آل عمران ١٠٠ — ١٠٣.

(٤) ترك المؤلف ذكر كثير من حوادث اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها ابن هشام ٢ / ٢٠٤ — ٢٢٠.

خَلَقه ؟ قال : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتُقِـع لونه ، ثم ساورهم[١] غضباً لربه ، فجاءه جبريل فسَـكّنه فقال : خَفِّض عليك يا محمد ، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه : « قُلْ هو اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يَـكُنْ له كُفوًا أَحَدٌ » .

فلما تلاها عليهم قالوا : فصِفْ لنا يا محمـد كيف خَلْقُه ؟ كيف ذراعه كيف عَضُده ؟

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدَّ من غضبه الأول وساورهم ، فأتاه جبريل فقال له مثلَ ما قال أولَ مرة ، وجاءه من الله تبارك وتعالى بجواب ما سألوه عنه ، يقول الله جل وعلا : « وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يوم القيـامة والسمٰواتُ مطويَّاتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكون[٢] » .

* * *

ودخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيتَ المِدْرَاس[٣] على يهود ، فوجد منهم ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فِنْحاص وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حَبْر من أحبارهم يقال له أَشْيع .

فقال أبو بكر لفِنْحاص : ويلك[٤] ! اتق الله وأَسْلِم ، فوالله إنك لتَعْلم أن محمـداً رسول الله قد جاءكم بالحق مِن عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل .

---

(١) ساورهم : واثبهم .
(٢) سورة الزمر ٦٧ .
(٣) بيت المدراس : البيت الذى يتدارس فيه اليهود كتبهم .
(٤) ابن هشام : ويحك .

فقال فنحاص لأبى بكر : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله مِن فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنىٍّ ، ولو كان عنا غنيًا ما استقرَضَنا أموالَنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الرِّبا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا ! .

فغضب أبو بكر فضرب وجهَ فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده لولا العَهد الذى بيننا وبينك لضربتُ رأسك أى عدو الله .

فذهب فِنْحَاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ما حملك على ما صنعتَ ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن عدوّ الله قال قولاً عظيماً ، إنه زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال فضربتُ وجهه .

فجحد ذلك فنحاص وقال : ما قلتُ ذلك .

فأنزل الله عز وجل فيما قال فنحاص ردًّا عليه وتصديقاً لأبى بكر : « لقد سَمِعَ اللهُ قولَ الذين قالوا : إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحن أغنياء ، سنَكتُبُ ما قالوا وقَتْلَهم الأنبياء بغير حقٍّ ، ونقول ذُوقُوا عَذَابَ الحريق(١) »

ونزل فى أبى بكر وما بلغه فى ذلك من الغضب : « ولَتَسْمَعُنَّ من الذين أُوتوا الكتابَ مِنْ قَبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً ، وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإنَّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأمورِ(٢) » .

---

(١) سورة آل عمران ١٨١ .
(٢) سورة آل عمران ١٨٦ .

[المنافقون]

وكان ممن انضاف إلى يهود من المنافقين من الأوس والخزرج فيما ذكروا والله أعلم :

من الأوس : جُلَاسُ بن سُوَيد بن الصامت من بنى حبيب بن عمرو ابن عوف ، وهو القائل : — وكان ممن تخلّف عن غزوة تبوك : لئن كان هذا الرجل صادقًا لنحن شرٌّ من الحُمُر .

وكان فى حجره عُمَير بن سعد ، خلَفَ جُلَاسٌ على أمه بعد أبيه ، فقال له عمير : والله يا جُلَاس إنك لأحب الناس إلىّ وأحسنُه عندى وأعزُّه علىّ أن يصيبه شىء يكرهه ، ولقد قلتَ مقالةً لئن رفعتُها عليك لأفضحنك ، ولئن صَمتُّ عليها ليهلكن دِينى ، ولإحداهما أيْسَرُ علىّ من الأخرى .

ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال جُلَاس ، فحلَف جلاس لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالله لقد كذب علىّ عمير وما قلتُ ما قال .

فأنزل الله فيه : « يَحْلِفُون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمةَ الكُفْرِ وكَفَروا بَعْدَ إسلامهم وهَمُّوا بما لم ينالوا ، وما نَقَمُوا إلا أنْ أغناهمُ اللهُ ورسولُه مِنْ فَضْلِه فإنْ يتوبوا يَكُ خيرًا لَهُمْ ، وإنْ يَتَوَلَّوا يعذِّبهم الله عذابًا أليما فى الدنيا والآخرةِ وما لهم فى الأرض مِنْ وَلِىٍّ ولا نَصِيرٍ »[١] .

فزعموا أنه تاب فحسنت توبته حتى عُرِف فيه الإسلام والخير .

وأخوه الحارث بن سُوَيد ، قَتَل المجذَّر بن ذياد البَلَوِىّ .

---

(١) سورة التوبة ٧٤ .

وذلك أن المجذرَ - فيما ذكر ابن هشام - قتل أباه سويدَ بن الصامت في بعض الحروب إذ كانت بين الأوس والخزرج ، فلما كان يوم أُحد طلب الحارث غِرَّةَ المجذر ليقتله بأبيه ، فقتله .

وذكر ابن إسحق أن سُوَيدا إنما قتله معاذ بن عفراء غِيلةً في غير حرب ، رماه بسهم فقتله قبل يوم بُعَاث .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون قد أمر عمر ابن الخطاب بقتل الحارث إن هو ظفر به ، ففاته فكان بمكة ، ثم بعث إلى أخيه جُلاَس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه . فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « كيف يَهْدِي اللهُ قوماً كفَرُوا بعد إيمانهم وشَهِدوا أنَّ الرسولَ حَقٌّ وجاءهم البينات واللهُ لا يَهْدِي القومَ الظالمين[1] » إلى آخر القصة .

ونَبْتَلُ بن الحارث من بني[2] ضبيعة بن زيد بن مالك ، وهو القائل : إنما محمد أُذُنٌ مَن حدَّثه شيئًا صدَّقه .

فأنزل الله تعالى : ومنهمُ الذين يُؤْذُون النبيَّ ويقولون هو أُذُنٌ قل أُذُنُ خَيْرٍ لكم يُؤْمن بالله ويُؤْمِن للمؤمنين ورحمةٌ للذين آمَنُوا منكم ، والذين يُؤْذُونَ رسولَ الله لهم عذابٌ أليم[3] »

وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر : « من أحبَّ أن

---

(١) سورة آل عمران ٨٦ .

(٢) كذا بالأصل وهو خطأ ، فنبتل كما ذكر ابن هشام : من بني لوذان بن عمرو ابن عوف ، أما الذي من بني ضبيعة بن زيد بن مالك فهو بحاد بن عثمان بن عامر . ابن هشام : ٢ / ١٦٨ .

(٣) سورة التوبة ٦١ .

ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث » وكان جسيما أَدْلَم(١) ثائر شعر الرأس أحمر العينين . وذكر أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنه يجلس إليك رجل أَدْلَمُ ثائرُ شعر الرأس أسْفَع الخدَّين(٢) أحمر العينين كأنهما قِدران من صُفْر(٣) كَبِده أغلظ من كبد الحمار ، ينقل حديثك إلى المنافقين ، فاحذره .

وعمرو بن خِذَام ، وعبد الله بن نبتل ، وجارية بن عامر بن العَطَّاف وابناه زيد ومجمِّع وهم ممن اتخذ مسجد الضرار .

وكان مجمّع ، غلاماً حَدَثاً قد جمع من القرآن أكثره ، وكان يصلى بهم فيه ، فلما كان زمان عمر بن الخطاب كلِّم فى مُجَمِّع ليصلى بقومه بنى عمرو ابن عوف فى مسجدهم ، فقال : لا ، أوَ ليس بإمام المنافقين فى مسجد الضرار !

فقال له مجمّع : يا أمير المؤمنين والله الذى لا إله إلا هو ما علمتُ بشىء من أمرهم ، ولكنى كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا لا قرآن معهم ، فقدمونى أصلّى بهم وما أرى أمرَهم إلا على أحسن ما ذَكروا .

فزعموا أن عمر رضى الله عنه تركه فصلّى بقومه .

* * *

ومن الخزرج ، ثم من بنى عوف : عبدُ الله بن أُبَىّ بن سَلُول ، وكان رأسَ المنافقين وإليه يجتمعون .

وهو الذى قال فى غزوة بنى المُصْطَلِق : لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنّ

---

(١) الأدلم : الأسود الطويل .

(٢) الأسفع : الشاحب .

(٣) الصفر : النحاس .

الأعزُّ منها الأذَلَّ . وسيأتى ذكر ذلك مستوفياً وبيانُ سببه عند الانتهاء إلى غزوة بنى المصطلق ، إن شاء الله تعالى .

وقَدِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيدُ أهلها عبد الله ابن أُبىّ هذا ، ولا يَخْتَلف عليه فى شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين .

حتى جاء الإسلام ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه من الأوس شريف مطاع ، أبو عامر عبد عَمْرو بن صَيْفِىِّ بن النعمان أحد بنى ضُبَيْعة بن زيد ، وهو أبو حَنْظَلة الغَسِيلُ يومَ أُحُد ، وكان قد ترهَّب ولبس المسوحَ فكان يقال له الراهب ، فشَقِيَا بشرفهما !

أمّا عبد الله بن أُبَىّ فكان قومه قد نظموا له الخرَزَ ليُتَوِّجوه ويملِّكوه عليهم ، فجاءهم الله تبارك وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فلما انصرف عنه قومُه إلى الإسلام ضَغِنَ ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استَلَبه مُلْكاً ، فلما رأى قومَه قد أبَوْا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مُصِرًّا على نفاق وضِغْن .

وحدَّث أسامةُ بن زيد حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ركِب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة يعوده من شَكْوٍ أصابه على حمار عليه حافٌ(١) فوقه قطيفة فدَكيّة(٢) مخطَمه(٣) بحبل من ليف وأرْدَفنى خلفَه ، فمرّ بعبد الله بن أُبَىّ وحوله رجال من قومه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تذَمَّمَ أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلّم ثم جلس فتلا القرآن ودعا إلى الله وذكّر به وحذّر وبَشّر وأنْذَر ، وعبدُ الله زامٌّ

---

(١) ابن هشام : إكاف .
(٢) فدكية : منسوبة إلى فدك وهى قرية بالحجاز قرب المدينة .
(٣) ابن هشام : مختطمه .

لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا هذا إنه لا أحسنَ من حديثك هذا إن كان حقًّا ، فاجلس فى بيتك فمن جاءك فحدِّثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تَغْشَه[1] به ولا تأته فى مجالسه بما يكره .

فقال عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى فاغْشَنَا به وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله ما نحب وما أكرمنا الله به وهدانا له .

فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى يَكُنْ مولاك خَصْمك لم تَزَلْ[2] تَذِلُّ ويَصْرَعْكَ الذين تصارِعُ
وهل ينهض البازى بغير جَنَاحه وإن جُدَّ يوماً ريشُه فَهوَ واقعُ

قال : وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عبادة وفى وجهه ما قال عدوُّ الله ابن أُبَىّ ، فقال : والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئاً : لكأنك سمعت شيئاً تكرهه ؟ قال : أجل . ثم أخبره بما قال ابن أُبَىّ . فقال سعد : يا رسول الله ارفق به ، فو الله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرزَ لنتوِّجه ، فإنه لَيَرى أنْ قد سَلَبْتَه مُلكا !

* * *

وأما أبو عامر فَأَبَى إلا الكفرَ والفراقَ لقومه حين اجتمعوا على الإسلام ، وأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينةَ فقال : ما هذا الدين الذى جئتَ به ؟ قال : جئت بالحنيفية دينِ إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لستَ عليها[3] .

قال : إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها . قال : ما فعلتُ

---

(١) ابن هشام : فلا تغثه . وهى رواية .
(٢) ابن هشام : لا تزل .
(٣) زاد فى ابن هشام : « قال بلى » .

ولكنى جئتُ بها بيضاء نقية . قال : الكاذب أماته اللهُ طريداً غريباً وحيداً ـ يعرِّض برسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَجَلْ ، فمن كَذَب يفعل الله ذلك به .

فكان هو ذلك عدوُّ الله ، خرج إلى مكة ببضعة عشر رجلا مفارقاً للإسلام ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا : الراهبَ ، ولكن قولوا الفاسقَ .

فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف ، فلمّا أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريداً غريباً وحيداً !

* * *

قال ابن إسحق : وكان ممن تعوَّذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار يهود ، من بنى قَيْنُقاع : سعدُ بن حُنَيف ، ونعمان ابن أوْفَى ، وعثمان بن أوْفَى ، وزيد بن اللُّصَيْت ، وهو الذى قال حين ضلَّتْ ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودُلَّ على ناقته وجاءه الخبر بما قال عدو الله فى رَحْله : « إن قائلاً قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ، وإنى والله ما أعلم إلا ما علَّمنى الله ، وقد دلنى الله عليها فهى فى هذا الشِّعب قد حبستْها شجرةٌ بزمامها » .

فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما وصف .

* * *

وكان هؤلاء المنافقون المسمَّون وغيرهم ممن لم يُسَمَّ يحضرون المسجدَ فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم .

فاجتمع يوماً فى المسجد منهم ناس فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً .

فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس أحد بنى غَنْم بن مالك ابن النجار ، وكان صاحبَ آلهتهم فى الجاهلية ، فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد ، وهو يقول : أتخرجنى يا أبا أيوب من مرْبد بنى ثعلبة !

ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وَدِيعة أحد بنى النَّجار فلبَّبه بردائه ثم نتره نَتْراً شديداً ثم لطم وجهه وأخرجه[1] من المسجد وهو يقول : أفٍّ لك منافقاً خبيثاً ، أَدْرَاجَك يا منافقُ مِن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقام عُمَارة بن حزم إلى زيد بن عمرو ، وكان طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده بها قَوْداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع عُمَارة يديه فلَدَمه[2] بهما فى صدره لَدْمَةً خرَّ منها . قال : يقول : خدَشْتَنى ياعمارة ! قال : أَبْعدَك الله يا منافق ، فما أعَدَّ الله لك من العذاب أشدُّ من ذلك ، فلا تَقْرَبن مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقام أبو محمد ، رجل من بنى النجار ، وكان بَدْرِياً ، إلى قيس بن عمرو فجعل يدفع فى قفاه حتى أخرجه من المسجد . وكان قيس غلاماً شاباً لا يُعْلَم فى المنافقين شاب غيره .

وقام رجل من بَلْخُدْرَة[3] يقال له عبد الله بن الحارث إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو وكان ذا جُمَّة فأخذ بجُمَّته يسحبه سحباً عنيفاً على ما مرَّ به من الأرض حتى أخرجه من المسجد .

---

(١) ابن هشام : ولطم وجهه ثم أخرجه .
(٢) اللدم : الضرب ببطن الكف .
(٣) بلخدرة : بنو الخدرة ، وهم رهط أبى سعيد الخدرى .

قال : يقول المنافق : لقد أغلظتَ يا بن الحارث . فقال له : إنك أهلٌ لذلك يا عدو الله لِمَا أنزل الله فيك ، فلا تقرب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنك نجس .

وقام رجل من بنى عمرو بن عوف إلى أخيه ذُوَىّ بن الحارث فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً وأفّفَ منه وقال : غلب عليك الشيطانُ وأمْرُه .

فهؤلاء من حضر المسجدَ يومئذ من المنافقين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهم .

ففى هؤلاء من أحبار يهود والمنافقين من الأوس والخزرج نزل صدرُ سورة البقرة إلى المائة منها ، فيما بلغنى والله أعلم[1] .

[وفد نصارى نَجْران]

وقدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ وفدُ نصارى نَجْران ، ستون راكباً ، فدخلوا عليه المسجد حين صَلّى العصرَ عليهم ثياب الحِبَرات جُبَب وأردية ، فى جَمَال رجال بنى الحارث بن كعب ، يقول بعضُ من رآهم يومئذ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأينا بَعْدَهم وفداً مثلَهم .

وحانت صلاتهم فقاموا يصلُّون فى المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دَعُوهم . فصلّوا إلى المشرق ، وكان فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، فى الأربعة عشر منهم ثلاثة نفرٍ إليهم يؤول أمْرُهم : العاقبُ أميرُ القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم الذى لا يَصْدُرون إلا عن رأيه ، واسمه عبد المسيح ، والسيدُ ثِمَالُهم[2] وصاحبُ رَحْلهم ومجتمعهم واسمه الأيْهَم ،

---

(١) استمرس ابن هشام صدر سورة البقرة الذى ذكر فيه المنافقون واليهود . انظر ٢/١٧٧ — ١٩٤ .

(٢) أى القائم بأمرهم .

وأبو حارثة بن عَلْقمة أحد بنى بكر بن وائل أسْقُفُّهم وحَبْرهم وإمامهم وصاحب مِدْرَاسهم وكان أبو حارثة هذا قد شَرُف فيهم ودرس كتبَهم حتى حَسُن علمه فى دينهم ، فكان ملوكهم قد شَرَّفوه ومَوَّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم .

فلما وَجَّهوا(١) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نَجْران جلس أبو حارثة على بغلة له موجِّها وإلى جنبه أخ له يقال له كُوز بن علقمة ، ويقال كرز بن علقمة ، فعثرت بغلة أبى حارثة فقال كوز : تعس الأبعد . يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له أبو حارثة : بل أنت تعستَ . قال : ولم يا أخى ؟ قال : والله إنه للنبى الذى كنا ننتظره . فقال له كوز : فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ ! قال : ما صَنع بنا هؤلاء القوم ، شرَّفونا ومَوَّلونا وأكرمونا وقد أَبَوْا إلا خلافَه ، فلو فعلتُ نزعوا منا كلَّ ما ترى .

فأَضْمَر عليها منه أخوه كوز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك ، فهو كان يحدِّث عنه هذا الحديث .

وكان أبو حارثة هذا ممن كلَّم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم هو والعاقب والسيد ، وهم من النصرانية على دين الملِك مع اختلاف من أمرهم [فى عيسى عليه السلام(٢)] ، يقولون هو الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ويقولون هو وَلَدُ الله كبُرت . كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ، ما اتَّخَذَ اللهُ مِن ولد وما كان معه من إلهٍ ، إذَنْ لذَهبَ كُلُّ إلهٍ بما خَلق ولَعَلا بعضُهم على بعض . سبحان الله عَمَّا يصفون ، عالمُ الغيبِ والشهادةِ فتعالى عَمَّا يشركون . ويقولون هو ثالث ثلاثة . وما مِن إلهٍ إلا إلهٌ واحد .

---

(١) ابن هشام : رجعوا . وما هنا أقرب .

(٢) سقطت من ابن هشام وهى متعينة .

ففى كل[1] هذا من قولهم قد نزل القرآن مُدْحِضاً حُجَجَهم ومُبْطلا دعاويهم ، والله يقول الحقّ وهو يَهْدِى السبيلَ .

قال الله العظيم : « لقد كَفَرَ الذين قالوا إنّ الله هو المسيحُ بن مريم ، وقال المسيحُ : يا بنى إسرائيل اعْبُدوا اللهَ ربِّى وربَّكم ، إنه مَنْ يُشْرِكْ بالله فقد حرّم اللهُ عليه الجَنّةَ ومَأْواه النارُ وما للظالمين من أنصارٍ » .

« لقد كفر الذين قالوا إن اللهَ ثالثُ ثَلاثةٍ ، وما مِنْ إله إلا إلهٌ واحد ، وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ليَمَسَّنّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم ، أفلا يتوبون إلى اللهِ ويستغفرونه واللهُ غفورٌ رحيم ، ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ وأمُّه صِدِيقةٌ كانا يأكلان الطعامَ ، انظُرْ كيف نبيّن لهم الآياتِ ثم انظر أنّى يُؤْفَكون[2] » .

وقال عزّ مِن قائل : « وقالت اليهودُ عُزَيرٌ ابنُ اللهِ وقالت النصارى المسيحُ ابنُ اللهِ ذلك قولُهم بأفواههم يُضَاهِئُون قولَ الذين كفروا مِنْ قَبْلُ ، قاتلَهم اللهُ أنّى يُؤْفَكُون ، اتخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أرباباً مِنْ دون اللهِ والمسيحَ بنُ مريم ، وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمّا يُشْرِكون[3] » .

* * *

ولمّا كلموا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإسلام ، فقال له

---

(١) دفع الآراء والتعليق عليها لم يذكره ابن هشام .

(٢) سورة المائدة ٧٢ — ٧٥ .

(٣) سورة التوبة ٣٠ — ٣١ .

حَبْران ممن كلّمه منهم : قد أسْلَمْنا . فقال لهما : إنكما لم تُسْلِما فأسْلِمَا . فقالا : بلى قد أسلمنا قبلك .

فقال : كَذَبْتما ، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدًا وعبادتكما الصليبَ وأكلُكما الخنزير .

قالا : فمَنْ أبوه يا محمد ؟

فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهما .

فأنزل الله فى ذلك من قولهم واختلاف أمرهم [كله][1] صدرَ سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها .

فافتتح السورةَ بتنزيه نفسه سبحانه مما[2] قالوا ، وتوحيدِه إياها بالخلق والأمر ، ردًّا عليهم ما ابتدعوا من الكفر وجَعَلوا معه من الأنداد ليُعَرِّفهم بذلك ضلالتهم . فقال جَلّ قوله وتعالى جَدُّه : « ألم . اللهُ لا إله إلا هو الحيُّ القَيُّوم ، نَزَّل عليك الكتابَ بالحق مصدِّقًا لِما بَيْنَ يديه وأنْزَل التوراة والإنجيل ، مِن قَبْلُ هدًى للناس وأَنْزَل الفُرْقَان ، إنَّ الذين كَفَروا بآياتِ الله لهم عَذَابٌ شديدٌ واللهُ عزيزٌ ذو انتقامٍ ، إنَّ اللهَ لا يَخْفَى عليه شىء فى الأرضِ ولا فى السماء ، هو الذى يُصَوِّرُكم فى الأرحام كيف يَشَاء لا إله إلا هو العزيزُ الحكيمُ » .

ثم استمر سبحانه فيما شاء من التِّبيان لهم والإعذار إليهم والاحتجاج عليهم ، وإرشادِ عباده المؤمنين إلى سبيل الضراعة إليه بأن لا يُزِيغ قلوبَهم بعدَ إذ هَدَاهم ، وأن يَهَبَ لهم من لدنه رحمةً ، وما وَصَل بذلك من قولِه الحق وذِكره الحكيم .

---

(١) من ابن هشام .
(٢) ابن هشام : عما .

ثم استقبل لهم أمرَ عيسى وكيف كان بَدْء ما أراد به ، فقال : « إن الله اصْطَفَى آدَمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمْرَان على العالمين ، ذُرِّيَّةً بعضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عليم »

ثم ذكر امرأةَ عمران ونَذْرَها لله ما في بطنها محرَّرًا ، أي تعبّده له سبحانه لا ينتَفَع به لشيء من الدنيا ، ثم ما كان مِنْ وَضْعِها مريم وتعويذها إياها وذريتَها بالله من الشيطان الرجيم .

يقول الله تبارك وتعالى : « فتقَبَّلها ربُّها بقَبُولٍ حَسَنٍ وأَنْبَتَها نباتاً حَسَناً وكفَّلَها زكريا » أي ضمَّها وقام عليها بعد أبيها وأمها .

ثم قصَّ خبرها وخبرَ زكريا وما دعا به وما أعطاه ، إذ وهب له يحيى ، ثم ذكَر مريم وقولَ الملائكة لها : « يا مريمُ إنَّ الله اصطفاكِ وطهَّركِ واصطفاكِ على نساء العالمين ، يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لربِّك واسْجُدِي واركعى مع الراكعين » .

يقول الله جل وعز : « ذلك من أَنْبَاء الغيبِ نُوحِيهِ إليك وما كنتَ لديهم إذ يُلْقُون أقلامَهم أيُّهم يَكْفُل مريم » أي يَسْتَهِمون عليها ، أيُّهم يَخرج سهمُه يَكْفُلها . « وما كنتَ لديهم إذ يَخْتَصِمُون » أي ما كنت معهم إذ يختصمون فيها .

يخبره بخفيِّ ما كتموا عنه من العلم ، تحقيقا لنبوته وإقامةً للحجة عليهم[1] بما يأتيهم به مما أخفوا منه .

ثم قال تعالىٰ : « إذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إنّ اللهَ يبشِّرُكِ بكلمةٍ منه

(١) ابن هشام : لتحقيق نبوته والحجة عليهم .

اسمُهُ المسيحُ عيسى بنُ مريم ، وجيهاً في الدنيا والآخرةِ ومن المُقرَّبين ، ويُكلِّم الناس في المَهْدِ وكهلاً ومِنَ الصالحين » .

أي هكذا كان أمره لا ما يقولون فيه ، وإن هذه حالاته التي يتقلب بها في عمره كتقلُّب بني آدم في أعمارهم صغاراً وكباراً ، إلا أن الله خصّه بالكلام في مَهْده آيةً لنبوّته ، وتعريفاً للعباد مواقعَ قدرته .

« قالت : رَبِّ أنَّى يَكُونُ لي وَلَدٌ ولم يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ؟ قال كذلكِ اللهُ يَخْلُق ما يشاء » .

أي يصنع ما أراد ويَخْلُق مايشاء من بشر أو غير بشر . [ويصوِّر في الأرحام ما يشاء وكيف يشاء بذَكَر وبغير ذَكَر[1]] .

« إذا قَضَى أمراً فإنما يقول له : كُنْ فيكونُ » .

ثم أخبرها بما يريد به من كرامته وتعليمه الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ المنزَّلة على موسى قبلَه والإنجيلَ المنزَّل عليه ، وجَعْلِه رسولا إلى بني إسرائيل ، مؤيَّدًا من الآيات بما هو صادرٌ عن إذنه موقوف على مشيئته تحقيقاً لما أراد من نبوته ، كإبراء الأَكْمَه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وغير ذلك مما أيّده اللهُ به من العجائب المصدِّقةِ له ، وأمْرِه إياهم بتقوى الله وطاعته وقوله لهم : « إنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُم » تَبَرِّيًا من الذي يقولون فيه واحتجاجاً لربه عليهم . « فاعبدوه ، هذا صراطٌ مستقيم » أي هذا الهَدْي قد حَمَلتكم عليه وجئتكم به .

« فلما أحسَّ عيسى منهم الكفرَ قال : مَنْ أنصارِي إلى الله ؟ قال الحَوَارِيُّونَ : نحنُ أنصارُ اللهِ آمَنَّا باللهِ واشْهَدْ بأَنَّا مُسْلِمُونَ . ربَّنا آمَنَّا بما أَنزلْتَ واتَّبَعْنَا الرسولَ فاكْتُبْنَا مع الشاهدين » .

---

(١) ليست في ابن هشام .

ثم ذكر رَفْعَهُ إياه إليه حين اجتمعوا لقتله ، فقال : « ومَكَرُوا ومَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرِينَ » .

ثم أخبرهم ورَدَّ عليهم فيما أقروا لليهود بصلبه ، كيف رَفَعه وطهّره منهم فقال : « إذ قال اللهُ يا عيسى إنّي مُتَوَفِّيكَ ورافعك إليَّ وَمُطَهِّرُكَ من الذين كَفَروا وجَاعِلُ الذين اتَّبَعُوكَ فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ثم القصة حتى انتهى إلى قوله : « ذلكَ نَتْلُوه عليك من الآياتِ والذِّكرِ الحكيم . إنَّ مَثَلَ عيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثم قال له كُنْ فيكون . الحقُّ مِنْ رَبِّكَ فلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِين » .

أى قد جاءك الحق من ربك فلا تَرْتَابَنَّ به ولا تمترينَّ فيه ، وإنْ قالوا كيف خُلِق عيسى من غير ذَكَر فقد خلقتُ آدمَ من تراب بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذَكَر ، فكان كما كان عيسى لحماً ودماً وشَعْراً وبَشَراً ، فليس خَلْق عيسى من غير ذكر بأَعْجَبَ من هذا .

« فمن حاجَّك فيه من بَعْدِ ما جاءك من العلم » أى من بعد ما قصصتُ عليك من خبره وكيفية أمره(١) « فقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءنا وأبناءَكم ونِسَاءَنَا وَنِسَاءَكم وَأَنْفُسَنَا وأنفُسَكم ثم نَبْتَهِلْ فنجعَلْ لعنةَ الله على الكاذبين » .

نبتهل : ندعو باللعنة ، ونبتهل أيضاً نجتهد بالدعاء(٢) .

« إن هذا لَهُوَ القَصَصُ الحقُّ » أى ما أخبرتك به من أمر عيسى « وما مِنْ إلهٍ إلا اللهُ وإنَّ اللهَ لَهُوَ العزيزُ الحكيم . فإنْ تَوَلَّوْا فإنَّ اللهَ عليمٌ بالمفسدين . قُلْ يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكم

---

(١) ابن هشام : وكيف كان أمره .

(٢) ابن هشام : فى الدعاء .

ومثله التاريخ الكبير لأبي بكر بن أبي خَيْثمة ، وناهيك به من بَحْر لا تُكَدِّره الدِّلاء ، وغَمْرٍ لا يُنفِده الأخْذُ الدِّرَاك[1] ، ولا يستنزفه الوِرْدُ الوِلاء .

وكم شيء أستَحْسِنه من غير هذه الكتب المسماة فأنظمه في هذا النظام ، وأضطر إلى الإفادة به مساقَ الكلام . إما مُتمِّماً لحديثٍ سابق ، وإما مفيداً بفرض لما تقدمه مُطابِق .

فإن لم يكن بينهم في الأحاديث اختلاف يُشْعر بنقض ، فكثيراً ما أُدْخِل حديثَ بعضهم في حديث بعض ، ليكون المساقُ أبْيَن والاتساق أحْسَن .

وإنْ عرض عارضُ خلافٍ فالفصل حينئذ أرْفَعُ للإشكال وأدْفَعُ المقال .

وربما فصَلْتُ بين بعض أحاديثهم وإن اشتبهت معانيها ، بحسب ما تدعو إليه ضرورةُ الموضع ، أو تحمل على إعادته حلاوة الموقع .

وكل ذلك يَشْهد الله أن المرادَ فيه بالقصد الأول وجهُه الكريم ، وإحسانُه العميم ، ورحمتُه التي منها شَقّ لنفسه أنه الرحمن الرحيم .

ثم القصد الثاني متوفِّرٌ على إيثار الرغبة في إيناس الناس بأخبار نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وعمارة خواطرهم بما يكون لهم في العاجل والآجل أنْفَعَ وأسْلَمَ .

وقد عمّ عليه الصلاة والسلام ببركة دعائه سامعَ حديثِه ومُبَلِّغَه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أفاد المسلمُ أخاه المسلمَ أفضلَ من حديث حَسَن بَلَغَه فبَلَّغَه » .

---

(١) الغمر بفتح الغين وسكون الميم : الماء الكثير ، والأخذ الدراك المتتابع .

ألاّ نَعْبُدَ إلا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون اللهِ ، فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنّا مُسْلِمون » .

فدعاهم إلى النَّصَف وقطع عنهم الحجة .

* * *

فلما أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ من الله عز وجل فى شأن عيسى وفَصْلُ القضاء بينه وبينهم بما أُمِر به من مُلاَعنتهم إن رَدُّوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك ، فقالوا يا أبا القاسم دَعْنا ننظر فى أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه .

فانصرفوا عنه ثم خَلَوْا بالعاقب ، وكان ذا رأيهم ، فقالوا : يا عبد المسيح ما ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمداً لنبيٌّ مُرْسَل ، ولقد جاءكم مِن خَبَرِ صاحبكم بالحق ، ولقد علمتم ما لاعَنَ قومٌ نبيًّا قط فبقى كبيرهم ولا نَبَت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبَيتم إلا إلفَ دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادِعوا الرجلَ وانصرِفوا(١) إلى بلادكم .

فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا ألاّ نُلاعنك وأن نتركك على دِينك ونرجع إلى ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رِضىً .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتونى العشية أبعث معكم القوىَّ الأمين .

فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أحببتُ الإمارة قط حبِّى

---

(١) ابن هشام : ثم انصرفوا .

إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرُحْت إلى الظهر مهجِّراً ، فلما صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلّم ثم نظر عن يمينه ويساره فجعلت أتطاول له ليرانى ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجرّاح ، فدعاه فقال اخرج معهم فاقضِ بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه .

قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة .

[مرض المهاجرين بالمدينة]

ولما قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدِمها وهى أَوْبَأُ أرض الله من الحُمّى ، فأصاب أصحابَه منها بلاء وسقم حتى جَهِدوا فما كانوا يصلون إلا وهم قُعُود ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم فخرج عليهم صلوات الله عليه وهم يصلُّون كذلك ، فقال لهم : اعلموا أن صلاة القاعد على النِّصْف من صلاة القائم . فتجشَّم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماس الفضل !

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ممن أصابته الحمى وكذلك مَوْلياه عامر بن فُهيرَة وبلال ، قالت عائشة : فدخلت أعُودهم قبل أن يُضرب علينا الحجاب وهم فى بيت واحد وبهم ما لا يعلمه إلا الله من الوعك ، فدنوت من أبى بكر فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ فى أهله والموتُ أدنَى مِنْ شراكِ نَعْلِهِ

فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول ، ثم دنوت إلى عامر فقلت ، كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدتُ الموتَ دون ذَوْقِهِ[1] إنّ الجبانَ حَتْفُه مِنْ فَوْقِهِ

(١) ابن هشام : قبل .

كلُّ امرىء مجـاهدٌ بطَوقِه ... كالثورِ يَحْمِي جِـلدَه بِرَوْقِه

قالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته وقال :

ألا لَيْتَ شِعْرى هل أبيتَنَّ ليـلةً ... بِوَادٍ[1] وحَوْلِى إذْخَرٌ وجَليلُ

وهل أَرِدَنْ يوماً ميـاه مَجَنَّةٍ ... وهل يَبْدُوَنْ لى شامةٌ وطَفِيلُ

قالت عائشة : فذكرتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعتُ منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم حَبِّبْ لنا المدينةَ كما حبَّبْتَ [إلينا][2] مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مُدِّها وصاعها ، وانقُل وباءها إلى مَهْيَعة . وهى الجُحْفة .

انتهى الجزء الأول من كتاب « الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء » بحمد الله ، ويليه الجزء الثـانى وأوله : « شروع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرب المشركين ، وذكر مغازيه التى أعزَّ الله بها الإيمان والمؤمنين » .

---

(١) ابن هشام : بفج ... (٢) من ابن هشام .

تصويبات

الصفحة	السطر	الصواب
٤١	١٦	مُضَمِرِ
١٢٣	٨	وخانَتْ
٢٨٦	١٨	وأَمْسَكتُ
٢٨٧	١٣	ثَبِيرًا
٢٨٩	١	اخْتلفا
٢٩٦	٣	لا تَشْوِى
٢٩٦	١١	يخبركمُ
٤١٤	١٩	بجـدّة
٢٩٠	١٢	رحمـةٍ
٤٥٤	هامش	أُلجمّارة

الاكتفاء

في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء

للإمام أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي

٥٦٥ — ٦٣٤ هـ

تحقيق

مصطفى عبد الواحد

ينشر لأول مرة على نسختي «طلعت» و «التيمورية»

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة
ومكتبة الهلال ببيروت

١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير — عابدين
ت ٩٠٦٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وبعد . . فهذا كتاب « الاكتفاء بمغازى رسول الله ومغازى الثلاثة الخلفاء » لأبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى الأندلسى ، أقدمه للأمة الإسلامية لأول مرة بعد أن ظل فى طوايا النسيان ثمانية قرون من الزمان . .

ولا بد هنا أن نتحدث عن المؤلف قبل أن نتحدث عن كتابه وموضوعه .

الكلاعى[1] :

هو سليمان بن موسى بن سالم بن حسّان بن سليمان بن أحمد بن عبد السلام الحِمْيرى ، ينتهى نسبه إلى ذى الكَلاَع يكنى أبا الرّبيع ويعرف بابن سالم .

ولد سنة ٥٦٥ هـ فى بلَنْسية بالأندلس ، وأصله من ثغورها الشرقية . وقيل : كان مولده بظاهر مرسية فى مستهل رمضان سنة ٥٦٥ ، وسِيق إلى بلنسية وهو ابن عامين ونشأ بها .

ثقافتــه :

كانت بلاد الأندلس فى عصر الكلاعى لا تزال ترفع لواء العلم ،

---

(١) ترجمته فى تذكرة الحفاظ للذهبى ٤/٢٠٩ ط حيــدر آباد ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ٣/٥٦ . والديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ١٢٥ ونفح الطيب ٢/٥٠٢ ، ٦٥٩ ، ٧٦٨ ط ليدن والإحاطة فى أخبار غرناطة ، والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار .

وتموج بألوان الثقافات ، وكانت العلوم الدينية فى مقدمة ما يُعْنى به الطالبون ، وقد اتجه الكلاعى منذ نشأته إلى علوم الحديث فسمع ببلده أبا العطاء بن نذير وأبا الحجاج بن أيوب وأبا عبد الله بن نوح وأبا الخطاب بن واجب ، وغيرهم .

وتجوّل فى بلاد الأندلس والعِدْوة فسمع أبا القاسم بن حُبَيْش وأبا بكر ابن الجد وأبا عبد الله بن زرقون ، وأبا عبد الله بن الفخار ، وأبا محمد بن عبيد الله ، وأبا محمد بن بونة ، وأبا الوليد بن رشد ، وأبا محمد بن الفرس ، وأبا عبد الله ابن عروس وأبا محمد بن جمهور ، وأبا الحسن بن نجبة ، وخَلْقا .

وقد انتفع الكلاعى من هؤلاء الشيوخ ، وصادف ذلك منه ذهنا حادًّا وذكاء متقداً ، فكان حافظاً للحديث مبرّزا فى نقده تامّ المعرفة بطرقه ضابطاً لأحكام أسانيده ذاكراً لرجاله .

وقد تميّز بذكره لحياة الرجال وحفظه لأسمائهم وخاصة من تأخر زمانه وعاصَره ، حتى تقدم على أهل زمانه فى ذلك . .

كل ذلك أدّى بالكلاعى إلى أن ارتقى منزلة عالية فى صناعة الحديث ، فكان بصيراً به عارفاً بالجرح والتعديل ، لا نظير له فى الاتقان والضبط ، وعُرف بالعدالة والجلالة ، فكانت إليه الرحلةُ فى عصره للأخذ عنه والسماع منه ، كما يقول عنه ابن الأبّار : « وانتفعتُ به فى صناعة الحديث كل الانتفاع وأفادنى ما لم يفد أحداً مما كان عنده من الغرائب » ولذلك كان يقال عنه : « بقيةُ الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقى » .

وإلى جانب التبحّر فى الحديث والاتساع فى فنونه كان الكلاعى أديباً مبرزاً فى الشعر والنثر ، فقد قال عنه ابن الخطيب :

« كان رَبّانَ من الأدب كاتباً بليغاً خطيباً بجامع بلنسية » وكان يتميز

بحسن السَّرْد والمساق لما يقول ، ويظهر ذلك فى كتابه الذى بين أيدينا ، مما يدل على ملكة أدبية وحس مرهف ووجدان رقيق .

وقد أهَّلته هذه الملكة الأدبية إلى أن يكون المتكلم عن الملوك فى مجالسهم والمنبئ عنهم لما يريدونه على المنابر وفى المحافل . .

وذلك يجعلنا نضع الكلاعى فى مرتبة الرئاسة فى الحديث وفى الكتابة فى عصره . .

أسلوبه :

كان الكلاعى يلتزم فى كتابته شارات عصره من السجع والجناس والطباق وغير ذلك من المحسنات ، فذلك كان الأسلوب المرضِيّ فى ذلك الحين ، ولكنه كان يتميز بحاسة مرهفة فى اختيار الكلمات الرقيقة وحسن الملاءمة بينها فى الأسلوب ، وذلك هو مجال التفاضل بين الكُتّاب ، ويبدو ذلك واضحاً فى مقدمة كتابه هذا ، فإنك تحس فيه روح كاتب يطاوعه الأسلوب وتحضره الكلمات المعبِّرة ، ومع التزمه السجع فلا تجد فيه عبارة مستكرهة ولا لفظة مجتلبة فى غير موضعها مع عاطفة بادية وشعور نابض .

وقد جمع الكلاعى رسائله فى ديوان لم يصل إلى أيدينا ، وله كتب أدبية سنذكرها فى تراثه .

شعره :

كان الكلاعى ينظم الشعر فى مختلف أغراضه ، ومع أنه كان من رجال الحديث المبرزين فلم يعُقْه ذلك عن الإجادة فى النظم والجمال فى التصوير ، وقد عبَّر فى شعره عن نفسه وبَثَّ خواطره ولم يكن نظاماً مقلّداً ولا شاعراً متصنعاً ، فمن شعره فى شبابه ما كتب به إلى بحر بن صفوان بن إدريس عقب انفصاله من بلنسية سنة ٥٨٧ هـ :

أحِنّ إلى نجدٍ ومن حَلّ فى نجـدِ ... وماذا الذى يُغْنى حنينى أو يُجدِى

وقد أوْطنوها وادِعين وخَلَّفـوا ... محبَّهم رَهْنَ الصبابة والوجـدِ

تبيّن بالبَيْن اشتياقى إليهـمُ ... ووجْدى فساوَى ماأجنّ الذى أبْدِى

وضاقت علىّ الأرض حتى كأنهـا ... وشاحٌ بخصْر أو سِوَارٌ على زنْدِ

إلى الله أشكو ماألاقى من الجوَى ... وبعض الذى لاقيتُه من جوى يُرْدِى

فياليت شعرى هل تعود لنـا المنَى ... وعيشٍ كما نمْنمتَ حاشيتَىْ بُرْدِ

ولم يختلف شعره عن هذه الرقة فى كِبَره ، فظل جياشَ العاطفة حسَن الرُّواء ، فمن شعره فى شيخوخته :

توالتْ ليـالٍ للغواية جُونُ ... ووافَى صبـاحٌ للرشاد مبينُ

رِكاب شبابٍ أزمعتْ عنك رحلةً ... وجيشُ مشيبٍ جَهَّزته مَنُونُ

ولا أكذب الرحمن فيما أجنّـه ... وكيف ولا يَخْفى عليـه جَنِينُ

ومن لم يخَلْ أن الرياء يَشِينه ... فمن مَذْهبى أن الرياء يَشِـينُ

لقد ريع قلبى للشـباب وفَقْده ... كما ريع بالعِلْق[1] الفقيد ضَنِينُ

وآلمنى وَخْط المشـيب بلمّتى ... فخُطّت بقلبى للشجون فنونُ

وليلُ شبابى كان أنضَر مَنظراً ... وآنَقَ مهما لا حظتْه عيـونُ

فإيهاً على عيشٍ تـكدَّر صـفْوه ... وأنسٍ خلا منـه صفًا وحَجُونُ

ويا ويح فَوْدى أو فؤادىَ كلما ... تزيّد شيبى كيف بعـدُ يكونُ

حرامٌ على قلبى سـكونٌ بغرةٍ ... وكيف مع الشيب الممضّ سـكون

(١) النفيس .

وقالوا شباب المرء شعبة جنة   فما لى عرانى للمشيب جنونُ
وقالوا شجاك الشيبُ حدثانَ ما أتى   ولم يعلموا أن الحديث شجونُ !

وهكذا نجد شعر الكلاعى زاخرا بالصور نابضاً بالعاطفة معبراً عن أحلامه مصوراً لمراحل حياته .

وقد كانت له مناجاة لربه عذبة الأسلوب صادقة اللهجة ، منها قوله :

أمَوْلَى الموالى ليس غيرك لى مَوْلَى   وما أحدٌ يا رب منك بذا أَوْلَى
تبارك وجهٌ وجّهت نحوه المنى   فأوْزَعها شُكراً وأوسعها طَوْلا
وما هو إلا وجهك الدائمُ الذى   أقلّ حِلَى عَلْيائه يُخْرِس القولا
تبرأتُ من حَوْلى إليك وقوّتى   فكُنْ قوّتى فى مَطْلبى وكن الحَوْلا
وهَبْ لى الرضا مالى سوى ذاك مُبتغًى   ولو لقيتْ نفسى على نَيْله الهَوْلا

شخصية الكلاعى :

والحق أن أبا الربيع الكلاعى كان نمطاً فريداً فى عصره ، فهو حافظ محدّث وأديب متقن وشاعر رقيق ، أنيق الشارة حسن الزى ، ولكن الأعجب من ذلك أنه كان فارساً مجاهداً يشهد الغزوات ويباشر القتال بنفسه ويُبْلى البلاء الحسن !

ونحن نعلم أن الأندلس شهدت فى عصر الكلاعى معارك بين المسلمين وبين الأسبان الذين كانوا يحاولون استرداد الأندلس من أيدى المسلمين ، حتى تم لهم ما أرادوا على حين غفلة من الأمة الإسلامية وتخاذل !

أما الكلاعى فقد كان يخرج مع المجاهدين وهو شيخ كبير ليقاتل

فى سبيل الله ، وكأنه لم يكفه أن يجاهد بلسانه وقلمه حتى أراد أن يقاتل أيضاً بسيفه ويحوز شرف الشهادة فى سبيل الله !

وقد تحقق له هذا الأمل فى آخر غزوة شهدها ، وكان فى سن السبعين ! وهى موقعة تسمى « أنيشة » إذ كانت على نحو سبعة أميال منها ، فلم يزل مقدّماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار مقبلا على العدوّ ينادى بالمنهزمين : أعن الجنة تفرّون ! حتى قُتل صابراً محتسباً ، غداة يوم الخميس لعشر بقين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ .

وقد كان يذكر دائماً أنه عمره ينتهى فى سن السبعين ، لرؤيا رآها فى صغره ، فكان كما قال . .

وأى نمط من الرجال كان الكلاعىّ . . ! !

وأية نفس تلك التى كان يحملها بين جنبيه ؟ !

هؤلاء هم العلماء حقاً ، وهؤلاء هم ورثة الأنبياء . .

وما أجمل ما رثاه عبد الله بن الأبّار فى قوله :

سلامٌ على الدنيا إذا لم يلُحْ بها ... محيّا سليمان بن موسى بن سالمِ
وهل فى حياتى متعةٌ بعد موته ... وقد أسلمَتْنى للدواهى الدواهمِ
يمانٍ كِلاَعىٌّ نماه إلى العلا ... تمامٌ حوَاه قبلَ عَقْد التمائمِ
أتاه رَدَاه مُقْبِلاً غير مُدْبرٍ ... ليحظَى بإقبالٍ من الله دائمِ
سقى الله أشلاءً بسفح أنيشةٍ ... سوافحُ تُزْجيها ثِقال الغمائمِ
وصلّى عليها أنفسًا طاب ذِكرها ... فطيَّب أنفاسَ الرياح النواسمِ
لقد صَبروا فيها كراما وصابَروا ... ولا غروَ أن فازوا بصفو المكارمِ
وما بذلوا إلا نفوساً نفيسةً ... تحنّ إلى الأخرى حنينَ الروائمِ

فوا أسفاً للدين أعضل داؤه وأيأسَ من آسٍ لمسراه حاسِم
ويا أسفاً للعِلم أقوت ربوعه وأصبحَ مهدودَ الذُّرى والدعائم
فأى بهاءٍ غارَ ليس بطالعٍ وأىّ سناءٍ غاب ليس بقادمِ !

رحمه الله !

كتبه :

يذكر المترجمون للكلاعى أسماء بعض كتبه، وأغلبها فى علوم الحديث الذى كان ميدان الكلاعى وشاغله فى عمره الطويل، فمن ذلك :

١ — مصباحَ الظُّلَم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . نحا به مَنحى الشهاب القُضاعى .

٢ — الأربعين حديثاً عن أربعين شيخاً ، لأربعين من الصحابة فى أربعين معنى . جزء مفيد .

٣ — السُّباعيات المخرجة من أحاديث أبى على الصدفى . ثلاثة أجزاء .

٤ — أحاديث المصافَحة . جزء .

٥ — جزء آخر فى مثل ذلك من حديث أبى بكر بن العربى .

٦ — حِلْية الأمالى فى الموافقات من العوالى ـ خرجها من حديثه فى أربعة أجزاء .

٧ — كتاب حافل السابقين وحلية الصادقين المصدَّقين فى ذكر الصحابة الأكرمين ومن فى عدادهم بإدراك العهد الكريم من أكابر التابعين ـ لم يكمله ـ ولو فرغ منه لكان ضِعف الاستيعاب لأبى عمر بن عبد البرّ .

٨ — الإعلام بأخبار البخارى الإمام ، ومن بلغت روايته عنه من الأغفال والأعلام .

٩ — المعْجَم فى من وافقت كنيته كنيةَ زوجه من الصحابة رضى الله عنهم . جزء كبير .

١٠ — تحيـة الروّاد وتحفة الورّاد فى العَوالى البدليّة الإسناد . فى أربعة أجزاء .

١١ — المسلسلات من الأحاديث والآثار والإنشادات . جزء كبير .

كما كان له كتب فى فنون الأدب منها :

١ — نـكتة الأمثال ونفثة السحر الحلال . بنى فيه الـكلام على التوشيح بما تضمنه كتاب أبى عبيد من أمثال العرب واضطرار العرب إليها . فى سِفر غير كبير .

٢ — الجهد النصيح وحظ المنيح من معارضة المعرى خطبة الفصيح . سِفر .

٣ — الامتثال لمثـال المبهج فى ابتداع الحـكم واختراع الأمثـال . جزء كبير .

٤ — نتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم . جزء .

٥ — مفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل على طريقة أبى العلاء المعرى فى ملْقى السبيل .

٦ — الصحف المنشّرة فى القطع المعشرة .

٧ — ديوان رسائله — سفر متوسط

٨ — ديوان شعره — سفر

٩ — جنَى الرطب فى سَنِيّ الخطب . جزء جمع فيه خطبه فى الجمع والأعياد وغير ذلك . وهى نحو من ثمانين خطبة .

وهذه الـكتب نقرأ أسماءها فى الـكتب التى تَرجمت له ولا ندرى ما فعل

بها الزمان ! فليس منها شيء مطبوع ولا نهتدى إلى مكانها بين المخطوطات ، وليت شعرى متى تصل أيدينا إلى تراثنا المفقود ، ومتى تتصل حلقات الفكر الإسلامى ويكتمل صرحه الذى بناه أئمتنا عبر القرون ؟ !

إننا نهيب بحماة التراث الإسلامى أن يبحثوا عن هذه الكنوز المفقودة فعلّها متوارية فى مكتبات الغرب ومتاحفه ، فإنها أمانة تركها لنا الأسلاف ولا بد أن نصونها لنُسلمها إلى الأخلاف .

هذا الكتاب :

وكتابنا الذى نقدمه اليوم للكلاعى هو نمط فريد من كتبه ، ذلك هو كتاب « الاكتفاء فى مغازى رسول الله ومغازى الثلاثة الخلفاء » فالكلاعى لم يكن مؤرخاً ولكنه انبعث إلى كتابة سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وذكر مغازيه بدافع دينى عميق يعبِّر عنه بقوله فى المقدمة : « وكل ذلك يشهد الله أن المراد فيه بالقصد الأول وجهه الكريم وإحسانه العميم ورحمته التى منها شق لنفسه أنه الرحمن الرحيم . ثم القصد الثانى متوفِّر على إيثار الرغبة فى إيناس الناس بأخبار نبيهم صلى الله عليه وسلم وعمارة خواطرهم بما يكون لهم فى العاجل والآجل أنفع وأسلم[1] » .

وعنده أن رواية أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الأشياء بعد كتاب الله : « فبالوقوف عليها تُوجد حلاوة الإسلام ويعرف كيف تمهدت السبل إلى دار السلام[2] » .

وإذا استوفى هذا الغرضَ وبلغ منه حاجة نفسه ، فإنه يتبعه بذكر مغازى

(١) الاكتفاء ص ٥ .
(٢) الاكتفاء ص ٦ .

الخلفاء الثلاثة الأول ، أبى بكر وعمر وعثمان ، فتنتظم الفائدتان معاً ويجتمع الخبر عن مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى خلفائه . .

فأين نضع هذا الكتاب بين كتب السيرة والمغازى . . ؟

إن ذلك يقتضينا أن نتفهم منهجه ونتبين مدى أصالته لندرك الجديد الذى قدّمه فى موضوعه .

لقد بدأ تدوين السِّيرة والمغازى منذ وقت مبكر ، وأول كتاب فى ذلك هو كتاب موسى بن عُقْبة المتوفى سنة ١٤١ ﻫ ثم كتاب محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ ﻫ الذى اختصره عبد الملك بن هشام . ومن بعد ذلك مغازى الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ ﻫ ، ثم طبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ ﻫ .

والكلاعى يصرح أنه فى كتابه هذا إنما يلخّص من كتب أئمة هذا الشأن الذين صرفوا إليه اعتناءهم واستنفدوا فيه آناءهم[١] ، وخاصة كتاب محمد بن إسحق وكتاب موسى بن عقبة .

ويذكر أن أعظم تعويله كان على كتاب ابن إسحق ، إذ قصد إلى تجريده من اللغات وكثير من الأنساب والأشعار ، وجرى على ترتيبه وتحرّى منزعه ، بحيث نجد كتابَ ابن إسحق مهذّباً فى خلال كتاب «الاكتفا» فإن الكلاعى رأى أن كتاب ابن إسحق قد تخلّله أشياء من غيرى المغازى تقدح عند الجمور فى إمتاعه ، فأراد أن لا يُبقى منه إلا الأخبار المجرّدة وخلاصة المغازى ، فنقص منه ليزيده كمالا .

وقد عوّض الكلاعى ما نقصه من كتاب ابن إسحق ، فيما نقله عن غيره من الكتب ، فقد اختار مواضع من كتاب موسى بن عقبة ، ونقل جُمَلاً

---

(١) الاكتفاء ص ٢ .

من كتاب « المبعث » للواقدى ، واختار نفائس من كتاب أبى عبد الله الزبير بن بكّار فى أنساب قريش ، ومن التاريخ الكبير لأبى بكر بن أبى خيثمة . . وأشياء من غيره هذه الكتب يتمم به الحديث أو يستكمل الفائدة .

تلك هى مصادر الكلاعى فى سيرته التى توضح قيمة عمله ، فقد أمكن الكلاعىّ الذى عاش فى القرن السابع أن ينظر فى إحاطة إلى ما خلّفه السابقون من تراث فى المغازى والسِّير وأن يتأنّى فى الاختيار والترتيب فيستكمل النقص ويجمع المزايا ، ويحفظ لنا جانباً من تراثنا عدا عليه الزمان .

وقد تجلّت ملكة الكلاعى فى التأليف وذوقه الرقيق فى الترتيب ، فى منهجه الذى التزمه فى العرض والتنسيق ، فهو لا يلتزم نسبة كل قول إلى صاحبه ولا ذكر كل مرجع فيما ينقله ، بل يوائم فى أغلب الأحيان بين الأقوال ليؤلف منها حديثاً متسقا وقصة مرتبة ما دامت تسير فى اتجاه واحد « ليكون المساق أبين والاتساق أحسن[1] » .

وهو لا يتدخل برأيه إلا عندما تختلف الآراء ليفصل بينها ويرفع الإشكال عنها . .

وربما فصل بين بعض الأحاديث المتشابهة لضرورة موضعها أو حلاوة موقعها . . حسب ما تهدى إليه حاسته الجمالية .

ذلك فى سيرة رسول الله ومغازيه . . .

أما مغازى الخلفاء الثلاثة الأُول ، أبى بكر وعمر وعثمان ، فإن الكلاعى يصرح أنه اعتمد فيها على كتاب شيخه الخطيب أبى القاسم بن حُبَيْش وعلى غيره مما يشابهه .. ولم يورد شيئاً عن الخليفة الرابع على بن أبى طالب لأنه شغل بمقاومة الفتن ومجابهة المتمردين عن الفتوح والغزو .

---

(١) الاكتفا ص ٥ .

وبهذا نرى فى كتاب الكلاعى مزيتين واضحتين ، تجعلان له أصالة فى موضوعه الذى يَعْرِض له :

الأولى : الجمع والإحاطة وحسن النظر فيما سلف من تراث ، والنقل عن كتب لم تصل إلى أيدينا ، كمغازى موسى بن عقبة والتاريخ الكبير لابن أبى خيثمة والمبعث للواقدى .

وبهذا حفظ لنا « الاكتفاء » جانباً هاماً من تراثنا وأغنانا عن النظر فيما سواه من كتب المغازى والسِّيَر .

الثانى : أنه جمع بين مغازى رسول الله صلوات الله عليه ومغازى خلفائه الثلاثة الأول ، وهم الذين تمت أعظم الفتوحات الإسلامية فى عصرهم الزاهر ، فى كتاب واحد ، بحيث نرى امتداد جهاد الرسول الكريم فى جهاد خلفائه وأصحابه ، فنتمثل حركة المدّ الإسلامى على حقيقتها ، ولا نقطع حلقات هى فى حقيقتها متصلة متلاحمة .

وكتاب « الاكتفاء » بهذا الاعتبار عمل جديد بين كتب المغازى تتضح فيه حاسة دقيقة فى الترتيب ويشده نظام واحد ، فهو ليس نَقْلا أو حشداً للأخبار ، بل هو بناء جديد كان لابد منه لتتم مرحلة النضج فى كتب المغازى وتكتمل حلقاتها ، فى هذه الصورة الجميلة التى أرادها الكلاعىّ لكتابه ، الذى تجنب فيه الإسناد والتكرار والحشو وبالغ فى الدقة والإحاطة .

وهذه الميزة هى التى جعلتنى أرى فى نشر هذا الكتاب عملاً ضرورياً وواجباً نحو تراثنا وعَصْرنا على السواء . .

أصول الكتاب :

اعتمدت فى إخراج هذا الكتاب على أربع نسخ خطية :

١ — نسخة فى مكتبة طلعت بدار الكتب المصرية تحمل رقم ٢٠٧٤

تاريخ فى مجلد واحد وهى أقدم النسخ وأوثقها ، إذ كتبت فى سنة ٨٦٢ هـ وعدد أوراقها ٢٢٤ ورقة ، فى كل صفحة ٤١ سطراً ، وقد كتبت بخط مشرقى دقيق ، وعلى هوامشها مراجعات ، وجاء بآخرها :

« تم كتاب الاكتفا من مغازى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى الثلاثة الخلفا رضى الله عنهم وحشرنا معهم ، وربنا المحمود لا إله غيره ولا مرجوّ إلا بركته وخيره ، برسم الفقير إلى الله تعالى جمال الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن السابق الحنفى الحموى ، لطف الله تعالى به على يد الفقير لعفو ربه القدير محمد بن خليل بن إبراهيم الحنفى ، عامله الله بلطفه الخفى . وفرغ من كتابته فى اليوم المبارك نهار الأربعاء السادس من صفر سنة ستين وثمانمائة أحسن الله عاقبتها . آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم »

وقد قوبلت هذه النسخة فى تسعة وثلاثين مجلسا بمكة المكرمة ، آخرها يوم الخميس سابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثمانمائة . كما جاء فى آخرها بعد ذلك عدة مقابلات وتمليكات .

٢ — نسخة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية فى مجلد واحد ، تحمل رقم ١٥٥٧ تاريخ ، وقد كتبت سنة ١٠٨٩ هـ ، وعدد أوراقها ٣٨٠ وفى كل صفحة ٣٣ سطراً ، وهى أيضاً بخط مشرقى ، وإليها الإشارة بحرف (ت)

٣ — نسخة بدار الكتب المصرية فى جزء واحد تحمل رقم ٢٦٥٣ تاريخ ، فى مجلد واحد ، فى ٣٠٨ صفحة فى كل صفحة ٣٥ سطراً وقد كتبت بخط مغربى وفى آخرها ما يفيد أنها كتبت سنة إحدى وسبعين ومائة وألف . وإليها الإشارة بحرف (ا)

٤ — نسخة بدار الكتب المصرية فى أربعة مجلدات متوسطة ، تحمل رقم ٥٠٣٦ ، تاريخ ، وهى غير كاملة ، إذ وقفت عند كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى كسرى .

وفى الجزء الثانى منها ما يفيد أنها كتبت سنة ثمانية وعشرين وألف من الهجرة ، وقد كتبت بخط مغربى كبير . وإليها الإشارة بحرف (ب)

هذا وقد طُبع من هذا الكتاب جزء يسير فى الجزائر سنة ١٩٣١ م بإشراف الأستاذ هنرى ماسة الأستاذ بكلية الآداب بالجزائر ، وهو ملىء بالتحريف والتصحيف ، وقد أشرت إلى كثير من أخطائه فى هذا الجزء ، ثم أمسكت عن ذلك حين رأيت الخطأ يشيع فيه واكتفيت بالإشارة إلى ذلك ، ويبدو أنه طبع على نسخة شائهة .

وقد ورد اسم الكتاب فى مقدمة المؤلف : « الاكتفا بما تضمنه من مغازى رسول الله ومغازى الثلاثة الخلفا » ولكنى اخترت الاسم الذى ورد فى أكثر مراجع ترجمة الكلاعى : « الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء » لإيجازه ووضوحه .

منهج التحقيق :

كان لا بد من مقابلة هذه النسخ الخطية الأربع ، وقد جعلت من نسخة طلعت النسخة الأمّ لقِدمها ودقتها ، وأشرت إلى أهم الفروق بين هذه النسخ ، وأغفلت الإشارة إلى الفروق التى تنشأ عن التحريف وأخطاء الكتابة إذ ليس لها وزن علمى .

وفى هذا الجزء الذى أقدمه اليوم يجد القارئُ كثرة الفروق بين الكلاعى وبين ابن هشام ، وقد التزمت الإشارة إلى هذه الفروق فى المواضع التى يتضح فيها منهج الكلاعى فى الإيراد أو التى تقوِّم من سيرة ابن هشام التى بأيدينا ، فلعل نسخة الكلاعى منها كانت أصح وأوثق ، أما الأجزاء الباقية فإن هذه المقابلات ستقلّ ، لتَخلُفها مقابلات بين الكلاعىّ وبين المصادر الباقية التى ينقل عنها . .

أما الشرح والتعليق فإنى أسير فيه على الخطة التى أرتضيها ، وهى أن يكون ذلك فى مواضع الضرورة التى يحتاج إليها فهم النص أو وضوحه ، بحيث تعين القارئ على حسن الاستفادة منه ، حتى لا نزحم النص بشرح يقترب من الحواشى التى طالما نعّينا عليها . أما التخريج فلا أشير إليه إلا فى مواضع الخلاف،وقد يسّر الكلاعى الأمر لقارئه فدلّه على مصادر كتابه التى أشرنا إليها قبل ، فهذه هى المصادر المحدودة التى رجع إليها ، وما بقى منها عدد قليل .

وأرجو أن أستكمل فى الأجزاء الباقية جوانب الجهد الممكن فى إخراج هذا الكتاب ، ليكون دعوةً إلى البحث عن آثار مؤلفه واستنقاذها من يد الفناء ونحن أحوج ما نكون إلى ما فيها من السنا والضياء . .

ولا أملك هنا إلا شكر الأستاذ العالم الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، فقد كان لرغبته الحّ فى إخراج هذا الكتاب أثر قوى فى اتجاهى إليه وبحثى عن أصوله ، حتى وفقنى الله إلى البدء فيه منذ خمس سنين ، ثم قامت فى سبيله الصعاب ، حتى أراد الله له أن يَخْرج فى هذه الأيام الحاسمة فى تاريخ الأمة الإسلامية ليكون حافزاً للجهاد ومذكّراً بأمجاد الآباء والأجداد . .

وبعد . .

فلله الحمد فى الأولى والآخرة ، منه نستلهم العون والهداية ، نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة فى { شوال سنة ١٣٨٧
يناير سنة ١٩٦٨ }

مصطفى عبد الواحد

فهرس الموضوعات